هـــــذا العـــــدد

لقد افردنا هذا العدد الخاص من مجلة « الأصالة » لمدينة بجاية بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للفكر الاسلامى بها ، ونظرا لدورها الهام فى تاريخ الجزائر السياسى، والثقافى، والحضارى. ودعونا للمساهمة فيه عددا من المؤرخين والمفكرين من الجزائر ومن الاقطار العربية الاخرى •

ويلمس القارىء بعد اطلاعه على مختلف ابحاث ودراسات هذا العدد ذلك الدور الهام الذى قامت به الجزائر فى بناء مجد الحضارة العربية الاسلامية الى جانب المراكز الحضارية الاخرى فى العالم العربى الاسلامى. وأنها ، من خلال ما انجبت من علماء ومفكرين فى شتى ضروب المعرفة السائدة آنذاك ، وما انطلق منها من حركات سياسية، وفكرية، ودينية كانت احد مصادر الاشعاع والالهام للفكر والحضارة الاسلامية فى كامل العالم الاسلامى •

ومجلة « الأصالة » الحريصة على طرح قضايانا المصيرية بروح بناءة لا تكتفى ـ فى نطاق هذه الجهود المبذولة لاعادة النظر فيما كتب عن تاريخنا ومراجعته ، وتفسيره من جديد وازالة جميع ماالصق به من تشويه ومسخ ـ بالدفاع المطلق عن هذا التاريخ ،وانما ترى ضرورة ممارسة ما يسمى بالنقد الذاتى لازالة ما فيه من عناصر سلبية •

واخيرا ننوه بجهود جميع الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعوة « الاصالة » وساهموا فى هذا العدد مساهمة هامة ومشرفة •

عثمان شبوب

ميزات بجاية وأهمية دورها

في مسيرة [redacted]

لقبال موسى
كلية الآداب – جامعة الجزائر

لقديتساءل البعض عن السرفي استمرار « البقاء » لاســم بجاية ، واختفاء اسمي صلداى ، والناصرية ؟ ويبدو للنظرة الاولى أن ذلك ربمــا يرجع الى أن اسم بجاية الصق بالبيئة المحلية ، وأكثر اتساقا ، أو تعبيرا عن المحتوى البشرى ، لقطاع هام من وطننا الفسيح الارجاء ، بخلاف مركز « صلداى الفنيقى » ، واسم الناصرية الحمادى • فالاول ارتبط لفترة ، بطيف هجرة اجنبية ، استقر بعض رجالها فى نقطة ما من ساحل بلادنا ، للراحة ، وللاتصال . والثانى وهو اسم الناصرية ، اختفى الا من بطون الكتب ، لانه ارتبط مؤقتا بذكرى شخصية ، واريد منه التعبير للاجيال عن مجد البانى ، اي لم يكن للسكان اى دخل فى هذه التسمية الاخيرة كما لم يكن لهم أى دور فى التسمية الاولى ايضا •

وهكذا نستنتج بأن كل ما يرتبط بذكرى «الشعب» كله أو بعضــه يدوم ويستمر ، دوام الشعب وتجدده ، وما يراد به تخليد شيء آخر سرعان ما يمحى من ذاكرة الاجيال • أما لماذا كان اسم بجاية اقرب من غيره الى ضمير الشعب ؟فلانه يذكر بفرع هام هو فرع بجاية الذى ينتمى الى قبيلة عتيدة ، بل الى حلف كبير ذلك هو حلف صنهاجة الشمال ، وهم سكــان قطاعات هامة من المغرب الاوسط فى العصــور الوسطى فبجايــة اذن – مجموعة صغيرة من حلف صنهاجة الكبير ، كان افرادها يضربون فى المناطق الجبلية غرب وادى الصومام وحول مرسى صخرى قديم ، عــرف بمرسى بجاية وبذلك ورد عند ابن حوقل وهو من رحالة وجغرافى القــرن الرابع الهجرى • ولم تستطع الاحداث المتوالية أن تمحوه على الالسنة أو من ذاكرة التاريخ وبطون الاسفار ، رغم أن الناس انصرفوا لفترة ما عن اسم بجاية ، بتأثير الحاكم الى استعمال اسم الناصرية والى التغنى به •

ومن مجموعة «بجاية» بنو ورياكل (ورياجل) - وكانت مضاربهم حول ناحية قرية تعرف «ملالة» التي وردت باعتبارها قرية عند بعض رحالة القرن السابع الهجري (13 م) -

وأهمية ملالة لا تبدو فقط في قيمة من انتسب اليها من العلماء ، وانما أيضا في أهمية الاحداث والمعاني التي تذكرنا بها ، ومنها : اتصال عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي بمحمد ابن تومرت وما ترتب على ذلك من نتائج في مقدمتها ميلاد تيار الوحدة المغربية الشاملة في المجال السياسي وتيار الوحدانية والرجوع الى الاصول والنضال لاقرار الفضيلة والعدل والمعروف في المجالين الديني والاجتماعي - وتذكرنا ملالة أيضا بمبدأي كرم الضيافة وحماية اللاجيء والمستجير اللذين امتاز بهما سكان هذه الناحية وبقية سكان بلادنا مما هو ملحوظ حتى يوم الناس هذا اتجاه زعماء الحركات التحررية وأصحاب المبادىء الشريفة - وذلك لان هذه القرية نزل بها لاول مرة مهدي الموحدين ـ محمد بن تومرت أو امغار ـ بعد عودته من المشرق العربي فكان محل تكريم واجلال من فريق بني ورياكل ، الذين حموه من بطش السلطان الحمادي العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الذي بلغه بأن هذا النزيل الغريب يحتسب على الناس ويباشر تغيير المنكر جهارا ، ويعزز المخالفين أمام الملا ، دون خوف أو تردد" ـ ومن بني ورياكل ، يوجد فريق في غير مجال ملاله ـ من أرض المغرب العربي الكبير -

ويظهر أيضا ، أن رهطا من فرع بجاية هاجروا الى افريقية (تونس) ، لاننا نلاحظ حتى الآن بقاء اسم بجاوة في شمال تونس ، وانتساب كثير من النبهاء اليها في عصرنا ، والنسبة اليها كالنسبة الى بجاية الجزائر ، فان صحت نسبة بجاوة تونس الى بجاية الام في المغرب الاوسط ، تكن هي واسم المدينة الحالية ، آخر ما بقي من آثار هذا الفرع الصنهاجي الهام - ومما ينبغي التذكير به في هذا المجال استمرار تيار الهجرة الداخلية ، بين مجالات المغرب العربي الكبير التي كانت تدفع اليها اما عوامل داخلية ، سياسية واقتصادية ، ومذهبية ، أو عوامل خارجية في مقدمتها : ضغط الهجرات الخارجية التي انطلقت تباعا من المشرق منذ ما قبل الاسلام واستمرت قوية مؤثرة بعد انتشار الحركة الاسلامية -

ولبجاية المدينة ـ رغم انها في مجال صنهاجة أهمية أخرى من حيث انها لا تعتبر مهدالها وحدها لان ابن خلدون يجعلها حدا غربيا لمجال قبيلة أخرى عتيدة هي قبيلة كتامة ، كما انها على هامش مجال فرع عتيد من هذه القبيلة الكبيرة ، وهو فرع زواوة - أي أن بجاية كانت نقطة التكامل وتجمع قبائل صنهاجة وكتامة وزواوة في العصور الوسطى -

وللجغرافيين العرب والمسلمين الحق عندما جعلوا بجاية النهاية الغربية لمصطلح اداري قديم استخدمه العرب المسلمون بعد فتح بلاد المغرب - ذلك هو مصطلح ـ افريقية ـ فكانتها في هذه الناحية

وفى فترة ما باعتبار عدم دخولها فى مدلول افريقية ، اشبه بوضع بغداد بالنسبة لمصطلحى المغرب والمشرق الاسلاميين فى عرف بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، لان بغداد دار السلطان ومقر الخليفة كانت قلب العالم الاسلامى ، ولذلك لم تنتسب الى المغرب ولا الى المشرق من الناحية الادارية ٠

وكذلك غدت بجاية بعد تمصيرها سنة 460 هـ / 1067 ـ 1068 م ٠ على يد الناصر بن علناس وباشارة محمد بن البلبع ، رسول تميم بن المعز اليه ، دار السلطان الحمادى بل عين الدولة ، وقاعدة المغرب الاوسط ، ام اقطاره وعاصمة امصاره ، على حد تعبير بعض المؤرخين ٠

ان اشارة محمد بن البلبع ـ بتشييد المدينة فى موقعها الحالى ، تحتاج الى وقفة قصيرة ، ذلك لأن من اهم مميزات هذا الموقع ، التفتح على التيارات الخارجية ، السياسية والاقتصادية ، والثقافية والاجتماعية ٠ ثم الحصانة الطبيعية بسبب وجود المرتفعات ، ومن هذه المرتفعات جبل امسيون (مسيون) الذى وصف بانه صعب المرتقى ، وبأن فى اكنافه جملا من النبات المنتفع به فى صناعة الطب ٠ وهذه اشارة لطيفة تحتاج الى عناية بعض اطبائنا والمهتمين بصناعة الادوية فى بلادنا ٠ اما نهر الصومام ـ ويعتبر عامل وصل وفصل معا ٠ فقد لعب دورا هاما فى الملاحة ، اى فى ربط الصلات بين من يوجدون فى مجال المدينة ، وبين من هم بعيدون عنها فى مجال جرجرة بافقها البديع وفى نفس الوقت فصل بين السكان هنا وهناك باعتباره حاجزا مائيا طبيعيا ٠

والميزة الاخرى لموقع المدينة ، هى التوسط النسبى ، بين مدن وامصار افريقية والمغرب الادنى وهذه الميزة لم تخف على بعض الجغرافيين المسلمين الذين لا حظوا بأن المدينة « قطب لكثير من البلاد » وركزوا على المسافات القصيرة التى تفصلها عن هذه المدن والحواضر الكبرى فى افريقية والمغرب الادنى ٠

اما اهمية تمصير المدينة فى حد ذاته ، وبالنسبة للدولة الحمادية ، فتبدو فى ميزة الاتصال المباشر بمراكز الثقافة والاقتصاد والحضارة فى الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط ٠ وهى الميزة التى لم تتوفر للدولة من قبل ، عندما كانت القلعة عاصمة وحيدة لها ، ولهذا السبب وصفت بجاية منذ العصر الوسيط ، بأنها ساحل قلعة ابى طويل (وهى التى عرفت بقلعة بنى حماد) ٠ أى منفذ لهاعلى البحر المتوسط ٠

وهنا لا بد أن نشير الى ظاهرة تعرض للبشر كما تعرض للمدن والدول ، وهى أن ميلاد بجاية كحاضرة وكقاعدة سياسية كان يعنى تدريجيا بداية تضاؤل اهمية القلعة فى المجال السياسى ، ومعنى ذلك أن بجاية استفادت من التطورات الجديدة التى صيرت منها مركزا رئيسيا

للسياسة وللسطان وللنشاط المتعدد الجوانب فتصدرت الاحداث بينما انحسر نفوذ القلعة ، فتخلت الى الابد ، عن دورها السياسى وقنعت بدور العاصمة (الروحية والثقافية والتاريخية للمغـــرب الاوسط فى عصر الحماديين) ٠

وهذا الوضع الذى صارت اليه القلعة بعـد تمصير بجاية طبيعى ، اذ يوجد نظيره عـــبر تاريخ المغرب والمشرق الاسلاميين فى العصور الوسطى ، ومن هذا القبيل ما صار اليه وضـــع قسنطينة وتلمسان بالنسبة لجزائرنا ، وفاس ومراكش بالنسبة لرباط الفتح ، والقيروان والمهدية بالنسبة لتونس ، والفسطاط والاسكندرية ، بالنسبة للقاهرة ـ والكوفة والانبار والهاشمية بالنسبة لبغداد ٠

واذا اخذنا بما ورد فى مسالك البكرى ـ نقلا عن مصدره الرئيسى وهو شيخه محمد بـــن يوسف الوراق يكون سكان منطقة بجاية فى عهد الاخير خاصة ـ وهم من قبيلة كتامة واحلافها شيعة اسماعيلية ٠ اثر عنهم حسب رواية ابن الوراق ، انهم كانوا يبالغون فى الاحتفاء بكل مـــن تمذهب بمذهبهم أو تجاوب مع وجهة نظرهم ٠

والاقرب الى الصواب ، الا تفهم اشارة البكرى على اساس انها صادقـــة على عصـــره (ق 5 هـ / II م) ، لان عصره يوافق سيادة السنة ، وعودة المغربين الادنى والاوسط الى حظيرة مذهب الجماعة ٠ كذلك فالملاحظ أن استمرار حركة انفصال الحمادين عـــن أقاربهم الزيرين ، لا ينبغى أن تفسر فقط على اساس انها حركة سياسية أو صراع شخصى أو أسرى بل هى أيضا حركة مذهبية اى ثورة ضد المذهب الشيعى ، سبقت بزمن طويل ثورة المعز بن باديس ، التى رفعت شعارى التسنن واضطهاد المتشيعين ٠

وبجاية المدينة ، فضلا عن كونها احتلت لفترة طويلة مركزا سياسيا خطيرا باعتبارها عاصمة لدولة الحمادين ، ثم حاضرة كبرى تاتى فى المرتبة الثالثة بعد تونس وقسنطينة ، فى عهـــــد الحفصيين ،حبتها الطبيعة بأفق فسيح ، كانت تستغل أراضيه وسهوله استغلالا جيدا فى الانتاج الزراعى وكان يصدر منه الفواكه والتين الى آفاق بعيدة فى أفريقية والمغرب العربى ـ والتين من بين المنتجات هى الثمرة الطيبة ، وهبة الطبيعـــة السخية التى اريد لها أن تبقى اكلا شهيا وتحفة متجددة على طول الدهر ـ وكان حظ بجاية فى الميدانين التجارى والصناعى كبيرا ، فكانت تختلف اليها المتاجر برا وبحرا وياتيها التجار من مختلف الافاق ، « والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع اليها نافقة » اما فى الميدان الصناعى فكانت كذلك مركزا صناعيا هاما باعتبار ما حفلت به من صناعات مختلفة وصناع مهرة ٠

وقد ساعد على هذا النشاط الجم فى التجارة والصناعة ماضى المدينة العريق ، ووفرة خيراتها وموادها الاولية ، ثم اخلاق سكانها ، وكانت تتسع لجميع من يختارها موطنا او مركزا لنشاطه البناء لا غرابة فقد عبر الشريف الادريسى عن هذه الظاهرة بقوله : « واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق » · وهى ملاحظة جديرة بالتصديق ·

وكان لا بد لهذا النشاط الجم ان تنعكس آثاره الحسنة على السكان ، وعلى «مجتمع المدينة» ومن ثم لاحظ الشريف الادريسى نفسه بأن اهلها «مياسير وتجار» ·

ومن هذا القبيل ، ما لا حظه البكرى عن سمت مرسى بجاية فى مواجهة ارض الاندلس ، لان اثر ذلك ظهر فى نشاط حركة التجارة ، والاتصال الفكرى والهجرى بين البلدين ، فلقد استقرت فى بجاية جالية اندلسية كبيرة ، ضمنها التجار والصناع ، والعلماء ، والطلاب ، ومع هذه الجالية المهاجرة ، انتقلت تيارات فكرية اندلسية الى بجاية ، كان لها تاثيرها الذى نلحظ مظهره فى الرقة والجمال ، وسمو الذوق ، والحس الحضارى الذى يمتاز بها سكان المدينة ·

وقد احتضنت بجاية منذ عصر الحماديين دارا من اهم دور صناعة وتعمير السفن التجارية والحربية · وقد ساعدها على ذلك : وفرة المواد الاولية لبناء السفن ، ومنها الاخشاب والزفت الجيد والقطران ، والحديد ، والجبص ، والاخير يوجد بصفة خاصة فى احدى القرى القريبة منها وهى متوسة ·

وتفرد صاحب الاستبصار برواية ان بجاية آوت فى العصر الموحدى مركزين لبناء وتعمير السفن مما يشير الى اهتمام السلطة ، والسكان بسياسة تمتين خطوط الدفاع والهجوم ثم الى الرغبة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ·

ودار صناعة السفن فى بجاية يبدو انها كانت فى وضع الصدارة بالنسبة للمركزين الآخرين الموجودين على ساحلنا الشرقى ، وهما : مرسى الخرز (القالة) وبونه (بلد العناب) · وفى الوقت الذى كان فيه اسطول المغرب الاوسط فى بجاية منذ عصر الحماديين ، درعا وقى المدينة من شر الغارات المدمرة ، وربطها بمراكز التجارة والصناعة والحضارة فى العصور الوسطى ، اى تحقق بفضل نشاطه الغرض الاقتصادى والغرض الحربى ايضا ـ عانى سكان مدن ومراسى مجاورة وبعيدة وهى مرسى القل ، ومرسى جيجل ، ومرسى الدجاج (بين مستغانم وارزيو) من غارات النورمان المخربة منذ القرن الخامس الهجرى II م حتى انهم كانوا يضطرون احيانا خاصة فى فصلي الربيع والصيف ، لمغادرة مدنهم خوفا من الغارات المفاجئة والمستمرة ، فى هذين الفصلين اللذين يعظم فيهما نشاط الاسطول النورمانى فى عرض البحر ·

واشباع روح المغامرة ، وارضاء النزعة الصليبية ، والرغبة فى السلب والنهب وفى تاديب الحماديين والزيريين بسبب تعاطفهم مع أخوانهم مسلمى صقلية ، ثم ملاحقة من استقر من هؤلاء الاخيرين فى المدن الساحلية هذا مع وجود نقط ضعف فى سياسة الدفاع بسبب طول الساحل كل هذه تعبر عن الاسباب الحقيقية للغارات النورمانية ٠

وما قام به النورمان من نشاط ، مثله الاسبان والبرتغاليون ، ضد مسلمى الاندلس والمغرب العربى منذ بداية حركة (الركونكستا) الى ما بعد سقوط غرناطة ، كما نقله الاوروبيون الغربيون الى بلاد الشام ومصر ، فيما يسمى بالحركة الصليبية ، حيث كان القرن الخامس الهجرى 11 م عصر الحرب الصليبية الشاملة ضد العرب والمسلمين فى المغرب وفى المشــرق ٠

وقد تنبــه لهذه الحقيقة ، وربط النشاط الصليبى ضد المسلمين فى بلاد المغـرب والمشـرق المؤرخ ابن الاثير الذى ضمن حوادث سنة 491 هـ / 1097 ـ 1098 م ٠ قوله الهـــام « وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج ، واستبداد أمرهم وخروجهم الى الاسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها سنة 478 هـ فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس ثم قصدوا سنة 484 هـ جزيرة صقلية وملكوها ٠٠٠ وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره ٠٠٠ فلما كانـت سنة 490 هـ خرجوا الى بلاد الشام ٠٠٠

ومن يتأمل جيداً ما تضمنته نصوص البكرى بصدد نشاط المجاهدين البحريين من مراكزهم فى كل من بونه ومرسى الخرز ، وما قاله الادريسى بصدد دار صناعة السفن فى بجاية ، ترتسـم أمامه صورة عصر ازدهار البحرية الجزائرية ، ثم معالم وأسباب الحـــــرب الصليبية التى كان يشنها النورمان وسكان جزر الحوض الغربى مـن البحر المتوسط ضـــد سواحلنا ٠ بيد أن هذه الصورة تتغير بعد منتصف القرن السابع الهجرى 13 م أى بعد تفكك امبراطورية الموحدين وعودة ظاهرة التجزئة عاملا مسيطرا على الحياة السياسية فى بلاد المغرب العـــربى ٠ وقد عبر عـــن ظاهرة التغير ، من عصر القوة الى عصر التدهور والانحلال وضعف الدفاع الرحالة العبدرى فى قوله بعد ما شاهده من حيرة سكان مدينة بونة ازاء قلة من القراصنة فرضوا ارادتهم وشروطهم من زورقهم الصغير على سكان المدينة ونص ما قاله « ثم وصلنا الى مدينة بونة فوجدناها بـــلدة لطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط لكنها بزحف النوائـــب مطوية مخبونة ، ومن أغـــرب المسموعات أننا صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا ، وقـــد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر أشخاصا فامسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين فى فدائهم » ٠

واستمرار التدهور ، وتكرر عمليات التحرش بالسواحل المغربية والتحدى لمشاعر سكانها من طرف قراصنة البحر الاروبيين فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة هما اللذان ساعدا على ظهور قوة جديدة فى الميدان المغربى هى قوة المجاهدين البحريين التى كانت مقدمة لامتداد نفوذ الاتراك العثمانيين فى الاجزاء الشرقية والوسطى من المغرب العربى الكبير ·

اما الحقيقة التى نريد أن ننهى بها هذه الملاحظات عن اهمية مدينة بجاية فهى ان تاريخها كمركز لصنهاجة او بالاحرى تاريخ صنهاجة فيها قد خص بالتاليف من طـــرف ابن حماد فى : «الدرة» كما خص علماؤها واعيانها فى القرنين السادس والسابع بالتاليف من طرف القاضى ابى العباس الغبرينى فى : «عنوان الدراية» ، وحظيت كحاضرة هامة فى المغرب الاوسط بوصف بديع فى مسالك ابن حوقل والبكرى ، وفى نزهـة المشتاق للادريسى ، وفى الرحلـــة المغـربية للعبدرى ، وكلام الاخير عنها يلفت النظر بسبب منهجه الخاص الذى أملى عليه تسليط الاضـــواء على العيوب وتجريد المدن التى مر بها من كـــل ميزات حسنة كانت لها قبل عصره وفى روايـــة سابقة · ولقد حفلت المصادر التاريخية بالعديد من العلماء والنبهاء الذين ولدوا فيها أو انجبتهم بيئتها الثقافية ، اغلبهم عرف بلقب الزواوى واقلهم عرف بلقب البجائى ·

ويهمنا من بين هؤلاء وأولئك : اثنان : أحدهما من مواليد المدينة وثانيهما ، ارتبطت حياته الوظيفية والعلمية بها ، وان لم يكن من مواليدها · فاما الاول فهو ابو الحسن على بن أبى نصر فتح بن عبد الله البجائى الذى ولد ببجاية سنة 506 هـ 1112 ـ 1113 م ونشأ بها · فلما أصبح على درجة كبيرة من الادراك ، التزم جانب الحياة الروحية الخالصة ، فعاش زاهدا منقطعا عن مشاكل المادة ، منصرفا الى العبادة والى التدريس ·

وميزته الكبرى انه يعتبر ثمرة طيبة امتزجت فيها الاتجاهات الفكرية فى المغرب والاندلس بتلك التيارات التى كانت سائدة فى بعض حواضر المشرق العربى فكان لابى الحسن البجائى فى مصر وحدها شيخان روى عنهما واستفاد من خبرتهما وهما : أبو محمد عبد الواحد بن اسماعيل ابن طاهر الدمياطى ، ثم أبو القاسم الحسن بن عبد الســـلام الذى اجتمع به وأخذ عنه فى ثغر الاسكندرية ، وفى بيت المقدس ، أجتمع بابن جبير البلنسى وروى عنه ، ومع هؤلاء وغيرهم من العلماء والنبهاء كانت لابى الحسن البجائى مجالس علمية ارتبطت بذكريات حسنة حفظها ورواها عنه طلاب العلم والمعرفة فى حاضرة بجاية ·

اما ثانيهما : فهو أبو العباس الغبرينى الذى تبدو اهميته فى انه يعتبر حجة علماء المدينة ومخلد آثارهم أو «شاهد عصرهم» كما يقال الآن·

لا غرابة فقد وصفه ابن خلدون بكبير بجاية ، وقاضيها ، وصاحب شوراها ، وهو وصف لم يظفر به غيره من بين علماء المدينة ونبهائها ونكتفى من حياته العامة التى لها علاقة ببجاية بما جرى بينه وبين معاصره ابى محمد عبد الله بن الديم قاضى قسنطينة ، لان ذلك يؤيد قيمته الخاصة ، وطموحه فى أن يظفر قضاء بجاية ومركزها بمكانة سامية لا تقل عن قضاء حاضرة قسنطينة ومركزها ٠

وصورة ما جرى بين الرجلين : ابى العباس ، وابى محمد ، أن الاخير ـ ظهر منه فى مناسبة خاصة بحضرة الامير الحفصى ابى زكرياء يحيى ما يشير الى شعور بالتفوق والامتياز على معاصره الغبرينى قاضى بجاية ، بحكم أهمية مركز قسنطينة ، مقر الامير ، اذ لم يفسح ابن الديم المجلس لقاضى بجاية حتى يجلس بجانب الامير ، ونافسه فى ذلك مع انه ضيف حتى بدأ التأثر على الغبرينى وواجه ابن الديم بقوله « ان أهلكم لا يقدروننى » فلم يتراجع ابن الديم عن موقفه بل أجاب على الفور « ان قضاة بجاية محدثون » والهدف من وراء ذلك اشعار الغبرينى ، بانه أقل أهمية منه لان بجاية فى ذلك الوقت كانت تابعة سياسيا وقضاء لحاضرة قسنطينة مقر السياسة والسلطان ٠

والخلاصة :

ان مدينة بجاية وهى تعيش اليوم حاضرا مشرقا بالصناعة والتجارة والطاقة والمنشآت العمرانية يمكنها أن تحول من حاضرها فى الميدان الثقافى ايضا فتجعله امتدادا لماضيها الحضارى الاصيل : قلعة حصينة للدفاع ، ومركز اشعاع للتأثير ، ومهد دراسات عربية اسلامية سليمة ، ونقطة جذب وتجمع للتيارات الفكرية ، وللمفكرين والعلماء والنبهاء ٠ وأحسب أن اختيارها لعقد مؤتمر الفكر الاسلامى ، عودة ذات مغزى ولفتة ذات ايحاء ، وتشريف لماضى يستحق كل التشريف ، وتكليف لحاضر نريده مشرقا بالمعرفة ملتزما بالاصالة ٠

بعض مصادر مراجع البحث

- ابن حوقل صورة الارض .
- البكرى المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب
- الادريسى وصف افريقية الشمالية والصحراوية (قطعة من نزهة المشتاق)
(لمجهول) الاستبصار فى عجائب الامصار
- العبدرى الرحلة المغربية
- ياقوت معجم البلدان
- البيدق أخبار المهدى بن تومرت
- ابن الاثير الكامل فى التاريخ
- الغبريني عنوان الدراية
- ابن خلدون العبر
- ابن غلبون التذكار
- ابن الانبيرى علاج السفينة فى بحر قسنطينة (خ · خ)
- دائرة المعارف الاسلامية
- لقبال الحسبة المذهبية
- عبد الوهاب بن منصور قبائل المغرب
- لمجهول مفاخر البربر
- الاصالة مقال ابن حماد الصنهاجي - جلول بدوى -

دور بجاية في الحضارة

د. ابراهيم حركات
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس
المغرب

لم يكن تأسيس مدينة بجاية مجـرد مصادفة تاريخية ، فيكاد البحث المستمر وتتبع تاريخ معظم المدن الرئيسية في العالم يقودنا الى أن مكـان هذه المدن كانت توجد مراكز سابقة حملت نفس الاسم أو تعددت أسماؤها واشكالها ومحتواها مع تعاقب الأيام وتوالي الاحداث · فلا عجب والحالة هذه أن تجد أن بجاية الحمادية انشئت مكان مدينة Saldae الرومانية · ومكة المكرمة انشئت حيث كانت مضارب جرهم ، والقاهرة امتداد للفسطاط التي شادها عمرو بن العاص وطنجة كانت قبل الاستيطان الفينيقي مجموعة مداشر يقطنها سكان محليون والامثلة اكثر من أن تحصـــر ·

واذا كانت بجاية قد عرفت في القرون الوسطى كميناء رئيسي بالمغرب الاوســـط وكمركز اقتصادي ذي أهمية كبيرة في ميدان التبادل مع دول البحر المتوسط ، فهي أيضا مركز ثقافي لامع شهد نشاطا واسعا في عصر بني حماد وبني مرين وغيرهم ·

ولعل أحد أوائل من كتبوا عن بجاية ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الذي عاصر مولد بجاية ومرحلة اولية من مراحل ازدهارها قال :

« مدينة بجاية أزلية عامرة بأهل الاندلس ، بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة ، وهو مرســـى مأمون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس ·

ولقد عودنا الجغرافيون والمؤرخون الاقدمون اذا ذكروا أن مدينة من بناء الاوائل أو وصفوها بانها ازلية أن يقصدوا بطبيعة الحال أنها أسست قبل العهد الاسلامى ، ولذلك كان البكرى يشير هنا الى الاصل الرومانى للمدينة ٠

أما الادريسى فقد أشار الى ازدهار حركة النقل البحرى وصناعة السفن فى عين المكان ووصف السكان بالحذق فى الفنون والحرف مما ساعد على ازدهار التجارة التى كانت فى القرن السادس الهجرى نشيطة مع كل من المغرب العربى والاصقاع الصحراوية والبلاد الشرقية ٠ وقد اندهـــش الادريسى لما كانت تتوفر عليه بجاية من خصب ورخاء فى المعيشة وكثرة المواشى ولا حظ بحق أن بجاية كانت مدينة صناعية ونقطة ارتكاز تجارى كبــرى ٠

ولقد التحق العديد من أهل الاندلس ببجاية لعدة أسباب ، فهناك العلاقة الطيبة التى تربـــط الصنهاجيين بأهل الاندلس ، حتى كان بين ملوك الطوائف من أسس امارة صنهاجية ، وعدم استقرار الامور فى الاندلس التى كانت لا تزال بيد ملـــوك الطوائف وقت بناء المدينة ، وميل كثير من سكان شبه الجزيرة الى اختيار المرافىء ليستقروا بها وكانهم على موعد مع المستقبل ليتولوا مقاومة العدو فى جهاد بحرى أرهق دول أوروبا لعدة قرون وشملت الانطلاقة مـــراكز ساحلية كثيرة فى شمالى افـــريقيا ٠

وسجل شمس الدين الانصارى الدمشقى المتوفى سنـــة 727 والمعروف بشيخ الربوة وصفا لطيفا للمدينة حيث قال : « بجاية مدينة حسنة البناء طيبة الغناء ، ولها نهر بهيج تدخله المراكب من البحر الى البلد ، بناها بن الناصر بن علناص (كذا) احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربعمائة وبناحيتها جبال الرحمن وهى جبال تعمرها قبائل كتامة ، وبها معادن النحاس واللازورد » ٠

واشتهرت بجاية الحمادية بقصورها الشامخة المنيفة ومبانيها التى استحقت تنويه ابـــن الخطيب فى أعمال الاعلام ٠ فالناصر مؤسس بجاية بنى قصر اللؤلؤة الذى وصفه الشعراء ٠ ومنهم ابن فكاه القيروانى الذى أنشد :

قالت سعـــاد وقد زمـــت ركائبنا   مهـــلا عليك فانت الرائح الغادى

فقلت تاللـــه لا انفك ذا سفـــــر   تجرى بى الفلك أو يحدوبى الحادى

حتى اقبل تـــرب العز منتصـــرا   بالناصـــر بن علناس بن حماد !

وقد سلك مسلكه فى الاهتمام بالاعمال العمرانية كل من ابنه المنصور وحفيده الناصـــر بن المنصـــور ٠

وتحتل بجاية في الميدان الفكرى مكانا رحبا فى تاريخ الشمال الافريقى قاطبة ، فقد كانت مركزا ثقافيا حل به مدة كل من المهدى بن تومرت وعبد المومن بن علي وابن خلدون وعشرات من رجال الفكر الذى ذكرهم الغبرينى فى عنوان الدراية وغير الغبرينى فى مراجع لا حقة ·

وكان ابن خلدون قد تعرف الى الامير ابى عبد الله الحفصى بالمغرب فى بلاط ابى عنان فنشات بينهما الفة وطيدة وتعرض كل من الامير وابن خلدون الى الا ذى بسبب هذه المودة حيث اتهم الاول بمحاولة العودة الى امارة بجاية والاستبداد بها واتهم الثانى بكونه والاه حتى وعده الامير بتوليته حجابته · وفعلا حصل ابن خلدون على امنيته ، واثبت هذه الحادثة بشىء من التنويه حيث قال فى التعريف : « وكتب لي الامير ابو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه · ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه فى ذلك احد » ·

والحقيقة ان منصب الحجابة كان فى كل من افريقية والمغرب الاوسط شبيها فى اهميته بمنصب الوزير الاول · وقد وجدنا هذه الميزة فى بلاط الحفصيين ومملكة بنى عبد الواد ، اما فى المغرب فكان الحاجب يطلق عليه المزوار فى غالب الاحيان ولكن دوره اقل على العموم من دور الحاجب فى بجاية او افريقية ·

والواقع ان الامير ابا عبد الله رحب ترحيبا عظيما بمقدم ابن خلدون فقد اركب وجوه دولته لاستقباله وقال يصف هذا اللقاء « وتهافت اهل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهورا » ·

ويذكرنا طموح ابن خلدون وتهافته على المناصب شرقا وغربا بطموح المتنبى الفائق والذى لم يتحقق منه شىء على اي حال ·

وفى اوائل القرن العاشر الهجرى (16 م) كانت بجاية كما وصفها الحسن الوزان تتوفر على العديد من المساجد والمدارس والزوايا · وكانت حركة التعليم زاهرة بها كما دل على ذلك كثرة طلابها واساتذتها فى وقت كانت مراكز ثقافية اخرى متعددة فى العالم الاسلامى قد دخلت منذ زمن مديد فى ذمة التاريخ كالبصرة والكوفة والقيروان · وبالاضافة الى ما تقدم كانت بجاية فى القرن المذكور تحتوى على فنادق وملاجىء واسواق منظمة وكانت القلعة المجاورة لها مزخرفة بالفسيفساء والنقوش الجبسية والخشبية · ويشير الوزان الى الدور الذى قامت به بجاية فى الجهاد البحرى على الشواطىء الاسبانية حيث احدث ذلك رد فعل عنيف من الاسطول الاسبانى · وكانت الضاحية تتوفر على بساتين غزيرة المياه والفواكه فضلا عن الغابات التى تكتنف الجبال · وبما ان بجاية تتوفر على عناصر اندلسية اثرت فيها بحضارتها الاسبانية فقد كان اهلها يتذوقون الموسيقى

ويقضون بعض فراغهم في الاستماع اليها حتى ان كلا منهم كان موسيقيا حقيقيا ، ومن ثم انطلقت اخلاقهم وتهذبت طباعهم فكانوا الى مسالمة الناس أميل منهم الى مجابهتهم بالعداء - ولكن هذا لم يمنع من قيام شجعانهم بممارسة الجهاد ضد الاسبان في عقر دارهم حتى ادى ذلك الى تدخل الكونت Pierre Navarro واستيلائه على بجاية التي نهبها وبنى بجوارها جملة من التحصينات -

والحق ان سكان المدينة تنفسوا الصعداء من الخناق الذي ضربه الاسبان عليهم بتدخل القائد بربروس الذي هب لنجدته كل السكان المجاورين غيرة وتشيثا بالتراب السليب - وبالرغم من تضعضع حدث في صفوف جيش بربروس فقد توبع النضال العثماني الجزائري ضد الاحتلال الاسباني الى أن تم تخليص بجاية -

ولقد اكتفى نافارو في شبكته الدفاعية بتحصيناته الخاصة كحصن موسى الذي اقامه مكان قصر النجمة والقصبة وحصن عبد القادر على الساحل الذي رممه ترميما شاملا- على ان الاسبان لم يكتفوا بذلك ، بل نقلوا ما خف حمله وغلا ثمنه سالكين به البحر الابيض المتوسط الى بلادهم ولكن عاصفة هوجاء جعلت سفنهم يبتلعها البحر بما فيهـا -

وبفضل الشبكة الدفاعية القوية التي اقيمت حول المدينة تمكن الاسبان من المقام في بجاية لمدة 36 عاما الى ان طردهم الرئيس صالح سنة 1555 وهو قائد عسكري وسياسي قام بدور بالغ الاهمية في التاريخ العثماني بافريقيا الشمالية -

وتعزو الرواية الفرنسية الى الوجود التركي لا الاسباني خراب بجاية وخلوها من السكان - لكن مدنا بالمغرب ايضا لم يحل بها الاتراك كاصيلا والعرائش اللتين كانتا تحت الاحتلال الايبيري ولما تم استرجاعهما في العصر العلوي لزم نقل آلاف من سكان الريف لتعميرهما بعد اقفارهما من أهل البلاد خلال الاحتـلال -

غير ان بجاية مهما تغيرت معالمها الآن فقد احتفظت الآثار الباقية منها بطابع الفخامة والدقة التي تميز به البناء الحمادي الصنهاجي ، فكأبواب أسوار المرابطين والموحدين نجد باب البنـود يمثل الصمود والتماسك بالرغم من تعاقب القرون -

والكتابات الكوفية التي وجدت في النقوش الحمادية تشيث بالطابع العربي الاسـلامي للحضارة ، والصلة قريبة بين الشرق والمغرب حيث الاصل واحد ، لكن ظاهرة تصوير الحيـوان وحتى الانسان على الخزف من مميزات الفن الحمادي التي لا تكاد نجد له نظيرا في فـن دول أخرى بالمغـرب -

وتأخذ العيتات في القيشاني وعلى الحجر مكانا ملحوظا وهي من الاشكال التي كان الصنهاجيون سباقين اليها في المغرب العربي - أما تغطية الارض وتبليطها فتأخذ أشكالا خاصة أيضا . فهناك مربعات مجوفة من جهات أربع وهناك أشكال متقاطعة متنوعة - والمقرنصات نجدها تسجل لاول مرة في القصور والمساجد وتتكرر الكتابات والنقوش الرخامية على قبور الحماديين بما نلاحظه بعد خمسمائة سنة في القبور السعدية من حيث الدقة -

ولن أشير هنا الى المؤثرات الاسبانية والتركية التي طرأت بعد الحماديين والحفصيين فالشخصية الحمادية هي بدون جدال عنصر القوة والشمول في حضارة بجاية -

سياسة الناصر بن علناس تجاه

بلاط المهدية

اسماعيل العربى
كاتب جزائرى

يمكننا تقسيم عهد بنى حماد لغرض هذا البحث الى ثلاث فترات اساسية متميزة :

شهدت الفترة الاولى التى تمتد بين سنتى 398 ــ 441 هـ (1007 ــ 1050 م) (وهذا التاريخ الاخير هو تاريخ تاسيس القلعة) ، مولد قوة بنى حماد ونموها فى اطار المقومات المميزة للمغرب الاوسط وفى ظل تقاليد ومنشئات الرعيل الاول من ملوك صنهاجة · والشخصية التى تطغى على الاحداث العسكرية والسياسية وتوجهها خلال هذه الفترة ، هى شخصية حماد بن بلكين بن زيرى ، بن مناد · وقد كانت اهم الخصائص المميزة للاتجاه السياسى فى المغرب الاوسط فى هذه الفترة ، هى العمل لتدعيم الدولة الجديد ، بحيث يصبح الانفصال عن القيروان شاملا ونهائيا · وعلى الرغم من اقدام حماد على خلع طاعة العبيديين واعلان الدعوة (للعباسيين) فان مشكلة العلاقات الخارجية لم تطرح نفسها بوضوح فى هذه الفترة · وهذا الاجراء نفسه الذى قد يبدو خطوة فى طريق اعتماد سياسة خارجية مستقلة ، انما اوحت به فى الحقيقة اعتبارات ايديولوجية تتصل بالدرجة الاولى بالسياسة الداخلية ·

وفى غضون الفترة الثانية التى تمتد بين سنتى 441 ــ 481 هـ (1049 ــ 1050 م) شهدت دولة بنى حماد استكمال نموها السياسى ، كما شهد المغرب الاوسط ازدهارا ثقافيا وعمرانيا لم يعرف له مثيل فى تاريخه :

وفى هذه الفترة ظهرت القلعة التى خلفت القيروان على المسرح الدولى ، عقب غزو بنى هلال لافريقية · وقد كان من نتائج هذا الغزو تدفق رؤوس الاموال والخبرات التقنية ، والكفاءات العلمية مع سيل المهاجرين الى القلعة وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، هربا من عبث العربان وتهديهم لافريقية ، وبذلك اتسعت موارد المملكة المادية وامتدت آفاق النشاط العلمى والادبى فيها ، ووجد الخلق والابداع الفنى فى قصورها ومساجدها الدعامة الضرورية · ولكن هذه أيضا هى الفترة التى واجهت فيها المملكة مشكلة زحف العربان واضطرت الى بناء عاصمة جديدة (بجاية) فى سنة 457 _ 458 هـ (1064 _ 1065 م) للاستعاضة بها عن القلعة التى أصبحت مهددة بالاختناق الاقتصادى · وهذه الفترة هى التى تهمنا فى هذا البحث ·

واما الفترة الثالثة التى تمتد بين 481 _ 558 هـ (1088 _ 1163 م) ، فقد شهدت تقلص نفوذ بنى حماد السياسى تدريجيا ، وأما الحضارة التى اقاموا دعائمها فى القلعة ، فستفتح لها بجاية ابوابها وتحميها من حشود بنى هلال المتوحشة بجبالها وتغذيها بعناصر جديدة نشيطة من البربر وغيرهم ·

*

* * *

حينما تولى الناصر بن علناس الحكم فى القلعة ، فى سنة 454 هـ (1062 م) ، كان سلفه (وضحيته) بلكين ، بن محمد ، بن حماد ، قد مهد السهل والوعر ودوخ المغرب الاقصى كله واحتل مدينة فاس وسحق قوات زناتة وطرد جيوش يوسف بن تاشفين من سجلماسة ودفع بها فى اتجاه الصحراء · ولكن اتساع رقعة الامبراطورية الحمادية بهذه الصورة ، انما كان نتيجة لتوسع عسكرى بشأن فتوحات كبرى المغرب الاقصى ولم تكن تدعمه ادارة منظمة ولا يقوم على عناصر اثنوغرافية منسجمة (1) ولذلك ، فان حدود بنى حماد فى الجنوب والجنوب الغربى ، سوف لا تستطيع مقاومة ضغط الملثمين ، على الرغم من ان سياستهم التوسعية كانت تتجه الى الاندلس ، اكثر مما تتجه الى الشرق · وقد كان هذا من العوامل الاساسية التى قللت من أسباب الاصطدام بين بنى حماد والمرابطين · والعامل الآخر المهم ايضا ، هو تقلص نفوذ زناتة الذين دفع بهم المعز بن باديس فى أواخر حياته الى الصحراء فى الشرق ، وشتت الملثمون شملهم وقضوا على دويلاتهم فى المغرب ، وبذلك توزعت عناصر هذه القبيلة الخطيرة الشأن واندمجت فى مختلف التيارات السياسية السائدة فى المغرب · بل ان فلول زناتة التى بقى لها شىء من التماسك ستجد فى جوار أحفاد حماد الصنهاجيين ، أعداء القبيلة التقليديين ، شيئا من الراحة والاستئناس · وقد وجد الناصر بن علناس فى منح بنى وامانو الذين يعترفون بسلطاته نوعا من

الاستقلال الذاتى (2) ، ضمانا مزدوجا ، من حيث أن هذه الامارة تشكل حاجزا بين مملكته وبين المرابطين على الحدود الغربية ، من جهة ومن حيث ان الاعتراف بوجود أدبى لاحفاد زيـرى بن عطية ، عامل من شانه أن يكسر شوكة هذه القبيلة التى طالما كانت مثارا للقلاقل فى المغرب • وقد انتهى الامر بالناصر إنه تزوج احدى بنات ماخوخ ، زعيم هذه القبيلة ، كما سيفعل ابنه ، المنصور بعـــده •

وكذلك يمكن القول ، بان الوضع على الحدود الغربية يتسـم بما يسمى فى التعبير الحديث بتوازن القوى ، وهو وضع مرض لبنى حماد ، **من حيث انه يؤمن مؤخرة مملكتهم ، ويسمح لهم بتوجيه اهتمامهم السياسى كلية لمتابعة التطورات الخطيرة التى تجرى على حدودهم الشرقية ، فى افريقيـــة •**

ولكن ما هو الوضع فى افريقية ؟

كانت تونس منذ أواخر عهد المعز بن باديس مسرحا لظاهرة لم يعرف العالم لها مثيلا منذ انقضاض البرابرة (القوط والوندال الخ •) على الامبراطورية الرومانية فى الغرب وتقويض دعائمها ، خلال الفترة بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادى • وهذه الظاهرة تتمثل فى غزو قوة همجية من القبائل التى نبذها العالم العربى فى الشرق منذ زمن بعيد وأبعدها الفاطميون الى مصر العليا (الصعيد) ، بسبب الخطر الذى كانت تشكله على الامن العام ، وخصوصا على طرق الحجاج •

وهذه القوة تتكون من عدد من القبائل (من اهمها بنو هلال وبنو سليـــم) التى اطلقها الخليفة الفاطمى ، صاحب مصر ، بقصد تخريـب شمال افريقية والقضاء على معالم الحضارة التى اقامها فيها بنو زيرى ، للانتقام منهم بسبب تحول المغرب عن دعوة الشيعة وعودته الى مذهب اهل السنـــة •

فبعد أن تازم الموقف بين القاهرة والقيروان ، نتيجة لانفجار ثورة شعبية ضد الفاطميين الذين فرضوا عقيدتهم فى افريقية ، **اعلن المعـــز طاعة العباسيين فى عهد القائم بامر الله ، وأمر بقطع الخطبة للعبيديين ولعنهم فى سنة 440 هـ (3) •**

ولما احكم اليازورى (فلاح من أهل الشام استوزره المستنصر) خيوط مؤامرة الانتقام ، بعث بحشود العربان افواجا متوالية كاسراب الجراد ومضت تخرب المدن وتفسد الزرع وتسبى وتقتل السكان حتى وصلت الى مكان يقع على مسيـرة ثلاثة ايام من القيروان حيث هزمت جيـــوش المعز فى معركة كانت نقطة تحول فى تاريخ صنهاجة التى استرخت للنعيم والرفاهية وفقدت روح النضال والحرب •

و بهذه الهزيمة انفتح الطريق أمام العربان لنهب القيروان والقضاء على العمارة العظيمة فيها « فى ساعة واحدة » ، حسب تعبير ابن عذاري[4] واضطر المعز الذى راى مملكته تتحـــول الى صحراء ، الى الاعتصام بالمهدية فى سنة 449 هـ · والاحتماء باسوارها المنيعة ·

*

* * *

واما بنو حماد ، فقد استقبلوا الاحداث التى يتخبط فيها بنو عمومتهم فى افريقية بشـــعور الارتياح ، وقد استغل بلكين تلك الظروف التى أمن فيها جانب المعز لبسط سيطرته على المغرب ، كما راينا على حساب زناتة والملثمين · بل ان هذا الشعـــــور سيتبلور الى التشفى والنكايـــــة خصوصا فى عهد الناصر بن علناس · فان بنى حماد لم يكتفوا بالوقوف موقـــف الحياد فى هذا الصراع الاسطوري بين قوى الظلام الهدامة وقوة الحضارة التى اقامها أجدادهم ، بل سارعوا الى التحالف مع بعض عناصر العربان ، على أمل التعجيل بسقوط الدولة الزيرية فى افريقية ·

وبعد ما وجد سادة المهدية انفسهم رهينة فى يد امراء العرب واضطروا الى التحالف مـــع رياح وزغبة (بل والى مصاهرتهم ايضا) طلبا لحمايتهم ، تعاقد سادة القلعة مع الاثبج اعــداء زغبة ورياح ، ورحبوا بهم فى مملكتهم وتخلوا لهم عن الارياف لينهبوا فيها ويسطوا كما شاءوا · ولما طردت رياح زغبة من افريقية وسارع هؤلاء الى وضع انفسهم فى خدمة القلعة ، استقبلهم بنو حماد بنفس الكرم والسخاء ، حيث كانوا يرون فيهم حشودا من الجنود المرتزقة لتوجيهها ، متى شاءوا ، ضد اعدائهم الذين يضمرون ضغائن واحقادا متوارثة لهم فى افريقية (5) · وهذه الغلطـة فى التقدير سيدفع الناصر ابن علناس ثمنها غاليا ، حيث كان اشبه بمروض الثعابين الذى لا يلبث أن يجد عنقه محاطا بالافعى التى يعتقد انها لا تزال فى قبضته · وستكون الضحية الاولى لهذه السياسة المخطئة ، هى القلعة التى قطع العربان عنها شرايين الحياة الاقتصادية واضطروا بنى حماد الى التخلى عنها والاستعاضة عنها ببجايـــة ·

ومع ذلك فان من الخطا الاعتقاد بان محالفة عناصر من الهلاليين كانت نتائجها كلها سلبية لبنى حماد فى المرحلة الاولى · على العكس ، فان هذه السياسة قد أتت ببعض الثمـــار وكانت ايجابية من حيث انها سهلت امتداد سلطانهم الى المشرق ، حيث أخذ نفوذهم يملا تدريجيا بعض الفراغ الذى تركه انحسار سلطان الزيريين ، حتى أصبحت صفاقس وقسطيلة ، بل تونس نفسها فيما بعد ، تدين بالولاء لبنى حماد · ثم ان زحف العربان على المغرب الاوسط ، لم يكن له ذلك الطابع الفجائى والعارم الذى شهدته افريقية ، لان هجرتهم كانت فى المرحلة الاولى محصورة فى المناطق الجنوبية الشرقية ، وبالتالى ، لم يكن هناك مبرر للتخوف من آثارها على التل الذى كان على

كل حال ، فى وضع يسمح لنشئاته ومدنه ومرافقه الاجتماعية ، بان تستوعب عناصر من العربان لينمجوا فيها ، كما اندمجت فيها عناصر من سكان حواضر افريقية من الاعيان والعلماء والفنانين الخ . وباختصار ، فقد كان الناصر بن علناس يمثل اكبر قوة ، بل القوة الوحيدة فى المغرب كله (6) ، وقد كان مما يتفق مع المنطق ومعطيات التحليل المتعمق أن يطمح الى ان يتمكن ، متى تمت له السيطرة على افريقية ، من اخضاع هذا العنصر المضطرب ، كما اخضع زناتة ، بل ومن اقراره وتمدينه . ولكن مثل هذا الحساب ، يتجاهل بطبيعة الحال ردود فعل الزيريين ويستخف بذكاء رجل مثل تميم بن المعز وحنكته السياسية وممارسته الطويلة لـ « شئون العرب » .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان من المألوف ـ ان لم نقل من الطبيعي ـ ازاء تأرجح ميزان القوة بين الملكين بهذا الشكل ، ان يرثى الناصر لحالة ابن عمه ويفكر ، أو يتحدث فى مجالسه الخاصة ، سواء أكان جادا أوهازلا ، عن نيته فى محاصرة المهدية والقضاء على آخر ملوك بنى زيرى فيها .

وسواء صدرت هذه التهديدات فعلا عن الناصر أم لم تصدر عنه (ونحن نشك فى أن يكون الناصر جادا فى مثل هذه الاقوال ، بسبب مناعة المهدية المشهورة والتى لم يكن من الممكن اخذها الا من البحر ، ولان بنى حماد لم يكن لديهم اسطول حربى يذكر قبل عهد بجاية) ، فان ما قاله الناصر فى مجالسه بلغ الى تميم بن المعز . ويقول المؤرخون انه تحقق منه ، بل وتحقق حتى من بعض تفاصيل الخطة التى عزيت الى الناصر بالهجوم على المهدية . وكذلك تحقق ملك المهدية من أن الناصر يذمه ويشتمه وينعته بالضعف ، وانه قد تحالف مع بعض عناصر زناتة وبنى هلال ليعينوه على محاصرة عاصمته ومعقله الوحيد .

واثر ذلك ، أرسل فى طلب بنى رياح ، فلما حضروا اليه قال لهم : « انتم تعلمون أن المهدية حصن منيع فى البحر ولا يقاتل منه فى البر الا من أربعة ابراج يحميها أربعون رجلا . وانما جمع الناصر هذه العساكر (للسير) اليكم والى بلادكم » . فقال امراء العرب « ان الذى يقوله السلطان حق ونحب منه المعونة بالعدة » . فاعطاهم السلاح من الرماح والسيوف والدرق ، كما أمر لهم بعشرة آلاف دينار ، لكل أمير منهم ألف دينار .

ولما خرجت أمراء العرب من عنده ، جمعوا اقوالهم وتحالفوا واتفقوا على الناصر ثم انفذوا شيخين سرا الى بنى هلال الذين كانوا مع الناصر (7) يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر ابن علناس ويخوفونهم منه ان قوى ، وانه سيهلكهم بمن معه من صنهاجة وزناتة . ونكروهم بغدر جده حماد لباديس وغدر من جاء بعده من بنيه . « فاذا وطئ بلادنا بصنهاجة وزناتة قاصدا تميم ابن المعز ، وتميم فى حصن منيع بالمهدية ، لا يقدر عليه . وعندما يملك بلاد افريقية يخرجنا واياكم منها » (8) .

وأضاف العريان نصيحة الى اخوانهم قائلين انه انما يستمر لهم المقـــام والاستيلاء على البلاد « اذا اشتد الخلاف بين فرعى صنهاجة وضعف سلطانهم » ·

وقد فهم مشائخ بنى هلال فى المغرب الاوسط هذا المنطق البسيط الذى فات عبقرية الناصر وابن عمه تميم ، واعترفوا بوجاهة تحليل ابناء عمومـتهم فى افريقية للموقف ، فقالوا : « والله لقد صدقتم ! فاذا التقينا ، فاجعلوا اول حملة تحملونها علينا ، ونحن ننهزم بالناس ثم نرجع عليهم (على الناصر وجيشه) · فان ملكنا رقابهم ، كان لنا من الغنيمة الثلث ، ولكم الثلثان · » وقال الشيخان رضينا !)

كان ذلك هو الطرف الاول فى المؤامرة ، واما الطرف الآخر ، فقد تم بين تميم وعناصر زناتة الموالية للناصر بن علناس والتى كان يتزعمها المعز بن عطية بن زيرى · وقد ارسل المعز رســـالة الى رجاله شرح لهم نفس الخطة وكلفهم بالقيام بنفس الدور ، فوعدوه أن ينهزموا فى الوقت الملائم حينما يلتحم القتال وتشتد المعركة ·

ولما خرج الناصر بن علناس على رأس جيش متجها الى افريقية فى سنة 457 ، كان من بين رجـــاله المقربين الذين ساروا فى ركبه ، المعـــز بن عطية ، رئيس زناتة وشيـــوخ بنى هلال · وعندما وصلوا الى سبيبة (9) ، لقيتهم رياح وزغبة وسليم (10) ، والتحمت المعركة : حملت رياح على بنى هلال ، فانهزموا ، كما وقع الاتفاق ، ثـم هاجموا جيش الناصر غدرا · وكذلك فعلـــت زناتة ·وكانت هزيمة الناصر منكرة ، بحيث لم يسلم الا فى عشر من الفرسان ، ونجا بفضل تدخـل أخيه القاسم الذى أخذ العلم منه وتتبعه العدو معتقدا أنه الناصر ، فقتله · وبذلك ، فداه بنفسه ·

ويروى ابن الاثير والنويرى أن القتلى من صنهاجة وزناتة فى هذه المعركة بلغ عددهم اربعــة وعشرين الفـــا (10) ·

وقد غنمت العرب جميع ما كان فى معسكـر الناصر من مال وسلاح وادوات واقتسموا ذلك بينهم طبقا للخطة المرسومة · واما الطبول والبوقات والرايات ، فحملوها الى تميم لتكون حصته الرمزية فى اسلاب ابن عمه (11) ·

ولكن بقية من عزة النفس ، حملت الاخير على ردها اليهم معتذرا « وفى نفســه ما فيها من الحزن » لنتيجة هذه المعركة ، التى كان هو المدبر الاول لخططها ·

كانت نتيجة معركة سبيبه وبالا على افريقية والمغرب الاوسط من عدة وجوه · كانت شرا لان أسرة بنى زيـــرى قد انقسمت على نفسها واستنزفت قوتها فى عراك دمـوى داخلى لم يكن له سبب سوى الاحقاد والضغائن الشخصية فعرضت بذلك ما بقى من افريقية ، كما عرضت مملكة

القلعة للضربات القاصمة والاخيرة التى سيسددها العربان لحضارة بنى زيرى ، فى الوقت الذى شجعت فيه النورمانديين فى صقلية لاعداد العدة للاجهاز على المهدية ·

وكانت نتيجة سبيبة وبالا على الناصر بن علناس بصفة خاصة ، لانها جردته من القوة التى ورث جزءا منها عن سلفه ، بلكين ، وبنا هو بنفسه الجزء الآخر بكثير من المشقة والتضحية · وها هو الآن مضطر لان يسلم مدن التل ، بل والقلعة نفسها ، لعبث العربان ويضع نفسه تحت رحمة غرائزهم المخربة ·

ومن ذا الذى يستطيع ان يتكهن بمصير ملك الناصر واحفاده ، لو لم تقع معركة سبيبه ؟ من الذى يستطيع ان يحسب حساب النتائج الايجابية التى سيجنيها من استمراره على سياستـــه البعيدة النظر التى تقوم على مجاملة المهدية ومهادنة العربان وتدعيم القواعد التى تدين له بالولاء ، مثل تونس وصفاقس ؟

أغلب الظن أن نتيجة ذلك ستكون انتشار سلطان الناصر على افريقية والسيطرة على تيارات العربان التى اخذت تفقد كثيرا من شوكتها باتصالها بالمراكز الحضارية من جهة ، وبانقسامها على نفسها ، من جهة اخرى · وبذلك تزداد قوة الناصر ويضمن احفاده اساسا لمقاومة فعالة لنفـــوذ الموحدين من الغرب ولهجمات النورمانديين من الشمـــــال ·

وايا ما كان الامر ، فقد اتجه الناصر بعد معركة سبيبة التى تقرر فيها مصير افريقية والمغرب الاوسط ، الى قسنطينة ثم الى القلعة التى ضربت عليها قبيلة بنى رياح التى كانت تلاحقه حصارا محكما ، ثم اخذوا يخربون بواديها ، واستولوا على طبنة والمسيلة ، فهد موهما ، وعطفـــوا على غيرهما من المنازل والقرى والضياع والمدن « فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر واظهروا فى الارض الفساد » (12) ·

وبعد ما استقر الغبار فى سبيبة ، واخذ كل من الطرفين يراجع قراراته ويحاسب نفســـه على اخطائه ، ظهرت بوادر تدل على جنوح كل منهما الى المهادنة والمسالمة · وبعدما بلغ الناصر حزن ابن عمه وأسفه لانتصار العرب ، كلف وزيره أبا بكـــر باستخدام علاقاته الشخصية ببلاط المهدية بقصد اعداد جو ملائم لاستئناف العلاقات الديبلوماسية ولاجراء مفاوضات الصلح مع تمـيم ابن المعز · فارسل ابو بكر بن الفتوح من عنده رسولا الى تميم يعتذر ويرغب فى اصـــلاح ذات البين · وكما نتوقع ، فقد وجد هذا المسعى صدى فى نفس صاحب المهدية ، واستشار اصحابـه فى اختيار سفير يمثله ، فاتفقوا على أن محمدًا بـــن البعبع الذى كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى تميم ، هو أصلح من يقوم لهذه المهمة (13) ·

وكذلك وجه تميم بن البعبع الى بلاط القلعة مزودا بتعليمات منه لاستعادة العلاقات مـــع ابن عمه الى مجراها العادى ·

ولما وصل ابن البعبع الى قرية صيادى السمك الصغيرة (بجاية) تأمل موقعها وادرك على الفور الاهمية التى يكتسيها وفكر فى انه يصلــح لاقامة مدينة ومرسى ودار لصناعة السفن ·

ومضى ابن البعبع حتى وصل الى القلعة وادخل على الناصر الذى كان معه وزيره ابو بكـر ، فسلمه رسالة تميم ثم قال له : لى وصية اليك واحب ان تخلى المجلس (وكان يعـــرف ميول ابى الفتوح نحو تميم) · فقال له الناصر : أنا لا اخفى على وزيرى شيئا · فقال ابن البعبـــع : بهذا أمرنى الامير فقام الوزير وانصرف · ولما خرج ، قال سفير المهدية للناصر : ان وزير مخامر عليك مع تميم وهو لا يخفى عنه من أمورك شيئا · وتميم مشغول مع عبيده النصارى وقد طرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل · فو الله لو وصلت بعسكر الى المهدية لما بت الا فيها · وانا اشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها من بلاد افريقية · ثـم اشار عليه ببناء بجاية واتخاذها عاصمة لملكه · ومضى ، فعرض عليه ان ينتقل اليه باهله ويدير دولتـــه (I4) ·

وعلى الرغم من ان الاتجاه الذى ينصح بــه بن البعبع والذى لم تكن خطورته لتخفى على الناصر ، يتناقض مع مهمته الاساسية ومع نيــات العاهلين الصنها جيين فى احلال الوئام محل الخصام ، فقد اصغى اليه الملك الحمادى ، واصطحب معه سفير المهدية الى موقع بجاية ، حيث رسم له ابن البعبع موقع المدينة والميناء ومكان القصر ، وغير ذلك من المرافق ، وسر الناصر بهذه البادرة وشكر صاحبها وأمر بالبدء فورا فى بناء المدينـــة ·

ولكن اخبار الشروع فى بناء عاصمة جديدة لبنى حماد وقت وجود سفيره فى بلاط الناصر ، اثار شكوك تميم فى نيات الناصر الذى يتهمه بانه يريد منافسة المهدية واسطولها ، وفى رسوله الذى يتوجس ان يكون له ضلع فى القضية · ولكن الرسول انكر لما سئل لدىعودته الى المهدية ، ان يكون له علم بهذه التطورات · وتطبيقا لخطته ، كتب ابن البعبع الى الناصر بقلق تميم لبناء بجاية وبمضمون الحديث الذى جرى بينه وبين الامير بهذا الشان ·

وبعد ما قرأ الناصر رسالة ابن البعبع ، أوقف عليها وزيره ابا بكر الذى اظهـر استحسانه لسلوك ابن البعبع واثنى عليه ، ولكنه مع ذلك مضى الى داره وكتب نسخــةطبق الاصل من كتاب الرسول وحفظها ، ثم بعث بنص رسالة ابن البعبـــع ، وهى بخطه ، الى تميم ومعها رسالة منه يشرح له فيها تطور الامور من البداية الى النهاية·

ولما وصل كتاب ابى بكر الى تميم ، وجد فيه ما يلقى ضوءا ساطعا على نشاط سفيره ، فوضع منزله تحت حراسة مشـــددة ٠

وذات يوم استدعاه لاستجوا به فى الامر بمحضر بعض اصـــدقاء السفير ، ومن بينهـــم الشريف القهرى ٠ ولما وصل ابن البعبع الى بـــاب القصر ، لقيه رجل يحمل اليه كتابا من الناصر يامره فيه بالحضور عنده ٠ وبينما كان يأخذ الكتاب ، خرج تميم بن المعز ٠ ولما رءاه ابن البعبع اضطرب وسقط الكتاب من يده ، واذا بعنوانه : من الناصر بن علناس الى خليله فـــلان ٠

قال تميم : من أين هذه الكتب ؟ ولكن الرسول التزم الصمت ، فاخذها تميم وقراها ٠ وقال له ابن البعبع العفو يا مولانا ! فقال تميم : لا عفا الله عنك ٠ وأمر به فقتل واغرقت جثته ٠

واثر هذه الحوادث ، كان من الطبيعى ان تاخذ العلاقات بين القلعة والمهدية اتجاها غيـــر الاتجاه الذى خطط لها ٠ وبدلا من الوئام والصلح ، عاد الطرفان الى سابق عهدهما وسادت بينهما من جديد روح المنافسة والتشكك واخذ كل منهما فى اعداد العدة للهجـــوم أو للدفاع ٠ وكذلك استعاد تميم الى حكمه تونس والقيروان وطرد منهما ولاة الناصر ، ابن خراسان وابن ميمون على التوالى ، فى سنة 458 ٠

وبعد ذلك بسنتين ، وكانت آثار سيئة على قوة الناصر قدزالت الان جزئيا ، كر الناصر بن علناس على الاربس واستعادها ، ثم استولى من جديد على مدينة القيروان ٠

ولكنه فى السنة التالية ، عاد الملك الحمادى الى القلعة خوفا من جموع العـــرب الذين اشتدت شوكتهم ، كما يقول ابن عذارى (15) ٠

وهكذا استمرت العـــلاقات بين بيلاطى صنهاجة تتارجح بين المد والجزر سنوات اخرى ، حتى حلت سنة 467 ، حينما وقعت معركة دموية بين رياح وزغبة ، انتهت بانتصار بنى رياح على ابناء عمو متهم وطردهم من افريقية الى المغرب الاوسط ٠ وحينئذ وجد تميم نفسه محروما حتى من المساعدة السلبية التى كان يلقاها من تطاحن العربان الغزاة ، وأصبح الآن وجها لوجه أمام قبيلة بنى رياح المنتشية بانتصاراتها ٠

ومن جهته ، وجد الناصر نفسه أمام تضخم سيل هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم بمقدم زغبة التى سرعان ما أصبحت سهول بونة موبوءة بهم ، بينما كان بنو عمومتهم ، معقل ، يتوغلون تدريجيا من أطراف الصحراء الجنوبية الشرقية فى اتجاه تيطرى ٠

وكذلك وجد تميم بن المعز والناصر بن علناس فى نهاية الامر ، وبعد مضى ست عشرة سنة من تسلم كل منهما مقاليد الحكم فى دولته ، أن الوقت قد حان لدفن خصومة شقى أسرة بنى زيرى

ومنافستهما التي كانت مصدر ضعف لكلتا الدولتين وعجز عن مقاومـــة العربان الذين يتربصون الدوائـر بينهما ·

وفي سنة 470 ، توصل الفريقان الى اتفـاق لا نعرف مضمونه ولكنـــه اعاد العلاقات بين الملكين الى مجراها الطبيعي · وقد تعزز هذا الاتفاق ، بتزويج تميم الناصر بابنته بلاره التي زفها ومعها هدية قيمتها 30،000 دينار من الذهب ، وفي رفقتها قوة عسكرية شرفية وعدد كبير مـــن الحيوانات النادرة ·

وقد ابى الناصر بن علناس ، من جانبه ، الا يكون اقل اسرافا وبذخا من ابن عمه ، فبعث اليه بمبلغ 30،000 الف دينار (صداقا) ·

ولكن تميم اقتصر على تناول دينار رمزي واحد واعاد الباقي الى الناصر · وقد نجـح هذا الزواج نجاحا نادر المثال ، وبلغ من حب الناصر لبلارة انه بنى لها قصرا في القلعة وقصرا آخر في بجاية وسما كلا القصرين باسم هذه الاميرة الساحرة · وقد ولدت بلارة للناصر عدة اولاد ، وفي مقدمتهم المنصور الذي سيتربع على عرش بجاية بعد ابيـــه ·

مراجـــع البحـــث :

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق ونشر G. J. Toremberg ليدن ، 1891 (14 جزءا) ·
- ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ، طبع بولاق 1807 (7 اجزاء) ·
- ابن الخطيب (لسان الدين) ، اعمال الاعلام ، طبع الدار البيضاء ، 1964 ·
- ابن حوقل ، المسالك والممالك ـ تحقيق ونشر De Goeje (B. G. A.) T. III ليدن ، 1876 ·
- ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، طبع بيروت ، 1950 ·
- الاستبصار في عجائب الامصار ، لمؤلف مغربي مجهـــول ، نشـــر زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 ·
- ابو عبيد البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق De Slane ، الطبعة الثانية باريس 1965 ·
- النويري ، نص مقتبس من نهاية الارب ، نشره وحققه مع ترجمة اسبانية:
D. José Diaz - Martin de Cabrera Revista del Centro de Studios Historicos de Grenada y su Reino, 1971, Tomo VII.
- الوطواط (محمد بن ابراهيم بن يحيى) مناهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط محفوظ في مكتبة اكسفورد) تحت رقم 957 ·
- ياقوت الحموي ، معجـــم البلدان ، تحقيق Wuctenfeld ليبزيج ، 1866 ·

هـــوامـــش :

1) قارن اعمال الاعلام ، ص 88 ، والعبر 6 / 172 – 173 .

2) كان بنو والمانو من أشد بطون زناتة شوكة ، وكانوا يحتلون الاراضى التى تمتد بين أسفل الشلف حتى قرب وهران . راجع بشأن هذه المصاهرة ، العبر ، 6 / 174 .

3) اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا بشأن تحديد تاريخ خلع المعز طاعة الفاطميين . فقد ذكر ابن الاثير وابن خلكان أن المقاطعة وقعت فى سنة 435 هـ ، بينما يحدد ابن خلدون تاريخ هذا الحادث فى سنة 437 . وأما صاحب النجوم الزاهرة ، فيذكـــر القطيعة دون تحديد تاريخ وقوعها . ولكن رواية ابن عذارى (1 / 397 و 399 و 343) تلقى بعض الضوء على تطورات القضية . فقد أعلن المعز ، حسب رواية هذا المؤلف ، طاعة العباسيين فى سنة 433 (وفى رواية النويرى سنة 435) ولكنه لم يأمر بقطع الخطبة للعبيديين ولعنهم على المنابر ، الا فى سنة 440 . وبعبارة اخرى ، فقد ظل الموقف مائعا قرابة سبع سنوات دون أن يصدر رد فعل عن الفاطميين ضد هذا التحول . اذ كانوا يرون ، بدون شك ، فى احتفاظ الزيريين باعلامهم واستمرار الدعوة لهم على المنابر وضعا يحفظ الظاهر ، على الاقل . ولكن قرار المعز باحراق بنودهم ولعنهم فى خطبة الجمعة وتبديـــل عملتهم بالدينار المسمى «التجارى» ، كان موقفا لارجعة منه ولذلك قرر سادة القاهرة ان الوقت قد حان لتسديد الضربة القاصمة .

4) البيان 1 / 321 . راجع فى الصفحة التالية من نفس المصدر بشأن بعض اعمال الوحشية التى كان يرتكبها العربان ، نقلا عن شاهد عيان .

5) قارن الكامل ، 10 / 30 والنويرى ، ص 336 .

6) يجدر بنا ان نذكر فى هذا السياق ان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى سيحل محـــــل الناصر بن علناس فى زعامة المغرب ، لم يبايع بالملك ، الا فى سنة 462 هـ . اثر وفاة أبى بكر بن عمر بالصحـــــراء .

7) هى الاثبج وبنو عدى . واما القبائل المحالفة لتميم ، فقد كانت رياح وزغبة وسليم .

8) راجع النويرى ، ص 236 قارن الكامل ، 10 / 31 .

9) فى الكامل ، غلطا : سبته · وسبيبه ، من اعمال القيروان ، مدينة قديمة اشتهرت بكثرة المياه والبساتين وبجودة الزعفران فى ارضها · ولكنها اشتهرت خصوصا بزراعة الكتان · وهى غير سبيبة التى ذكرها ذو الرمة فى قوله

نظـــرت بجـــرعاء السبيبة نظـــرة   ضحى وسواد العين فى الماء غامس

والى سبيبة القيروان ، ينتمى ابو عبد الله محمد بن ابراهيم السبيبى الفقيه والخطيب (قارن الكامل 10 / 31 ، والبكرى ، ص 146 ، وابن حوقل ، ص58 ، ومعجم البلدان ، 3 / 186 وانظـر الاقتباس الذى اورده FAGNAN من مناهج الفكر للوطواط ، فى EXTRAITS INEDITS

10) قارن الكامل 10 / 31 ، والنويرى ، ص 237 ، والبيان 1 / 429 ، والعبر 6 / 173 ·

11) وقع مؤلف كتاب الاستبصار فى اضطراب كبير فى روايته لمعركة سبيبة ، اذ يقول « ان صاحب القلعة ، المنصور (كذا) بن حماد كان اشد شوكة من صاحب القيروان واكثر جيشا ، فخرج لنصرة ابن عمه وجيش جيشا كبيرا فلقيته العرب بفحص سبيبة ، فكان يوما عظيما حتى هـــــزم المنصور وقتل اخوه واكثر صنهاجة » الاستبصار ، ص 129 ·

12) العبر ، 6 / 219 ـ 220 ·

13) قارن النويرى ، ص 339 والكامل 1 / 31 ، والعبر 6 / 173 ·

14) تعتبر رواية ابن الاثير عن سفارة ابن البعبع أوفى وأدق من غيرها (راجع تفاصيلها فى الكامل ، 10 / 32 ـ 33) · وهى تتفق فى خطوطها الرئيسية مع رواية ياقوت الحموى (راجع معجم البلدان ، 1 / 495) ، ومع رواية النويرى (ص 338 ـ 339) ·

15) البيان ، 1 / 339 ·

لمحة عن

زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية

580 هـ 1184 م

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

انبثق ملك دولة المرابطين من اعماق الصــحراء الكبرى ، وهم من قبيلة « لمتونة » المتفرعة عن القبيلة العتيدة (صنهاجة) التى كان منها ملوك دولة بنى زيرى التى خلفت الدولة الفاطمية بالقيروان والمهدية ، ونفحت القطر الجزائرى والاندلسى بشجعانها البواسل وابطالها الميامين هم ملوك القلعة وبجاية وغرناطة ومالقة من بنى حماد ، وكانت الرئاسة فى عصر المرابطين (462 ـ 541 هـ / 1070 ـ 1147 م) لقبيلة لمتونة كبرى قبائــل الملثمين بالصحراء الكبرى ، ولهذا يسمى بعض المؤرخين دولــة المرابطين بالملثمين ·

وهم كما قال ابن حوقل : اهل باس ومفخرة مفطورون على الفروسية سريعون الى اختراط السيوف وخوض غمار الحرب ··· وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ، وفيهم البسالة والجراة والفروسية على الابــل ، ولم ير لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يلثمون وهم اطفال وينشاون على ذلك ، ومن اجل ذلك يسميهم كثير من المؤرخين بالملثمين ، أما تسميتهم بالمرابطين فذلك ان شيخهم عبد اللــه بن ياسين سماهم بذلك ليكونوا مؤمنين مجاهدين مستعدين للحرب والجهاد فى كــل وقت اشارة لقوله تعالى : « يايها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ·

انتشر ملك هذه الدولة من المحيط الاطلنطى باقصى المغرب الى حدود مدينة الجزائر ، بل والى مدينة بجاية شرقا والى حدود بلاد النيجر جنوبا ، ثم مد عامل هذه الدولة الاكبر مــؤسس مدينة مراكش يوسف بن تاشفين (410 ــ 500 هـ / 1019 ــ 1106 م) بصره الى ما وراء هذا البحر الابيض المتوسط فاستولى على البلاد الاندلسية ايام مــلوك الطوائف وكانت حينئذ تلك الوقعة الشهيرة موقعة (الزلاقة) الذائعة الصيت (479 هـ / 1086 م) انتصــــر فيها ابن تاشفين تلك الانتصار العظيم الذى كان سببا فى تكوين امبراطورية المرابطين التى شملت مراكز الحضـــارة بالمغـــرب والاندلس ٠

وكان علي بن يحيى المسوفى ــ نسبة الى مسوفة ــ وهى قبيلة من قبائل الملثمين بصحراء لمتونة ، مقربا لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فتزوج امــــرأة من حضايا القصر تدعى (غانية) انجبت له ولدين هما محمد ويحيى وكلاهما نشأ وتربى فى بلاط المرابطين ، وكان يحيى اول من ولى الاندلس من بنى غانية من طرف المرابطين ، فتولى اولا مدينة بلنسية فى شرق الاندلس ثم قرطبة فى غربه ، وولى اخاه محمدا على بعض أعمالها ، وخاض يحيى معارك مـــع الافرنج (520 ــ 538 هـ / 1126 ــ 1143 م) دحر فيها جيش الانفونش ملك ارغـــون (528 هـ / 1133 م) وأصلح الله على يديه ــ كما يقول المراكشى ــ كثيرا من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ، وظل على ولائــه للمرابطين ايام ظهــور الموحدين (524 ــ 668 هـ 1130 ــ 1269 م) ثم بعد وفاته (543 هـ / 1148 م) انصـــرف اخـــوه محمد بتعيين من امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين الى ولاية جزيرة (ميورقة) احدى الجزر الشرقية المعروفة فى كتب الجغرافيا باسم (جزائر الباليار) ٠

وقد دخلت تحت حكم المرابطين منذ سنـــــة509 هـ / 1115 م فنزل بها محمد بن علي بن يحي المسوفى واخذ معه اهل بيته واولاده وحشمه ، ثم استولى على الجزيرتين حولها (منورقةويابسة) وانشأ بها امارة مستقلة وجعل الدعاء فيها لبنى العباس كما كان يفعل المرابطون واشتهـــر تلقبيه (بالميورقى) ، ومن تلك التاريخ وبنو غانية يتوارثون امارة الجـــزائر الشرقية (الباليار) الى آخر القرن السادس الهجـــرى (12 م) حين قضى عليهم الموحدون ٠

وكان الموحدون لما تم لهم الاستيلاء على هذا الشمال الافريقى واحتلوا معه الاندلس تركوا جزائر الباليار لبنى غانية ــ حلفاء خصومهم المرابطين ــ لغاية انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منهم انصارا لهم فى عرض هذا البحر الابيض المتوسط ، فكانوا ينتظرون منهم ان يدخلوا فى طاعتهم من دون قتال ، ولكن الامر كان بعكس تلك ، فان بنى غانية ثبتوا على مبداهم وحافظوا على ولائهم ووفائهم للمرابطين ، وظلوا يتربصون الفرصة لاعادة مجد المرابطين ٠

ولما توفى محمد الميورقى (546 هـ /1151 م) تولى بعده ولده اسحاق امارة الجزائر الشرقية ـ الباليار ـ وجرى فيها على طريقة الملوك ، فانشأ جيشا واسطولا لغزو الروم ودفع غزاتهم ، وكانت له فى كل سنة رحلتان الى ديارهم يغنم ويسبى ويعود ظافرا ، وبالغ فى مجاملة الموحدين بنى عبد المؤمن فكان يهاديهم ببعض ما يغنم ليشغلهم عنه ، فكانوا يقبلون منه ذلك ولكنهم كانوا لا يفترون عن دعوته الى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، وتارة نراهم يتوعدونه على ترك ذلك ، فكان يعدهم ولا يفعل الى ان استشهد فى بلاد الروم سنة 579 هـ / 1183 م ، وتولى بعده ابنه محمد فبعث بطاعته لخليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن فقبل منه ذلك وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر امره ويتاكد من بيعته ، وكان لمحمد هذا عدة اخوة يساهمونه فى الرئاسة فلما ابتهى اليهم خبر البيعة وعلموا بالامر الذى قدم من اجله قائد الخليفة انكسروا عن اخيهم لانه لم يكن اعلمهم او اخبرهم بمكاتبة خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن فعملوا على القاء القبض على اخيهم محمد ومعه قائد الموحدين علي بن الروبرتير ، وقدموا لرئاسة جزائر الباليار اخاهم علي بن اسحاق وهو صاحب هذا الزحف على بجاية ـ بل وعلى المغرب العربى كله ـ كما سنوجزه فى هذه الصفحات من مجلة الاصالة الغراء ، وفى ذلك نجد الغبرينى يقول :

« وكان اسحاق ابن غانية بجزيرة ميورقة وهو بقية اللمتونيين فوجه له من مراكش من قبل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة فامتنع من ذلك ، وكان بين يديه ولداه علي ويحيى ، فقال للرسول : انا لا اراهم ولا يرونني وهو يعنى الموحدين ـ ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على رأس هذين ، واشار الى رأس ولديه ، فانفصل الرسول عنه وتجهز الولدان بعد كبرهما فى طرائد فيها بعض الفرسان وصلا الى شاطىء بجاية بمحل بيع السبى منها ـ اى بحومة المذبح من جهة ربضها ـ وكانت البلدة شاغرة من الجيش ، فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لاجل السبى ، فنزلت الخيل معدة ، ولما وصلت له مستعدة ، والناس ما عندهم من شانهم خبر ، فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من « باب اللوز » الى قصبة البلد وتملكوا البلد ، ولم يكن فوق باب اللوز سور فى ذلك الزمان وطالبوا آلناس بالبيعة فبايعوهم ·

···ثم ان الموحدين تجهزوا برا وبحرا من فورهم ليستأصلوا من البغاة شأفة امرهم ، فانفصل على بن غانية عن الحال وتبع الموحدون الناس بما ظهر منهم من مقال أو فعال ··· » ·

وكان الذى جرأ على بن غانية هذا على هذا الزحف الذى اشار اليه الغبرينى وتكلم عنه المؤرخون مثل المراكشى عبد الواحد وابن خلدون وابن الاثير هو ما كان يتوقعه عندما سقط خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى وقعة (شنترين) غربى جزيرة الاندلس متاثرا بجراحه فمات (580 هـ / 1184 م) واخذ الموحدون حينئذ فى اخذ البيعة لابنه يعقوب ، فتوقع فيمن

كان معه نشوب الخلاف بين ابناء عبد المؤمن لكثرتهم ، ولعلــه تصور ايضا انــه قد يوجد فى المصامدة وهم قبيل المهدى بن تومرت من يدعو الى نفســه ؟ وذلك بالاضافة الى ما كانت تنطوى عليه احناء صدر الميورقى من حب الانتقام من هؤلاء الذين قضوا على دولتهم دولة المرابطين مــن لمتونة التى هى قبيلته وفيها أقاربه ، ولكنه رأى أنه لا قبل له بالمقاومة بارض الاندلس لضيق المجال هناك وعــدم وجود العدة والعدد فاختار الانتقال الى المغرب لعله يجد به من الاعــراب والبربر الموالين للمرابطين والناقمين على الموحدين من يساعده على الانتصار على اعدائه ، ولربما انــه لاحظ كذلك جانب العقيدة فيما جاء به الموحدون من عقائد الشيعة فيما يتصل بنظرية الامام المهدى والمهدوية ومباحث الاشاعرة فيما يتعلق باصــول الدين مما يخالف ما كان عليه اهل المغــرب من بساطة العقيدة على عهد المرابطين ، ولا سيما انــه وجد الى ذلك ببجاية يومئذ من اعيانها مــن دعاة الى تملكها والاستيلاء عليها ، وقد وقعت بيد الموحدين منذ سنة 546 هـ / 1152 م ، كــل ذلك نراه صالحا لان يكون سببا مباشرا وعاملا مشجعا للميورقى على هذا الزحف والمخاطرة بنفسه وباتباعه فى قدومه الى المغــرب .

وفعلا نشط الميورقى للعمل على تقويض مملكة الموحدين بالاندلس وبالمغرب ثم اجمع امــره واعتزم على شن غارته على المغرب اولا فنظم اسطولا يحتوى على 32 قطعة حربية وعدها ابن الاثير عشرين ؟ وملأها بجيش يبلغ عدده 4000 مشاة ، و 300 فارس ، وفى الكامل لابن الاثير قال نحــو مائتى فارس ؟ ... وما كاد يحل يوم الاثنين لست خلون من شعبان سنــة 580 هـ / 12 نــوفمبر 1184 م حتى كانت جيوش ابن غانية بساحل بجاية ، واخذت تنزل بنا حية المذبح فى مكان بيــع السبى من المدينة ، فقاتله بعض اهلها فتغلب الميورقى عليهم واحتل جبل الخليفة ودخلت جيوشــه المدينة من (باب اللوز) ولم يكن اذ ذلك مســورا ، وبما ان والى المدينة ابو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن كان متغيبا فى جيشه عن المدينة ذاهبا فى طريقه نحو المغرب الاقصى مغفــلا لشان المدينة حيث تركها رهــن الطوارق ، فانتهزها الميورقى فرصة وتقدم الى القصبة فاحتلها من غير قتال وركز علمه الاسود بها ــ وهو شعار العباسيين ــ ثم يمم المســجد الجامع والناس فى صلاة الجمعة فاحاطهم بجنوده ، وما راع اهل بجاية الا ونطاق الحصار مضروب عليهم من كــل جانب ، فارغموا عندئذ على مبايعة ابن غانية الميورقى باسم الخلافة العباسية فكان من بايعه خلى سبيله ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه وكان فيمن امتنــــع عن البيعة قاضى بجايــــة العــلامة الامـــــام ابــــو علي حسى المسيلى فاكرهوه عليها ، فقال لا نبايع من لا نعرف هل هو رجــل أو امرأة معرضا بزي الميورقى الذى كان سائرا على عادة اسلافه اللمتونيين من استعمال اللثام بحيث لا يبدون وجوههم لاحد وحينئذ كشف الميورقى عنوجهــه قال صاحب العنوان : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة لولا علو منصب الفقيه ابى على رضى الله عنه

ما ساعده ، وتلقب الميورقي بامير المسلمين وهو لقب المرابطين وقد زالت دولتهم ، ووافقه على ذلك بقايا دولة بني حماد المنحرفون عن دعوة الموحدين وتاسست يومئذ امارة افريقية مستقلة ·

ولقد كانت هذه المباغتة الحربية فيما يستقبل سببا في غلق الناس لابواب المدينة عند انقطاعهم لتادية صلاة الجمعة في المساجد وبقيت فيهم سنة متبعة ·

وصادف يومئذ ان كان والي القلعة موجودا بمتيجة فلما بلغه الخبر اسرع لمظاهرة والي بجاية وكانت هناك حرب وقتال شاركت فيه نحو الالف من سكان قبائل تلك الجهات واعرابها المنضمة الى ابن غانية فانتصر فيها على الموحدين واخذت جنوده في الانتشار على مدن المغرب الاوسط فاحتلوا مدينة الجزائر ومليانة ونواحي مازونة وتلمسان ووهران والقلعة الحمادية كما توجهوا الى ولاية قسنطينة فاحتلوها ما عدا مدينة قسنطينة فانهم لم يقووا على فتحها ·

وكان فيمن استعان بهم ابن غانية في حملته هذه وتماديه على الغزو واستمراره في تتبع اثر الموحدين بهاء الدين قراقوش الغزي الذي كان متوليا على طرابلس الغرب وهو احد موالي السلطان صلاح الدين الايوبي فاستعان به ثم انقلب عليه واخذ منه طرابلس نفسها واستولى على بلاد الجريد وصفاقس والقيروان والمهدية وجزء من ولاية قسنطينة ·

ثم وقع زحف خليفة الموحدين يعقوب المنصور على المغرب الاوسط فجاءه في عشرين الف فارس يسايره اسطوله البحري الذي كان يقل معه عددا عظيما من الجند وكانت هناك معارك طاحنة ووقائع دامية انتصر فيها المنصور وفر علي بن غانية الى الصحراء فلم يدر مكانه حتى وجد ميتا بخيمة عجوز اعرابية كانت تسكن بنواحي توزر من بلاد الجريد التونسية (585 هـ / 1189 م) ·

ثم بعد ذهاب علي بن غانية ظهر في الميدان اخوه يحيى (597 هـ / 1200 م) بمظهر القوة والباس ، وشايعه في ثورته هذه طوائف من اعراب بني هلال وسليم ، اذ كانوا يرون فيه انه من بيت ملك ورئاسة سابقة فانقادوا اليه ، فزحف بهم على القطر الجزائري مرة اخرى ، وقاومه هذه المرة ابو الحسن والي بجاية وكان اللقاء بينهما بنواحي قسنطينة انهزم فيها جيش الموحدين ، ثم تقدم يحيى الى ارجاء الصحراء فاحتل مدينة بسكرة ونكل بأهلها وسجن عاملها ابا الحسن بن ابي يعلى ، واستولى على تبسة وبونة ـ عنابة ـ وقفصة وبلغ الى تونس فاحتلها بعد اربعة اشهر من حصارها ثم عاد الى قسنطينة فاجلاه عنها الموحدون فارتحل الى بجاية (599 هـ / 1202 م) وبسط عليها نفوذه نحو سنتين ، ويومئذ اخذ الموحدون في شن غاراتهم على جزائر الباليار فاحتلوها وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحاق بن غانية وقضوا بذلك على ملك بني غانية بتلك الجزر ، واستمر الكفاح بأرض الجزائر ضد الثائرين المايورقيين حتى استرد الموحدون مدينة

بجاية من يحيى فنزل بها الخليفة الناصر الموحدى سنة 601 هـ / 1204 م والحقها بولايـــة تونس ونصب على هذه الولاية ابا محمد عبد الواحد بـــن ابى حفص جد الاسرة الحفصية المتملكة بعد ذلك بتـــونس ٠

وحينئذ اختفى يحيى بن غانية ريثما استعاد بعض قوته فاعترض الخليفة الناصر بسهل شلف وهو فى طريقه الى المغرب الاقصى فكانت بينهما مقتلة عظيمـــة (604 هـ / 1207 م) بتلك النواحى انهزم فيها يحيى شر هزيمة وفتر بعدها ذكر ابـــن غانية ردحا من الزمن ثم ظهر امـــره بنواحى تيهرت حيث نزل بها واحتلها وقضى على حامية الموحدين بها وقتل عاملها يومئذ ابا عمر ابن موسى بن محمد حفيد عبد المؤمن (606 هـ / 1209 م) فكان ذلك آخر العهد بعمران تيهرت القديمة ٠

ثم تصدى بعدها عامل افريقية الحفصى لقتال ابن غانيـــة فقضى على شـــوكته (618 هـ 1221 م) وبقى فى اثره حتى ادركه بارض الزاب الجزائرى فأجـلاه عنه (622 هـ / 1225 م) فخرج يحيى فى فلوله متوجها نحو مدينة الجزائر فلقيه بمتيجة منديل بن عبد الرحمن المغراوى وكان فى اخضاع اهالى لمدية وونشريس فاقتتل هناك الجمعان وقتل منديل فحملت جثته الى الجـــزائر ونصبهـــا يحيى المايورقى على بـــاب المدينـــة وبقي يحيى يعمل على اثـــارة الفتـــن بارض الجزائر ودخل بجاية ودلس مرة اخرى واخذ يتقلب فى البلاد هنا وهناك الى ان تجرد لقتاله ابو زكرياء الحفصى فاصلت عليه السيف ولاحقه حيث ما حـــل وارتحل فتشرد ابن غانية فى اقطار المغرب الاوسط ودخل مدينة واركلة وتسرب منها الى ارض الـــزاب واستمر على تشرده الى ان ادركه حمامه بوادى شلف وقيل بارض الزاب سنة 631 هـ / 1233 م وقيل بعد ذلك بسنتين ؟ ٠٠٠ وبموته كان انقراض ملك لمتونة من الوجود وذهب ذكر بنى غانية فى الذاهبين ٠

والخلاصة ان النصر فى هذه الحرب كاد ان يكون فى جانب بنى غانيـــة لولا ان الموحدين كانوا قد احكموا خطط حربهم ضد هؤلاء المايورقيين وعرفوا كيف يسوسون رعاياهم بالحسنى حتى تمكنوا من ناصية القبائل المنشقة عنهم وعادت اعقاب الثورة كلها بالوبال والخسران عـــلى مثيريها من بنى غانية بل لم يكن فيها لاحد من الطرفين اى مصلحة فكثر فيها القتل وانتشر فيها الفساد والنهب والحقت بالناس اضرارا كثيرة فقطعت الاشجار وهتكت الاعراض وخربت الحصون والمدن والقرى ، وفيها كان خراب تيهرت ، ومتيجة ونواحى شلف والقلعة وحمزة ومرسى الدجاج وارشقول بسيف هذا البحر وغيرها من المدن الجزائرية والتونسية ٠٠٠ وعمت الثورة كامل ارض المغرب الاسلامى بما فيه من البلاد الطرابلسية الليبية ، ولكنها كانت كلها أولا وبالذات وبالاعلى صاحبها باضمحلال امارة بنى غانية بجزر البليار ، ثم انها آلت بالهلاك على اهل المغـــرب قاطبة فيما اصيبوا به فى اموالهم وانفسهم من العيث والفساد وعلى دولة الموحدين نفسها فانها خســـرت

وحدتها السياسية باضمحلال سلطتها الزمنية فى كلا القطرين : الجزائرى والتونسى ، فالاول كان من حظ الزيانيين (633 ـ 962 هـ / 1235 ـ 1554 م) والثانى كان من حظ الحفصيين (627 ـ 943 هـ 1229 ـ 1536 م) ثم اخذ شان الموحدين يتدهور منذ واقعـــة العقاب الشهيرة بالاندلس (609 هـ 1212 م) وهكذا الى ان سقطت دولتهم بيد المرينيين سنة 668 هـ / 1269 م « وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

مصـــادر البحـــث :

المعجب لعبد الواحد المراكشى طبع ليـــدن 1881 م

تاريخ ابن خلدون ج 6 طبع بـــولاق 1284 هـ

عنوان الدراية لاحمد الغبرينى طبع الجزائر 1910 م

المسالك لابن حوقل ـ المكتبة الجغرافية ـ طبـــع ليدن 1938 م

الكامـــل لابن الاثيرج 11 ـ 12 طبع بيروت 1966 م

وفيات الاعيان لابن خلكان ج 2 طبع بولاق 1299 هـ

الاستقصا لاحمد الناصرى ج 2 طبع الدار البيضاء 1954 م

الاعلام لخير الدين الزركلى الطبعة الثانية القاهرة 1954 ـ 59 م

موجز التاريخ العام للجزائر عثمان الكعاك طبع تونس 1944 م

تاريخ الجزائر للميلى ج 2 طبع قسنطينة 1932 م

تاريخ المغرب لمحمد بن عبود ج 1 طبع تطوان 1951 م

تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن الجيلالى ج 2 الطبعة الثانية (بيروت) 1965 م .

بجاية

هايزيس فون مالتسان
ترجمها باختصار :
د· ابو العيد دودو
كلية الآداب
جامعة الجزائر

لا شك ان بجاية العربية ، التى كانت فى العصور الوسطى تحمل اسم « بوجيا » ، تحتل مكان « صالدى » الرومانية القديمة · فقد توهم الاثريون السابقون ، بناء على تشابه الاسماء ، ان بجاية هى «واغا» او «باغا» القديمة ، وذهب مانير الى انها مدينة «شوبى » التى ورد ذكرها فى خريطة الطرق ، غير ان ليون رينيير قد برهن بواسطة نقشين ، عثر عليهما حديثا وحفظا فى متحف « اللوفر » ، على ان راى شون الذى اكتشف فى بجاية مدينة صالدى القديمة ، هو الصحيح ·

وهناك آثار كثيرة ، تعود الى العصور الغابرة ، تدل على ان جميع الشعوب ، التى تمت لها ، على التوالى ، السيطرة على هذه السواحل ، كانت تعرف اهمية هذا الموقع · فقد بقيت آثار السور الرومانى ، الذى لاتقل دائرته عن سبعة آلاف وخمسمائة ، فى عدة اماكن ·

ومن بين النقوش الرومانية الهامة والجديرة بالاعتبار نقش او فيديوس هو نورا توس ، الذى عثر عليه هنا وحفظ فى متحف الجزائر ، وتتمثل اهميته فى انه يحتوى على تاريخين مختلفين فى آن واحد ، التاريخ الرومانى القنصلى ، الذى سميت فيه السنة باسم القنصل ، والتاريخ الاقليمى الموريتانى · وبفضل هذا التاريخ المزدوج اصبح فى الامكان تحديد سنة 40 بعد ميلاد المسيح على انها بداية التاريخ الموريتانى الذى كانت معرفتنا به ناقصة · وقد عثر هنا بالاضافة الى ذلك على عدد كبير من الطوب المحروق الرومانى والاجر المجوف ·

Tegulae Hamatae وكان الكثير من ذلك ذا نقوش متعددة ، مما جعل لها اهمية ما رغـم تفاهتها فى حد ذاتهـــا ٠

وكانت صالدى Saldae قبل العصر الرومانى مستعمرة فينيقية ويشتق غيسنيوس Gesenius فى صرد Sered والكلمة تعنى « الحجر الصلد » وسوف يبدو هذا الاشتقاق معقولا لكل من يعلم ان صالدى كانت فى العصور القديمة تدعى صاردى Sardae هكذا عند Strabon وعلى هذا يكون اسمها مشتقـا من نفس الاسم الذى اشتق منه اســـم جزيرة سردينيا ، الذى اطلقه عليها الفينيقيون ايضا ٠ ولا تزال كلمة صلد العربية حتى يومنا هذا تعنى « الحجر الصلد » ٠

ويقول بطليموس ان موقع صالدى على بعد خمس دقائق من يوليا القيصرية ٠ واذا قسمنا هذه الدرجة الى نصفين ، حصلنا على فارق الطول الحقيقى بين شرشال Caesarea وبجاية Saldae وجاء فى خريطة الطرق ان المسافة بين بجاية وشرشال هى 218 معلما ، وهذا العدد يناســب تماما 305 كم ، وهى المسافة بين المدينتين على امتداد الساحـــل ٠

ويطلق بلينيوس Plinius على القرية الرومانية، التى رفعها، فيما ذكر، القيصر اغوسطوس الى مقام مستعمرة ، اسم Colonia julia Augusta Saldautium ويقول سترابو Strabo ان هذه كانت فى العهد الاغوسطى تكون نقطة الحدود بين ولايات ملك موريتانيا يوبا الثانى وبين اقليم نوميديا الرومانى ٠ وفيما عدا هذا فان التاريخ لم يترك لنا كثيرا عن هذه المدينة ٠ ولكن بما ان صالدى كانت تمثل ملتقى لعديد من الطرق الرومانية ، فاننا نستطيع ان نستنتج من ذلك ان هذه المستعمرة الملكية كانت لها فى القديم اهميتها ٠ ومن الطبيعى ان صالدى كانت فى الفترة المسيحية اسقفية ، وكان اسقفها بابكاريوس Paucharius قد شارك فى مؤتمر زعماء الكنيسة الذى انعقد سنة 484 فى مدينة قرطاجنـة ٠

ولا بد أن تكون صالدى قد فقدت وشيكا تلك الاهمية التى كانت لها ايام كان لرومة سلطانها العظيم وقوتها الكبيرة ، ذلك ان القبائل ، التى كانت تقيم حول المدينة ، وكان بعضها خاضعا جزئيا للرومان ، وبعضها الآخر لم يكن خاضعا لهم على الاطلاق ، قد بدات بعد سقـــوط الامبراطورية تظهر عداوتها للمدينة ، وكانت غالبا ما تحاصرها وتشل حركتها ٠

واتخذ الفندال صالدى عاصمة لهم قبل ان يبلغـــوا مدينـــة قرطاجنة ، وهذا ما ابقى على أسوارها ، فى حين ان جميع الامكنة الافريقية الاخرى قد هدمت من طرف ابناء عمومتنا الجرمانيين نتيجة الفهم السياسى الخاطىء ، لقد ادرك غيزريك بنظريته الحادة اهمية موقعها فاختارها مقرا له ، وأمر هذا الملك الفندالى بتوسيع اسوارها ، وكان محيط السور الفندالى 15،000 أى انه كان

ضعف السور الرومانى · ولا تزال بقايا هذا السور الى اليوم ، ولعله الاثـر الحقيقى الوحيد فى افريقيا ، الذى يرجع الفضل فى نشاته الى ذلك الشعب الذى لم يكن يعرف غير التدمير والتحطيم · وعندما فتح غيزريك قرطاجنة ، اصبحت هذه عاصمة الامبراطورية الجرمانية الكبيرة في افريقيا ، تعادت صالدى الى ما كانت عليه فى السابق من قلة الاهمية ·

ولم يرتفع شانها وتزدهر من جديد الا فى القرن العاشر عندما اسس بنو حماد ، وهـم من قبيلة صنهاجة ، مملكتهم هنا ، حيث اتخذوها عاصمة لهم واطلقوا عليها اسم بجاية · وقد اثنى عليها الادريسى الذى وصفها بعد مضى قرنين ، فذكر أن تجارتها فى غاية الازدهار ، وان ميناءها ترسوبه سفن كثيرة ، وان سكانها اغنياء وصناعها ماهرون ، وخاصة فى صنع الاسلحة والمصنوعات الجلدية · ومما يدل على اهمية المدينة العربية وعظمتها دلالة واضحـــة ان السكان لم يلبثوا ان شعروا بان الاسوار القديمة قد ضاقت بهم ، فحرصوا على بناء سور جديد يزيد محيطه عن سبعة كيلو مترات ، ولا يزال قسم من هذا السور الشرقى قائما الى اليوم ، وتعلوه بروج عديدة ، ويمتد من قمة جبل غراية الى سفحه ولعل مدينة بجايـة كانت فى ذلك الحين اهم مركز تجارى فى شمال افريقيا · وكانت القبائل ، التى لم يحاول بنو حماد اخضاعها بالقوة ، وانما حاولوا التاثير عليها بطرق سلمية ، كانت هذه القبائل صديقة لملك بجاية واهاليها الذين كانوا يشترون منها منتوجات اراضيها الخصبـــة ·

وحين استولى عبد المؤمن الموحدى سنة 1152 على ممتلكات دولة بنى حماد ، وتمت تبعا لذلك الوحدة بين بجاية ومملكة المغرب ، ثم عندما اصبحت بعد ذلك عام 1240 تابعة للمملكة التونسية ، بقيت التجارة فيها على الرغم مما حدث ، مزدهرة على سابق عهدها لمدة طويلة · ففى هذه الفترة بدأت العلاقات التجارية بين بيز وبجاية ، ثم بين هذه وبين البندقيـــة وجنـــوة ، وبقيـت هذه العلاقات التجارية قائمة الى ان استولى الاسبان على بجاية · وكانت للبنزانيين والجنويين فيها خاناتهم وحماماتهم وكنيستهم ومقبرتهم ، وكانوا يتحركون فى هذه المدينة وفى البـــلاد كلها ايضا بحرية تامة ، وما ابعد الفرق بين هذه المعاملة الإنسانية التى عرفها الاجانب فى ظل الحكم العربى وبين تعصب الاتراك ووحشيتهم حين حرموا فيما بعد ، على الاوروبيين ، خلال ثلاثة قـــرون ، الدخول الى هذه البلاد بصفة قطعية تقريبا !

كان المسيحيون فى ايام الحكم العربى هـم الذين يظهرون التعصب ويميلون الى النـــزاع · فقد اختلف الجنويون سنة 1390 مع سلطان بجاية فى ذلك الحين ، وهو أبو العباس بأي تونس وقاموا بحملة صليبية مثيرة للسخرية ضد الساحل الافريقى ، وطلبوا من الملك شـارل السادس ان يكون قائدهم فيها امير فرنسى يتمثل فى شخص دوق بوربون ، ولكن عجز هذا القائد جعل هذه

الحملة اكثر اثارة للسخرية فيما كانت عليه هي في حد ذاتها ، فبعد اقامة قصيرة ، بمنطقة خالية على ساحل المهدية ، لافائدة منها ، تخلت القوات الفرنسية ، وعلى رأسها الامير ، عن الجنويين وعادت عاطلة الى فرنسا ، فما كان من الجنويين الا ان اسرعوا الى عقد الصلح مع باي تونس ابي العباس ، الذي كان قد افزعه سلاح الحلفاء القوي ، ونالوا منه شـــروطا كانت في صالحهم ، فاصبحت التجارة منذ ذلك الحين بيد الجنويين ٠

وفي القرن الخامس عشر بدأت سمعة بجاية تسوء عند هؤلاء التجار المسالمين فقد شـــرع سكانها في القيام بأعمال القرصنة ، تلك العدوة اللدودة لكل حركـــة تجارية وملاحية ٠ ويبدو ان الاسبان هم اكثر من تضرر من قرصنة اهل بجاية ولوضع حد لها ارسل الكاردينال خيمينس Ximenes سنة 1510 حملة الى بجاية بقيادة الكونت بيد رودي نافارو Pedro de Nayarro الذي استطـاع بالفعل ان يستولي على المدينة بعد أن قضى على مقاومة الامير التونسي عبد الرحمن التي لم تـــدم طويلا٠ وقد ابتهج الكاثوليكيون المتخمون بهذا النصر ابتهاجا عظيما فاقيمت الصلاة في رومة واسبانيا اما اهالي جنوه والبندقية فانهم كانوا اقل سرورا باستيلاء اكثر الدول المسيحية تعصبا على بجاية لان هذا الاستيلاء قد قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة ٠ فاخرج الاسبان منها جميع المسلمين تقريبا ، وعينوا لها اسقفا ، مع ان سكانها ، باستثناء القليل منهم ، كانوا من الجنود ، وارسلوا عددا من الرهبان ومفتشا لتنصير اليهود وتتبع الزنادقة فيها ٠

ولكن قلعة الكاردينال المتعصب السياسية لم يقدر لها ان تبقى طويلا ، فقد نشأت في افريقيا قوة جديدة ، لم تلبث ان عظمت واتسع سلطانها ٠ وتمثلت هذه القوة في الانكشاريين والقراصنة الاتراك ، وفي مقدمتهم الاخوان ذو اللحية الحمـــرآء (كان كلا هما يدعى ذا اللحية الحمراء) عروج وخير الدين ، اللذان حاربا اسبانيا دون هوادة ، ولو لم يكن لهما النصر في البداية دائما ، اذ فقد بابا عروج ، أكبر الاخوين ذراعه امام بجاية ، التي حاول فتحها سنة 1512 ، ولكن خلفاءه لم يعرفوا الراحة الى ان تمكنوا في النهاية من طرد الاسبان من هذا الموقع المهم ، ففي سنة 1555 استسلم الدون الفونسودي بيرالتا Don Alfouso de Peralba آخر حاكم اسباني لبجاية ، فانتقلت الى ملكية صلاح رايس ، باشا الجزائر ، ان الاسبـانقد خدعتهم شجاعتهم هذه المرة ٠ وكان الحاكم عاجزا عجزا كبيرا ، الى درجة انه لم يعرف كيف يفرض على قاهريه شروط الاستسلام التي تنفع الحامية ، ذلك انه لم ينج في هذه المناسبة الا الحاكم نفسه وعشرون جنديا اختارهم بنفسه ، امـا الباقون ، وعددهم يزيد عن الالف فقد ارسلوا عبيدا الى الجزائر ، حيث استعملوا في الاشغـــال الحكومية ، ولم ينعم بيرالتا بحياته التي اشتراها بالعار ، مدة طويلة ، فقد اتهمه شارل الخامس بالخيانة بعد حين وامر باعدامه في الساحة ببلد الوليد ، ويروى ان هذه الحادثة ، التي لطخت

اسبانيا بالعار ، قد تركت اثرا سيئا فى نفس الملك شارل الخامس ، الى درجة ان تلك المحنـــة ، بالاضافة الى ظهور ذلك الشهاب ، الذى فسر تفسيرا اساسه الوهم ، كانا السبب المباشـــر فى تنازله عن العـــرش .

وظلت بجاية فى فترة الحكم التركى ، الذى يقف فى مقابل الحكم الاسبانى من حيث التعصب محتفظة بالمكانة الوضيعة التى انزلها اليها الكاردينال خمينيس ، بل ازدادت مكانتها من تدهور وانحطاط .

وعندما استولى عليها الفرنسيون فى 29 سبتمبر سنة 1833 ، كانت قد اتخذت طابع قريـــة تعسة ، وبقيت المنطقة الفرنسية فى هذا القسم من الساحل مقصورة على المدينة لمدة طويلة ، فكان سادة الجزائر يعيشون فيها محاصرين تقريبا ، فقد كانت القبائل ، التى لم يتمكنوا من اخضاعها ، تحيط بهم من كل جانب ، وفى سنة 1836 عم الاستياء فرنسا كلها حين قتل الحاكم الفرنسى مـن طرف احد زعماء القبائل، وهذه الحادثة لها دلالتها الخاصة فى هذا المقـــام .

فقد حدث ان الشيخ سعيد ، شيخ اولاد تامسالس ، كان قد تآخر مع مرابط عجوز ، فاقترب هذا الاخير ، حين كانت العداوة لا تزال قائمة بين القبائل المحيطين ببجايـة والفرنسيين المقيمين فيها ، فى المواقع الفرنسية ، فالقى عليه القبض واتهم بالجوسسة واعدم . وما أن سمع الشـــيخ سعيد بموت صديقه واخيه ، حتى اقسم ان ينتقم له ، وبما انه لم يستطع العثور على الجنود الذين القوا القبض على المرابط واعدموه ، وكان بالاضافة الى ذلك يعتبرهم مجرد آلات فى أيدى غيرهم ، لا يستحقون منه اى اهتمام ، فقد قرر ان ينتقم من حاكم بجاية نفسه ، لانه فى اعتقاده هو الذى امـــر باعـــدام شخصيـــة هى شخصية صـــديقه المرابط ، ولم يكن الحاكم طبعا يعـرف شيئا عن قضية الاعدام هذه ، وقد كان الاعدام يتم بناء على امر عام ، لا يحتاج معه فى مثل هذه الحالة الرجوع الى الحاكم العسكرى او اخباره بذلك .

ولم يستطع الشيخ سعيد ان ينفذ قراره بسرعة ، لان الفرنسيين كانوا قـــد تحصنوا خلـف اسوار مدينة بجاية ، واكتفوا بالدفاع عن مراكزهم ، فانتظر فرصة خروجه للقيام بحملة ، ولكن هذه الفرصة لم تتم . ذلك ان الفرنسيين كانوا قد تلقوا الاوامر بعدم الهجوم على القبائل المجاورة مهما بلغ تحدي الشيخ سعيد لهم ، فقام الشيخ سعيد لذلك ، لانه لم يستطع الانتقام لصديقه ، ولكنه لابد ان ينتقم له فى يوم من الايام ، فالعرف يحتم مثل هذا الانتقام والا فهو جبان ، وكانت القبائل الاخرى تحرضه على ذلك باستمرار ، واهتدى اخيرا الى طريقة تمكنه من عدوه ، فاخذ يتقرب الى الحاكم العسكرى ، ودعاه لاجراء حديث معه ، القصد منه توقيع اتفاق بينهما .

وفى اليوم التالى حضر الحاكم العسكرى سلومون دى موى الى خيمة الشيخ سعيد ، يرافقه ترجمان وبعض الضباط ، فانتقم منهم جميعا ، الامر الذى آلم الفرنسيين كثيرا ، الا انه كان فى امكانهم ان يتجنبوا مثل هذه الحوادث لو انهم حاولوا التعرف على عادات اهل البلاد ، ولم يحتقروها احتقارا كبيرا ، كان هذا اقل ما يطلب منهم ، ولكن الفرنسيين كانوا ينظرون الى الاهالى على اختلافهم على انهم « بدو تعساء » لا فرق بين هؤلاء واولئك ·

ولم تتمكن فرنسا من اخضاع القبائل كلها الا فى سنة 1857 ، وكانت الحملات التى تمت قبل ذلك بدون نتيجة ، ومنذ ذلك الحين تخلت بجاية من الحصار الذى كان مضروبا عليها من ناحية البر ، وقد بدأت الآن ، باعتبارها عاصمة ارض شاسعة خصبة ، تنهض من كبوتها وتستعيد الاهمية التى كانت لها · ولكن سكانها لا يزيدون فى الوقت الراهن (1862) طبعا عن 1200 اروبى و 900 حضرى ·

وليس لبجاية ميناء حقيقى ، ليس لها على الاقل ما هو جدير بهذا الاسم ، غير ان المراسى فى مأمن من العواصف بصورة عامة ، وغير بعيد من بجاية يوجد بين رأس البر واق وقلعة عبد القادر ميناء سيدى يحيى ، الذى يحمى السفن فى اى فصل من فصول السنة ·

لم تقدم لي بجاية الا القليل من وسائل الراحة الحديثة ، ففى « فندق الامم الاربع » ، الذى نزلت فيه ، لم استطع حتى الحصول على غرفة بمفردى ، فقد فرض على ان اقتسمها مع سائح آخر ، وكان هذا السائح من معارفى القدماء ، ولكنه لم يكن من ذلك النوع الذى ارتاح اليه كان انجليزيا ، التقيت به اثناء قيامى برحلة الى المغرب ، وكان يريد ان يدرس قرب سبته الجبل المعروف باسم الاخوة السبعة ، غير ان القبائل المجاورة هاجمته واستولت على متاعه · وكنت لا اسميه الا باحث الاخوة السبعة · وقد تمت رحلتى الى المغرب قبل رحلتى الى بلاد القبائل وبعد رحلتى الى كل من ولايتى الجزائر ووهران ·

وكان طعام الفندق رديئا ايضا ، ولم استطع الجلوس فى المقهى ، لانها كانت تعج بالجنود القذرين ، الذين تتصاعد منهم الروائح الكريهة ، وهم يلعنون باستمرار ، ففضلت ان اقضى وقتى فى الهواء الطلق ، وكانت المناظر الممتعة فى انتظارى ، فقد صعدت الى الجبل ، الذى يشرف على تلين مخروطى الشكل ، تقع فوقهما بجاية ، وتمتد بينهما هوة سيدى تواتى بخضرتها البديعة وغابتها الكثيفة · ويدعى الجبل الذى كنت واقفا فوقه جبل غراية · وكان امامى منظر ساحلى رائع ، تزيد فى جماله صفحة البحر الاخاذة · وكان هناك نهر صغير ، يشبه الساقية ، يتخلل المروج المرعة ويتفرع عنه سواق ، تمنح الحقول ، والبساتين الخضرة والحياة ·

وتعلو جبل غراية اليوم قلعة فرنسية ، يتألم لمنظرها كل مسلم ، لانها تحتل مكان ضـــريح يحمل اسم مرابط مشهور ، تعود المؤمنون على زيارته فى جميـــع الانحاء · فقد كان الفقراء والمرضى خلال القرون الماضية يحجون اليه ، لعجزهم عن الحج الى مكة ، ويعتبرونه مساويا لمكة وبفضل هذا الضريح اتخذت بجاية خلال فترة طويلة اســـم مكـة الصغيرة » ولكن الفرنسيين لم يعرفوا شيئا لا عن الوالى ولا عن مكة الصغيرة ! فقد هدموا ضــريح الوالى بوحشية ، ومنذ ذلك الحين اصبحت مكة الصغيرة مجرد مدينة عاديــة مبتذلـــة ·

نضال بجاية ومنطقتها
ضد الاستعمار الفرنسي

رشيد قايد
بكلية الآداب ـ جامعة الجزائر

عندما وصلت اخبار احتلال الفرنسيين للجزائر (5 يوليو 1830) قام عدد من الافراد الذين لا ضمائر لهم برحلة من بجاية الى الجزائر ليعرضوا على السلطات الفرنسية الوسائل التى تسمح لهم بالاستيلاء على المدينة ٠

ففى 3 اكتوبر 1830 نزل اثنان من الكلوغليين ، واحدهما اسمه مراد ، من قارب فى الجزائر قادمين من بجاية وطلبا مقابلة دو بورمونت ٠ وفى هذه المقابلة التى جرت بمحضر عدد من الضباط ، قدموا اليهم معلومات عن المدينة والحا على التنوية بقوتهما فى بجاية ، وعرضا عليهم تقديم المدينة الى الفرنسيين بمجرد ما يعربون عن رغبتهم فى ذلك ، على شرط أن يعين احدهما قائدا على المدينة والآخر ضابطا للميناء ، وسواء اكان الكونت دو بورمونت مقتنعا باقوال هذين الشخصين ، أم انه راى أن العملية على كل حال لن تكلفه شيئا ، فقد وافق على طلبهما وارفق قاربهما بسفينة شراعية حتى ميناء بجاية ٠

ولم يكد الرجلان يغادران الشاطئ ، حتى وجدا فى انتظارهما جمعا من الناس انقضوا عليهما وقتلوهما فى عين المكان ٠ وأما السفينة الفرنسية التى بقيت فى عرض البحر ، فانها كانت هدفا لعدة طلقات من المدافع اضطرتها الى العودة ادراجها ٠

وبعد ذلك ببضعة أيام ، اغتنم احد الكلوغليين ، ويدعى بوسطه فرصة انسحاب الحامية التركية من المدينة وأعلن نفسه ، بمساعدة أصدقائه ، قائدا على المدينة ٠ ولكن أحد أبناء البلد ، ويدعى

امزايا ، نازعه فى ذلك وحاربه ، ثم قصد الى الجزائر وخلع على نفسه لقب القائد ومـدير الميناء واتصل بالسلطات العسكرية الفرنسية بواسطة شخص يدعى جولى · وهناك عـــرض عليهم ان يمنحهم حرية الدخول الى الميناء ومساعدته لاحتلال المدينة · ولكنه نظرا لفشل المحاولة الاولى التى قاموا بها ، فانهم لم يعيروه اية اهمية ·

من الصحيح ان القوات الفرنسية كانت منهمكة فى عمليات فى جهات اخرى ، ولذلك ، فان الاستيلاء على سفينة فرنسية وقعت عند ساحل بجاية وقتل ملاحيها فى سنة 1831 ، لم يكن له اى رد فعل من السلطات العسكرية الفرنسية وفى سنة 1832 ، اضطرت سفينة شراعية فرنسية رســت فى ميناء بجاية للقيام بعمليات مسح طبوغرافى ، الى الرحيل، بعدما كانت هدفا لطلقات مدفعية (1) ·

وفى نفس السنة ، واجهت سفينة انجليزية جاءت ، على الارجح لنفس الغاية ، نفس المعاملة · وقد احتجت الحكومة البريطانية على هذا العمل وطلبت ترضيات من الحكومة الفرنسية ، قائلة انه « اذا لم تفرض فرنسا احترام أعلام اصدقائها على الشواطىء التى تعتبرها تابعـــة لها ، فان الحكومة البريطانية ستضطر الى استعمال وسائل اخرى لمنع تكرار هذه الاهانة ··· ولما اعتقدت الحكومة الفرنسية ان بريطانيا انما تبحث عن معاذر للتدخل فى هذه المنطقة ، فقد سارعـــت الى ارسال حملة الى بجاية ·

وكانت الخطوة الاولى ، هى تجديد الاتصال بالشخص المسمى بوسطه عن طريق صاحبـه جولى وقد حضر بوسطة بنفسه الى الجزائر لاجراء اتصالات رسمية وللمطالبة بامتيازات شخصية قبل كلشىء · ولما حصل على ترضيات عاد الى بجاية على متن السفينة « لو زير »بمرافقة القبطان لامور سيير وعدد من الرجال · وقد نزلوا فى مكان منعزل غير بعيد من منزله ·

ولكن بعض السكان لا حظوا العملية فقاموا باضرام النار فى المنزل ولم ينجح لاموريسيير وبوسطة فى الهرب الى بشق الا نفس وبعد ذلك عادوا الى عرض البحر · وبعد يومين من الانتظار على امل ان تقوم مظاهرة للترحيب بهم ، عادوا ادراجهم الى الجزائر ·

ولما وصل الى الجزائر ، اتصل بوسطة باربعة اشخاص ، احدهم تركى يدعى على قارة نجا بنفسه من عقاب احمد باى بقسنطينة بعد ما دبـر مؤامرة ضده ، والآخر يسمى على عجوز ، من سكان بجاية ، وثالث اسمه المدنى ، تاجر فى الزيت من بجاية أيضا ، والرابع رايس فلوكة يدعى ابراهام زرداب ، من بجاية كان يعمل تحت اوامر قائد سفينته «رايس» من مدينة الجزائر · وقد

1) كانت توجد فى حصن القصبة تسع قطع مدفعية ، وفى حصن موسى اربع قطع ، وفى حصن عبد القادر عشرون قطعة ، وفى حصن بواك سبع قطع ، وفى حصن دموس 4 قطع وهى ذات ابعـاد وعيارات مختلفة ·

تقدم هؤلاء ، وهم يحملون رسالة مزورة تحمل خاتم قاض (2) وصادرة ، فيما ادعوا عن سكان بجاية الذين يطالبون بحماية الفرنسيين من تعسف القبائل المجاورة ، ووضعوا على رأسهم بوسطة ، وطلبوا مقابلة السلطات الفرنسية • ولما عرضوا الامر على الجنرال فوارول ، الوالى العام ، الذى كان قد قرر مبدأ ارسال حملة عسكرية ، وعدهم بانه سيستجيب لطلبهم •

وبعد ذلك ببضعة ايام كلف الجنرال تريزل ردنسن اركان حرب جيش افريقية ، بالقيام بالعملية • وعلى الرغم من أن هذه الخطة كانت محاطة بالسرية التامة ، فان الامر قد افتضح وانتشر الخبر بسرعة فى المدينة ووصل الى بجاية • وكذلك استعد السكان الذين استولوا على حصون المدينة بعد رحيل الحامية التركية لمقاومة العدو •

سقوط بجاية :

وفى 29 سبتمبر 1832 ، دخلت سبع سفن حربية وثمان عشرة سفينة تجارية تحمل على متنها 1،800 جندى وضابط ، الى ميناء بجاية وقد قامت حصون عبد القادر وموسى وبرج ليلى وبواك باطلاق نيران المدافع على سفن العدو ، ولكنه نظرا لان مداها قصير ولان اطلاق النار لم يكن ، فيما يرجح مضبوطا، فانها لم تمنع نزول قوات العدو التى كانت تغطى عملياتها المدفعية البحرية • واثر ذلك ، غادر معظم سكانها المدينة وحل محلهم المقاومون الذين جاءوا اليها من مزايا وبنى وغليس وتا مزالت وافنايا وتوجه • وقد تمكنت اسلحة المقاومة من وقف زحف العدو وقتا قصيرا ، ولكن الفرنسيين كانوا يملكون اسلحة اكثر فعالية ويتمتعون بنظام افضل ، ولذلك فقد كانوا يكسبون الارض تدريجيا ، وكذلك احتل الغزاة على التوالى حصن عبد القادر واعالى بريجا ، قبل حلول الليل • وقد استمر اطلاق النار طوال الليل الذى تمكن الطبجية الفرنسيون تحت ستاره من وضع قطعة مدفعية فى اعالى بريجة • وفى نفس الوقت كانت الزوارق تكمل بمدافعها العمليات التى كانت جارية فى ضواحى برج داموس ، بينما كانت قطعة المدفعية التى وضعت فوق بريجه تقصف المدينة بدون تمييز •

وقد قام المقاومون الذين اجتمعوا فى حي باب البنود بشن هجوم فى عدة مواقع فى وقت واحد على العدو • وكذلك سارع الجنرال تريزل والقبطان لامورسيير الى موقع المعركة التى كانت شديدة فان كلا الفريقين فقد عددا كبيرا من الموتى كما سقط عدد كبير من الجرحى • ولما تخلى المقاومون عن سيدى التواتى ، احتله العدو وراح يقصف منه المنازل المجاورة التى كان المقاومون متحصنين بها •

2) سرق هذا الخاتم ابن القاضى ، رشاه بوسطه •

وفى ليلة 2 و 3 اكتوبر ، كان بوسطه يتجول فى انقاض البيوت المهدمة للبحـث عن التحف والاشياء الثمينة ، حينما أطلق عليه جندى فرنسى النار وأرداه قتيلا . هل كانت الطلقة غيـر مقصودة ، أم ان الجندى قتله ليستحوذ هـو على الطرف التى جمعها ؟ على كل حال ، فان أحدا لم يبك على هذا المغامر ، وقد اعتبر الحادث عقابا من الله على خيانته وجشعه (3) .

وفى يوم 4 اكتوبر ، انسحب المقاومون من مراكزهم الاولى والتجئوا الى الحدائق المجاورة وهناك اضطر العدو الى استعمال الوسائل الكبيرة لحمل المقاومين المحاصرين على الاستسلام . ولما أنتهى اطلاق النار ، دخل الجنود الفرنسيون الذين تدفعهم روح الانتقام والجشع الى المنازل وقتلوا كل من فيها بحرابهم . ولما شاهد بعض الضباط هذه الاعمال الوحشية تدخلوا بعنف لانقاذ الباقين على قيد الحياة ـ ستون من الشيوخ والنساء والاطفال (4) .

ولما تم له احتلال المدينة ، عمل الجنرال تريزل على اصلاح الخرائب وازالة الانقاض وبناء بعض التحصينات الصغيرة .

وفى هذه الاثناء ، كان المقاومون يطلقون أعيرة نارية من الهضاب المجاورة ، ولكـن هذه الاعمال لم يكن لها اثر يذكر فى نشاط القوات المحتلة . ومع ذلك ، ولكي يضمن الامن التـام ، صعد الجنرال لو مرسيى اليهم وشن هجوما على مواقعهم على رأس قوة تتكون من 900 جندى من التعزيزات التى وصلت مؤخرا الى المدينة .

ولما عاد الهدوء الى المدينة ، قام الجنرال تريزل والقايد مدنى (احد رفقاء بوسطة) بمجهود لاعادة اعمار المدينة بالسكان باستدعاء العائلات القديمة ومزايا من المناطق المجاورة .

وكذلك عادت بعض العائلات الى المدينة والى منازلها ، أو الى ما بقى منها ، بينما عادت عائلات اخرى لغرض واحد ، وهو محاولة العثور فى الانقاض على بعض الامتعـة التى كانوا يأملون فى امكان العثور عليها . وقد حاول القايد مدنى ، عبثا اغراء مزايا التى هى قبيلته ، على العودة ، فعرض عليهم منازل جديدة كما عرض أن يمنحهـم تعويضات للخسائر التى لحقـت بممتلكاتهم . وبدلا من عودة القبائل ، فرضت على بجاية حصارا اقتصاديا اضطر معه الفرنسيون الى استجلاب التموين الضرورى للمدينة عن طريق البحـر .

3) بمجرد وصول الفرنسيين الى المدينة ، سارع بوسطه الى منزل القايد منافسه . ولما لم يجده فى البيت هجم على عائلته التى يبلغ عدد افرادها 17 شخصا وقتلهم عن آخرهم . وبعد ذلك اتجه الى الذين عارضوا فى تعيينه فى الايام الاولى وقتل منهم 28 شخصا .

4) وهؤلاء الشيوخ وضعوا فى منزل صغير عند الحصن الاسبانى وفى شارع لا يزال يحمـل اسمهـم .

وبفضل الوعود والسخاء ، نجح المسؤول عن الشؤون الاقتصادية ، جنتي ، ومساعده لوسى على اغراء بعض التجار من الجزائر كما استجلب عددا من الصناع الايطاليين واستقدم 70 من سكانِ العاصمة وضواحيها وفتح لهم مسجدا وعين للمسجد اماما ·

المقاومـــة المحلية :

كانت الحامية الفرنسية فى المدينة قوية حيث يبلغ عدد رجالها نحو 4000 رجل ، ولكنها مع ذلك لم تكن قادرة على منع هجمات المقاومين الذين تبلغ بهم الجراة حـــدا يتحدون معه المراكز الامامية ويستولون على قطعان الماشية التابعة للجيش · وقد حاول الجيش ابعاد خطر المقاومين ووجه اليهم حملة فى مارس ويوليو 1834 اصيبت بهزيمة منكرة ·

وهذا النجاح شجع المواطنين للقيام بهجمات اكثر جراة ، وفى ليلة 9 اغسطس ، قامـــوا بهجوم مفاجئى نجم عنه انتشار الفزع والخوف بين السكان المدنيين بحيث سارعوا جميعا الى الميناء وركبوا السفن واستعدوا للرحيل · وفى ليلة الغد ، كرر المقاومون العملية من جهة باب فوكه · وبعد ما احتلوا المنازل المجاورة ، اشعلوا النار فى حصن سالم ثم فى منازل الحيى · ولكن اضواء النيران ساعدت الفرنسيين على احكام طلقات مدافعهم ومنعوهم من التقدم الى الامام · ولذلك ، فقد انسحبوا عند مطلع الفجر ·

ولكي يحول دون وقوع مفاجئات من هذا القبيل ويضمن مزيدا من الامن ، أمر الكلونيل دو فيفيى بقطع جميع الاشجار الموجودة فى الحدائق العمومية ·

وفى سنة 1835 ، حاول الوصول الى اتفاق مع قبائـل بنى ميمون ومزايا المسئولين عن هذه الهجمات ، ولكن القايد مدنى قام بمناورة عند الوازى المذكور ، بحيث يجرى الاتفاق مع أورابح · وكذلك قامت السلطات الفرنسية بعقد اتفاقين متوازيين ، ولكنه بينما كان اتفاق دو فيفى معروفا ، ظل الاتفاق الآخر سريا · ولما وصل وفد بنى ميمون للاجتماع بالكلونيل دو فيفى ، وقع فى كمين نصبه له انصار أورابح وقتل ثلاثة من رجاله ·

اعتبر الوازى المسئول الاول عن هذه المؤامرة ، ولذلك طلب اليه دو فيفى ترك بجاية · ولكن الوازى نجح فى اقناع الوالى العام عندما وصـــل الى الجزائر بالفوائد التى يضمنها اختياره لاورابح ·

وفى 8 اكتوبر وقع اتفاق بين الطرفين يقضى بوقف « جميع اعمال العدوان بين الفرنسيين والقبائل ، وجميع الاهالى مدعوون للاقامة فى بجاية حيث تضمن لهم سلامتهم ويحترم دينهم ويتمتع

بالحماية الضرورية . وستفتح اسواق فى المدينة وتفرض الحماية على عمليات البيـع والشراء فى تجارة الحبوب . واذا حاولت بعض القبائـل المترددة القيام باعمال حربية ، فان الشيـخ اورابح يلتزم بان ينضم الى الفرنسيين لاخضاعها ... وبالمثل الخ .. وفى مقابل هذا الالتزام ، حصل اورابح على احتكار تموين الحامية الفرنسية كما حصل على لقب قايد .

والواقع ان سلطة اورابح لم تكن قوية على القبائل بحيث يحملها على احترام نصـوص هذا الاتفاق . وقد كان مضطرا الى أن ياخذ الى الاعتبار الرأى العام الذى كان معاديا للفرنسيين ويعارض فى كل اتصال بالمسيحيين وكذلك تجاهل كلية بنى عيدل عندما اجتازوا اراضيه للهجـوم على مواقع الفرنسيين . ومن جهة اخرى ، فلكي يثبت للراى العام ان عواطفه مناقضة للميول التى يعزوها اليه الفرنسيون ، كلف صديقه ، سيدى محمد امقران ، بحمل رسالة منه الى احمد بـاي فى قسنطينة يعلن اليه فيها ولاءه ويعرض عليه مساعدته لمواصلة النضال ضد المسيحيين . قد رد عليه باي قسنطينة برسالة بعد ذلك ببضعة أيـام يهنئه فيها على موقفه ويشجعه على عمله ويطلب الحضـور اليه شخصيا ، أو ارسال احد ابنـائه للاتفاق على طبيعة المساعدة التى ينـوى تقديمها وعلى طريقة تنسيق العمل ضد العدو . ولكن اورابح لم يرد على هذه الرسالة .

كان الماريشال كلوزيل يرى ان وضع حامية تتكون من اربعة آلاف رجل ، أمر لافائدة منه بسبب قلة اهمية بجاية ومنطقتها من الناحية الستراتيجية . فهو يرى ان ارسال هذه القـوة الى المناطق الشرقية لتواجه احمد باي ، اوالى الغرب لتحارب الامير عبد القادر أفضل كثيرا . وقد فكر فى المرحلة الاولى ، ان يضع على بجاية حامية من الانكشارية التركية ، ولكنه ادرك ان كثيرا من افراد هذه القوة قد غادروا الجزائر . ولذلك اقترح على اورابح القيام بحراسة المدينة والمحافظة على ارواح الفرنسيين فى مقابل منحه ثمانى قطع من المدافع وأسلحة وكميات من الذخيرة وعـددا من الجنود والمدربين ليقوم بتدريب الحرس الاهلى وذلك بالاضافة الى مبلغ من المـال لمواجهة نفقاتـه العامة .

ولكنه بمجرد ما عرف مشروع جلاء الحامية الفرنسية غادر المدينة عدد كبير من السكان الفرنسيين والمسلمين فى عجالة . فاما الاروبيون ، فقد عادوا الى الجزائر ، واما الاهالى . فقد اتجهوا الى مدن اخرى او التجئوا الى الريف . ولذلك ، فان المدينة فرغت من سكانها مرة أخرى ولم يبق فيها سوى عدد صغير من السكان الذين امتدت جذورهم فيها .

وكذلك اقنع الكلونيل ميرسيى الماريشال كلوزيل بتعديل هذا المشروع الذى كان من نتائجه خراب المدينة قبل الشروع فى تنفيذه · وهكذا ضيق نظام الدفاع عن المدينة بحيث يكفى لحمايتها الف رجل (5) ·

اعتبر اورابح التخلى عن مشروع كلوزيل عملا يدل على عدم الثقة فيه · ولذلك حلل نفسه من التزاماته السابقة واستأنف أعمال العدوان بمناوشة المواقع الامامية للفرنسيين بواسطة رجاله ·
وبعد وفاته فى نفس السنة (1835) ، ســار اخوه ، امزيان على نفس السياسة ·

وفى 7 نوفمبر جرح امزيان اثناء هجوم كبير شنته بعض القبائل المتحالفة واشترك هو فيه · وهذا الهجوم الذى حطمه العدو ، استؤنف فى 28 نوفمبر · وقد اشترك فى هذا الهجوم الاخيـر شيوخ افنايا ومزايا وسى محمد أمزيان · وهذا الهجوم تمكنت من صـــده القوات الفرنسية التى كانت تتمتع بتفوق بفضل المدفعية على الاسلحــة التى كان يحملها المقاومون والتى كانت قديمة فى معظم الاوقات ·

وفى شهر اغسطس 1836 استؤنف القتــال بعنف اكبر ، اثر قتل جندى فرنسى شخصـــا يدعى الشيخ ابراهيم كان يتمتع بحماية أورابح ، وفى غضون هذا الهجوم ، لقي حتفه قائد الحامية الفرنسية ، سالومون ، والمترجم طابونى ، كما جرح القايد مدنى جرحا خفيفا وقد نجا من الموت ، بأعجوبة اثناء كمين وقع فيه ، واما الخيول التى استولى عليها المسلمون فى هذه المعركة ، فقد قدمت الى احمد باي قسنطينة الذى شكر مزايا وأورابح على هذه الهدية ، كما وجه الى الاخير برنوسا احمر رمزا لتنصيبه قائدا ووجه اليه دعوة للانضمام اليه · ولكن امزيان الذى استغرقت الحوادث المحلية كل اهتمامه ، لم يتمكن من السفر الى قسنطينة ·

وبعد هذا التاريخ ، انحصرت المعركة فى مناوشات بين الطرفين وقام بينهما اتفاق ضمنى فيما يبدو على تقسيم السهول بين القبائل والفرنسيين ·

وفى سنة 1839 ، حاول الامير عبد القادر كسب سكان هذه المنطقة الى صفه · وبعد ما قام بزيارة لابن سالم ولمنطقة بنى يعلى ، نزل فى اقبو ثم هبط الى وادى الساحل وتوقف فى زاوية سيدى معمر ، على مقربة من بجاية · وهناك جاءه رسول من قائد حامية بجاية يطلب اليه استقبال

5) وبذلك ضم سور قلب المدينة الى حصن موسى ، وهذا الحصن الى حصن عبد القادر ، بينما يخترق منخفض ابزاز ويتوج اعالى بريجه · وحسب هذا النظام ، يكفى للحامية الاعتصام بخط الدفاع الخارجي للتحصينات دون ان تحتاج الى الخروج للزحف على القبائـل او مطاردتها وراء النقاط المحصنة · وهذه النقاط ، هى حصن سالم الذى يقع على البحر ، وحصن دوريا ، وحصن لوميرسيى ، وحصن جورايا ، والمعسكر الداخلى · (راجع Shiferoud, P. 3, 4, 1.

الامير له · لم يكن هذا الطلب ينطوى على ما يدعو الى الاستغراب فى نظر الامير حيث انه ربما كانت المقابلة المطلوبة لمجرد المجاملة ، حيث ان الامير كان يرتبط بمعاهدة مع فرنسا (معاهدة تافنا) (6) ·

وفى سنة 1840 ، قام بنو سليمان وبنو ميمون بثورة جديدة · واثر ذلك زحف الجنرال دوسال والجنرال سانت ارنو على هذه القبائل وحطموا مقاومتها · على ان تحالفا قام بين قبائل بنى سليمان واوجهان ويريشا كان اساسا لمقاومة اشترك فيها الرجال والنساء والاطفال وسمح لهذه المنطقة بتقليل الخسائر · ودفع العدو فى طريق العودة الى بجاية ·

وللانتقام منهم ، قام الجنرال سانت ارنو بحرق الغابات والمحاصيل الزراعية ، كما اعتقل عددا من الشخصيات وأمر بنفيها · وفى مقدمة هذه الشخصيات التى كانت قد التجات الى بجاية ، احمد أو مهنا بن سعيد اورابح ، وسى مدنى ، قايد بجاية الذى اتهم بان يكون له ضلع فى الثورة ·

وفى غضون بضعة اشهر ، كانت تجتاح المنطقة موجة من البغض والحقد على المحتل ، كما كان يسودها جو ثقيل من الرغبة فى الانقضاض على العدو وتحطيم قيود العبودية · وكذلك كان حادث وقع فى السوق واشترك فيه ضابط فى المكتب العربى ، فى سنة 1850 ، كافيا لاشعال نار ثورة اتخذت ابعادا لم تكن متوقعة ·

كان مولى ابراهيم فى المرحلة الاولى ، هو الذى يغذى هذه الثورة · ولكن الحركة الثورية سرعان ما اتسع نطاقها ، فشملت قبائل بنى مليكش وبنى يمئل وبنى وغليس وتبفرات · وبعد ذلك انضم اليها محمد بن عبد الله ابو سيف (الذى عرف بأبى بغلة) الذى وسع ابعادها · وبعد ما قام بعدة هجمات ونصب كمينا اثر كمين، تراجع والتجا الى بنى مليكش · وعلى الرغم من وقوف القوات المساعدة (القوم) فى وجهه ، فقد واصل حملاته المتعددة والفعالة · وكذلك كلفت السلطات الفرنسية القرانى وابن على الشريف بتعزيز القوات المساعدة وبتوجيهها لمقاتلة ابى بغلة حيثما ظهر هو وانصاره · وقد كان انصار أبى بغلة يتكتلون فى جماعات تتكون من خمسة أو ستة اشخاص ويتجولون فى القرى حيث يلقون المواعظ ويدعون الى الجهاد فى المساجد ويبعثون الشعور الوطنى ويحثون الناس على العمل للاستقلال الذى كان رغبة الجميع · وكذلك كانوا يرددون على اسماع الناس اسماء الرجال الذين سقطوا فى ميدان الشرف من الاباء والاجداد واستشهدوا فى المعارك السابقة · وفى نفس الوقت يدعمون اقوالهم بالايات الكريمة

---

6) ولكن السكان رأوا فى هذا المسعى ما يدعو الى الريبة والتشكك فى الامير ، فاساءوا استقباله ، بل وطاردوه فى مرحلة تالية (المترجم)·

والاحاديث النبوية التى تثير حماس الناس . وقد كانت النساء تستقبل هؤلاء الدعـاة بالزغاريد والاناشيد التى تمجد المقاومة .

وتخلق جوا من الحماس الشعبى بحيث لا يجد الناس مهربا من الوقوع تحت تاثير ابى بغلة . وسرعان ما جمع جيشا كبيرا وساندته زواوة وبنو يجر . ثـم صدقه وايلماتن ويلولة واسيف الحمام ، وحصل على ضمان من للا فاطمة نسومر التى كانت العدو الرئيسى لتوغـل العدو فى منطقة جرجرا .

وفى شهر ديسمبر 1850 ، قاد ابو بغلة حملة ضد قبيلة ايت اعمر المتخاذلة وخرب قرية تيزى القرن ، على الرغم من تدخل القوات الفرنسية بقيادة مترجـم الجيش احمد خاطرى ، لحماية القبيلة . وقد اضطرت هذه القوة الفرنسية الى التراجع الى بجاية ولطلب تعزيزات .

وفى مارس 1851 ، وصلت تعزيزات فرنسية من سطيف ومن سور الغزلان وزعت بين منطقة البيبان واعالى بنى منصور ومرتفعات اقبو . وعندئذ ركـز بوبغلة اعماله فى التوغل فى وادى السومام حيث يشجع انصاره ويهدد المتقاعدين والمعارضين ويحث القياد على الانضمام الى قواته. وقد اعلن ان الحماية التقليدية التى منحت ، مهما يكن السبب ، لم تعد لها قيمة .

وفى هذه الاثناء ، انضم اليه بنو وغليس وبنو ايمساسن وبنو يمل فى منطقة بجاية ، وايت يحيا وايت بودرار فى جرجرا . وقد دفعت كل قرية من تلقاء نفسها مساهمتها فى صندوق المقاومة واثر ذلك اشتدت حركة المقاومة واتسع نطاقها وامتدت ابعادها .

ولما حاول سى محمد سعيد بن على الشريف تخريب تنظيم الحركة بمناوراته ، راى ضيعته (العزيب) طعمة للنيران بينما نهب المقاومون قطعانه ، ولم ينج بحياته الا بتدخل بعض عناصـر المقاومة . ولكنه عند ما قصد الى اراضى بنى عباس ، اعتقل المقاومون ابنه واركبوه ظهر حمار وتجولوا به فى مختلف القرى المجاورة ليظهروه للناس وليلحقوا به اكثر ما يمكن من الاهانة . ولكن هذا العمل لم يكن من شانه ان يرضى ايت يموله وطلبة زاوية بن على شريف . ولذلك فقد خرجوا من حركة المقاومة ونصبوا كمينا لابى بغلة قتل فيه ثمانية من اتباعه .

وقد تم الصلح بين الطرفين باطلاق سـراح الرهينة وبتقديم تعويض لاهالى الضحايا .

ولكي لا يتورط مع المقاومة او مع السلطات الفرنسية ، هاجر محمد سعيد بن على الشريف البلد والتجا الى السلطات العسكرية فى سور الغزلان التى كان تابعا لها من الناحية الادارية . وفى مرحلة تالية ، انتقل الى الجزائر ، ثم الى باريس ، حيث سيشارك فى حفلة توزيـع نابليون الثالث الاوسمة فى سنة 1852 .

وكذلك اضطر القايد الشريف بن المهوب الذى حاول التدخل لتاييد الفرنسيين الى الهروب بدوره لينجو بنفسه من انتقام الشعب ·

ولما عاد سى المدنى ، القايد السابق فى بجاية والذى كان منفيا فى شرشال منذ سنة 1849 ، انضم الى ابى بغلة وتعاون معه لنشر الدعاية ولاحكام تنظيم الحركة · وعندئذ ، اتسع نطاق المقاومة بحيث شملت جميع بلاد القبائل من البابور حتى آخر قرى جرجر واشدها مناعة · واثر ذلك ، اخذ القياد واعوان الفرنسيين يهربون الواحد تلو الاخر ويتركون عائلاتهم وممتلكاتهم ليبحثوا عن ملجئى لهم فى بجاية ·

وفى 8 مايو ، اتجه الكومندان واجنى على راس كتيبة من الجنود يرفقه بوزيد بن عنون قايد مزايا واحمد الكولى قاضى بجاية الى سوق القصر لحث الناس على مقاومة «الثوار» · وفى الطريق ، قابلهم القايد بن الشريف بن المهوب ومعه ثلاثة من خدمه وهم جميعا فى حالة يرثى لها من التعب والعرق يسيل من خيولهم ، وكانوا هاربين فى طريقهم للالتجاء ببجاية · وبعد ما طمأنهم قائد القوة الفرنسية دعاهم للانضمام اليه · ولما وصلوا الى السوق اغلقوا جميع المنافذ على الناس وارغموهم على الاستماع الى الخطب التى يلقيها عليهم هؤلاء الزوار · وكذلك خطب كل من القايد بوزيد والقاضى الكولى ليحثوا الناس على احترام السلطة الفرنسية ومقاومة «الثوار» · ولما رأى القايد بوزيد علامات البرود وقلة الاكتراث مرتسمة على وجوه الناس ، استشاط غيضا وطلب الى قائد القوة الفرنسية ان يأمر باطلاق الرصاص عليهم جميعا ويحرق منازلهم وقراهم · وبالطبع ، فان الرغبة فى العمل بهذه النصيحة لم تكن تنقص القائد الفرنسى ، ولكنه ادرك ان قوته ستعرض للخطر اذا قام بمثل هذا العمل ، ولذلك كتم غيضه وعاد ادراجه ·

وفى طريق عودته ، عندما وصل الى توريرت الاربعاء ، نصب له الثوار كمينا ، كان من الممكن ابادة جميع افراد قوته فيه ، لو لم يتدخل صادق اوزجار ومحمد وعلى بن مزايا على رأس قوة من المساعدين لانقاذهم فى الوقت الملائم ·

وفى 9 مايو سار الكومندان واجى على راس قوة تتكون من 500 مقاتل وجماعة منظمة يبلغ عدد رجالها 100 شخص ومدفعين جبليين و 25 من قناصة افريقية ، و 20 من الخيالة السبايس ، وذلك لاخذ الثار لما وقع له · وبينما كان الطرفان منهمكان فى تعزيز مواقعهما العسكرية ، انضم الى القوة الفرنسية عدد من القياد طلبا للحماية · وكان فى مقدمة هؤلاء : اورابح بن سعيد وقياد امدان وتوجة الذين طردوا من دواويرهم لانهم حاولوا منع السكان من الارتباط بحركة المقاومة ، أو لانهم رفضوا هم انفسهم التورط فى الحركة ·

وفى غضون تلك الليلة ، كان وادى الساحل والجبال المجاورة تلمع باضواء عديدة بالنيران الموقدة هنا وهناك والاشارات اللاسلكية التى تصف تقدم المقاومين ومعسكرات القبائل العديدة . ولما راى العدو انه محاط به من جميع الجهات ، قرر التراجع منذ فجر اليوم التالى . ولكنه لم تكد تدق الساعة العاشرة ، حتى تلقى الجنود الذين عادوا الى ثكناتهم امرا بالاستعداد للقيام بعملية . فان الجماعات التى كانت تتعقب من قريب القوة الفرنسية المنسحبة ، قد هبطت الى سهل بجاية عن طريق بير سالم وهضاب ايغيل او عزوج ، قامت باحراق مزارع المعمرين والخونة وهدم بيوتهم وتخريب محاصيلهم .

وقد زحف المقاومون فى تشكيل يشبه هلالا يعتمد جناحاه على مرتفعات بير سالم والسفوح التى تشرف على حصن كلوزيل ، واخذوا يتقدمون وهم يرددون « الله اكبر » ، بينما قامت القوات الفرنسية والقوات المساعدة التابعة لعشرين قايد بهجوم مضاد . وقد تمكن المواطنون من صد الهجمات الاولى دون ان يتخلو عن شبر من الارض . ولكن العدو حاول اختراق صفوفهم ثلاث مرات وردوه على اعقابه . على انه أعاد الكرة فى هجوم اشتركت فيه جميع قوات العدو وتؤيدها المدفعية وفى هذه المرة ، تراجعت صفوف الوطنيين الاولى . وقد ادى هذا الانسحاب الى اضطراب عظيم فى الصفوف الخلفية بحيث احرز العدو على نجاح باهر . وقد فقد الثوار فى ذلك اليوم عددا كبيرا من الرجال ، لا بسبب تفوق العدو من حيث العدد والعدة فحسب ، بل خصوصا ، بسبب مطاردة القوات المساعدة للثوار فى غير هوادة . وقد ابدى احمد خاطرى وبشير اورابح ومحمد العربى اورابح ومصطفى التلمسانى ورجال مزايا كثيرا من الجرأة والشجاعة فى هذه المعركة . وقد اثنى عليهم الكومندان واجنى ثناء كبيرا على مسمع الناس ولفت الانظار الى بطولتهم فى الدوائر العليا (7) .

وبعدما عاد الهدوء الى المنطقة ، شرع الفرنسيون فى شق الطريق التى تنطلق من تيزى وزو وتخترق بلاد القبائل من الغرب الى الشرق ، موازية لوادى سبو مارة باعكورن والقصر لتنتهى عند بجاية . وحتى لا تعرقل القبائل التى كان ولاؤها مشكوكا فيه عملية بناء الطريق قام الكومندان واجى الذى تلقى امدادات عسكرية جديدة من الجزائر بغزو قبيلة بنى ميمون وبنى مسعود والجبابرة . وبعد ذلك انضمت اليه القوات التى كانت تعمل فى منطقة جيجل ، فسار متوغلا فى وادى الساحل .

7) وهذا السلوك كان من نتائجه أن أعادت السلطات الفرنسية النظر فى أمر حمو أمزيان او رابح والد بشير او رابح واحمد أو مهنا والد محمدالعربى اللذين اعتقلهما بيجو وسانت ارنو على التوالى وارسلوا الى جزر سانت مرجريت .

وفى هذه المرحلة ، ظهر بو بغلة من جديد على راس قوات جمعها فى وادى غير • عسكر اولا فى عين أنو ، ثم قام بحركة فى اتجاه الشمال فى انتظار أن يصل اليه جميع المتطوعين الذين ينتظر عودتهم الى مراكزهم • ولما علم الجنرال كامو والجنرال بوسكى بهذه الحركة اتجهوا الى تلك المنطقة على راس قوة يبلغ عددها 6000 مقاتل فى اول يونيو 1851 • وقد نشبت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة أبى بغلة وتشتيت جيشه • وعندئذ انسحب هو الى جرجرة •

وعقب ذلك ، قامت القوات الاستعمارية بانشاء مراكز أمامية (8) وضعوا فيها حاميات عسكرية صغيرة ولكنها تتمتع بتاييد قوى من القوات المحلية التى يجمعها القايد •

وفى اوائل سنة 1852 ، نشب خلاف حاد ـ وهو عبارة عن منافسة بين بعض القرى ـ بين بعض فروع قبيلة آيت عمر • فاما سكان تيزى القرن ، فكانوا يناصرون ابا بغلة • وقد طلبوا مساعدته • واما الفرع الاخر ، فقد التجأ الى القوات المساعدة للفرنسيين •

وفى 3 يناير قام بو بغلة على رأس 400 من رجال زواوة وبنى يجر ووصل يوم 6 الى تيفريت ، وفى يوم 14 وقع صدام بين فرعى القبيلة • وبعد هزيمة القوات المساعدة ، احتلفت المنطقة كلها بهذا النصر فى سرور وابتهاج • واثر ذلك ، جاءت القوات المساعدة من رجال القبائل لتنضم الى أبى بغلة • وفى 20 يناير سارت هذه القوة لمهاجمة قرية اورير التى كانت تحت القايد الموهوب بن الحاج حميش • وقد كان تفوقهم من حيث العدد يسمح لهم بالقبض على القايد نفسه بعد ما هزموا رجاله • ولكن الجنرال بوسكى انقض على مؤخرتهم ، ولم ينج بو بغلة من يد العدو الا باعجوبة •

وفى 24 يناير بعث الجنرال بوسكى بقوة تتكون من 3000 جندى وضابط لينقضوا على قرى سيد موسى أو يدير وايث منصور وتبفرات • وهناك قاموا باعمال وحشية فاحرقوا القرى وقتلوا النساء واستولوا على المواد الغذائية وعلى جميع ما وقع فى ايديهم • وبعد ما حول المنطقة الى خراب ورماد ، انسحب وطلب الى سكانها تشكيل قوة من الميليشيا للدفاع عن انفسهم تعمل تحت سلطة القايد •

وهذه الانتصارات التى كان من نتائجها ابعاد الخطر عن المدينة ،ستشجع المعمرين على شراء الارض فى المناطق الخلفية فى البلد • واحد هؤلاء المعمرين ويسمى جورج جرافيوس ، انشأ

---

8) انشئى مركزان فى منطقة وادى اميزور ، احدهما فى توريرت الاربعاء على الضفة الشرقية والآخر على الضفة الغربية وقد اصبح المركز الاخير تابعا لملكية برج اورابح •

مصنعا للزيت فى قرية تنساوت ، على ضفاف وادى بو سلام · وقد فكر بعض المقاومين فى الهجوم عليه ومفاجاته ليلا حينما يستغرق الجميع فى النوم · ولكن هذا المشروع بلغ الى علم الرجـــل بواسطة خادمة له · وبذلك نجا بنفسه ·

ولما امتدت شبكة اتصالات المستعمرين فى البلد ، أخذت السلطات الفرنسية فى بناء طـــرق جديدة تربط بجاية بغيرها من المدن · وبينما كان الجنرال كامو يتولى حماية الاعمال فى الطريق التى يربط دلس وسور الغزلان عن طريق درع الميزان والبويرة ، كان الجنرال ميسيات يقوم بنفس المهمة على الطريق التى تمتد بين بجاية وسطيف وخراطة · وقد حاول يحيى أو يحيى عـرقلة هذه الاعمال ، ولكن حملة قامت بقيادة الجنرال بابور فى سنة 1853 ، وضعت حدا لهذه الهجمات ·

ولما فرغت المنطقة من العناصر الحية التى قضت عليها الحرب او هاجرت منها الى الخارج ، وقعت غنيمة سهلة تدريجيا فى يد العدو · واذا كان البعض يعتقد بان الوضع الاستعمارى غير قابل للانهيار وان الجزائر قد ضاعت لغير رجعة ، فان البعض الاخر كان يعتقد غير ذلك ، وهم لم ييأسوا قط من ان يعود الحق الى نصابه · وكذلك بقى من يعتقد فى قرارة نفسه ان ظروفا ملائمة ستدفع الشعب حتما فى طريق الثورة ·

وفى مايو 1854 ، ظهرت جماعة من الثوار فى منطقة افنايا ثم فى برباشة ، ثم ظهر عدد اكبر فى سفوح جرجرا · وقد قاد الجنرال ماكماهون والجنرال راندون اللذين كلفا بمهمة اعادة السلام بعمليات على رأس قوات مهمة ، تؤيدها قوات « قوم » القايد لخضر المقرانى ، قايد مجانة والمسئول عن هذا القطاع · وقد قاوم الثوار تحت ضغط قوة عدد العدو بتصميم ولم يتخلوا عن مواقعهم الا تحت الضرورة القصوى · وقد قتلوا كلهم فيما عدا عدد صغير بقوا مع ابى بغلة الذى قـاد هذه العملية وسقط فيها تحت رصاص العدو ، دون أن يعرف أحد بذلك حتى اللحظة الاخيرة من المعركة · وقبل ان ينسحب من هذه المنطقة ، قام الجنرال راندون ببناء ثكنة فى اقبـــو واخرى فى توريرت ايغيل ·

وفى مايو 1857 ، بدات عمليات موحدة تستهدف بسط السيطرة الفرنسية على قبائل مسيد فى جرجرة ـ تلك القبائل التى كانت تتمتع بالاستقلال التـــام ·

وكذلك توغلت فى هذه الجبال قوات خرجت من بجاية ومن تيزى وزو ومن سور الغزلان · ولكن الفرنسيين وجدوا مقاومة عنيفة عند كل شبر من الارض · على أن المعتدين كانوا يملكون موارد متفوقة من حيث عدد الرجال وقوة الاسلحة ولذلك ، فقد اضطـــر المقاومون الى التخلـى عن مواقعهم تدريجيا وبذلك استقر الاستعمار الفرنسى فى مناطق لم يرها فاتح من قبل أو يضع فيها قدمه ·

ولما قامت ثورة اولاد سيدى الشيخ فى سنة 1864 فى الجنوب ، تسربت هذه الثـــورة الى منطقة البابور حيث قامت عناصر المقاومة فى عدة مناسبات باعمال تستهدف منع اتمام شـــق الطرق · ومن هناك تسربت حركة المقاومة الى منطقة السواحل الشرقية : الى بنى حسين وبنى مرعى وغير ذلك من مناطق اعموشة · ولما عرف الكلونيل بونفالى خبر هذه الثورة ، جمع جيشا يتكون من 1200 جنديا وضابطا ورتبه على طول الطريق التى تمتد من سطيف ·

وفى 12 ابريل 1865 ، هجم عليهم الثوار واضطروهم الى مغادرة مواقعهم · وبينما كانـوا يطاردونهم فى الوادى قامت قوات «القوم» التابعـة لاورابح واحمد خاطرى بالاحاطة بهم من الوراء وحملوهم على الانسحاب على الهضاب التى تمتد على الضفة اليمنى لوادى جمعة ، وبعد ذلك ببضعة أيام زحف الكلونيل بونفالى الذى كان قـد تلقى تعزيزات من بجايـــة ومن سطيـف على المنطقة ، ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين سقط فيها عدد كبير من القتلى والجرحى ، واستمـــر القتال بالسلاح الابيض حتى أسدل الليل ستاره وانسحب الثوار تحت جنحه وتفرقوا فى كل اتجاه·

وفى 2 يونيو ، قاد الجنرال بيريجو حملة للقمـــع وقامت بتنظيف المنطقـة بطريقة منظمة ، فاحرقت القرى ونهبت قطعان المواشى ، واخذت تطلق النار على الرجال والنساء بدون تمييز وقد استمرت هذه العملية ثمانية أيام ·

وفى 7 يوليو 1865 ، قام الامبراطور نابوليون3بزيارة قصيرة لبجاية التى نظمت له استقبالا رائعا · وفى هذا الاحتفال اقيم استعراض للخلفاء للاغاوات والقياد ، ببرانسهم الحمراء المنمقة بالذهب ، راكبين على جياد عربية عصبية المزاج وعلى ظهورها سروج مزركشة بالذهب والفضة ، ووراءهم القوات المساعدة «الافواج» ببرانس بيضاء · وقد أعجب جلالة الامبراطور ، كما يقول فيرو ، بهذه المناظر الرائعة وبثراء هذا البلد الذى لا يمكن مقارنته · وكذلك كرر عدة مرات التعبير عن اغتباطه بان يختتم ببجاية زياته للجزائر ويحمل معه ذكريات غالية ·

وبعد عودة السلام ، كانت المواصلات بين مختلف المناطق عادية ، وكذلك عاد النشاط التجارى الى المدينة ، كما فتح الميناء الذى كان العمل فيــه على وشك الانتهاء ابوابـــه تدريجيا للبواخر التجارية ·

ونظرا لان المناطق المجاورة تقدم جميع الموارد الضرورية لقيام مدينة مهمة ، ولان السكان مشهورون باجتهادهم ونشاطهم ، لم تلبث المدينة أن شاهـــدت قيام عـــدد من المبانى والوحدات الصناعية وحدائق وجنات غناء ·

بجاية
من خلال بعض الرحالة المسلمين

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لعل التعريف بتاريخ بجاية وحضارتها لا يكون كاملا حتى نضيف الى ذلك بعض الوثائق التى كتبها بعض الرحالين او المؤرخين عنهــا فى مختلف عهودها ·

ولذلك رايت أن أذكر هنا نصوصا كتبها كتاب مختلفون حول بجاية ، وسأوردها حسب ترتيبها الزمنى ليستطيع القارىء من خلال قراءته لها ، واستظهار ما جاء فيها ان يعرف لمحات عن تطور المدينة ، والاستفادة من ملاحظات كل كاتب عنها ·

وقبل أن أذكر هذه النصوص أسجل بعض ملاحظات عنها ·

ومن ذلك ان البكرى فى القرن الخامس ذكر ان بجاية كانت ساحلا لقلعــة ابى طويــل ، وبغربها قلعة بنى حماد لانها كانت تسمى بهماما ·

ويذكر الادريسى (548 هـ) ان بجاية قد ازدهرت حينما صارت عاصمة لبنى حماد بــدل القلعة فكانت تجارتها مزدهرة وصناعاتها رائجة ·

وعادت قطبا لكثير من مدن المنطقة الشرقية ونجد فيما كتبه ياقوت الحموى (626 هـ) ·

معلومات هامة عن بجاية منها ضبط اسمها ، وتحديد تاريخ تأسيسها بسنــة 457 هـ على خلاف المشهور من أنها أسست حوالى سنة 460 ·

ومن ذكر اسمها الذى أطلقه الناصر عليها وهو الناصرية وذكر سبب تأسيسها ·

ونجد صاحب الاستبصار الذى عاش فى القرن السابع هـ على ما يبدو يذكـر ان بانيها هو المنصور بن بلكين ، وقد انفرد وحده بهذه الرواية مع ان بانيها الحقيقى هو ابوه الناصر بن علناس ويذكر ايضا العمائم التى اختص بها الحماديون ، واهتمامهم بتحسينها وتجويدها ٠

وابو الفداء اسماعيل (732 هـ) يذكر معلومات عن اســـم المدينة وما يقابلها من بلاد الاندلس ويذكر محمد بن ابراهيم الكتبى المتوفى سنة (714 هـ) ٠ معلومات عن طيب هـواء بجاية وفوائد نهرها الفسيح ، وهو الى ذلك يذكر ان الناصـر بن حماد بنى بجاية سنة 457 هـ على خـــلاف الرواية التى تذكر سنة اخـرى ٠

ونجد فيما كتبه ابن خلدون معلومات عــن اسم بجاية الذى يعود اصله الى اسم القبيلة التى كانت تسكن المكان ٠ وعن قصر اللؤلؤة الذى بناه الحماديون ، وعن حث الناصر لعمـــوم الناس على سكناها ٠

وهو يذكر ان الناصر قد انتقل اليها وسكنها سنة 461 هـ ٠

هذه خلاصة ما كتبه الرحالون والمؤرخون القدماء عن مدينة بجاية وقد الحقنا بها خلاصات لما كتبه بعض الكتاب المعاصرين كالشيخ المهدى ، وصاحــب ارض البطولة ، ودائرة المعـــارف الاســـلامية ٠

وبذلك نرجو ان نكون قد قدمنا نصوصا حية تساعد على دراسة تاريخ بجاية وحضارتها ٠

والله الموفق للصـــواب ٠

1) ما كتبــه البكرى فى القرن الخامس هـ :

مرسى بجاية هو ساحل قلعة ابى طويل ، وعلى هذا المرسى من تلك الجبائل قبائل كتامة ، وهى شيعية يكرمون من مال الى مذاهبهم ، ويبرون من وافق اعتقادهم وجزيرة جوبة ! قبـــل مرســـى بجاية (1) ٠

2) ما كتبه الشريف الادريسى (548 هـ) :

مدينة بجاية فى وقتنا هذا (حوالى سنة 548 هـ) مدينة الغرب الاوسط ٠

وعين بلاد بنى حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والامتعة اليها بـــرا وبحرا مجلوبة ، والبضائع نافقة واهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع مـــا ليس بكثير من البلاد ، واهلها يجالسون تجار المغـرب الاقصى وتجار الصحراء ، وتجار المشـــرق

1) البكرى ابو عبيد (487 هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك نشر دوسلان الجزائر مطبعة الحكومة 1857 م) ص 82 ٠

وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعــير بها موجودان كثيران ، والتين ، وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والحرابى ، لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة ، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة ، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب ، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ٠

ويحوز سن شاء فى كل موضع منه ٠

ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ٠٠٠ وأما هى فى ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة التى بناها حماد بن بلكين ، وهى التى تنسب دولة بنى حماد اليها (2) ٠

3) ما كتبه ياقوت الرومى (626 هـ) :

بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء ، مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب كان اول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة 457 هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مزغناي أربعة أيام ٠ كانت قديما ميناء فقط ثـم بنيت المدينة وهى لحق جبل شاهق ، وفى قبلتها جبال ٠ كانت قاعدة ملك بنى حماد ، وتسمى الناصرية أيضا باسـم بانيها ، وهى مفترقة الى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شىء ٠ انما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات وبينها وبين ميلة ثلاثة ايام وكان السبب فى اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية انفذ الى ابن عمـه الناصر بن علناس محمد بن البعبع رسـولا لاصلاح حال كانت بينهما فاسدة خمر ابن البعبـع بموضع بجاية ، وفيه أبيات من البربر قليلة فتأملها حق التأمل ، فلما قدم على الناصر غـدر بصاحبه واستخلى الناصر ودله على عـورة تميم ، وقرر بينه وبين الناصر الهرب من تميـم والرجوع اليه ، واشـار عليه ببناء بجاية ، واستركبه وأراه المصلحة فى ذلك ، والفائدة التى تحصل له من الصناعة بها ، وكيد العـدو فامر من وقته بوضع الاساس وبناها ونزلها بعسكره ، ونمى الخبر الى تميم فأرصد لابن البعبـع العيون فلما أراد الهرب قبض عليه وقتله والحق به عاقبة الغـدر (3) ٠

---

2) الشريف الادريسى : بعد سنة 548 هـ ٠ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ٠ الماخوذ عن نزهة المشتاق ـ نشر هنرى بيريس ٠ الجزائر 1376 هـ ـ 1957 م ، ص 63 ٠

3) ياقوت الرومى 626 هـ معجم البلدان (مصر مطبعة السعادة) ج 2 ، ص 62 ٠

4) ما كتبه صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار (1) :

مدينة بجاية هى مدينة عظيمة على ضفة البحر ، والبحر يضرب فى سورها ، وهى محدثة بناها ملوك صنهاجة اضحاب قلعة ابى طويل ·

وتعرف بقلعة حماد اليوم ، وكان سبب بنائها ان العرب لما دخلوا افريقية ، وافسدوا القيروان واكثر مدن أفريقية ، وهرب منهم صاحب القيروان الصنهاجى ، وتحصن بمدينة المهدية وكان ابن عمه صاحب القلعة المنصور بن بلكين بن حماد اشد شوكة من صاحب القيروان واكثر جيشا خرج لنصرة ابن عمه ، وجيش جيشا كثيرا ، فلقيته العـــرب بجملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان ، فكان بينهم يوم عظيم حتى هزم المنصور ، وقتل أخوه واكثر صنهاجة ··· وكانـــت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون من اثمانها ، تساوى العمامة خمسمائة دينـار وستمائة وازيد ، فكانوا يعصبونها بأتقن صنعـة ، فتأتى كانها تاج ، وكان ببلادهم صناع لذلك ، يأخـــذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد ، وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم فلمانجا المنصور الى القلعة نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا بلاده فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف فى بلاده فطلب موضعا يبنى فيه مدينة ، ولا يلحقه فيه العرب فدل على موضع بجاية ، وكان مرسى ويقال انه كانت فيه آثار قديمة فيما سلف فبناها المنصور ، وسماها « المنصورية » وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذوها دار مملكة (4) · ··· وهى مدينة عظيمة ، ما بين جبال شامخة قد احاطت بها ، والبحر منها من ثلاث جهات فى الشرق والغرب والجوف ، ولها طريق الى جهة الغرب يسمى بالمطبـق ·

5) ما كتبه ابو الفداى اسماعيل عماد الدين اسماعيل (732 هـ) :

بجاية هى كما يقول ابى سعيد : بكسر الباء الموحدة ، وفتح الجيم ثم الف وياء مثناة مـــن تحت وهـــاء ·

« وبجاية هى قاعدة الغرب الاوسط ، ولها نهر على شاطئه البساتين والمناره فى شـرقى بجاية ، ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحـــر بينهما ثلاثة مجار ، وغربى بجاية جزائر بنى مزغنان « الجزائر » وهى فرضة مشهورة من عمل بجاية » (5) :

---

4) مجهول : كان يعيش فى القرن السادس الهجرى على ما يبدو وعلى الاستبصار فى عجائب الامصار · مخطوط المكتبة الوطنية رقم 2220 · الورقـــة 23 ·

5) ابو الفدا عماد الدين اسماعيل (732 هـ) تقويم البلدان باريس دار الطباعة السلطانية 1840 م ص 136 – 137 ·

6) ما كتبه محمد بن ابراهيم الكتبى (714 هـ) :

بجاية مدينة حسنة البناء ، طيبة الفنا ولها نهر فسيح ، تدخله المراكب من البحـــر الى البلد بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة (457 هـ) وبنا حيتها جبال الرحمن ، وهى جبـــال تعمرها قبائل البربر كتامة : بها معادن نحاس ولازورد .(6)

7) ما كتبه ابن خلدون عبد الرحمن (808 هـ) :

يقول ابن خلدون متحدثا على الناصر بـن علناس : وفى سنة 460 هـ افتتح جبل بجاية ، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم ، الا ان الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هى بين الجيم والكاف وهذا القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد اوزاعا فى البربر ، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها « **الناصرية** » وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهى بجاية ، وبنى بها قصـــر اللؤلؤة وكان من اعجب قصور الدنيا ، ونقل اليها الناس ، واسقط الخراج عن ساكنيها ، وانتقل اليها سنة احدى وستين (يعنى سنة 461 هـ) .(7)

8) ما كتبه صديقنا الشيخ محمد المهدى القسنطينى :

خلاصة مقاله : « بجاية من أمهات المدن الافريقية العتيقة ، ويقال انها كانت موجودة قبل العصر القرطاجنى ، وان الفينيقيين قد عرفوها حين قدومهم الى هذه البلاد منذ اكثر من عشرة قرون قبل المسيح ، وازدهرت فى العهد الرومانى .

وكان كثير من الجغرافيين القدماء يعتبرونها تابعة لاراضى نوميديا .

موقعها : وتقع بجاية فى سفح جبل قوراية الشامخ الذرى ، وعلى مسافة قريبة من شرقها يوجد وادى الصومام او وادى بو مسعود الذى يصب فى البحر محاذيا لبجاية .

وكلمة بجاية هى تسمية حديثة لان الرومان كانوا يسمونها صلداى .

وقد حدثت بها عدة ثورات فى العصر الرومانى افقدتها شيئـــا مما كان لها من البهجـــة والعمران وبعد دخول المسيحية لشمال افريقية صارت بجاية قاعدة أخرى لها بعد بونـــة وفى عهد الوندال (ق 5 ـ 6 م) كانت بجاية تابعة لهم ، واتخذها جنسريق عاصمة له فى أول الامـــر . وفى عهد بنى زيرى كانت بجاية فى أوج ازدهارها العلمى والاقتصادى ، وكانت من أعظم الموانئ وفى ايام الحفصيين كانت بجاية احدى مراكزهم المعتبـــرة ، وكانت مزدهرة بالعلوم ومن علمائها

6) محمد بن ابراهيم الكتبى ، مباهج الفكر ومناهج العبر . مخطوط المكتبة الوطنية الورقة 67 .
7) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر (بيروت . دار الكتاب اللبنانى 1959 ، ج 6 ، ص 357 .

الذين القوا بها دروسا بمسجدها الاعظم ابن خلدون · وفى أواخر عهد الحفصيين احتلها الاسبان ثم افتكها منهم الاتراك ، ودامت تحت حكمهم 330 سنة وحكمها منهم 82 باشا · ثم دخلت تحت الحكم الفرنسى فى 29 سبتمبر عام 1833 م ، ووجد الفرنسيون أنفسهم بعد فتحها امام مشكلة حفظ الصحة ، لان هواء بجاية كان منذ القديم غير صحى ، وابن خلدون فارقها الى بسكرة لهذا السبب ! وقد فتكت الامراض بجنود الفرنسيين ، وقد نجح الفرنسيون فى مكافحة هذه الامراض ولا سيما مرض حمى التفوييد ، بردم البرك ، والاكثار من غراسة الاشجار داخل المدينة وخارجها ثم فرضوا رقابة صارمة على اللحوم والفواكه حفظا للصحة العامة ·

وفى عهد الحكم المدنى فى منتصف القرن التاسع عشر م كانت الامراض قد قلت وحينئذ تصدى الفرنسيون لتحسين المساكن والانهج والاراضى فيها حتى أصبحت عامرة مزدهرة ، وعادت من اجمل الحواضر البحرية فى مناظرها الناضرة ، وشطوطها الزاخرة ، واحيائها العامرة ، وعاد مرساها فى الدرجة الثالثة بعد مرسى عنابة وسكيكدة ·

وهى الآن من اهم المراكز السياحية حيث يتوجه السواح منها من رأس أوقاس لمشاهدة المغارة البديعة La grotte merveilleuse أو يتوجهون منها الى جيجل والقل وسكيكدة وسط الجبال الشاهقة والاحراج الكثيفة ، يرافقهم عجيج البحر على طول المسافة المذكورة » (8) ·

ما كتبه صاحب ارض البطولة :

خلاصة ما كتبه : « بجاية يطلق الفرنسيون عليها اسم Bougie اى الشمعة ، ولعل هذا الاسم مشتق من شهرة أهلها بتجارة الشمع منذ عهد بعيد ، وهى ميناء هام فى الوقت الحاضر وتابعة لمقاطعة قسنطينة اداريا وتبعد عنها بمسافة 266 كلم ·

وقد شيدت على شكل مدرجات فوق المنحدرات السفلية بجبل قوراية الذى يبلغ ارتفاعه 660 م ، وتطل على خليج يسمى باسمها ، يحميه عدد كبير من الكتل الصخرية العالية ومناخها معتدل فى الصيف لوقوعها فى الجهة الشمالية الغربية من هذا الخليج ، وفى فصل الشتاء تسقط الامطار غزيرة فى منطقتها مما يعين على وفرة محاصيلها الزراعية وهى غنية بأشجار الزيتون والسرو ، والصفصاف وغيرها » ·

تاريخها : والمعلومات التى تتصل بها فيما يخص القرون الثلاثة للفتح الاسلامى غير معلومة ! وهى قائمة على مدينة رومانية قديمة اسمها صلداى Saldae

8) الشيخ محمد المهدى : خلاصة مقاله بجاية فى القديم والحديث (الجزائر · مجلة هنا الجزائر عدد 74 سنة 1378 هـ · 1959 م ·

ويذكر البكرى في عهده على انها بلدة قديمة يسكنها الاندلسيون ، ولها ميناء جيد ، ومشتى جميل وابن خلدون يقول ان القبيلة التى تسكنها تدعى « بقاية » فسميت المدينة باسمها ·

وفى عهد بنى حماد بعد ان هاجمهم الهلاليون وضايقوا عاصمتهم « قلعة بنى حماد » فكـر الناصر بن علناس رابع سلاطينهم فى تأسيس مدينة جديدة ، وتمكن من احتلال بجاية سنة 453 هـ فشيد بها مدينة بجاية ، واقام بها دارا للصناعـة « ترسانة » لصناعة السفن ، وفى سنة 483 هـ (1091 م) نقل المنصور بن الناصر عاصمته اليها ، ومن ذلك التاريخ صـارت من أهـم المدن الجزائرية ·

وتمتد حولها السهول الخصبة التى تجود بالقمح والشعير والفاكهة بكميات وافـرة ، وتنتج منطقتها الاخشاب ومادتي الراتينج والقطران الجيد فى عهد الموحدين : وفى عام 546 هـ ، استولى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واحتلها ابن غانية سنة 579 هـ ثم استولى عليها الحفصيون عام 629 هـ وتوالت عليها الانقلابات ثم جعلها الحفصيون قاعدة لولاية مستقلة ، وغزاها بنو زيان حوالى سنة 719 هـ وغزاها المرينيون وحكموها من سنة 748 هـ الى سنة 763 هـ ·

وظلت كذلك تابعة لحكمهم حتى هاجمها الاسبان بقيادة بدرو **نافارو** فى فبراير سنة 915 هـ ــ 1509 م فاستولى عليها ، وجدد حصونها ثم خربها ونهبها وفى عام 919 هـ اغار عليها عروج التركى وعجز عن فتحها ·

وفى سنة 963 هـ (1555 م) غزاها صالـح بكلربك وبعد سنة اجبر حاكم المدينة الفونسو ديى بيرالتا وكان ذلك فى 28 سبتمبرمن العام المذكـور ·

وحكمها الاتراك نحو 188 سنة ، ووضعوا بها حاميـة عسكرية ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقهروا قبائلها المجاورة لها ، وفى اواخر عهدهم هجر المدينة سكانها حتى لم يبق فيها الا نحـو الف ساكن فى القرن 18 م · كان منهم الحامية التركية التى بلغ عددها 160 جنديا انكشاريا ·

الاحتلال الفرنسى : واعدت فرنسا حملة فى ميناء طولون وعهدت بقيادتها للقائـد تريزيل فوصلها فى 19 سبتمبر عام 1833 م ــ 1249 هـ ·

وبعد قتال عنيف قام به أهل المدينة من 30 سبتمبر الى 12 اكتوبر دخلها الفرنسيون ولـم يستقروا بها استقرارا حقيقيا الا بعد ان اخضعوا بلاد القبائل فى حملتهم التى استغرقت ما بين سنتى 1264 هـ ــ 1847 م = 1275 هـ ــ 1858 م) · أى اكثـر من 11 عاما ·

وبعد ذلك اخذ الفرنسيون فى استغلال المناجم العديدة بالمنطقة مع انشاء الطرق ، ومد السكك الحديدية التى تربط الميناء بمناطق القبائل او بسهـول سطيف المرتفعة ، وبها معاصر الزيـت والمدابـغ وغيرها ·

وسكان بجاية الآن وقبل الاستقلال بقليل نحو 40 الف نسمة .

10) ما كتبه الاستاذ توفيق المدنى :

مدينة بجاية مدينة التاريخ الحافل ، وعاصمة دولة بنى حماد الامجاد ، مرساها من احسن مراسى القطر الجزائرى ، وحركتها للتصدير والتوريد قديمة ، ونهضتها لايستهان بها ، وقد قضى الاحتلال الاسبانى على آثارها الاسلامية (10) .

11) ما كتبته دائرة المعارف الاسلامية :

جاء فيها : بجاية مدينة بالجزائر على شاطىء البحر تابعة لاقليم قسنطينة وهى على خط طول 9 . شرق جرينوتش ، وخط عرض 49 36 شمالا ويبلغ عدد سكانها وفقا لتعداد سنة 1906 م 5528 نسمة .

وقد بنيت هذه المدينة على شكل مدرج فوق المنحدرات السفلية لجبل جوراية (660 م) وهى تطل عن خليج تحميه من الرياح العاصفة عدة كتل عالية من الصخور ومنـاخ هذه المدينة معتدل جدا فى الصيف ويكثر سقوط المطر الغزير فى تلك المنطقة ولهذا تكثر المزروعات مثل اشجـار الزيتون والصفصاف والسنوبر وغيرذلك.

ولا نعرف الا القليل عن تاريخ بجاية خـلال القرون الثلاثـة الاولى التى اعقبت الفتـح الاسلامى بل اننا لا نعرف ايضا العهد الذى اختفت فيه المدينة الرومانية سالداى Saldae ــ التى كانت تشغل المكان الذى قامت عليه مدينة بجاية الحالية . ويظهر مع ذلك ان الملاحين لم ينقطعوا عن التردد على هذه الفرضة وان ضاحية من الضواحى قد ظلت باقية على سفح جبل جوراية .

ولم يكن لبجاية شان هام فى تاريخ البربر الا فى عهد بنى حماد ، وذلك عندما رأى سلاطين قلعتهم انهم مهددون بغزوات العرب الهلاليين فعزموا على ان يكونوا على مقربة مـن الشاطىء . ففى عام 453 هـ (1063 م) استولى الناصر بن علناس رابع سلاطين بنى حماد على بجاية وابتنى هناك مدينة سماها الناصرية ولكن الاهالى ظلوا يطلقون عليها اسم بجاية . واجتذب اليها عددا كبيرا من السكان اذ كان يعفى جميع السكان الجدد من الضرائب ، وتذهب الروايات كذلك الى انه كان يجبر الأهالى على بناء المساكن كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة ان يجلب معه حجرا او يدفع قطعة من الذهب .

واستقر هو نفسه فى تلك المدينة عام 461 هـ وابتنى بها قصـرا اسماه اللؤلؤة كما ابتنى رصيفا ممتدا فى البحر ، ودارا لصناعة السفـن ، وقناطر معلقة بجر المياه ، وسـورا حول المدينة به ابراج ، ونقل ولده وخليفته المنصور عاصمة ملكه من القلعة الى بجاية وذلك عام 483 هـ

10) الاستاذ توفيق المدنى : جغرافية الجزائر (الجزائر . 1953 م ص 117) .

1091 م) وشيد هناك قصر اميمون ، وابتنى مسجدا تزينه منارة ارتفاعها ستون قدما وواجهـــة بها 17 باكية Porticoes كما جلب اليها المياه من جبل توجه بواسطة القناطر المعلقة • وغدت بجاية بذلك من أهم مدن المغرب ، وكانت هذه المدينة مقسمة الى 21 حيا وتضم 72 مسجدا ، وقد أشاد الرحالون بغناها وعظمتها وبناشاطها التجـــــارى ... » •

بجاية فى آخر عهدها الاسلامى : « ولما اعتزم الاسبانيون الاستيلاء على بعض الاماكن فكروا فى انتزاع بجاية من ايدى المسلمين فاستولى بدرونافارو = Pedro Navarro على هذه المدينة فى شهر فبراير من عام 1509 م وجدد الاسبان حصونها • اما المدينة نفسها فنهبت وخرب قصر بنى حماد الذى كان لا يزال قائما ، واغار عروج على بجايـــة عـــــام 1513 ولكن الاسبان أفلحوا فى مقاومته واحتفظوا بالمدينة حتى عام 1555 م غير ان سلطانهم فيها كان مزعزعا •

وظل اهل القبائل يحاصرون هذه المدينة دون انقطاع فى حين ان حاميتها من الاسبان لـــم يزودوا بالمعونة الكافية من الرجال والزاد والذخائر ، وكانت اسوار هذه المدينة قد تخربت عندما جاء بكلربك صالح رئيس وداى الجزائر لمحاصرتها فلم يمض ستة أيام حتى تم له النصـــــر واجبر الفونسو دى بيرالتا حاكم المدينة على التسليم فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1555 م

وعندما رجع هذا الحاكم الى اسبانيا حوكم امام مجلس عسكرى وحكم عليه بالموت فقطعت رأسه •

واحتفظ الترك بسلطانهم فى هذه المدينة مدة 188 سنة ووضعوا هناك حامية ولكنهم لم يتمكنوا قط من استمالة القبائل المجاورة او اعادة تلك المدينة الى سالف مجدها ولم يكن فى هذه المدينة حتى القرن الثامن عشر الا خمسمائة او ستمائـــة نسمة عدا حاميتها ويبلـــغ عددها 160 جنديا من الانكشارية •

وبعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر « أعدوا حملـــــة فى طولون على رأسها القائد تريزل tresel فوصلت الى هذه المدينة فى 19 سبتمبر عـــــام 1833 م وبعد قتــــال عنيف فيما بين 30 سبتمبر و 12 اكتوبر استولى تريزل على المدينة ، وظل مركز الفرنسيين فى بجاية متحرجا بسبب مناوشات اهل القبائل حتى انهم فكروا فى مناسبات مختلفة فى التخلى عن هذه المدينة اذ شعروا ان احتلالهم لها غير مجد ولم يستتب لهم الامن فيها الا بعد غزو اهل القبائل عام 1847 م الى عام 1857 م ومنذ ذلك الوقت اخذ الفرنسيون فى تحسين وادى الصـــومام واستغلال المناجم العديدة الموجودة فى ذلك الاقليم وانشاء الطرق ومد السكك الحديدية التى تربط بجاية بأهل القبائل الكبرى من جهة ، وبسهول سطيف المرتفعة ومجانة من جهة أخرى وفى هذه العوامل كلها جعلت المدينة ترفل فى حلل الرخاء كما انها اعطت ميناءها قيمة تجارية هامــــة (11) •

11) ايفير ــ مقال حول بجاية ــ دائرة المعـــارف الاسلامية ج 3 ص 250 ــ 252 •

بجاية
من خلال النصوص الغربية

جمعها وقدم لها وترجمها
اسماعيل العربي
كاتب جزائري

هذه مجموعة من النصوص مقتبسة من كتب ثلاثة من الرحالين الغربيين (عربي واسباني وانجليزي) زاروا بلادنا وتجولوا فيها وسجلوا ملاحظات عن مشاهداتهم خلال رحلاتهم في اعمال تعتبر من اهم مصادر تاريخ افريقية · والمعلومات التي تقدمها لنا ، تعتبر مساهمة قيمة ولن يفوت المؤرخين الذين يعنون ببحث الفترة بين الاحتلال الاسباني لبجاية وتحريرها على يد الاتراك ان يقدروها حق قدرها · واذا كان وصف الرحالتين ، العربي والاسباني ، للحوادث التي رافقت الاحتلال الاسباني يتسم بالقصور ، حيث لا يعتمد الا على الرواية الاسبانية ، وبالتالي فهو في حاجة الى التنقيح والتكميل ، فان ملاحظات « شاهد عيان » التي خلفاها لنا ، ولا سيما ، ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية ، وموارد منطقة بجاية ونمط الحياة اليومية ، وآثار المدينة وتحصيناتها التي كانت لا تزال قائمة في الوقت الذي زار فيه كل منهما المدينة ، تستحق كلها ان يأخذها الباحث بكل ما ينبغي من الجد والاهتمام · وهذا التحديد الاخير ينبثق ايضا على ملاحظات توماس شو ، الذي كان معتمدا من قبل حكومته في بلدنا ·

ونحن نقدم هذه النصوص الى قراء « الاصالة » الغراء ، مساهمة منا وتقديرا للمجهود الذي بذلته لتسليط الاضواء على مدينة الناصرية ، مقتصرين في ذلك على ترجمتها بما ينبغي من الامانة والدقة ، ودون ان نحاول تحليلها او اثراءها بالهوامش والاضافات ، حيث ان ذلك من شانه ان يخرج بالموضوع عن النطاق المتعارف لحجم المقالة · وهذا ، على كل حال ، نوع من المقالة ، وليس برسالة او اطروحة ·

على ان رغبتنا في الابقاء على اصالة هذه النصوص وعلى طابع تركيبها اللغوي القديم واحترام وحدتها العضوية ، لا تمنعنا من تقديم كل واحد من الكتاب الثلاثة الى القارئ العربي بكلمة وجيزة للتعريف بهم وباعمالهم التي اخذت منها هذه النصوص ·

الحسن بن محمد الوزانى الفاسى Léon l'Africain

له عدة اسماء · والاسم الذى اشتهر به فى اوروبا ، هو الذى اطلقه عليه البابا ليو العاشر (وهو اسم البابا نفسه) ويأخذ باللاتينية الشكل التالى :Johannes les Africanus وقد خلع عليه البابا اسمه بعد تنصيره ، تقديرا لعمله ومعرفته وخبرته الواسعة ·

ولد الحسن الوزانى فى غرناطة فى سنة 1494 ــ 1495 ميلادية · ولهذا الاعتبار ، فهو يسمى أيضا الغرناطى ، كما ينسب الى فاس ، حيث تربى وتعلم · واما تسمية الافريقى ، فيشتقها من كتابته على افريقية ورحلاته فى هذه القارة ·

وبعد مولده بوقت قصير ، انتقلت به عائلته الى فاس حيث تربى وترعرع ، وبعد ما قـــام بمهام ديبلوماسية كلفه بها بنو وطاس ، رحل الى مكـــة فى سنة 921 ، ثم الى اسطنبول ، وعند عودته من هذه الرحلة (وهى الثانية) وقع اسيرا فى يد قراصنة من الصقليين ، نقلوه الى روما وقد موه الى البابا يوحناليو ، بعد ما عرفوا انه من رجال العلم ، وقد اكرمه البابا وانزله عنده واحاطه برعايته ، وجعله يعتنق المسيحية على يده ·

وفى روما ، قام الحسن الوزانى بتحرير عدد من الكتب ، لم يصل الينا منها باللغة العــربية سوى معجم عربى ــ عبرى ــ لاتينى الفه فى سنة 930 (توجد نســـخة خطيــة منه فى مكتبـــة الاسكوريال) · واما كتابه ، وصف افريقية الذى نقتبس منه النص التالى ، فقد وضعه باللغـــة العربية ، ثم ترجمه الى اللغة الايطالية فى سنــة 1526 م · ولكن النص العربى تلف · وقد نشر راموزيو Romusio النص الايطالى فى سنة 1550 فى البندقية ، ونشر براون R. Browne فى لندن فى سنة 1896 م النص الانجليزى الذى كان قد ترجمه بورى J. Pory فى سنة 1600 م · وفيما يلي نقتبس النص الذى يتعلق بوصف بجاية من النص الانجليزى الذى نشر بعنوان : The History of Africa (الكتاب الخامس ــ ص 699 ــ 702) ·

حينما بوبت تاريخ البربر فى الجزء الاول من كتابى هذا ، قررت ان اكتب عن بجاية باعتبارها مملكة مستقلة · (ولما وصلت اليها) ، عرفت انها كانت منذ سنوات غير بعيدة مملكـــة ، ولكنها كانت خاضعة لملوك تونس · وبعد وقوعها خلال بضع سنوات تحت حكم ملك تلمسان ، عادت المدينة الى حكم ملك تونس الذى ولى عليها احـــد ابنائه ، وقد اتخذ هذا الاجــراء لضمان هدوء المدينة وأمنها ، من جهة ، ولكي يامن من قيام نزاع (على الملك) ، بعد وفاته ، من جهة اخرى ·

خلف ملك تونس ثلاثة اولاد ، اكبرهم سنا يسمى عبد العزيز · وهذا هو الذى ولاه على بجاية ، ويسمى الثانى (ابا عمرو) عثمان Hutmen ، وقد ترك له ابوه مملكة تونس ، والثالث يسمى عمر Hommare ، ولاه على منطقة التمور (الـزاب) ·

وهذا الولد الاخير ، لم يلبث ان شن حروبا ضد اخيه (ابو عمرو عثمان) الذى غلبه فى نهاية الامر فى مدينة صفاقس وفقأ عينيه ثم ارسله الى تونس حيث عاش عدة سنوات أعمى ، وقد ظل اخوه عثمان ملكا على تونس اربعين سنة ·

واما امير بجاية الذى كان محبا لاخيه مراعيا للواجب معه ، فقد ظل على حكم المدينة عدة سنوات عرفت خلالها بجاية فترة من الهدوء والسـلام ، وذلك قبل ان يطرده منها الملك فرديناند (ملك اسبانيا) ، بواسطة احد ضباطه ، بيدرو نافارو ·

وصـف بجاية :

بنيت هذه المدينـة القديمة التى يعتقد البعض انها شيدت فى عهد الرومان ، على سفـح جبل مرتفع على مقربة من البحر الابيض المتوسط والمدينة يحيط بها صور عال متهدم يشهد بعظمة بجاية فى العصور الخالية ·

والقسم المعمور من المدينة حاليا ، يبلغ عدد سكانه نحو 8000 اسرة · ولكن المدينة تتسع ـ لو أعيد بناء منازلها كلها ـ لاكثر من 24 الـف اسرة ، لانها مدينة طويلة جدا ·

ومبانى المدينة ومعابدها يسودها طابـع من عظمة الفن المعمارى ، وفى بجاية عدد كبير من العلماء الذين يدرس بعضهم علوما تتصل بالقانون ، والبعض الآخر العلوم الطبيعية والفلسفة · وفى المدينة كثير من المساجد والفنادق والمستشفيات · وفيها ايضا اسـواق واسعة عامرة وطرقها وشوارعها تصعد وتهبط بصورة تجعـل السير فيها شاقا على السكان الذين يقصدون الى وسطها لممارسة اعمالهم اليومية ·

وفى اعالى المدينة ، غير بعيد من قمة الجبـل ، تقف قلعة تمتاز ببنيانها الشامخ والانيق وباسوارها العالية (1) · وفى المدينة نقوش على الفسيفساء (2) وعلى الخشب يعتقد ان تكاليف اعمالها اكبر من تكاليف بناء المدينة نفسها ·

---

1) ربما كانت هذه القلعة التى بناها الناصر بن علناس وخربها الأسبان ، وكانت تسمى « البرج الاحمـر » ·

2) فى الاصـل : Plaster - Work

وقد كان سكان المدينة يتمتعون بثراء كبير كما كانت سفنهم الحربية تحمل الخراب الى شواطىء اسبانيا باستمرار • وهذا هو السبب الذى حمل الاسبان على غزو بلدهم حين ارسلوا بيدرو نافارو على رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية •

ونظرا لان سكان المدينة كانوا يعكفون على اللذات والمتعة ، وكانوا يرتجفون من الخوف للاشاعات التى تتصل بالحرب ، حيث كانت الحرب لا تثير حماسهم ولم يكونوا متمرنين على اساليبها ، فقد هربوا مع ملكهم عند مقدم بيدرو نافارو ، وتركوا المدينة بكل ما فيها من الكنوز والتحف التى وقعت غنيمة فى يد الاسبان • وقد استولى الاسبان على بجاية سنة 917 هجرية وبعدما استولى بيد رونافارو على المدينة ونهبها ، قام ببناء قلعة منيعة على شاطىء البحر ، كما قام باصلاح قلعة اخرى ظلت مهدمة وقتا طويلا ، ووضع فى القلعتين حاميات من الجنود وزودهما بالذخيرة والمؤن •

وبعد ذلك بست سنوات ، استولى بربروس الذى كان يريد احتلال المدينة واخذها من المسيحيين ، على القلعة القديمة على رأس الف جندى ، وقد تمكن ، من ذلك بمساعدة سكان الجبال المجاورة • ولكنه فقد منذ الجولة الاولى فى المعركة مائة من جنوده الذين كان معظمهم من الاتراك كما خسر 400 مقاتل من اتباعه من سكان الجبال الذين جاءوا لمساعدته • وعلى اثر ذلك اضطر باربروس الى الهروب الى قلعة جيجل التى سنذكرها •(انتهى الاقتباس)•

مارمول : Corvajal Marmol

سائح ومؤرخ اسبانى ، ولد فى غرناطة وعاش فى القرن السادس عشر • اشتغل ضابطا فى جيش الامبراطور شارل كينط واشترك فى الحملة التى شنها الاخير على تونس فى سنة 1536 • وقد وقع اسيرا فى يد العرب وبقى فى شمال افريقية قرابة ثمان سنوات • وفى غضون هذه المدة ، اتيحت له فرصة للسياحة والنزهة فى رفقة اسياده فى مختلف اطراف البلاد • وكذلك استغل وقته لتعلم اللغة العربية التى تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن هذه البلاد • وبمجرد حصوله على حريته ، قام بتحرير كتاب كبير (معتمدا خصوصا على ملاحظات الحسن الوزانى) • وهذا الكتاب الذى وضعه فى غرناطة فى سنة 1573 بعنوان « وصف عام لافريقية » لا تزال له قيمته ، وهو الذى نقتبس منه النص التالى • وقد قام بترجمته الى اللغة الفرنسية ونشره فى ثلاثة اجزاء ، باروت دالبان كورت P. d'Abancourt فى سنة 1667 م •

والمعلومات التى يقدمها المؤلف تشمل جميع مناطق افريقية الشمالية حتى النيجر – بما فى ذلك الصحراء الكبرى – واثيوبيا ومصر •

والكتاب يشتمل على سرد تاريخى مجمل للمعارك التى وقعت حتى سنة 1574 م •

وكذلك وضع كتابا تاريخا آخر ضمنه وصفا للثورة التى قام بها المسلمون فى غرناطة فى عصر فليب الثانى وللفضائح التى ارتكبها هذا الملك المسيحى (1) • ورواية المؤلف لهذه الحوادث بوصفه شاهد عيان ، لا تزال تمثل المادة الاساسية والمرجع الاول لهذه الثورة •

ولايــة بجاية فى مملكة تلمســان :

هذه هى الولاية الاخيرة فى موريطانيا القيصيرية من جهة الشرق • وفى غربها تمتد ولايــة الجزائر حيث تقع مدينة تنس • وعلى شرقها تقع مدينة القل ومنطقتها • ويحد ولاية بجاية من الشمال • البحر الابيض المتوسط ، ومن الجنوب ، نوميديا ، او بلاد الجيطول ، وبعض الكتـــاب يضعون ولاية بجاية ضمن مملكة تونس ، ولكن افضــل الكتـــاب يسيرون على نهــج بطليموس ويعتبرونها ضمن مملكة تلمسان التى هى موريطانيا القيصرية •

من الصحيح ان بجاية كانت تابعة خلال فترة من الزمان لملكة تونس ، بعد ان اخضـــع ملوكها تلمسان ، حيث ان الملك قد نصب لدى عودته من تلمسان احد ابنائه على بجاية وخلع عليه لقب الملك • وهذا الملك التونسى ، خلف ثلاثة اولاد ، منح اكبرهم سناعرش تونس ، ونصب الثانى على ولاية الزاب ، فى نوميديا ، او جيطوليا • ولكن الابن الاخير ثار على اخيه ، عقب وفاة ابيه ملك تونس ، واستولى على عدة مدن فى مملكته ، بمساعدة بعض النوميديين والعرب • ولكن اخاه هزمه فى نهاية الامر ، وخيره بين احد الامرين : القتل ، او فقد بصره • ولما اختار العمى ، افقده اخوه بصره بواسطة صحن محرق من النحاس ، فقد عاش مدة طويلة وهو اعمى ، وفيما بعد ، منح عثمان اخاه الثالث ، عبد العزيز مملكة بجاية ، حيث ظل ، هو وابناؤه ملوكا حتى استولى عليها بيدرو نافارو ، وفى هذه الفترة كانت بجاية مملكة ، ولكنها ضمت الى تونس •

وبجاية تحيط بها من جميع الجهات جبال مرتفعة تتدفق فيها عيون ثرة • وفى هذه الجبال ، يقطن عدد من القبائل الزواق Azuague والبربر الشجعان الذين يفخرون بنسبهم وكرمهم • وهؤلاء يملكون ثروات من الحيوانات الصغيرة والكبيرة ، ويوجد عدد كبير منهم ممن يحسنون الرماية ومن الفرسان •

وهذه الجبال ، لا تزال على طبيعتها الاصلية (2) ، وهى ذات مسالك وطرق وعرة ، بحيث ان سكانها يعيشون فى حرية تامة ولا يخضعون للسلطان ولا يعبئون بقوة الملوك •

(1) Historia del Rebelion Y Castigo de los Morisco del Reymo de Grenada, Malaga, 1600 ; Madrid, 1797, 2 vol.

(2) فى الاصـــل : Sauvages

وفى السهول المجاورة (لبجاية) تعيش جماعات من العرب والزواق الذين يسيرون على نمط واحد من الحياة ويتنقلون بخيامهم فى الارياف ، انهم رجال شجعان ويملكون اسلحة نارية · ومعظمهم يمارسون مهنة نسج الاقمشة والسجاد المصنوع على الطريقة العربية ، وغذاؤهم يصنعونه من دقيق الشعير ، كما يقتاتون باللحوم والتين والجوز الذى يجففونه ويخزنونه لسنة باكملها ·

وفى هذه المنطقة يوجد عدد من مناجم الحديد التى يستخرجون الحديد الخام منها ويصنعون منه قطعا صغيرة يستعملونها نقودا · ولكنهم يملكون ايضا نقودا من الذهب والفضة ، كما يملكون كميات كبيرة من الصوف والقنب الذى يستعملونه لصنع الاقمشة ·

ونساء هذه المنطقة يتمتعن بكثير من الجمال ورجالهن شديدو الغيرة عليهن · والرجال فى هذه المنطقة اشداء اقوياء السواعد واحرار ، ولكنه ينقصهم النظام· ودأبهم محاربة بعضهم البعض الآخر · وهم يحصدون زرعهم فى السهول المجاورة ، ونحن سنعرض الخصائص الاخرى التى تميز هذه المنطقة ، حينما نتعرض لوصف جبال البلد ، بصفة خاصة · واما الآن ، فسنتحدث عن المدن ·

بجاية عاصمة الولاية :

انها مدينة عظيمة ، كان يسكنها فى ايام عزها اكثر من عشرين الف اسرة ·

بنى الرومان بجاية على سفح جبل كبير مشرف على البحر ، على مسافة ثلاثين فرسخا فى شرق الجزائر ، وعلى مسافة اثنى عشر فرسخا من جيجل · وبطليموس يحدد وضع بجاية عند درجة 22 درجة طولا ، و 32 درجة و 30 دقيقة عرضا · وقد كانت المدينة محاطة باسوار عالية ولكن الخليفة الشيعى (؟) خربها جزئيا عندما اخضعها · وبعد ذلك ، عاد اليها سكانها ، ولكنها لم تستعد عظمتها وقوتها · والمدينة قائمة على سفح جبل وتمتد حتى قمته ، حيث توجد قلعة مغلقة على نفسها ، وحيث تقف قصور عربية شامخة ، تمتاز بالجمال اكثر مما تمتاز بمتانة البنيان ·

ومن جهة البحر ، تقف قلعة اخرى تعلوها ثلاثة ابراج · ومنازل المدينة متينة البنيان · وفى المدينة عدة مساجد وعدد كبير من المدارس التى تدرس فيها مختلف العلوم ·

والمدينة تحيط بها غياض واجنة تمتد خصوصا فى الناحية الشرقية ، وبعد ذلك تنتشر غابة كثيفة يعيش فيها عدد كبير من الاسود والقردة ، والبلد لا ينتج القمح بوفرة ، ولكن السكان ، مع ذلك فى بحبوحة من العيش ، بسبب النشاط التجارى الذى يمارسونه مع اروبا · ونظرا لان الملك عبد العزيز كان رجلا وديعا مسالما وصديقا للجميع ، فقد عاش سكان المدينة وقتا طويلا فى ظل السلام ، على ان الرغبة فى المزيد من الثروة دفعت السكان الى تسليح سفنهم والانطلاق فى غزو

الشواطىء المسيحية · ولما رأى الملك فرديناند ما يلحقونه بهذه الشواطىء من الاضرار ، وجـه اليهم بيد رونافارو الذى استولى على المدينة ، كما سنـرى ذلك ·

استيلاء بيد رونافارو على بجايـة :

ففى سنة 1510 م ، ابحر بيد رونافارو عـلى رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية كبيرة تحمل على متنها جنودا · وعلى الرغم من ان المدينة كان يسكنها اكثر من 8000 اسرة ، وهو عدد يكفى للدفاع عنها ، فان السكان قد هجروا المدينة واعتصموا بالجبال ، بمجرد مالاح لهم الاسطول الاسبانى ، وذلك لاعتقادهم بانه بمجرد ما يقوم هذا الاسطول بنهب المدينة سيجلو عنها ويعـود ادراجه · ولكنه (بدلا من ذلك) ، أمر القائد الاسبانى ببناء قلعة على الشاطىء ، فى المكان الذى يقع فيه مرسى المدينة الحصين·· وبينما كان منهمكا فى العمل على رأس خمسة عشر الف رجـل لتحصين المدينة ·

وبينما كان القائد الاسبانى يفكر فى القيام بغزوات فى المنطقة ، دخل الى المدينة بكل هدوء فى يوم عيد الفصح امير عربى ، هو ابن اخ الملك الذى هرب الى الجبال والذى كان قد استولى عليها من قبل بطريق الغدر والخيانة · وقد غدر بهذا الامير عمه بالطريقة التى ساصفها :

فقد سار الامير لجباية الضرائب فى قرى ثائرة فى جوار بجاية وولى عمه حاكما على بجاية خلال فترة غيابه · ولكن العم استعان بسكان المدينة وقام بثورة على ملكها · ولما رجع ابن اخيه بعدما انتهى من مهمته ، اعتقله وفقأ عينيه · وقد ظل هذا الامير فى السجن بعد ذلك ، حتى مجىء بيد رونافارو ·

ولما هرب الملك والسكان من المدينة ، اطلق سراحه وهرب هوايضا · ولكنه بعد بضعة ايام ، سار على رأس عشرة فرسان ومثلهم ومثلهم مـن الرجالة ومعه شيخ من اصدقائه لا يتجاوز عمره ثمانية عشر عاما · (ولما) كان يحمل معه علما ابيض طلبا للامـان فقد استقبله الكونت خـير استقبال ثم عهد به الى احد الجراحين وكلفه بمعالجة عينيه·وقد اكتشف هذا الجراح أن عينى الامير لم تفقئا ، وان كل ما فى الامر هو انهما عندما تعرضتا للنحاس الشديد الحرارة ذابت اللحمـة المحيطة بهما وانغلقتا · وما كان من الجراح الا ان قام بازالة اللحمة · واثر ذلك عاد الى الامير بصره · ولكي يرد الجميل بالجميل ، اخبر الاسبان بان عمه وسكان المدينة قد التجئوا الى مكان يقع بين الجبال وعرض عليهم ان يقوم هو بدور الدليل ليرشدهم الى المكان لمفاجاتهم ·

وعقب ذلك مباشرة ، بعث الكونت الذى سر لهذا الخبر باثنين من رجاله ، وأرفق بهما اثنين من العرب ،للتعرف على المكان الذى التجا اليه سكان بجاية · ولما عاد هـؤلاء ابلغوا الكونت ان

المكـان لا يبعد عن المدينة الا بسبعة فراسخ ، وان هذا المكان ، عبارة عن مروج واسعة ، الاطراف تمتد بين الجبال ، وان من الممكن الوصول اليها باتباع طريق تعرفوا عليها ٠

واثر ذلك ، سار الكونت ليلا على رأس خمسة عشر الف مقاتل مصطحبا مع الامير وحاشيته ولما اصبح الصباح ، وصلوا الى جوار المروج دون ان يقابلوا احدا فى طريقهم . (ولما اقتربوا من المكان) ، شاهدت الطليعة مجموعة من الاشجار توهمت انها خيام العرب وابلغت الكونت اكتشافها ولكن الكونت الذى ادرك خطاهم ، زحف فى الاتجاه الصحيح على خيام العرب التى كانت تقـع على مسافة نصف فرسخ من موقعه ٠

على ان العرب الذين تنبهوا لزحف الاسبان كانوا قد شرعوا فى الفرار ٠ غير أن الاسبان طاردوهم حتى قمة الجبل وقتلوا واسروا منهم عددا كبيرا اثناء المطاردة ٠ وفى نفس الوقت أشعلوا النار فى مخيم العرب ، بعدما نهبوه وجمعوا كل ما حوله من القطعان ٠ وقد غنمـــوا فى هذه العملية 900 جملا ومثل هذا العدد من البقر وعددا كبيرا من الخيول والبغال ورؤوس الغنم ، كما استولوا على كثير من نقود الذهب والفضة والاقمشة وجميع خيول الملـــك وسروجه واحجاره الكريمـــة ٠

وبعد ذلك ، انسحب الكونت بنظام وعاد ادراجه دون ان يتعرض لهزيمة على يد العـــرب الذين كانوا ، مع ذلك يناوشونه من جميع الجهات اثناء السير ٠ بل انه قتل عددا منهم ولم يفقد جيشه سوى جندى واحد كان قد خرج من الصفوف

ولما اقترب الكونت من المدينة ، استقبله الاسقف الجديد على رأس جميع الكهان الذين رتلوا امامه اناشيد دينية ، ثم اقيمت حفلات سادها السرور والابتهاج ، على الرغم من ان الجنود كانوا متعبين ، فان الجيش ، زيادة عن اجتيازه نهرين كان احدهما فى حالة فيضان غير عادى بســـبب الثلوج التى كانت تذوب حينئذ وتغذيه بالمياه ، فقد واجه قبل ان يقتحم السهل الذى خيم فيه العرب تحصينات وعراقيل وفخاخا عند كل خطوة ٠ وقد ذكر العرب الذين وقعوا فى الاسر ، ان اللاجئين كانوا يعتقدون ان هذه العوائق كانت كافية لوقف زحف المسيحيين ٠

وبعد ذلك ، توالت هجمات العرب على بجاية ، وكانوا ينصبون للقوات الاسبانية كمينا اثر كمين ، وقع فيها عدد من القتلى والجرحى من الجانبين ، ولكنه لم يقع شىء يستحق التسجيل ٠

وفى هذه الاثناء ، انتشر بالمدينة وباء ، لم يلبث ان اتسع نطاقه ، بحيث كان عدد الموتى يبلغ مائة فى اليوم الواحد ٠

واثر ذلك ، غادر الكونت بجاية واتجه الـى طرابلس للهجوم على هذه المدينة ·

وفى هذا الوقت جاء بربروس وضرب حصارا على بجاية على رأس قوة تتكون من الف مقاتل تركى وعشرين الف مقاتل من سكان الجبال المجاورة · وبعد ما اقتحم احد حصنى المدينة ، هجـم على الحصن الآخر · وفى هذا الهجـوم الاخيـر ، اصيب بطلقة مدفع قطعت ذراعه · وعند ذلك انسحب بربروس ، تاركا وراءه مائة قتيل من الاتراك واكثر من خمسمائة قتيل من العرب ، ومـن هناك رحل الى جيجل ·

استيلاء الاتـراك على بجاية :

ظلت بجاية 35 سنة (1) تحت حكم الاسبانيين الذيـــن كانوا يحتفظون بحامية فى قلعتيها تتكون من 500 رجل · وانطلاقا من المدينة كانـوا يقومون بغارات على المناطق المجاورة ، ولكنهم قلما كانوا يتوغلون بعيدا فى الداخل ، بسبب شدة شوكة السكان وصعوبة هذه الجبال ·

واخيرا وفى سنة 1555 م ، ضرب صالح الرايس ، حاكم الجزائر حصارا على بجاية من جهة البر ، على رأس قوة يبلغ عدد افرادها اربعين الف مقاتل من الرماة والجنود المسلحين بالبنادق ، ومن جهة البحر بقوة تتكون من عشرين سفينة حربية · وبعدما استولى على حصن الامبراطور الذى كان الاسبان قد تخلوا عنه ، حيث لم يكن فى استطاعتهم الدفاع عنه ، حاصر الحصن الواقع على البحر والذى لم تكن حاميته تتجاوز 40 رجلا · وبعد ما سلط عليه نيران المدافع خمسة ايام كاملة تمكن من الاستيلاء عليه ·

وعقب ذلك حاصر القصر الاكبر ، حيث كان القائد ، دوم الفونس دوبيرالت متحصنا على رأس بقية قواته · وبعد ضربه مدة 22 يوما ، ورأى القائد انه لم يعد فى امكانه المقاومة ، استسلم لكي يتمكن من انقاذ حياة النساء والاطفال ، واشترط ان يسمح له ولمن معـه بالخروج من المدينة احرارا ووضع سفن تحت تصرفهم لتنقلهم الى اسبانيا ·

ولكن التركي ، نقض وعده ، واسر جميع من كان فى القصر ، ما عدا الدوم الفونس وعشرين من رجاله الذين ترك له حرية اختيارهم · (انتهى الاقتباس عن الجزء الثانى ص 415 ــ 418)

ثومـاس شـــو : Thomas Show

عاش ثوماس شو البريطانى عدة سنوات فى الجزائر ، حيث كان معتمدا يمثل بلده فى اوائل القرن الثامن عشر ، وقد تجول فى مختلف اطراف البلد وســـجل ملاحظات بعناية ودقـــة عن

1) الصواب 45 سنة (المتـرجم) :

مشاهداته ، فترك لنا وصفا ممتعا ومفيدا للبلد ، تحت العثمانيين ، لا للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فحسب ، بل وايضا للحيوانات والانهار والجبال والمدن الخ · وقد ساعد هذا الرحالة الجامعي فى اداء هذه المهمة ، معرفته باللغة العربية التى قرأ بها بعض كتب التاريخ العربية ، والمامه باللغة القبائلية ، وكذلك رجع شو الى وصف الحسن الوزانى الذى سبقه بنحو قرنين واستقى منه مادة لتكميل معلوماته واشار الى ذلك بما ينبغى من الامانة العلمية ، والجدير بالذكر ان رحلة شو قد افضت به ايضا الى تونس ومصر وفلسطين وسورية وقد وصف مشاهداته فى هذه البلاد بنفس العناية والدقة والامانة · ونحن نقتبس النص التالى من الطبعة الثانية من الرحلة التى نشرت فى لندن فى سنة 1738 ، تحت عنوان :

Th. Show, Travels and Observations relating to several parts of Barbary and the levant.

وعلى مسافة قصيرة من متزكوب Netse Coube يقع ميناء بجاية التى يسميها استرابون Strabon صاردو Sardo اوصالدى Salda · وهذا الميناء اكبر كثيرا من ميناء وهران ومن ميناء ارزيو ، ولكنه يتكون على نفس المنوال من لسان من اليابسة يتوغل فى البحر وكان معظمه فى الازمنة الغابرة مفروشا باحجار منحوته · ويمتد على هذا اللسان من اليابسة ، انبوب ينقل الماء العذب الى الميناء · ولكن حائط الميناء والانبوب والصهريج الذى يفرغ فيه الماء ، كلها اليوم مهدمة · بل انه لم يبق فى المنطقة قائما سوى ضريح السيد بوصغرى Busgaree ، احد اولياء المدينة ·

وبجاية (او Bougia كما يسميها الجغرافيون المحدثون) ، تقوم على انقاض مدينة كبيرة قديمة · وهي مبنية على نفس المنوال وفى موقع مشابه لموقع مدينة دلس Dellys ولو ان قطرها يبلغ ثلاثة اضعاف دلس ·

والى جانب الحصن الذى يقف على قمة الجبل والذى يشرف على المدينة كلها يوجد حصنان آخران فى اسفلها يحرسان الميناء · وفى اسوار هذا الحصن ، يمكن مشاهدة الثغرات التى احدثتها قنابل المدافع التى اطلقها ضدها السير ادوارد اسبراج E. Sprag فى سنة 1671 م · اثناء حملته المشهورة على هذه المدينة (1) ·

وفى بجاية حامية تتكون من ثلاث سرايا من المشاة ، ولكنها ذات فعالية ضئيلة ، حيث انها لا تمنع قبائل جورايا وتوجه المجاورة من ضرب حصار شبه مستمر على المدينة ·

(1) راجع Atlas Géog. Vol. IV, p. 191 (هامش المؤلف)

وفى محل يوم تقام فيه السوق ، تحمل هذه القبائل منتجاتها الى المدينة . وما دامــــت المعاملات جارية ، يسود الهدوء فى السوق . ولكنه فى نهاية المعاملات ، تنقلب الامور راسا على عقب ولا يكاد ينقضى النهار دون وقوع اضطرابات بين مختلف القبائل ودون حدوث اعمال السرقة .

وسكان بجاية يمارسون تجارة واسعة ، خصوصا ، فى المحارث والفؤوس وغير ذلك من الادوات التى تصنع من الحديد الذى يستخرج من المعادن الواقعة فى الجبال المجاورة . وهؤلاء التجار يشترون ايضا كميات كبيرة من الزيت والشمع من القبائل المجاورة ويصدرونها الى اروبا وبلاد المشـــرق .

وبجاية تقع على مسافة 81 فرسخا رومانيا (34 فرسخا) من مدينة دلس ، او روسكريوم Rusucurum الرومانية . وبجاية لا بد وان تكون هى مدينة صلدى Saladâe التى يضعها بطليموس فى موضع متوغل الى الجنوب ، كما اشرت ، حيث يحدد موقعها عند 32 درجة و 30 دقيقة ، عرض – اى حوالى اربع درجات ابعد مما ينبغى الى الجنوب . وابو الفدا اقرب الى الصـــواب حين يضعها عند درجة 34 ، اذ لا يبعد بها عن موقعها الحقيقى الابدرجتين و 48 دقيقة (1) .

والحقيقة ان بجاية هى المدينة الوحيدة التى يذكرها ابو الفدا فى هذه المنطقة من بلاد البربر – وهو أمر يوحى بالاعتقاد بان مدينة الجزائر لم تكن موجوده (كذا) فى عصره ، او انها كانت مدينة غير ذات بال .

ونهر بجاية الذى يسميه بطليموس «ناسافا» Nacava ينصـــب فى البحر فى شرقى المدينة . والنهر يتلقى عدة روافد عند مختلف الجهات التى يمر بها ، ولكنه لا يتلقى اية روافد عند المسيلة كما زعم بعض الجغرافيين المحدثين . وهذا النهر طويل . واذا استثنينا (سهول) سطيف وحمزة (البويرة حاليا) ، فان جميع المناطق التى تمر بها فروعه تتكون من ارض جبلية صخرية ، الامــر الذى ينجم عنه فيضان وسيول ، ولا سيما فى فصـــل الشتاء ، وخسارات فى الارواح والممتلكات لسكان منطقة بجاية . وبنو مسعود الذين يعيشون عند مصـــب نهر بجاية كثيرا ما يتضررون من فيضان النهـــر وعتوه . انتهى الاقتباس .

1) موقع بجاية الحقيقى هو : 36 درجة و 42 دقيقة ، عرض شمالى ، و 2 درجة و 50 دقيقة طول شـــرقى (المترجم) .

نظرة على تاريخ بجاية

السيدة عالمة

موقع جميل :

تقع بجاية على مسافة 230 كيلو متر من الجزائر ، عند مصب وادى السومام ، عند آخر سفوح جبل جورايا . وقد لعبت بجاية التى كانت عاصمة بنى حماد دورا مهما فى تاريخ بلدنا . والمدينة متحصنة من الرياح بواسطة الجبال الصخرية المحيطة بها . واما الجون الذى تقع على شواطئه فقد استلفت انظار الملاحين الذين يبحثون عن ملجىء مامون منذ اقدم العصور .

العصور القديمة

لا شك وان بجاية كانت مأهولة منذ العصور المتوغلة فى القدم وانما كانت مقصودة من الملاحين بسبب الجون الذى تقع عليه . ومنذ العصور القديمة استلفتت بجاية نظر البحريين الفنيقيين والقرطجنيين الذين أنشأوا قواعد تجارية على شواطىء البحر الابيض ـ تلك القواعد التى ورثها النوميديون ، فيما بعد . وبعد سقوط قرطجنة ، تحولت هذه القواعد التجارية واصبحت من ضمن المستعمرات التى اسسها الرومان تحت الامبراطور أغستس . وحينئذ أخذت بجاية اسم « صلادى »، او ، حسب النقوش الاثرية التى عثر عليها ونقلت الى باريس حيث حفظت فى متحف « اللوفر » « صألدأنتيوم » Saldontiune وقد كانت صلادى التى عرفت نشاطا تجاريا مهما ، تتمتع بكثير من الرخاء ، ولم تلبث ان اصبحت مقر أسقفية . والمدينة تحتفظ حتى الآن ببعض الآثار للعصر الرومانى ، ومثلها فى ذلك ، مثل غيرها من المستعمرات الرومانية فى هذه البلاد .

على ان هذا البلد الذى كان يتشبث بحريتهواستقلاله ، لم يكن راضيا عن الحكم الرومانى . وكذلك وقعت عدة ثورات على الرومان واستمرت الاضطرابات حتى وصول الوندال الذين حملوا معهم الخراب والدمار فى كل مكان حلوا فيه .

جاء الوندال الى افريقية فى القرن الخامس الميلادى . وتقول بعض الروايات ان ملكهم جنسيريك قد اختار بجاية عاصمة للوندال . وقد اتخذت المدينة تحت الوندال اسم جورايا ، وهى كلمة تعنى « الجبل » بلغة هؤلاء القوم . وهذا هو الاسم الذى سيحمله فيما بعد ذلك الجبل الذى يشرف على المدينة . وقد استمر احتلال الوندال لافريقية وقتا طويلا يزيد عن القرن .

وبعد الوندال، سقطت بجاية فى يد البيزنطيين الذين واجهوا عدة ثورات قامت بها المدينة ومنطقتها . وقد استمر حكم البيزنطيين اكثر من قرن ، قبل ان يطردهم منها العرب الذين استقبلهم البلد باعتبارهم محررين له بكثير من الحماس على ان بجاية لم تقم بأى دور فى بداية العصر الاسلامى .

من صالدى الى بجاية

لقد قضى الاسلام الذى انتشر ببطء فى المغرب ابتداء من القرن السابع الميلادى ، على المسيحية والديانة اليهودية التى كان يعتنقها البربر فى بضعة عقود . واذا كان الدين الاسلامى قد انتشر من بداية الفتح الاسلامى ، فانه لم يستقر تماما الا فى العصر الحمادى .

وقبل ان يغادر الفاطميون المغرب الى مصر ، حاولوا بث عقائد الشيعة فى الجبال وفى اقصى الارياف .

وبعد رحيل الفاطميين ، حلت محلهم دولتان صنهاجيتان : الزيريون فى القيروان ، فى المناطق الشرقية من المغرب ، وبنو حماد الذين أنشأوا مدينة القلعة فى سنة 397 هـ (1007 م) ، فى معظم مناطق المغرب الاوسط . وكانوا فى مبدأ الامر يدينون بالولاء للفاطميين ، ولكن الزيريين نبذوا طاعتهم فيما بعد ، الامر الذى اثار حنق الفاطميين وأطلقوا العنان لقبائل بنى هلال ليعيثوا فسادا فى افريقية .

ولما شعر بنو حماد بتهديد العربان لعاصمتهم ـ القلعة ـ فكروا فى نقل قاعدة ملكهم الى الشواطىء وانشأوا بجاية . وبجاية ، كما يقول ابن خلدون، هو اسم القبيلة البربرية التى كانت تسكن هذه المنطقة ، والجيم فى بجاية ، فيما يقول هذا المؤرخ، تلفظ بين الجيم والكاف .

بجـــاية الحمــادية

فى سنة 460 هـ (1067 ـ 1068 م) احتــلالناصر بن علناس ، خليفة بولكين بن زيرى ، مؤسس مدينة الجزائر وخليفة حماد ، جبل بجايةحيث بنى مدينة سماها باسمه « الناصريـــة » ولكن المدينة الجديدة سوف لا تعرف فى التاريخالا باسم بجاية • والاسراع فى بناء المدينة التى قامت فى وقت قصير ، قيل ان الناصر قد الـزمجميع رعاياه بان يقوم كل واحد منهم ببناء منزل، وكل من دخل اليها بان يحمل معه حجرا للبنـاءأو يدفع قطعة ذهبية • وقد عمل الناصر عـــلى اعمار المدينة الجديدة بتشجيع الناس للاستقرارفيها ، باعفاء السكان مـن الضرائب • وكذلك بنى فى المدينة قصورا عظيمة يسمى احدهـا «قصراللؤلؤة » • وقد استقر العاهل الحمادى فىالمدينة الجديدة فى سنة 461 (1068 ـ 1069 م) •

توفى الناصر بن علناس فى سنة 481هـ(1088م)وتقول اسطورة محلية انه لما تنبا الوالى سيدى التواتى بان بجاية ستصبح خرابا ويهجرهـــاسكانها ، اثر ذلك على الناصر كثيرا واصيــب بالجنون • وقد تخلى عن الملك ـ حسب هــــذهالاسطورة ـ وتنازل على العرش لابنه المنصور ، ثم اختفى بعد ذلك بوقت قصير تحت ستار الليلوقد استمر البحث عنه خلال اربع سنوات دون ان يمكن العثور على اثر له • ولكن قارب صيـداقترب ذات يوم من جزيرة صغيرة تسمى حريبة ، فى شمال جبل جورايا • وهناك عثر الصيادونعلى السلطان السابق فى حالة يرثىلها • وتضيف الاسطورة انه كلما وضع الناصر يده فى المــاءحضر سمك وتعلق باصابعه ، وبذلك استطاع العيش خلال اربع سنوات على صخور قاحلـــةوهذا الاكتشاف ، سرعان ما بلغ خبره بجاية • وعندئذ قصد المنصور وحاشيته الى الجزيـــرةلاعادة السلطان السابق الى المدينة • ولكن الاخير، صمم على البقاء فى تلك الجزيرة حيث مات عـلىاحدى صخورها •

وكما تنبأت الاسطورة ، فستعرف بجايـــةفترة طويلة من الانحطاط ، ولكن ذلك سيقـــع بعد انهيار دولة بنى حماد •

مدينـــة مـزدهـــرة :

بعد وفاة الناصر ، تخلى ابنه المنصور نهائيـاعلى مدينة القلعة وحول عاصمته الى بجاية التى بنا فيها عدة قصور جديدة ومساجـد وزينهـــابالحدائق • وتقول بعض الروايات ان المدينـــة كانت تشتمل على 21 حيا وعلى 72 مسجدا •

وقد اصبحت العاصمة الجديدة ، مثل القلعة ،مركزا ثقافيا هاما فى الجزائر ، فولد فيها أو قصدها عدد كبير من الشعراء والكتاب والعلماءالمتطلعين فى جميع مجالات المعرفة • وفى بجاية أقام العالم الصوفى الاندلسى سيدى بومدين الغوث المدفون فى تلمسان ، وفيها درس العلوم وقتا طويلا • واما ابن تومرت الذى نعرف ميوله الاصلاحية ، فقد اقام فى بجاية ساخطا على الحالة الاخلاقية السائدة بين سكان المدينة وقد تهجم على الجمهور ، ولكن تدخله بالعنف فى بعض الاحيان ، كانت له ردود فعل من سلطات المدينة ، الامر الذى اخطر معه الى مغادرة بجاية ، ليستقر فى ملالة تحت حماية القبائل القاطنة فى المنطقة ، حيث كان يقوم بالتعليم والوعظ والارشاد ، وهناك التقى بشاب من ندرومة ، اسمه عبد المؤمن ، سيصبح خليفة على امبراطورية الموحدين •

وفى المجال الاقتصادى ، عرفت بجاية نشاطا تجاريا وصناعيا مهما • فقد ذكر الادريسى ان السفن والقوافل تقصد بجاية وان المدينة مستودع كبير للبضائع • واما سكانها،فهم اغنياء ويحذقون كثيرا من الفنون والحرف ، مما ساعد على ازدهار التجارة فيها • وتجار المدينة على صلة بتجار الصحراء والمشرق وهم يقومون باستغلال مناجم الحديد الموجودة فى جبالها • وبكلمة واحدة ، فان المدينة نشيطة للغاية،وهى مركز للمواصلات•

كانت بجاية ملتقى للفرق التجارية ومركزا لتبادل الافكار فى نفس الوقت • ولكن هذه المدينة الحمادية ، لم يبق منها ، لسوء الحظ أية آثار تذكر •

بجاية تحت الموحدين :

وبعد بنى حماد الحقت بجاية بامبراطورية الموحدين التى اسسها ابن تومرت فى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى)فبعدما قهر المرابطين فى المغرب الاقصى وفى المغرب الاوسط ، تمكن عبد المؤمن ، خليفة ابن تومرت من قهر جيوش بنى حماد الذين حكموا جزءا من المغرب الاوسط زهاء قرن من الزمن ، واستولت جيوشه على بجاية والقلعة فى سنة 546 (1151 م)• وبذلك اصبحت مملكة بنى حماد ولاية من ولايات دولة الموحدين التى اتسعت رقعتها • وبعد احتلال المدينة . ولى عليها عبد المؤمن أحد ابنائه ثم اتخذ سبيله الى مراكش •

استمرت حالة الرخاء التي كانت تتمتع بهاالمدينة في عهد الموحدين . وكانت هذه الحالة تعود خصوصا الى النشاط التجارى الذى كانسكان بجاية يمارسونه عن طريق مينائها مع البلدان الاوروبية والبلدان الشرقية . فقد كانالتجار الاوروبيون يقصدون بجاية لشراء الصوف والزيت والجلود والرصاص ، وخصوصا ، شمعبجاية المشهور الذى اخذت منه الشمعة اسم بجاية بالفرنسية Bougie . وشمع بجايةظل عدة قرون أحسن وسائل الاضاءة ، وكانت المدينة تصدر كميات كبيرة منه الى اوروبا لهذهالغاية .

وفي سنة 580 هـ (1184 م) غزا بنو غانية ،وهم من قبيل المرابطين بجاية من جزر البليار . واثر ذلك ، قاموا بتخريب جزء كبير من المغربالاوسط ، ولكن الموحدين لم يلبثوا ان استعادوا سلطتهم ، على بجاية أولا ، ثم على مختلف مناطقالمغرب الاوسط بعد ذلك .

تركة الموحدين :

بعد سقوط دولة الموحدين ، اصبحت بجايةجزءا من مملكة الحفصيين الذين كانت تونس عاصمتهم ولكن بجاية ستنسلخ عن تونسوتصبحعاصمة دولة حفصية مستقلة .

وكذلك لفت ما تتمتع به بجاية من الرخاءانظار بنى عبد الواد حكام تلمسان والمرينيين ملوك فاس ، ولكن جميع محاولات ملوك تلمسانلغزو بجاية باءت بالفشل . ولكي يثبت ارادته وتصميمه على اخضاع بجاية ، قام ابن تاشفيناحد عظماء ملوك بنى عبد الواد ، في سنة 719 هـ (1219 م) ببناء مدينة محصنة ، غير بعيد منبجاية تسمى تامزدكت ، اختفت معالمها اليوم . ولكن المهمة التي لم يسجل فيها بنو عبد الوادسوى الفشل ، سينجح فيها بنو مرين ، ملوك فاس .

وكذلك تمكن ابو الحسن ، بعدما استولى علىتلمسان وقضى على دولة بنى عبد الواد مؤقتا من الاستيلاء على بجاية في سنة 746 والاحتفاظبها حتى سنة 762 هـ (1261 م) ، حينما استعادها الحفصيون الى ملكهم .

الغزو الاسباني لبجاية :

بعد سقوط وهران في القرن العاشر الهجرى(القرن الخامس عشر الميلادى) ، وقعت بجاية مع عدد من المدن الشاطئة في يد الاسبان ، وقدبقيت بجاية التي احتلها بيدرو نافارو ، تحت

سلطة الاسبان من سنة 916 (1510 م) حتى سنة963 (1555 م) . وفى غضون هذه الفترة التى تمتد على خمس واربعين سنة ، نهب الاسبان المدينة ودمروا قصورها وقضوا على نشاطها التجارى الذى كان قرونا متعاقبة سبب ازدهارها والمورد الرئيسى لدخلها . وهذه الحالة هى التى حملت السلطات التركية فى الجزائر على التدخل لطرد الاسبان منها .

فان صالح الرايس ، باشا الجزائر قرر الاستيلاء على بجاية وشد حصارا عليها فى سنة 963 هـ (1555 م) . وسلم دون الفونس بيرلطا ، حاكم بجاية الاسبانى ، واستسلمت بجاية وأصبحت تشكل منذ ذلك الحين جزءا من مملكة الجزائر التى اسسها الاخوان باربروس .

وعقب احتلال الفرنسيين للجزائر فى سنة 1830 ، سقطت بجاية فى ايديهم بعد مقاومة عنيفة ولكن سكان بجاية وضواحيها لم يقبلوا الحكم الاستعمارى الفرنسى . ولذلك فقد اشتركوا فى عدة ثورات متوالية ، ولا سيما ثورة 1871 ـ 1872 ، وبعد ذلك ثورة التحرير الوطنى 1954 ـ 1962 ، التى انتهت بطرد الغزاة المحتلين من بجاية ومن جميع التراب الوطنى .

مخطوط ينشر لأول مرة

تاريخ بني حمّاد

للسان الدين الخطيب المتوفى سنة 776 هـ

تقديم :
رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

ان هذه النبذة التاريخية حول بنى حماد هى بعض اجزاء القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب ، وهى نبذة ذات اهمية لانها تتناول تاريخ بنى حماد الذى اعرض كثير من المؤرخين عن تدوينه ، وتعتبر هذه النبذة جزءا مكملا لما كتبه ابن خلدون عنها فى كتاب العبر فى المجلد السادس .

وقد نجد فيها معلومات قيمة لا نجدها فى تاريخ ابن خلدون نفسه . ومن هنـا تاتى اهمية هذه النبذة التاريخية . وتتجلى قيمتها عندما يبحث المؤرخ تاريخ بنى حماد وحضارتهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

الحمد لله ، بسم الله الرحمن الرحيم وصـلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليما ·

ذكر قسم الملوك صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية وما اليها ا هـ ·(1)

وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن بلكين الامر لاخيه المنصور ، وان ولده باديس لما صار اليه الامر صرف حماد الى المغرب فخرج مـن القيروان سنة 390 هـ (2) بعد ان اشترط عليه ما شاء وجعل له كل ما يفتحه ، واعفاه مـن الوصول الى افريقية بعد فتعين لحماد بالجهـة الغربية ملك كبير ·

---

1) هذه النبذة من تاريخ بنى حماد اقتطعت من كتات لابن الخطيب لا نعرف ما هو · وهـو يقع ضمن مخطوطة تحمل رقم 1588 · الورقة 106

2) ابن خلدون كتاب العبر ، ج ، 6 ـ ص 349 · ان ذلك كان سنة 487 هـ · ويذكر انه نبذ طاعة العبيديين وقتل الرافضة ·

1) دولة حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد :

وكان حماد نسيج وحده ، وفريد دهـره ،وفحل قومه ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا ، وداهية حصيفا • قد قرأ الفقه بالقيروان فنظر فى كتب الجدل واخباره مشهورة، وهو الذى بنى القلعـة المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية الاثر على توالى الغير وتسمى غياثا فا تخذ بها القصور العالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة ، والبساتين الانيقة ، ونقل اليها الناس من سائر البلاد ما بينه وبين باديس بن اخيه وتحرك كل منهمـا الى لقاء صاحبه فكان جيش حماد الذى خـرج به من القلعة آخر سنة 405 هـ ثلاثين ألف فارس

واتيح عليه الظهور لابن أخيه باديس كمـا تقدم ذكره ونزل الفرج على حمـاد بوفاته ، واتصلت بعده أيام حماد الى ان توفى فى شهررجب 429 هـ (2) وولى بعده ولده القائد ابـو حمـاد •

2) دولة القائد بن حماد بن بلكين بن زيرى

واستقام الامر للقائد بن حماد لاشتغـال المغرب بابن باديس عنه ، لما دهمه من العـرب وكان شديد الرأى ، عظيم القدر، وتحرك الىجربة حمامة بن زيرى المغراوى أمير مدينة فاس وخلع القائد بنى عبيد كما فعل ابن عمه ، ودعا الى بنى العباس الى ان هلك فى ذى القعدة سنة 446 هـ فكان ملكه سبعا وعشرين سنة وولى بعده ولده محسن •

دولة محسن بن القائد بن حماد بن بلكين :

وكان القائد أوصى أبنه محسنا ان لا يخرج من القلعة الى تمام ثلاثة سنين فخالف وصيتـه لما نازعه يوسف بن حماد عمه بالمغرب وخـرج اليه فاغتاله أبن عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان واليا على بلاد اكربون • فقتله وعـاد الى القلعة فدخلها ليلا وملكها • وكانت ولاية محسن ثمانية اشهر وثلاثة وعشرين يوما ووفاته فى ربيع الاول سنة 447 هـ •

---

2) عند ابن خلدون : كتاب العبر ج ، 6 ــ ص 332 انه توفى سنة 419 هـ • ولعل هذه الرواية هى الصواب •

3) دولة بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين :

وكان شجاعا جريا على العظائم سفاكا للدماء ،وتحرك من القلعة لحرب زناتة فيصفر سنة 454هـ وكان قد بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلادالمصامدة فتحرك حتى نزل بفاس ففتحها وجاس بلاد المغرب ودوخها ، وبلغ يوسف بن تاشفين خبره فكر راجعا الى الصحراء خوفا منه الى ان قيض له من الناصر احد بنى عمه ، واقدم عليه اقدام الأسد ففرق بين روحه والجسد .

وله حكاية مشهورة ، قال ابن بسام فى كتاب الذخيرة ما نصه : واذكر هذه القارة الصلعا ، والفتكة الشهيرة الشرهاء ، اذا الشيء يذكر مع من جانسه ، ويضم الى ما التف به ، ولابسه ما اتفق فى مثلها فى ملك المنادين الغالين الى وقتناهذا على طرف افريقية الادنى المستقرة رياستهم بقلعتهم المنسوبة الى جدهم حماد ، وذلك انــه لما افضى ملكهم الى بلكين بن محمد آخر جبابرة الاسلام المفتاتين على الايام من رجل كان لا يملأ يده الا من لبدة أسد ، ولا يسرح لحظه الا فى نهاب بلد مضطهد ، ولا يدافع الا وبحر المــوت يلتطم ، ولا يكلم الا حين يبتسم ، قد تجاوز فى شدود (لعله شذوذ) امنيته وقهره لرعيته ،والاخافة لاقرانه ، والاستبداد على زمانه غايــة من سلف من جبابرة الارض،وسمع به منفراعنة الابرام والنقض الى شهرة آثاره ، وتطــارح اسفاره ، وما لا يحصى من عجائب اجناده .

حدث انه آب مــرة من بعض غزواته (3) فكأنه ارتاح الى ما يرتاح اليه الناس مــن اراحــة نفسه ، والحلو ولو ساعة يوجه انسه فجلسلذلك مجلسا حشر له شهواته ، وتقدم فى احضار ما يصلح من آلاته وادواته وامر قيمة جــواريه باستحضار عقيلــة اتــرابها يومئذ جــلالــة سلطان ، وحسن سماع وعيان احدى بنات عمه دنيا لم ير بعد ما زعموا ولا قبلها ابدع ظرفــا ولا اقتل طرفا ، فجاءت تود الثريا لو تكــون نعلها ، والشمس تصور مثلها وقد خطــرت بنفسه احدى هناته ، وتمثلت له بعض غزواته ،فأخذ يدبر ويدبر ، وطفق يورد فيصدر ، قالت قيمته وكان نظره الى الكاس فى يده ، والى أبنةعمه قائمة على رأسه فاعتذر اليها ، واستدناها وسناها ، وقام من حينه فوضع الكاس ملآنا فى طاق ، وطبع عليها ، وامر بالركوب من حينــه فغزا غزوته المشهورة الى غرب العدوة وبلغ فيها مدينة فاس فوطأ الدول ودوخ السهل والجبل .

3) جملة مطموسة بالاصل .

الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

ذكر قسم الملوك صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية وما اليها

صنهاجة

اه

وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن
بلكين للامير اخيه المنصور وان ولده باديس
لما صار اليه امر ابيه صرف حمادا الى المغرب
فخرج من القيروان سنة ٣٩٥ بعد ان
اشترط عليه ما شاء وجعل له كل
ما يفتحه واعطاه من الوصول الى اوافر
بقية بعلم [?] فتعين لحماد بالجهة
الغربية ملك كبير

دولة حماد بن بلكين بن زيري بن مناد

ولي

وكان حماد نسيج وحده ومن بعده
جده، وجعل قومه ملكا كبيرا وشجاعا
ثبتا وداهية حصيفا قد فقه في الفقه
بالقيروان فنظر في كتب الجدل واخباره
مشهورة وهو الذي بنى القلعة
المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية
الاثر على توالي العمر وتسمى عياثا [?]
فاتخذ بها القصور العالية والقصاب
المنيعة والمساجد الجامعة والبسا
تين الانيقة ونقل اليها الناس من ساير
البلاد ما بينه وبين باديس ابن اخيه
وتحرك كل منهما الى لقاء صاحبه
فكان جيش حماد الذي خرج به من القلعة
آخر سنة ٤٠٥ ثلاثين الف فارس وابتح [?]
عليه الجمهور كما بابن اخيه باديس كما
تقدم ذكره ونزل الفرج على حماد بوفاته
واتصلت بعده ايام حماد الى ان توفي
في شهر رجب سنة ٤٢٩ وولي بعده ولده

ثم رجع الى ذلك المجلس بعينه ، واستدعى كأسه تلك ، وابنة عمه فخلا بنفسه ، وقضى وطره من لذة نفسه بعد ايام كثيرة وحروب مبيرة .

ولما تناهى أمره ، وتجاوز السهى ذكره ، وظن ان الناس على حكمه ، وان البـــلاد تحـــت ختمه في بعض أسفاره ... (4) ابن عمه الناصر اصغر خلق الله شانا واهونهم عليه سرا (5) وهجم من ضيق المسالك على الموت ، وهو ينظر لم يشاور الا الحسام ولا استصحب الا الاقدام ، وقد كان بعض نصحاء بلكين خوفه منه لكلمة أخذت يومئذ عنه فجعلها بلكين نعلة ركابه وسمر أصحابه وكان قلما يركب الا دارعا خداعا يأخذ به من روع القلوب ، ووتر القريب والبعيد ، وكان مولعا بالادلاج ، اذا ارتحل مؤثرا للانفراد كلما ركب ، ونزل ، فأقسم تلك الليلة الا يدلج الا حاسرا وليلقين الناس اعزل (6) اذا نـــزل ولو كان اسدا خادرا فاعجله عن الامر ولم يبد ضوء الفجر حتى لقيه كأنه يسلم عليه ، ويسير بين يديه ، فما راجعه الكلام الا وقد جللـــه الحسام ، واراح منه البلاد والانام .

ثم قام مقامه ، واستظل أعلامه ، وامر برأسه فرفع على عصا وسير به أمامه ، والناس يظنونه بلكين قد قتل بعض اتباعه الممتحنين فهـــم يتساءلون من قتل ، ويحسنون الظن فيما فعل حتى طلعت الشمس ، وارتفع اللبس ، فأمـــر برفع مضاربه وحشر زعماء دولته وأقاربه فقال انتم تدرون ان بلكـين قتـــل أخي وفجعني في أكثر حرمي ، وانما شفيت صـــدرى واخذت بوترى لا انني حدثت نفسي بسلطانكم ، ولا أرى شيئا أهلا للدخول في شيء من شأنكم فردوا عليه جميلا ، وراموا امهاله قليلا فظنوا انه يجسر على ما فعل الا وله اشياع وحوله خول واتباع وكـل واحد منهم قد ارتاب بمن يليه ، واهمه ما هـــو فيه وامر لحينه بخزائن بلكين فانهبها ديوان العرب وصقورة زناتة واستخلع بذلك عيونهم ، واملاليه قلوبهم ، ورحل تحت ليلته فطوى المراحل واعتسف المجاهل فسبق الاخبار الى القلعـــة ، فطوى الحريم وكان دخوله القلعة يـــوم الخميس للنصف من شعبان سنة 455 هـ .

4) هنا نقص في الاصل وقد جاء في ابـــن خلدون ما يكمل هذا النقص فقال : وانتهز مـــن الناصر ابن عمه الفرصة في الثار باخته وما لأهقومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بابعاد الغزو فقتله بتسالة سنة 454 هـ .

5) جملة مطموسة في الاصل .

6) في الاصل وردت الكلمة مطموسة اصلحناها بما يناسب المقام .

4) **دولة الناصر بن علناس بن حماد :**

ولما استقام الامر للناصر بن علناس كـــره مجاورة بنى حماد باكناف القلعة المنسوبة اليهم اذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنى عشر ألف فارس بنى قريبا منها بالجبل مدينة وقصورا شامخة مسماة باسماء عديدة واحتفل ببناء (7) الجامع الاعظم المذكور فى تاريخ صنهاجة ، وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة عـلى النساء ، له فى ذلك اخبار مشهورة ، وهو الـذى بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية وبنى بهـــا قصر اللؤلؤة واتسعت مملكـة الناصر ، الى ان بايعه اهل القيروان سنة 460 هـ •

وتوفى الناصر يوم الجمعة السابع من جمادى الاولى عام 481 هـ ، واحتمل الى بجاية فدفن بها وولى بعده المنصور •

5) **دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد :**

وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة ، وقصور شامخة منيعة ، واخبار شهيرة وتحرك الى المغرب ، وقد صارت تلمسان الى ملك المرابطين فى جيوش عظيمة اشتملت عشرة محلة فى 494 هـ ، ونازل تلمسان ثم اقلع عنها صلحا ، ولما قفل عن تلمسان توفى بعد سبعة اشهر فى شهر ربيع الآخر 498هـ وكان قائما على أمره حميد الحلال ضابطا للاموريكتب ويشعر ويذهب فى أموره مذهب أبى جعفر المنصور من رقع الثياب والحفظ على القليل مـــن الاشياء ، وعليه قدم عز الدولة بن حماد لما فر من المرية أمام المرابطين فاقطعه تدلس (8) ونظرهـــا واسكنه بها حسبما هو معروف وولى بعده الامر باديس بن المنصور بن الناصر •

6) **دولة باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس :**

يكنى ابا معد ، وكان شديد البأس عظيـــم السطوة سريع البطش فيحكى من جملة فضاضته انه القى رجلا صالحا الى الاسود فبات ليلة معهـــا واصبح لم تعد عليه ، وكانت وفاته ثالث عشر فى ذى القعدة سنة 498 هـ •

---

7) كلمة ساقطة من الاصل زدتها ليستقيم معنى الجملة •

8) فى الاصل كلمة مطموسة واصلحناها بما جاء فى كتاب العبر ، م ، ج ، 6 ــ ص 461 حيث قال ابن خلدون : قدم عليه معز الدولة بن حماد من المرية فارا امام المرابطين ، ونزل على المنصور واقطعه تدلس « دلس » الحالية » وانزله بها » •

ويقال ان أمه سمته لانه كان يهددها ويتوعدهاوقد ذكر مثل ذلك في المهدى من بني العباس ، وولى بعده العزيز بن اخيه ·

7) دولة العزيز بن المنصور بن علناس :

وهو الذى استوطن بجاية ومن بعد ولايتـــهشرعت القلعة في الخراب ، وكان حسن الخلـق ، معتدل الطريقة كاتب ملوك زمانه وسالمهم فكانت أيامه اعيادا لحسنها وجمالها ، وله في ملكه آثار عظيمة ومبان رفيعة وكان يعرف بالميمون لولايتهليلة وفات أبيه ، ولما توفي (9) ولى بعده ابنـــه يحيى ·

8) دولة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر :

وكان يحيى بن العزيز فاضلا حليما فصيـــح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الاشارة وكان مولعا بالصيد مغروما به كلفا باللهين يحضر عندهمنهم نحو العشرين بين امرأة (10) من شيـــوخ وعجائز وحمقى فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة والحشايا ، ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد فيختبر هذا البازى ·

ويتفقد هذا الكلب وينتهض هذا المضحك في النوع الذى سلكه فيلهيه ويضحكه ، ويجلس ابدا بين يديه اخواته تقسو ـ طلواع ـ ملال وشبلـةفي زى العرائيس من الحلى واللباس فلا يـزال كذلك الى ان ينام تم يهتدى الى الصيد هكـــذاانقضت ايامه الى ان توفي عام 544 هـ ، وكان قد ولى ابنه المنصور عهده فتوفي في حياته وعظـــموجده عليه ولما اضطربت حاله بظهور دولـــة لمتونة لحق بقسنطينة ثم نزل عنها للموحديـــنمستأمنا لنفسه · وسكن بقصر ابن عشرة من سلا وكانت وفاته بها · (11)

---

9) كانت وفاته كما يذكر ابن خلدون فيكتاب العبر مج ، 6 ـ ص 362 سنة 415 هـ ·

10) هكذا وردت الجملة مختلفة في الاصل ·

11) في ابن خلدون : كتاب العبر مج ، 6 ـ ص 364 ان عبد المؤمن بايع له يحيى سنة 547 هـ · ونقله عبد المؤمن الى مراكش فسكنها مـدة ثـم انتقل منها الى سلا سنة 558 هـ · وسكن قصر بني عشيرة (لا عشرة) الى ان هلك في هذه السنة558 هـ ·

بجاية في حدائق الكتب

نصوص عربية وفرنسية
اختارها وعلق عليها

م. بلحميسي
كلية الآداب
جامعة الجزائر

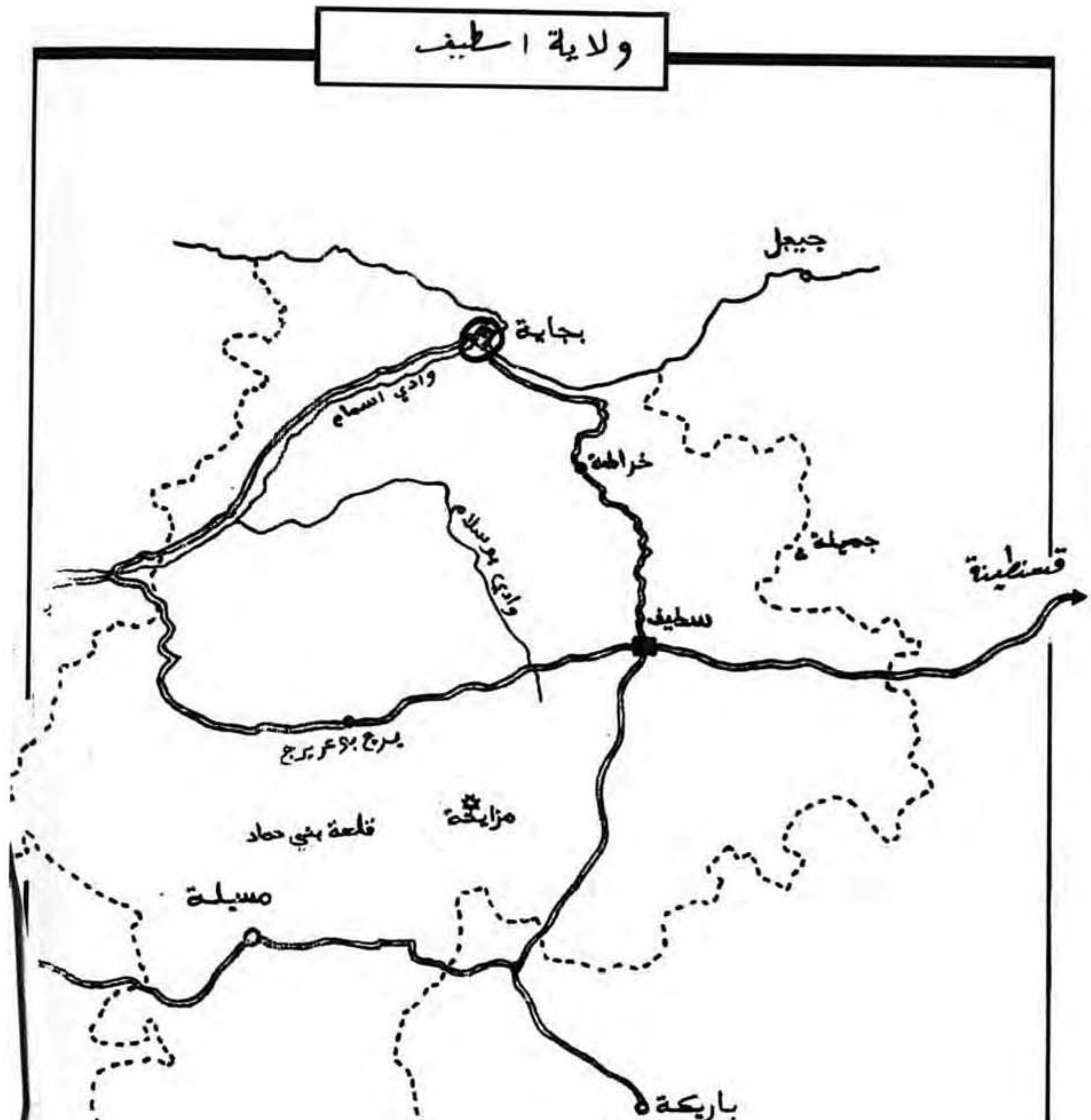
بلدة قدرها خطير — وذكرها فى كل زمن يطير
خطابها من الملوك كثير — ومحلها من النفوس أثير

(أبو البق. خالد بن عيسى بن احمد : الرحلة الى بجاية)

باب
الوصف والرحلات

وجئت بجاية فجلت بسورا — يضيق بوصفها حرف الروى

(ابن الفكون : الرحلة من قسنطينة الى مراكش)


ولاية سطيف
جيجل
بجاية
وادي اسمام
خراطة
جميلة
قسنطينة
وادي بوسلام
سطيف
برج بوعريريج
مزايتة
قلعة بني حماد
مسيلة
باريكة
مقياس
1
1000 000

• قال ابو عبيـد البـكرى : (من أعلام القرن II م — 5 هـ)

« ... ثم مرسى مدينـــة بجاية أزلية آهلـة عامرة باهل الاندلس بشرقيها نهـر كبـير تدخله السفن محمـلة ، وهو مرسى مأمون مشـتى ، وقد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس »
(كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب)

• بجـــايـــة

« مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد ابن زيرى بن مناد فى حدود سنة 457 هـ . بينه وبين جزائر مزغناى أربعة ايام وهو على ساحل البحر . وكان قديما مينا فقط ثم بنيت المدينة وهى فى لحف جبل شاهق وفى قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بنى حماد وتسمى الناصرية ايضا باسم بانيها ، وهى مفترقة الى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شىء ، انما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات .. »
ياقوت : معجم البلدان

• قال الادريـــــسى

[هو ابو عبد الله محمد بن محمد الشهير بالشريف الادريسى ولد بسبتـة سنة 1099 م وتوفى بصقلية حوالى 1180 م .]

« ومدينة بجاية على البحر لكنها على حرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون وهو جبل سامى العلو صعب المرتقى وفى أكنافه جمل من النبات المنتفع به فى صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافسنتـين وغير ذلك من الحشائش .

وفى هذا الجبل كثير من العقارب صفر الالوان لكن ضرها قليل ·

ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة الغـرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة ، واهلها مياســير تجار،وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة · ولها بـواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها ، منها ما يـــكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبهـــا معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ، وبهـــا من الصناعات كل غريبة ولطيفة · وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبـــال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحـــر بالمراكب ··· ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ···

واما مدينة بجاية فى ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة التى بناها حماد بن بلقـين وهى التى تنسب دولة بنى حماد اليها · »

(نزهة المشتاق ··· طبعة دوزى ص 90 ـ 92)

● بجـــايـــة

هذا النص مقتبس من كتاب الاستبصار ·· لمؤلف مجهول يقال انه من رجال القرن 6 هـ ـ 12 م · اعتنى بنشر الكتاب المستشرق كريمير سنة1852 ثم نقله الى الفرنسية فانيون سنة 1900·

« هى مدينة عظيمة على ضفة البحر يضرب فى سورها وهى محدثة من بناء ملوك صنهاجة اصحاب قلعة أبى طويل ··· وكان مرسى ، ويقال انه كانت فيه آثار قديمة وانها كانت مدينة فيما سلف ، فبناها المنصور وسماها المنصورية (1) وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذوا

1) خطأ : مؤسس بجاية هو الناصر واسم المدينة الاول هو الناصرية ·

دار مملكتهم . وبينها وبين قلعة بني حماد مسيرة اربعة ايام . وهي مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة قد احاطت بها والبحر منها في ثلاث جهات : في الشرق والغرب والجنوب ، ولها طريق الى جهة الغرب يسمى بالمضيق على صفة النهر المسمى بالوادى الكبير ، والطريق الى قلعة بني حماد على عقاب واوعار ، وكذلك طريقها الى الشرق . وليس لها طريق سهلة الا من جهة الغرب فلم يكن للعرب اليها سبيل ولا كان يدخل من العرب الا من يبعث الى الملك لصانعة على بلاد القلعة وغيرها فيدخلها فارس او فارسان دون عسكر . فبقى صاحب بجاية يضاهي في ملكه ملك صاحب مصر ، فان بجاية على نظر كبير وقائد عظيم . وبجاية معلقة من جبل قد دخل في البحر يسمى «امسيول» وعليها سور عظيم والبحر يضرب فيه . ولها داران لصناعة المراكب وانشاء السفن ومنها تغزا بلاد الروم ، فانها ليس بينها وبين صقلية غير ثلاثة بحار . وهي مرسى عظيمة تحط فيها سفن الروم من الشام وغيرها من اقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الاسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها . ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والاثمار وجميع الخيرات وهي مشرفة نزيهة مطلة على البحر وعلى فحص قد احاطت به جبال دوره نحو عشرة اميال تسقيه انهار وعيون ، وفيها اكثر بساتينهم ، ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين او دونهما وعليه كثير من جناتهم ، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر ، وله منزه عظيم . وفي بجاية موضع يعرف باللملولة وهو آنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة ، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة ، ولم ير الراؤون احسن منها بناء ولا أنزه موضعا ، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والابواب المخرمة .. والمجالس المقرضة المبنية حيطانها بالرخام الابيض من اعلاها الى اسفلها قد نقشت احسن نقش وانزلت بالذهب والازورد ، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة ... وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من احسن القصور منزها وجمالا . وهذا الجبل أمسيون الذى فيه بجاية جبل عظيم عال قد ذهب الى الجو وقد خرج في البحر وفيه مياه سائحة وعيون كثيرة .. وهو كثير القردة ويكون فيه الحيوان المشوك المسمى بالذرب . »

(كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص 19 ـ 20

● مدينـة بجـايـة

ثم وصلنا الى مدينـة بجـاية مبدأ الاتفـاق والنهاية • وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية • سنية سرية • وثيقة البنيان عجيبة الاتقان رفيعة المباني ، غريبة المعاني ، موضوعة في اسفل سفح جبل وعر ، مقطوعة بنهر وبحر • مشرفة عليهما اشراف الطليعة متحصنة بهمـا منيعة • فلا مطمع فيها للمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب • ولها جامع عجيب منفرد فـي حسنه غريب • من الجوامع المشهورة الموصفة المذكورة وهو مشرف على برها وبحرها • وموضوع بين سحرها ونحرها • فهو غاية في الفرجـة والانس • ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس • واهلها يواضبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية • ولهم في القيام به تهمم وعناية • فهو بهم مأهول عامر يتخلل انسه مسلك الارواح ويخامـر • وهذا البلد بقية قواعد الاسلام ومحل جلة من العلماء الاعلام • وله مع حسن المنظر طيب المخبر • ومع المرأى الرائق المعنى الفائق •

ومن الحصانة ووثاقة البنيـان ما ازرى بارم وغمدان • ولأهله من حسن الخلق والاخلاق مـا أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والاعراق •

غير انه اعتراه من الغير ما شمل في هـذا الاوان البدو والحضر • وقد غاض بحر العلـم الذي كان به حتى عاد وشالا • وعفا رسمه حتى عاد طلا • وبه آحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على الصحف والدفاتر وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضها أعلام الاكابر • ولم أر بها من اهل الشيمة الفضلاء والطريقة المثلى أمثل من الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المسنـد الرواية ابى عبد الله محمد بن صالح بن احمد الكتاني حفظه الله •

محمد العبدرى (I) : الرحلة المغربية :

● وقـال القلقشـنـدى (توفى سنة 821 ـ 1418)

وبجاية ••• مدينة من مدن الغرب الاوسط واقعة في اوائل الاقليم الرابع من الاقاليـم السبعة • قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض اربع وثلاثون درجـة

I) **العبدرى** : محمد بن محمد بن علي •• صاحب الرحلة المغربية ، بدأ رحلته من المغرب الاقصى الى المشرق سنة 688 هـ ـ 1289 م •

وخمس وخمسون دقيقة ٠ قال فى تقديم البلدانهى قاعدة الغرب ألاوسط وهى مقابل طرطوشة من الاندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار ،قال فى مسالك الابصار : وهى مدينة قديمـة مسورة أضيف الى جانبها ربض أدير عليه سورضام لنطاق المدينة فصارا كالشئ الواحد ٠قال : والربض فى وطاءة ، والمدينة القديمة فى سفحجبل يدخل اليها خور من البحر الرومى تدخل منه المراكب اليها ٠ قال فى « تقويم البلدان » :ولها نهر فى شرقيها على شاطئه البساتين والمنازه قال فى « مسالك الابصار » : وبها عينان من الماءاحداهما كبيرة ، ومنها شرب اهلها ، ولها نهر جار على نحو ميلينمنها تحف به البساتين والمناظرعلى ضفتيه ممتدة نحو اثنى عشر ميلا ، متصلا بعضها ببعض لا انفصال بينهما الا ما يسلكعليه الى البساتين الى ان يصب فى بحر الروم ٠ وبضفتيه للسلطان بستانان متقابلان شرقـــاوغربا ، الشرقى منهما يسمى الربيع ٠

صبح الاعشى ٠٠ ج 5 ص 109

● بجـايـة فى أواخـر القـرن السادس عشر

هى مرسى حصين فى جون عظيم يمنع من كلريح له مدخل ضيق فى جبال شاهقة ٠٠ وبجاية مدينة عظيمة فى القديم كانت دار علم وعمــلومستقر العلماء والصالحين منهم الولى الصالـح ٠٠ ابو مدين شعيب بن الحسن الانصارى دفينتلمسان (1) ٠٠٠ كانت دار سكناه فى حياته ٠٠٠

وكان ببجاية معاصرا لهذا الشيخ العالم ابومحمد عبد الحق بن عبد الرحمن الازدى الاشبيلى مؤلف العاقبة وغيرها وبها توفى وقبره بها يزاروكذلك الشيخ ابو الحسن على الاشبيلى المتـوفى بها ٠٠

وبجاية الى الآن خراب هدمها النصارى (2)٠٠لم يبق بها الا ديار قلائل على طرف البحر. وقلعة صغيرة تسمى باللولوة (3) ينزل بها متولى تلكالناحية من الترك يمنع المرسى من العدو ٠٠٠

1) ولد باشبيلية سنة 520 هـ ـ 27 ـ 1126 م وتوفى بتلمسان سنة 594 هـ ـ 98 ـ 1197 م

2) احتلها الاسبان سنة 1510 م واخرجهم منها صالح رايس سنة 1555 ٠

3) قال ابن خلدون : هو قصر جميل بناه الناصر الحمادى سنة 460 هـ ـ 1068 م ٠

قال ابن عبد ربه : «مدينة عظيمة مستندة الى الجبال ومبانيها يركب بعضه بعضا وتسمى المقدمات ، وبناؤهم انما هو بالجص وحده لا يبنون بالتراب ... وعلى فرسخ منها الوادي الكبير يركبون فيه في السفن الصغار » .

التمقروتي (4) النفحة المسكية في السفارة التركية صفحة : 15 ـ 16

● قال الحسين بن محمد الورثلاني (1125 ـ 1193 هـ ـ 1710 ـ 1779)

« ... ذهبت معهم (الاصدقا.) الى زيارة بجاية لاني محب فيها غاية ، وذلك قبل بلوغي . وكنت كل عام اصوم فيها رمضان ناويا للرباط مع تعليمي الطلبة راجيا ان يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم ، حقق الله رجائي بمنه وكرمه .

فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة توجهت الى زيارة الشيخ سيدي احمد ابن معمر الولي الكامل والليث الفاضل لما كنا نسمعه ان من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها ...

دخلت بجاية وزرت الشيخ سيدي الصوفي ولم احفظ من امره شيئا ، الا ان اهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم ، وانه من اهل التصريف في بجاية ... وبعده زرت خلوة الشيخ سيدي ابي مدين الغوث وقد زرت قبره ـ والحمد لله ـ في تلمسان ... ثم بعد زيارة خلوته توجهت لزيارة خلوة الشيخ ابي محمد المرجاني ... ثم توجهت الى خلوة الشيخ عبد القادر وخلوة الشيخ ابي العباس السبتي الكائنين ببرج اللؤلؤة .. وزرت الجامع الاعظم القديم القريب من تلك الخلوة ، ومن البرج المذكور الذي كان فيه تسعون مفتيا ... وبعد ذلك توجهت الى الشيخ

4) التمقروتي : ابو الحسن علي ... عاش في ايام السلطان السعدي مولاي احمد المنصور الذي اوفده الى القسطنطينية حاملا الهدايا لسلطانها وتوفي التمقروتي بمراكش سنة 1003 هـ ـ 1595 . و«النفحة المسكية» : رحلته الى اصطنبول بين 1589 ـ 1591 ، وقد مر بالجزائر وبجاية وبونة .

عبد الحق الاشبيلي ... وهو الذى الف «العاقبة»وقبره خارج باب المرسى القديم فى طريق أبى زكريا الزواوى (1) .. ثم زرت من دفن فى تلك المقبرة ، وانه دفن فيها ايضا قرب السوق الشيخ عبد الحق بن ربيعة ، وقد ذكره صاحب عنوان الدراية بما يحرك قلب الناظر اليه ... ثم توجهت لزيارة الشيخ ابى زكريا يحيى الزواوى وقد كان فى القرن السادس وقبره مشهور » .

(نزهة الانظار فى فضل التاريخ والاخبار طبعة الجزائر 1908)

---

1) توفى فى رمضان 611 هـ ـ جانفى 1215

بـــاب
الشعـــر و الأدب

• بجـاية النـاصريـة

دع العــراق وبغــداد وشامهمــا ... فالناصريــة ما ان مثلهــا بلــد
بــر وبحــر ومـوج للعيـون بـه ... مســارح بان عنهــا الهــم والنكد
حيث الهــوى والهـواء الطلـق مجتمع ... حيث الغـنى والمـنى والعيشة الرغد
والنهــر كالصـل والجنـات مشرفـة ... والنهـر والبحـر كالمرآة وهـويـد
فحيثمـا نظرت راقت وكــل نــواحي الـدار للفكــر للابصــار ، تتقــد
ان تنظــر البـر فالازهـار يانعــة ... أو تنظـر البحـر فالامـواج تطــرد
يا طالبـا وصفها ان كنت ذا نصف ... قل : جنة الخلـد فيها الاهل والولد

ابو علي الحسن بن الفكون مــن الادباء الجزائريين البارزين فى القرن السابع الهجــرى ، نشأ بقسنطينة فى أسرة عريقة فى العلم والمجــد ،امتاز شعره بالرقة والحسن وخاصة فى وصــف الطبيعة ، وكان شديد الاعتزاز بوطنه مفتونا بهومن جيد شعره هذه المقطوعة التى يصف بهــا بجاية الناصرية .

• قال ابو علي حســن بن الفـكون في جمال « قصر الربيع »

عشونا الى نــار الربيــع وانمــا ... عشونا الى نــار النــدى والمحلـق
ركبنـــا بـواديـه جيـــاد زوارق ... نزلنـــا اليهــا عـــن ضوامر سبــق
وخضنا حشـــاه والاصيـل كأنــه ... بصفحتـه تبـدى مـــروق زئبـــق
وسيدنا قـــد ســـار فيـه لانــه ... بـزورقـه انســان مقلــة أزرق
فقلـت وطـرفي يجتـلي كـــل عبرة ... وزورقـه يهـــوى بـه ثـم يــرتقي
ايا عجبــا للبحـــر عب عبـابــه ... تجمـــع حتى صـــار في بطن زورق
ولمـا نزلنـا ساحـــة القصر راعنا ... بكـــل جمـــال مبهج الطرف مـرتق
فما شئت مـــن ظـل وريف وجدول ... وروض متى تلمـــم بـه الريح يعبق
وشادى مغاني الحســن في نغماتــه ... يطـــارحه هـدر الحمـــام المطـــوق
فياحسن ذاك القصر لازال آهـــــلا ... وريا طيـب ريا نشره المتنشـــــق
رتعنـــا بــه في روضة الانس بعدما ... هصرنا يـــه غصـــن المسرة مـــورق
ويضحكنا طـــول الوصال وربمــا ... يمـــر عـلى الاوهام ذكـــر التفـرق
فتضحى موصونـات الدمـوع هدالة ... ونحن عــلى طرف مـن الدهر أبلق
لمثلها مـــــن منـزه ونـزاهـــــة ... يجـرر ذيـل الذيـل كـــل موفـق
فلله ساعـــات مضـين صـــوالـــح ... عـليهن مـــن زى الصبا أى رونق
خلعنا عليهــا النسك الا أقلـــــه ... وان عاودت ، نخلع عليهـا الـذى بقى

• قال ابن حمديس الصقـلي يصف قصــر المنصور الحمـــادى

واعمر بقصر الملـك ناديــك الـذى ... اضحى بجـــدك بيتــه معمــــورا

قصر لوانك قد كحلت بنوره   أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه   فيكاد يحدث بالعصام نشورا
نسى التسبيح مع المليح بذكره   رسما ففاق خورنقا وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنه   ما كان شيئا عنه مذكورا
اعيت مصانه على الفرس الاولى   رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا   لملوكهم شبها له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا   غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم   فرجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت   حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه   حقر البذور فاطلع المنصورا
ابصرته فرأيت ابدع منظر   ثم انثنيت بناظرى مسحورا
فظننت انى حالم فى جنة   لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا
غضت على حلقاتهن ضراغم   فغرت بها أفواهها تكبيرا
فانها ابدت لتهصر عندها   من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات اعنة   فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب انه   فرش ألمها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه   مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا أتى   صبحا على غسق الظلام منيرا

قال ابن حمديس الصقلى (1) يصف بركة :

1) ابن حمديس الصقلى (توفى سنة 572 هـ – 1133 م) ·

هو أبو محمد عبد الجبار بن ابى بكر ··· من أعظم شعراء صقلية ، ولد بسرقوسية 446 هـ 1154 م · غادر بلاده والتحق بالاندلس 471 هـ واتصل بابن عباد ثم عاد الى المغرب متنقلا بين بونة وبجاية · واقام ابن حمديس فى بلاط المنصور الحمادى من (431 الى 498) ·

وضراغم سكنت عرن رئاسة　　　تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها　　　وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك　　　فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما　　　أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها　　　نارا والسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جدوال　　　ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكانما نسج النسيم لمائه　　　درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها　　　عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى　　　سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صوفحت اغصانها فكأنما　　　قبضت بهن عن الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها　　　ان تستقل بنهضتها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها　　　ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت　　　جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة　　　لانت فارسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها　　　فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما　　　جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا　　　بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت　　　تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائل موشية　　　شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه　　　أبصرت روضا فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى　　　حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها　　　فأرتك كل طريدة تصويرا

وكأنما للشمس فيه ليقة　　مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما للازورد مخرم　　بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة　　تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الارض الذى أضحى له　　ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت　　واستوجبت لقصورك التأخيرا

نصوص تاريخية

• تأسيس بجاية

... ولم يزل هذا دأبهم (الاعراب) حتى لقدهجر الناصر بن علناس سكنى القلعة (1) واختط بالساحل مدينة بجاية (2) ، ونقل اليها ذخيرته واعدها لنزله ... ونزلها المنصور ابنه بعده فرارا من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحي الى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم واستقروا بها بعد وتركوا القلعة . (ابن خلدون ، كتاب العبر ج 6 ص 43

• ذكر بناء مدينة بجاية

...لما كانت هذه الوقعة (1) بين بنى حماد ،وقويت العرب ، فاهتم تميم بن المعز لذلك ... فبلغ ذلك الناصر وكان له وزير اسمه أبو بكرابن ابى الفتوح ، وكان رجلا جيدا يحب الاتفاق

1) قلعة بني حماد .

2) سنة 460 هـ ـ 1067 ـ 1068

1) وقعة سبيبة بين الناصر بن علناس ومن معهوبين رياح وزغبة وسليم سنة 457 هـ 1065 م ، بين القيروان وتبسة .

بينهم ... فقال للناصر ... فانكما لو اتفقتما الأخرجتما العرب (الاعراب) فقال الناصر لقد صدقت ... فأصلح ذات بيننا ، فأرسل الوزيررسولا من عنده الى تميم ... يرغب فى الاصلاح فقبل تميم قوله وأرسل الى الناصر محمد بن البعبع ... حتى وصل الى الناصر ... وقال انا اشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها وذكرله عمارة بجاية واشار عليه ان يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد افريقية وقال له : انا انتقل اليك بأهلي وأدبر دولتك ، فأجابه الناصر الى ذلك وارتاب بوزيره (2) وسار مع الرسول الى بجاية(3) وترك الوزير بالقلعة ، فلما وصل الناصر والرسول الى بجاية أراه موضع المنيا والبلد والدار والسلطانية وغير ذلك . فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل ، وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته اذا عاد اليه ورجعا الى القلعة. فقال الناصر لوزيره ان هذا الرسول محب لنا وقد اشار ببناء بجاية ، ويريد الانتقال الينا ...

ابن الاثير : الكامل 8 ص 102 .

● دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد

وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة وقصور شامخة منيفة واخبار شهيرة . وتحرك الى المغرب وقد صارت تلمسان الى ملك المرابطين فى جيوش عظيمة اشتملت على اثنتى عشرة محلة وفى شوال سنة ست وتسعين واربعمائة ، ونازل تلمسان ثم أقلع عنها صلحا ولما قفل عن تلمسان توفى بعد سبعة اشهر فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة .

وكان قائما على أمره ، حميد الخلال ضابطا للاموريكتب ويشعر ويذهب فى أموره مذهب أبى جعفر المنصور من رقع الثياب والتحفظ على القليل من الاشياء . وعليه قدم عن الدولة بن صمادح لما فر من المرية امام المرابطين فأقطعه تدلس (دلس) ونظرها ، واسكنه بها حسبما هو معروف .

وولى بعده الامر باديس ابنه .

لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام ص97

2) ابو بكر بن ابى الفتوح .

3) كانت آنذاك «منزلا» تسكنه قبيلة بجاية .

• نهوض يحيى بن العزيز لمحاصرة المهدية

« وفي ايام الحسن قصد صاحب بجاية أخذ المهدية لانه سمع بالامير الحسن انه صالح الملك رجار الرومي صاحب صقلية ووقعت بينهما الهدنة وكان ذلك لان الحسن ارسل اليه بهدية وصالحه مخافة من شره فتم الصلح وشرط اللعين عليه شروطا فقبلها فكاتب اهل المهدية يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية واطمعوه بتسليم البلد فوثق بهم وبعث اليها جيشا في البر ومراكب في البحر وبعث مقدم الجيش الفقيه مطرفا فنازلها برا وبحرا وجاءته العربان من كل فج ولم يكن له ارب في القتل لاطماع أهل البلد اياه وطال الحصار على أهل المهدية واتصل الخبر برجار صاحب صقلية فبعث اسطولا عظيما لنصرة الحسن وامر المقدم على الاسطول ان يقف عند امر الحسن ونهيه . فلما جاء اسطول اللعين وانتشر حول المهدية طاح ما بيد صاحب بجاية واراد النصراني ان يعكس مراكب أهل بجاية فمنعه الحسن وامره بالكف عن القتال لانه كره سفك دماء المسلمين ... وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة » .

ابن ابي دينار القيرواني : المؤنس ص 92 ـ 93

• أبو زكريا يحيى بن العزيز آخر بني حماد (1)

هلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولي من بعده ابنه يحيى وطالت أيامه مستضعفا مغلبا للنساء مولعا بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الايام بقبائل صنهاجة .

واستحدث السكة (2) ولم يحدثها أحد من قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين . ونقل ابن حماد (3) ان سكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه ، فدائرة الوجه الواحد :

1) 515 او 518 الى 547 هـ / 1121 او 1124 الى 1152 . وفي النص خطأ يتعلق بوفاة العزيز . اما يحيى فانه توفي في المنفى بسلا سنة 557 هـ / 62 ـ 1161 .

2) وذلك سنة 543 هـ / 1148 .

3) ابن حماد (ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد) توفي سنة 628 هـ / 1231 م ، صاحب «كتاب النبذ المحتاجة في اخبار ملوك صنهاجة بافريقية وبجاية » .

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » والسطور : لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور . ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمان الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام ابو عبد الله المقتفى لامر الله أمير المؤمنين العباسي .

ابن خلدون : العبر ج 6 من 352 ـ 363

● ابتداء أمر محمد بن تومرت وملك عبد المؤمن

« كان محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسيني من قبيلة من المصامدة ، من اهل جبل السوس من بلاد المغرب . فرحل ابن تومرت الى بلاد المشرق في طلب العلم ، واتقن علم الاصول والعربية والفقه والحديث ، واجتمع بالغزالي والكيا الهراسي في العراق واجتمع بأبي بكر الطرطوشي بالاسكندرية ، وقيل انه لم يجتمع بالغزالي . ثم حج ابن تومرت وعاد الى المغرب ، واخذ في الانكار على الناس ، والزامهم باقامة الصلوات وغير ذلك من احكام الشريعة وتغيير المنكرات . ولما وصل الى قرية اسمها ملالة بالقرب من بجاية اتصل به عبد المؤمن بن علي الكومي ، وتفرس ابن تومرت النجابة في عبد المؤمن المذكور ، وسار معه وتلقب ابن تومرت بالمهدي» .

أبو الفدا : كتاب المختصر في اخبار البشر ج 4 . ص 152 .

● اللقاء بين ابن تومرت وعبد المؤمن

خشي ابن تومرت العاقبة فغادر بجاية الى ناحية قريبة تسمى ملالة . ونزل في كنف أصحابها وهم من اعيان صنهاجة فآووه واكرموه وطلب اليهم والي بجاية تسليمه اليه فأبوا ولبث بينهم حينا يدرس العلم وكان اذا فرغ يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ملالة . ففي ذات يوم

وفد اليه كهل وفتى حسن التكوين رائع الجمـال ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على ٠٠٠ وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان فى طريقه الى المشرق ليطلب العلم ويقضى فريضة الحج ـــ فدعاه الى معاونته فيماهو قائم به من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البـــدع ٠

عبد الله عنان عن ابن خلدون ٠

● استيـلاء ابن غانيـة عـلى بجــاية

« ومن صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائـة قدم على بن اسحق بن محمد بن غانية الميروقى من ميروقة فى البحر الى بجاية ومعه اخوته فى اثنتين وثلاثين قطعة فنزلوا بجاية على حين غفلة مـــن واليها حينئذ ابى عبد الله محمد بن عبد المؤمـــن وكان خارجها فى بعض مذاهبه فاستولى عليها ».

الزركاشى : تاريخ الدولتين ، ص 10 ٠

● بجــاية والغــزو البحـــرى

« ٠٠٠ وان بجاية كانت بلدة غزاة وكانت غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبى الكثير منها ٠ وينزل الناس لشرائه بحومة « المذبح » من جهة ربضها وهناك يخمس ويقع الفصل فيه ٠ ولم يزل الحال عــلى ذلك وبلغ الحال من كثرة سبى الآدميين ان يباع بيخوان من الروم بسودا، من الوخش ٠

وكانت اجفان اسحاق بن غانية تصل ايضـامن ميروقة كما تصل به اجفان بجاية » .

أبو العباس احمد ... الغبريني : عنوان الدراية ... ص 45 ـ 46 ط . 1969 .

● بجـاية والغـــزو البحـــرى

« ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة افتقرت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من امم الفرنجة النصرانيـة واصبحوا دولا متعددة فتنبهت عزائم كثير مـــن المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم وشرع فىذلك أهل بجـاية منذ ثـلاثـين سنـة . فيجمـع النفرا، والطائفة من غزاة البحـر ويصنعـــون الاسطول ويتخيرون له الابطال والرجال ثـــم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فينتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمـــون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباويعودون بالغنائم والسبى والاسرى حتى امتلاءت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندمـا ينتشرون فى حاجاتهم ويغالون فى فدائهـم بمايتعذر معه أو يكاد .

فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاوحسرة ، وعجزوا عن الثأر به وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافرنجة فصم عن سماعهاوتطارحوا بثهم وثكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والاخذ بالثأر منهم » .

ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص 903 .

أهـــم المـراجـــع

المـــراجع العربيـــة

(Bibliographie arabe)

1) الرحـــلات :

- ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك .
- البكـــرى : المسالك والممالك .
- الادريسى : نزهة المشتاق ...
- مجــهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصـــار .
- العبدرى : الرحلة المغربية .
- البلوى (خالد بن عيسى) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق .
- مجهــول : النفحة المسكية فى السفارة التركية .
- الورثلانى : نزهة الانظار فى فضائل علم التاريخ والاخبار .

2) كتب التاريــخ :

- ابن الاثــير : الكامل فى التاريخ .
- ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 .
- لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام .
- الزركشى : تاريخ الدولتين .
- كتاب غزوات عروج وخير الدين .
- ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس ...

3) التــراجـــم :

- أبو العباس أحمد الغبرينى : عنوان الدراية...
- الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف .

المقالات
(ARTICLES DE REVUES)

1) Revue africaine

Féraud : occupation espagnole (1858)
période Turque (1859)

Bodin : notes et questions sur sidi Ahmad b. Youcef (1925)

Brandel : Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577. (1928)

2) *B. T. S. G. O.*

Cazenave Pierre Navarro, conquérant de vélez, Oran, Bougie, Tripoli (1925).

3) *B. S. G. A.*

Paul Wintzer : Bougie, place forte Espagnole (1932).

4) *Documents Algériens*

G. Marçais : Bougie (1950).

5) *Encyclopédie de l'Islam*
Bidjàya : T. I - 1240-41 (G. Marçais)
Hafçides : T. III - 68-72 (H. Idriss)
Arrûdj : T. I - 698-699 (R. Letourneau)

6) *Boletin de la Réal académia de la historia*
Cesaero Fernandez Duro ; Perdida de la cindad de Bugia en Africa ano 1555, referida por un clerigo Vizcaino Testigo de Vista - T. XXIX, déc. 1896 - pp. 465-537.

7) *Revue Tunisienne* 1922
L. Bercher : Article sur les réalisations hammadides.

8) *A. I. E. O.* (1955).
G. Marçais : Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen-Age - pp. 118-155.

9) *Bulletin de la section de géographie* (1929)
P. Boissonnade : Les relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord au Maghreb du XII[e] au XV[e] siècle - pp. 1-37.

Lapène (Edouard) : Vingt six mois à Bougie ou collection de mémoires sur sa conquête. Paris 1838. XVI - 288 p.

Léon l'Africain : Description de l'Afrique. Edit. Epaulard - T.II - p. 360

Lieussou : Etude sur les ports de l'Algérie. Paris 1850. Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française. Paris 1861. 319 p.

La Primandaie (Elie de) : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique 1506-1574 ; Alger 1875.

Mélanges G. Marçais : Remarques sur le commerce maritime en Afrique du Nord au XI[e] - T. II - 51-59.

Marçais (G.) : Les Arabes en Berbérie du XI[e] au XIV[e] siècle - Paris 1913.

La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen-Age - 1946.

Les Poteries et faïences de Bougie ; Constantine 1916 ; 13 p.

Mas-Latrie : Traîté de paix et de commerce... avec les Arabes de l'Afrique au Moyen-Age. Paris 1866 - suppl. Paris 1872.

Coup d'œil rapide sur Bougie par un administrateur qui a résidé longtemps en Afrique : 1843, 59 p.

المراجـــع الغـربية
(BIBLIOGRAPHIE OCCIDENTALE)

١) الكتب المطبوعة
(Ouvrages imprimés)

Berbrugger : Les époques militaires de la Grande-Kabylie. Alger 1857.

Brunschwig (*R*) : La Berbèrie orientale sous les Hafcides. 2 V. Paris 1940-1947.

Boulifa : Le Djurjura à travers l'histoire, depuis l'antiquité jusqu'à 1830. Alger 1935.

Beylié : La Kalaâ des Béni Hammad. Paris 1909. Ch. IV.

Cornulier-Lucinière (gl comte de) : La prise de Bône et de Bougie d'après des documents inédits (1832-1833); Paris 1898. VIII - 377 p.

Dufourq Ch. E) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV^e siècles (Paris 1966). 664 p.

Féraud (Ch) : Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie (Constantine 1869).

Galland Ch. A) : Bougie 1895.

Golvin (L.) : Le Maghreb central à l'époque des zirides. Recherches d'Archéologie et d'Histoire. Paris 1957.

Habsburg-Toskana (*Ludwig Salvator Van*) : Bougie, die Perle Nord-Afrikas ; Prague 1889 ; VIII - 123 p.

Haëdo (Fray Diego) : Histoire des rois d'Alger, trad. de Grammont 1880-1881.

Idriss (R. H.) : La Berbèrie orientale sous les zirides X - XIII^e siècle. 2 T. Paris 1962.

Lambert (Jacques Numa) : Saldae Bougie et le christianisme ; Alger 1958. 28 p.

Depuis quatre heures jusqu'à dix heures du matin, le canon ne cessa de retentir ; on compte qu'il fût tiré plus de deux mille coups.

...Les Coulouglis, les Maures et les Kabaïles s'étaient déjà retirés dans la plaine, sur les collines qui entourent la ville, où se tenaient cachés dans les maisons et dans les rues... Le soir du 29 septembre tous les points principaux de la ville étaient au pouvoir des Français ; néanmoins les jours suivants les Kabaïles attaquèrent avec un acharnement incroyable ; le général Trézel fut blessé le second jour, et il y eut un moment très critique lorsque des masses d'ennemis arrivèrent de toutes parts.

Le 1er octobre, les Kabaïles revinrent avec autant de fureur que la veille... Les attaques des Arabes se renouvelèrent pendant plusieurs mois...

Coup d'œil..., pp. 16-18

PRISE DE BOUGIE EN 1833

Des Maures et des Kabyles parmi lesquels le caïd Boucetta étaient entrés en relation avec les autorités françaises et se faisaient forts de leur livrer Bougie contre de substantiels avantages commerçiaux. Le caïd se rendit à Alger pour solliciter l'intervention de l'armée. Sur ces entrefaites, un incident survenu à un bâteau anglais dans le port fit craindre une intervention britannique. Lamoricière fut chargé, en juin 1833, d'une reconnaissance dans la ville pour s'informer de l'état d'esprit de la population et des ressources militaires. Il en ramena un rapport qui exagérait les facilités d'une occupation. Voirol se montra moins enthousiaste que le fougueux capitaine mais le ministre, qui dirigeait l'affaire de Paris, confia au général Trézel un corps de 2.000 hommes qui s'empara, sans grandes difficultés, de la place (29 septembre 1833). La guerre de rues à laquelle il fallut ensuite se livrer, démentit l'optimisme de Lamoricière et Trézel dut demander des renforts. La ville souffrit beaucoup et ses habitants, loin d'accueillir les Français avec joie, la désertèrent. Duvivier qui n'était encore que chef de bataillon prit le 7 novembre, le commandement supérieur de Bougie et dut faire camper les troupes au milieu des ruines, dans des conditions d'hygiène déplorables, parfois sans ravitaillement et en butte aux attaques des Kabyles.

Ch. A. Julien ; Histoire de l'Algérie contemporaine ; p. 103.

l'est, le Roi Mouléi Abd-Allah ne peut se refuser à l'accepter : le traîté lui laisse le titre de roi et une grande partie de son royaume, ce qui lui permettra de vivre d'une manière convenable. De plus, s'il nous reste fidèle, comme nous comptons qu'il le sera, on pourra l'aider plus tard à agrandir son territoire dans l'intérieur des terres.

Le traîté conclu, vous ferez en sorte que tous les Maures du royaume qui n'habitent pas les villages de la côte soient avertis qu'en se soumettant au dit Roi Mouléi Abd-Allah, ils pourront compter sur notre assistance, et qu'ils seront bien traités et partout accueillis honorablement ; mais qu'on fera la guerre aux autres, ajoutant tout ce que vous croyez utile pour les déterminer à se ranger à l'obéissance du roi. Nous espérons que de cette manière, Mouléi Abd-Allah étant maître de tout le royaume, moins le littoral, et demeurant notre allié fidèle et dévoué, la ville de Bougie se trouvera à l'abri de toute hostilité, et que les autres localités de la côte pourront être occupées et conservées sans beaucoup de peine. Le dit roi, gardant son autorité à part et les intérêts des deux populations n'étant plus confondus, pourra ainsi se maintenir plus facilement parmi les Maures.

J'ai retranché le chapitre du traîté par lequel le roi demandait qu'on lui permit d'avoir une ou deux mosquées dans le faubourg de Bougie. Il n'est pas nécessaire que cette clause y soit insérée, puisqu'il est convenu que les Maaures ne seront tolérés dans le dit faubourg, que jusqu'à ce que le roi puisse résider ailleurs en sûreté.

J'ai entretenu Miguel Cabrero de divers autres objets dont il vous parlera ; vous pouvez lui accorder toute votre confiance.

1833... LA RESISTANCE

Une frégate, *La Victoire*, six navires de moindre conséquence et dix huit bâtiments de commerce formèrent une petite escadre qui tourna le Cap Carbon, à quatre heures du matin le 29 septembre 1833.

Une fois entrée dans le golf de Bougie, la cannonade se fit entendre de toute part ; les navires se divisèrent : la frégate s'embossa devant la Casbah et foudroya cette citadelle, les bricks tirèrent de leur côté sur Bougie et le fort Abdelkader situé à l'est de la ville...

Et dans ce jour où le canon grondait avec tant de fureur, où les Turcs, derniers restes de cette garnison permanente de 60 hommes, la nouba, luttaient en vain contre la valeur française et tiraient du haut des vieux forts les quelques canons qu'ils possédaient, tandis que les Kabaïles, les Maures, les femmes et les enfants faisaient entendre des cris qu'on pourrait comparer aux rugissements des lions du désert, n'était-ce pas un tableau imposant et majestueux à la fois ?

nous maintenir en Afrique, nous devons occuper les villes d'Oran, de Bougie et de Tripoli (au cas qu'on prenne cette dernière et les repeupler entièrement de chrétiens). Autrement, comme les Maures sont maîtres de tout le reste du pays, si nous leurs permettions d'habiter les villes du littoral, il nous serait impossible de conserver longtemps ce que nous avons conquis. Les trois places dont il s'agit devront donc, en attendant mieux, être munies d'une bonne garnison de chrétiens, et aucun Maure ne pourra y être admis.

Pour les mêmes causes, le titre de Bougie se trouvait inscrit, comme à nous appartenant, dans le mémorial de l'église romaine, et ayant été joint à nos autres titres royaux, il nous paraît convenable que le dit Roi Mouléi Abd-Allah ne s'intitule plus roi de Bougie, mais qu'il se nomme, à son choix, roi de quelque autre terre, ville ou province du territoire qui fait partie du dit royaume, à l'exception toutefois de celles qui se trouvent sur le littoral. La ville de Bougie, avec toutes ses dépendances, ses revenus et sa juridiction, ainsi que les autres villes, bourgs et villages situés sur la côte, doivent aussi nous appartenir entièrement, et le Roi Mouléi Abd-Allah ne pourra élever à leur sujet aucune prétention, que leurs habitants soient chrétiens ou maures.

Les dites villes et localités étant reconnues comme notre propriété, nous consentons d'ailleurs à ce que le Roi Mouléi Abd-Allah possède toutes les autres terres du dit royaume, avec leurs revenus et juridictions, nous réservant seulement la haute et supérieure distribution de la justice, apanage inséparable de la suprême couronne royale, et sauf la fidélité qui nous est dûe. En reconnaissance de notre droit de souverain, le roi devra aussi s'obliger à nous payer chaque année un certain tribut, et, comme vous devez savoir ce que rapportent les dites terres qui lui sont laissées, et conséquemment ce qu'il peut raisonnablement payer, vous fixerez vous-même le chiffre de ce tribut. Dans le cas où sa valeur serait telle qu'il n'y eût pas à en faire grand profit, vous demanderez seulement un certain nombre de chevaux chaque année; mais il est bien entendu que, si les revenus de ces terres le permettent, vous exigerez du roi qu'il acquitte le tribut en argent, afin de nous aider à couvrir les dépenses que nécessite l'occupation de Bougie.

La chose principale que vous aurez à observer dans ce traîté ou dans tout autre qui pourrait être conclu avec les Maures, c'est la question des approvisionnements. Il faut que nous puissions largement nous soutenir en Afrique, avec les seules ressources du pays, parce que nous y soutenir plus longtemps, en tirant tout d'Espagne, serait impossible, et que nous perdrions bientôt le fruit de nos efforts actuels. Il importe donc que les choses soient organisées de manière que nous puissions toujours conserver les places que nous avons conquises et nous y maintenir, sans être obligés de les approvisionner du dehors, ainsi que nous l'avons fait jusqu'à ce jour. A l'avenir, nous ne devons pouvoir qu'aux dépenses qui pourraient être nécessitées par des secours en troupes ou en navires, suivant les cas qui se présenteront.

En conformité de ce qui est dit plus haut et d'après d'autres idées qui me sont venues, j'ai cru devoir faire quelques changements au traîté. Je vous le renvoie, avec la présente lettre qui vous fera connaître de quelle manière j'entends qu'il soit exécuté. Dépossédé comme il

Az-Zarkachi (7) affirme que Bougie était administrée par un délégué d'Al 'Aziz... Le Madhi se tenait sur une roche de l'accotement de la route, proche des habitations de Mallâla et que l'on nommait encore de son nom du temps de l'auteur.

D'après Ibn Khaldûn il vit al 'Aziz b. al Mansûr vivant dans le luxe et lui adressa ainsi qu'à ses officiers de sévères remontrances. Ayant un jour été scandalisé par certains actes dont il fut témoin en parcourant les rues de la ville, il brisa les amphores de vin et les instruments de musique. Le Sultan outré, réunit le conseil des ministres. Ibn Tûmart se réfugia à Mallâla où il fut pris sous la protection de la puissante tribu sanhagienne des Banû Uriâgul.

R. H. Idriss : La Berbérie.

LETTRE DU ROI FERDINAND LE CATHOLIQUE, COMTE DON PEDRO NAVARRO SON CAPITAINE GENERAL EN AFRIQUE (1)

MONZON,...mai 1510.

(ARCH. de Simancas. - Estado, costa de Africa, Legojo 461)

Comte Don Pedro Navarro, notre capitaine général et notre conseiller, j'ai lu vos trois lettres du 3 mai que vous m'avez adressées par la voix de Valence, et celle du 5 du même mois que m'a remise Miguel Cabrero, contino (garde du corps) de ma maison.

A l'heure même, je donnai l'ordre d'écrire à Alonzo Sanchez, pour qu'il fît moudre sans délai dans le royaume de Valence, mille sacs de blé qui y ont été apportés, et qu'il eût à vous les envoyer à Bougie. Vous recevrez en même temps du biscuit fabriqué avec une partie de cette farine, pour 15 jours au moins et pour 8.000 hommes. Comme en ce moment, à Valence, les provisions de bouche font défaut, j'ai écrit aussi à Malaga au trésorier Vargas ; en lui recommandant très particulièrement qu'au reçu de ma lettre, et avec la plus grande diligence, il vous expédiat tous les vivres dont il pourrait disposer, afin que vous en soyez pourvu en temps utile et que vous puissiez partir. J'ai prescrit de même au dit trésorier de vous envoyer 10.000 ducats. S'il plait à Dieu, en arrivant en Sicile, la flotte pourra y compléter ses approvisionnements, parce que le vice-roi de ce royaume m'a écrit que tout était prêt.

Quand au traîté qu'il vous paraît convenable de conclure avec le roi Mouléi Abd-Allah, comme dans ces sortes de choses, en doit avant tout penser à ce qui a été acquis, et que pour cela, il importe que le traîté soit stable à perpétuité, et que des deux côtés on puisse l'observer fidèlement, je crois, ainsi que vous me l'avez écrit à diverses reprises, que si nous voulons

(7) Auteur du XV[e], a laissé un livre : Târikh ad-dawla taim.

2) On a plusieurs relations assez différentes du séjour du Mahdi dans la capitale hammadide... celle d'Al Baydaq (2)... celle d'Al Qattan (3).

D'après Al Baydaq, le Mahdi arrivé à Bougie, s'installa à la Mosquée du Myrte (Masjid ar Rayhâna) et se mit à interdire le port des sandales aux lanières dorées, des turbans de l'époque du paganisme ; il défendit aux hommes de se parer à la manière des femmes en revêtant des tuniques dites fatûhiyyat.

Pendant son séjour qui eut lieu en ramadhan (4), un certain nombre de juristes le fréquentèrent. Le jour de la rupture du jeûne il dispersa en bâtonnant les hommes et les femmes qui se mêlaient sur l'esplanade située en dehors de la ville.

Un fils de l'Emir Al 'Aziz (5) le mit en garde contre les réactions du vulgaire, l'imam se rendait alors à Mallâla où les fils d'Al 'Aziz lui construisirent une mosquée et les étudiants d'affluer vers lui de partout. Quand le cours était terminé, il venait s'asseoir à la croisée des chemins, sous le caroubier de la vieille (Kharroube al 'Adjoûz) et remuait les lèvres en récitant le nom d'Allah.

Un jour il entra à Bougie et, arrivé à Bab al Bahr, il répandit à terre le vin qu'en y vendait. Les esclaves de Sab° b. al 'Aziz le fils du Hammadide le frappèrent et il s'en retourna à sa mosquée. La suite du récit d'al Baydaq raconte l'entrevue de 'Abd al Mû'min et du Mahdi que la plupart des sources situent elles aussi à Mallala...

D'après ibn al-Qattân, ibn Tûmart rencontra à Bougie des jeunes gens accoutrées comme des femmes (ils avaient des tresses postiches, *ad dafâ'ir,* des anneaux aux oreilles, des vêtements ornés de soie et des bonnets de soie, *chawâchi al Khazz* et contemplés par des gens dépravés) ; il abolit cette exhibition. Lors d'une fête, il vit des hommes mêlés aux femmes et aux garçons richement vêtus et les paupières enduites de fard d'antimoine ; il les molesta et une bagarre s'ensuivit aux cours de laquelle les femmes furent dépouillées de leurs bijoux. Al 'Aziz ordonna aux *Tolbas* de discuter avec le "Juriste du Sous" qui était la cause de l'incident... ils envoyèrent chercher l'imam à la mosquée qu'il fréquentait. Comme il refusait de répondre à l'invite, ils lui dépéchèrent le secrétaire 'Umar b. Eulgul qui réussit à le fléchir par la douceur et tâcha de le convaincre de renoncer à sa mission de censeur au cours d'une discussion où l'imam l'emporta sur ses contradicteurs.

Quelques témoignages sont encore à signaler :

Al Marrâkuchi (6) dit que les habitants de Bougie acceptèrent les remontrances d'ibn Tûmart mais qu'il fût expulsé par l'émir.

(2) Contemporain d'ibn Tûmart et de 'Abd al Mûmin ; auteur de "mémoires".
(3) Qàdi de Sidjilmasa ; mort en 628/: 1230 - auteur du livre intitulé : نظم الجمان فى اخبار الزمان
(4) Ramadan de l'année 512/: décembre 1119.
(5) Al-'Aziz ben al Mansûr ben Bâdis, 8e Emir Hammadide - 498-515/: 1105-1121.
(6) 'Abd al Wâhid al Marrâkuchi auteur d'un important ouvrage intitulé **al Mu'jib fi talkhisi akbâr al Maghrib.**

« Le Dieu tout puissant qui veut que tous les hommes soient sauvés et qu'aucun ne périsse, n'approuve en effet rien davantage chez nous que l'amour de nos semblables, après l'amour que nous Lui devons, et que l'observation de ce précepte : Faites aux autres ce que vous voudriez qui vous fût fait. Nous devons plus particulièrement que les autres peuples, pratiquer cette vertu de la charité, vous et nous, qui sous les formes différentes, adorons le même Dieu unique, et qui chaque jour louons et vénérons en Lui le Créateur des siècles et le Maître du monde.

« Les nobles de la ville de Rome ayant appris par nous l'acte que Dieu vous a inspiré, admirent l'élévation de votre cœur et publient vos louanges. Deux d'entre eux, nos commensaux les plus habituels, Albéric et Cencius, élevés avec nous dès leur adolescence dans les palais de Rome, désireraient vivement se lier d'amitié et de services réciproques avec vous. Ils seraient heureux de pouvoir vous être agréables en ce pays. Ils vous envoient quelques uns de leurs hommes qui vous diront combien leurs maîtres ont de l'estime pour votre expérience et votre grandeur et combien ils seront satisfaits de vous servir ici. Nous les recommandons à votre magnificence et nous vous demandons pour eux cet amour et ce dévouement que nous aurons toujours pour vous et pour tout ce qui vous concerne. Dieu sait que l'honneur du Dieu tout puissant inspire l'amitié que nous vous avons vouée et combien nous souhaitons votre salut et votre gloire dans cette vie et dans l'autre. Nous le prions du fond du cœur de vous recevoir, après une longue vie dans le sein de la béatitude du très Saint Patriarche Abraham ».

Jamais peut-être pontife romain n'a plus affectueusement marqué sa sympathie à un prince musulman, jamais surtout nous n'avons remarqué qu'un pape ait exprimé avec cette effusion intime et ces ménagements la croyance commune des Musulmans et des Chrétiens au même Dieu unique et immortel, servi et honoré par des cultes respectables quoique divers.

Mas-Latrie : Traités p. 23

IBN TUMART A BOUGIE

1) Embarqué à Alméria, Ibn Tumart (1) s'arrêta à Mahdiya vers 501 de l'Hégire : 1108, sous Tamîm. Il y revint en 505 : 1111-1112 sous Yahia. Après avoir passé une dizaine d'années en Orient, il regagna le Maghreb vers 510-511 : 1116-1118.

Son itinéraire paraît avoir été Tripoli, Mahdia, Monastir, Tunis, Constantine, Bougie 512 : 1118-1119). Mallala où il rencontra 'Abd al-Mû'mim et séjourna plusieurs mois avant de rentrer au Maroc en longeant la côte jusqu'à Tlemcen.

(1) Né d'après Ibn Khaldûn en 484/: 1091. Mort en 524/: 1130.

Pages d'histoire...

LA TOLERANCE RELIGIEUSE DES HAMMADIDES

La bonne entente existant entre ces princes et le Saint Siège donnait une entière sécurité à leurs sujets Chrétiens. Il y eut même pendant longtemps et jusqu'au XIII[e] siècle, des chrétiens servant dans les armées des princes africains. Des facilités leurs étaient données pour la libre pratique de leur culte au milieu des troupes et des populations musulmanes : l'Eglise et les gouvernements chrétiens en permettaient le recrutement en Europe...

Conformément aux instructions de Grégoire VII, l'archevêque de Carthage et son collègue (de Bône) désignèrent un prêtre nommé Servand. Le roi En-Nâsir agréa ce choix et quand Servand partit pour Rome, il lui remit des lettres et des cadeaux destinés au Pape. Il fit plus : voulant témoigner à Grégoire VII le prix qu'il attachait à son amitié, et l'assurer de ses dispositions favorables pour ceux de ses sujets qui professaient la religion chrétienne, il fit racheter tous les prisonniers que l'on trouva dans ses états et les envoya au souverain pontife.

Ch. Féraud : Bougie pp. 70 - 71.

Lettre du Pape Grégoire VII à l'Emir Hammadide En-Nâsir - 1076.

« Cette lettre d'un caractère plus expansif qu'aucune de celles qui ont été échangées entre les papes et les rois du Maghreb mérite d'être relue ».

Mas-Latrie : Traités de paix et de commerce, introduction p. 22.

«Grégoire, évêque serviteur des serviteurs (de Dieu), à Anzir (En-Nâsir) roi de la Mauritanie et de la province Sitifienne, en Afrique, salut et bénédiction apostolique.

« Votre noblesse nous a écrit cette année pour nous prier de consacrer évêque, suivant les constitutions chrétiennes, le prêtre Servand, ce que nous nous sommes empressé de faire, parce que votre demande était juste. Vous nous avez en même temps envoyé des présents ; vous avez, par déférence pour le bienheureux Pierre, prince des apôtres, et par amour pour nous, racheté les chrétiens qui étaient captifs chez vous et promis de racheter ceux que l'on trouverait encore. Dieu, le créateur de toutes choses, sans lequel nous ne pouvons absolument rien, vous a évidemment inspiré cette bonté et a disposé votre cœur à cet acte généreux.

BOUGIE AU XVIII^e SIECLE

Bougie est bâtie sur les ruines d'une grande ville, de la même manière et dans une position semblable à celle de Dellys à cela près qu'il est trois fois plus grand. Une partie assez considérable de ses anciennes murailles sont encore debout et, comme celles de Dellys, elles suivent les différentes sinuosités de la montagne sur laquelle se trouve la ville.

Outre un château fort qui la domine il y en a deux autres dans la partie basse pour la défense du port. On voit encore sur les murs de l'un de ces châteaux les marques de quelques-uns des boulets de canon Spragg, lors de son expédition, qu'il lança contre cette place.

Bougie a une garnison de trois compagnies d'infanterie ; ce qui n'empêche pas les tribus kabyles de la tenir presque continuellement bloquée. Chaque jour de marché, ces tribus y portent leurs denrées et les choses se passent assez tranquillement tant qu'il dure...

Les habitants font un commerce assez considérable de socs de charrues, de bêches et autres instruments aratoires qu'ils forgent avec du fer provenant des mines environnantes. Ils achètent aussi aux Kabyles une grande quantité d'huile et de cire, que l'on exporte en Europe et dans le Levant.

Shaw : Voyages.

cap ou promontoire d'où ils découvrent la mer de fort loin (1). Il y a un aga et soixante dix janissaires et trente quatre ou trente cinq pièces de canon sur les forteresses qui sont très irrégulières. Il y a bon mouillage et un petit réduit à mettre à couvert de la mer quatre ou cinq moyens vaisseaux ou six galères ...».

Petis de la Croix : Mémoire sur le royaume d'Alger et son étendue et gouvernement, publié par M. Emerit A.I.E.O., 1959, p. 236.

DE LA VILLE DE BOUGIE

Cette ville est située sur le penchant d'une montagne qui est jointe à d'autres beaucoup plus hautes qui l'incommoderaient peu si elles étaient moins éloignées. Elle est presque ruinée. Ses maisons sont petites, basses, mauvaises mal bâties, éparses de côté et d'autre, séparées par des pièces de terres et de petits jardins. En un mot cette ville autrefois si considérable n'est plus qu'un misérable village.

Sa figure est à peu près celle d'une harpe dont l'angle aigu est au plus haut de la montagne et est terminé par une grosse tour. Toutes les murailles sont abattues et ruinées. On ne saurait pas qu'il y en a eu, si on n'en voyait pas quelques pans répandus de côté et d'autre.

On connait aisément qu'elle a été fort grande : ses murailles du côté du Midi sont appuyées par un rocher taillé à plomb, au delà duquel est une plaine qui s'étend plus de deux lieues vers le Midi.

Elle n'est habitée que de cinq à six cents personnes et de 150 soldats qu'on y envoie d'Alger pour garder les châteaux. Ils n'oseraient sortir de leurs postes et sont obligés d'être continuellement sur leurs gardes à cause des Maures de la campagne, qui ne leur font jamais de quartier...

Il y a trois châteaux dans Bougie qui forment un triangle irrégulier. Celui de l'occident est presque au milieu de la ville. Il est nouveau. Ce n'est qu'une grosse maison carrée bâtie par les Turcs... Les deux autres sont sur le bord de la mer. Celui du Nord est bâti sur une langue de rochers qui commande un petit port où l'on peut retirer des bâteaux... Il est ovale fort vieux et fort en désordre. Le troisième est au Midi. C'est le meilleur, le plus grand et le plus en état de défense. Il est carré, tout bâti de briques... C'est sans contredit ce qu'il y a de meilleur et de mieux conservé de toutes les antiquités de cette ville si ancienne et si célèbre.

... la rade est à l'orient, elle est grande, sûre et d'un fond excellent pour l'ancrage.

Chevalier d'Arvieux : Mémoires T. 5, pp. 236 - 240.

(1) Les 2 forts de la Marine sont la Kasba et le fort Abdelkader. Le fort le plus élevé est le fort Moussa (Barral). Il y avait le Borj al Ahmar et un autre situé sur le cap Bouak.

comblés de fruits : il existe autour de la ville une infinité de vergers remplis d'arbres fruitiers ; ces jardins sont surtout nombreux du côté de la porte qui donne vers l'Est.

Le pays est plein d'âpres montagnes couvertent de forêts où pillulent les singes et les léopards.

Les Bougiotes sont des hommes agréables. Ils aiment passer joyeusement leur temps : chacun d'eux fait de la musique et fait danser, les seigneurs, en particulier qui n'ont jamais déclaré la guerre à personne. Ils se sont même montrés si peu courageux que, quand le comte Pierre Navarro est venu avec quelques navires de transport (3) toute la population le roi en tête, s'est enfuie dans la montagne, emportant tout ce qu'elle possédait et sans presque dégaîner un seul sabre.

Le comte Pierre s'est emparé de la ville et l'a saccagée, puis a fait immédiatement bâtir une forteresse près de la mer, à un endroit où existe une bonne plage. Il a aussi fortifié une vieille citadelle, également voisine de la mer à côté de l'arsenal (4).

Six ans plus tard (5) le Turc Barberousse voulut enlever la ville des mains des Chrétiens. Il vint camper devant la ville avec mille soldats turcs et attaqua la vieille citadelle, qu'il prit et fortifia. Toutes les tribus des montagnes voisines étaient venues à l'aide de Barberousse, qui entreprit de s'emparer de l'autre forteresse, près de la plage.

Mais à la première attaque cent turcs, parmi les plus vaillants et cent montagnards furent tués, si bien que les troupes ne voulurent plus reprendre le combat et que Barberousse dut s'enfuir au château de Gegel, comme il a été dit plus haut (6).

Léon l'Africain : Description de l'Afrique. T. II, pp. 360 - 361.

BOUGIE AU XVII[e] SIECLE

«... à douze lieues de Gigeli est la ville de Bougie, place qu'ils (les Turcs) estiment le plus à cause des bois qu'ils y font couper incessamment propres à bâtir des vaisseaux et galères et cinq forteresses qui y sont, desquelles il y en a deux raisonnables qui sont le fort de l'Aga et un autre au-dessus, deux le long de la Marine et un petit fort élevé sur un

(3) 14 navires transportant 8.000 hommes.

(4) Bougie a été prise le samedi 24 ramadan 915 Hégire - 5 janvier 1510.

(5) En rajab 921 / Août 1515.

(6) A la mi-septembre il y eut au surplus des pluies torrentielles et les paysans partirent en hâte labourer.

BOUGIE AU XV^e SIECLE

Durant toute la période hafside, Bougie a constitué une sorte de seconde capitale après Tunis ; elle s'est même trouvée parfois à la tête d'un état indépendant.

«... Bougie est capitale du royaume de ce nom que le roi de Tunis a donné à son fils ; Bougie est une très grande ville, très peuplée et entourée d'un bon rempart ...».

Anselne Andorne (1) : Récits de voyage.

(1) Flammand, de Bruges. Andorne entreprit son voyage en 1470.

GRANDE VILLE DE BOUGIE

Bougie est une ville antique (1) bâtie, comme le pensent certains, par les Romains sur la pente d'une très haute montagne au bord de la Méditerranée. Cette ville entourée de hautes et fortes murailles, fait dans les 8.000 feux, j'entends dans sa partie habitée, car si elle était pleine de maisons elle en ferait plus de 24.000. Elle s'étend tellement en largeur sur le flanc de la montagne que c'est chose vraiment incroyable. Toutes ses maisons sont belles. Elle est bien pourvue de temples, de collèges où les étudiants sont nombreux ainsi que les professeurs de droit et de sciences. On y trouve aussi des monastères (2) pour les religieux mahométans, des étuves, des hôtelleries, des hospices, tous beaux édifices bien construits. Ses marchés sont également beaux et bien ordonnés. Il est vrai que la ville est toute en côte, si bien que l'on ne peut faire quelques pas sans être obligé de monter ou de descendre.

A côté de la montagne existe une grande forteresse aux murs solides. Elle est ornée de tant de mosaïques, de plâtres découpés, de bois sculptés rehaussés de merveilleuses peintures bleu-outremer que ces œuvres d'art valent plus que la construction elle-même.

Les Bougiotes ont été très riches. Ils armaient quantité de fustes et de galères qu'ils envoyaient piller les côtes d'Espagne. C'est de là que provint la déchéance de la ville parce que le comte Pierre Navarro y fut envoyé pour s'en emparer. Les gens vivent pauvrement car les terrains de culture sont trop maigres pour produire des céréales, mais ils sont

(1) En berbère, Begait, nom de tribu, en arabe Bejaya, dans l'antiquité Saldae.
(2) Zaouïas.

Enfin si la guerre était déclarée, par exemple avec l'Angleterre, une flotte française pourrait y mouiller avec toute sécurité, et de là, agir au besoin immédiatement sur Alger ou sur Bône et protéger la côte.

Ces raisons ne sont-elles pas assez fortes pour persuader que la conquête de Bougie ne fut très nécessaire si on voulait s'établir solidement sur la côte d'Afrique ?

(Coup d'œil rapide sur Bougie par un administrateur qui a résidé longtemps en Afrique pp. 11 - 12).

LA CAVERNE DE RAYMOND LULLE (1)

Au bout du cap de Bougie, on voit un grand trou ou une voûte qui traverse le cap N-S sous laquelle pourrait passer une galère mâtée et où les brigantins et les bâtiments à rames de Majorque viennent se cacher pour attendre les bâtiments turcs et les prendre. Quelques-uns appellent cette voûte, la caverne de Raymond Lulle, qui, cherchant la pierre philosophale, passa pour magicien. Les autres disent que la caverne de Raymond Lulle est une grotte à un grand quart de lieue de la ville, vers l'endroit où il y a un bon mouillage.

Sous cette voûte il y a une source d'eau et l'on y voit le restant d'une ancienne citerne sur laquelle on a bâti un marabout ou oratoire et ermitage pour un saint turc.

Peysonnel : Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, pp. 469 - 470.

(1) Raymond Lulle, missionnaire franciscain de Majorque, vint, au XIVe siècle, tenter d'implanter le christianisme parmi les populations du Maghreb central et oriental.
Entre deux séjours à Tunis, il débarqua à Bougie, venant de Paris par Montpellier et Majorque en 1307.
Après une prédication sur la place publique, il fut arrêté, jeté en prison puis expulsé.

Le Sîte
L'Importance de la ville

DESCRIPTION DE LA VILLE DE BOUGIE

Qu'on se représente trois contreforts à peu près parallèles, issus de la même chaîne et séparés l'un de l'autre par deux gorges débouchant à la mer. Que l'on applique sur la crête des deux contreforts extrêmes deux hautes murailles en briques, flanquées de tourelles percées de meurtrières, surmontées de clochetons, conformes enfin aux besoins et aux habitudes militaires du moyen-âge.

Que l'on couvre l'espace compris entre ces deux murailles de vingt mille petites habitations à un étage, s'élevant en escaliers sur les pentes de la montagne et ornées d'une galerie couverte, d'où la vue s'étendait sur la mer ; que l'on intercalle dans l'intérieur de ce massif une foule de jardins où dominent l'oranger, le grenadier et la vigne arrondie en berceau ; enfin que l'on répartisse sur ce fond environ cinquante mosquées avec leurs coupoles et leurs minarets blancs ; on aura ainsi une idée de ce qu'à dû être Bougie, la capitale des Béni Hammad et l'une des principales cités berbères du Nord de l'Algérie.

Ch. Féraud : Bougie, p. 13.

IMPORTANCE DE BOUGIE

Quelques personnes ont peut-être trouvé que la prise de cette ville et son occupation ont été des choses de peu d'utilité et qui ne peuvent avoir aucune influence pour l'avenir de la colonie.

Ces personnes se trompent.

En effet Bougie, premièrement était le centre d'une population féroce et redoutable qui sans cesse nous attaquait à l'est d'Alger.

Secondement, entre Alger et Bône, cette ville est un point de relâche sûr pour les navires ; sa rade immense et parfaitement abritée, peut servir de station entre ces deux dernières villes.

Troisièmement, il était utile d'être maître du port de Bougie, afin qu'en cas de guerre, l'ennemi ne s'en emparât pas.

INTRODUCTION

Nous présentons dans ce recueil, un certain nombre de textes en français et en arabe sur Bougie à travers les grandes époques de son histoire.

Notre but est de mettre à la portée des curieux et de ceux qui s'intéressent au passé de cette grande cité un ensemble de textes choisis et peu accessibles parce que, publiés soit dans des revues spécialisées soit dans des ouvrages anciens et rares.

Notre choix est loin d'être exhaustif. Nous avons simplement tenté de faire connaître la variété et l'importance des travaux relatifs à Bidjaya, à sa région et à son rôle dans le Maghreb et la Méditerranée ainsi que tout le profit qu'ils offrent. De nombreux genres littéraires ont consacré une large place à la capitale des Hammadides : la poésie, l'histoire, les relations de voyages, les biographies de savants etc...

On ne saurait reprocher à ce recueil son caractère hétéroclyte car il a pour seul but de montrer l'intérêt que portaient les savants et les princes, les hommes d'affaires ou les simples voyageurs à celle qui fut l'une des capitales du Maghreb central.

M. BELHAMISSI

الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصيّة والتركيّة وآثارها

المهـــدى البوعبـدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى – الجزائر

ان مدينة بجاية التى اسست سنة ستين واربعمائة على يد الملك الناصر بن علناس الحمادى وسميت اذ ذاك بالناصرية ، لم يمض عليها ربـــع قرن حتى استحالت الى عاصمة ضاهت عواصم الدنيا الاقتصادية والعلمية وجاوز عدد سكانها مائة الف نسمة وقبل التعرض لصميم الموضوع ، نرجع الى الحديث عن الدولة الحمادية التى ينتمى اليها مؤسس المدينة والظروف التى تكونت فيها قبل تاسيس بجاية بنحو القـرن ·

كلنا نعلم الظروف التى اختار فيها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى نقل عاصمة الدولة الفاطمية الى القاهرة واختياره لعامله بلقين بن زيرى خليفة للدولة الفاطمية بالمغرب العربى الحالى ، كان لبلقين هذا من جملة اولاده حماد ، ولما توفى بلقين حوالى سنة 372 هـ · خلفه ولده المنصـور الذى انتقل من العاصمة الثانية آشير – قاعدة بنى زيرى – الى عاصمـة المملكة المركزية القيروان كان من نتيجة هذا الانتقال تآمـر افراد عشيرة بنى زيرى على المنصور وثورتهم عليه ، فحينئذ انتصر حماد لاخيه المنصور وقمـــع الثوار فاعترف له المنصور بمواقفه الحاسمة واقطع له اشير وما احيط بها وعينه عاملاً عليها ·

وبعد موت المنصور سنة 385 هـ · خلفه ولده باديس وحينئذ ظهر فى الافق زيرى (1) بن عطية المغراوى فتصدى حماد لمحاربته وكانت الغلبة لزيرى الذى حاصر اشير ، فعندئذ ، عزز حماد ، بـل فكر فى تعزيز حصن اشير بحصن آخر ، فكان حصن كيانة الذى استحال الى « قلعة بنى حماد » ·

كان ابتداء بناء حصن كيانة (2) الذى استحال الى عاصمة « قلعة بنى حماد » سنة 398 هـ وانتهى بناؤه بعد سنتين اى متمم سنة 400 هـ كان بناء هذا الحصن باعانة باديس ، الا ان العلائق توترت بين باديس وعمه حماد لاسباب كانت من نتائجها خلع حماد طاعة الفاطميين والبراءة مـن مذهبهم ومبايعة خلفاء بنى العباس ببغداد ومبادلته الهدايا والرسائل معهم ، فحينئذ اعلن عليـه باديس الحرب ووقعت بينهما عدة معارك سقطت اثناءها مدينة اشير ، فتحصن حماد بالقلعة ، وكان على وشك الاستسلام لما بلغه نبأ وفاة باديس ، وذلك سنة 406 هـ · خلف باديس ولده المعز ، وكان عمره حين توليته ثمان سنوات ، فاضطربت احوال المملكة ، وكان المعـز تحت كفالة والدته التى اعدته لتولية مهام الحكم احسن اعداد ، ولهذا لم يسع حماد وبقية افراد الاسرة المتمردين على والده باديس الا الاستسلام ، توفى حماد سنة 417 هـ · وخلفه ولده القائد الذى جدد الحرب مـع المعز بن باديس وانتهت باستسلام القائد بن حماد وفى تلك الاثناء تعرضـت القلـــة وسهولها لهجمات بنى هلال ، ثم استانفت الحرب بين القائد ابن حماد والمعز اعقبها صلح نهائى تعهد فيه القائد بالطاعة والولاء للمعز وجدد له المعز الاعتراف بالاقطاع والولاية على اشير والقلعة بــل الجانب الغربى من المملكة الزيرية ، فكان هذا الاتفاق مبدأ انقسام دولـــة بنى زيرى الى دولتين : الدولة الشرقية التى كانت قاعدتها القيروان وكان على راسها المعـز ابن باديس وصارت تحمل اسم « دولة بنى زيرى » والدولة الغربية وقاعدتها « اشير » ورئيسها القائد ابن حماد وصـــارت تعرف بدولة « بنى حماد » وبمجرد ما اعترف المعز للقائد ابن حماد بولاية اشير والناحية الغربية

1) زيرى بن عطية المغراوى من بقايا ملوك مغراوة الذين قضى على دولتهم بلقين سنة 360 هـ وكان ملوك مغراوة يوالون ملوك الاندلس فاقطعوا لزيرى المغرب فقصد زيرى بنى زير لأخـــذه بالثار وذلك سنة 390 هـ ·

2) حصن كيانة ويعرف بجبل عجيسة بنى على انقاض حصن رومانى وقد غلط بعض المـؤرخين فسموه حصن كتامة وفى هذا الحصن لقى ابو يزيد الخارجى حتفه وقال ابن خلدون ان فى سفحه كانت تسكن قبيلة عياض العربية ولا زالت هذه القبيلة تسكنه الى زماننا هذا ·

3) طبنة مدينة اثرية كانت مقرا للكاهنة ثم اتخذها المسلمون بعد الفتوحات قاعدة الزاب قـــال بعض الجغرافيين انها اعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة وانجبت كثيرا من العلماء عرفت ببنـى الطبنى فى الاندلس ·

نقل القاعدة من اشير الى « قلعة بنى حماد » التى مصرها والــده ونقل اليها سكان طبنـــة (3) والمسيلة (4) وحمزة (5) ٠

ثم شاءت الاقدار ان تسقط القيروان وصقلية فتستفيد القلعة من ذلك حيث التجأ اليها جل علماء القيروان وتجارها وصناعها ، كما صارت القاعدة التجارية العظمى ، وقد وصفها اول عهدها ابو عبيد البكرى فى تاليفه « المسالك والممالك » فقال « قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ٠ تمصرت عند خراب القيروان ، انتقل اليها اكثر اهل افريقية وهى اليوم مقصـــد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب وهى اليوم مستقر مملكة صنهاجة الخ » ٠

هكذا تكونت دولة بنى حماد ، وقد ذكرنا هذه الفقرات توطئة ومدخلا للدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها « الحياة الفكرية ببجاية فى عهد دولتى بنى حفص والاتراك واثارها » ٠

وقد علمنا ايضا ان دولة الموحدين هى التى قضت على دولة بنى حماد ببجاية سنة 542 هـ وخلفتها ، ثم تكونت دولة بنى حفص على انقاض دولة الموحدين ، الا انها فى الميدان العقائدى كانت امتدادا لمذهب المهدى ابن تومرت رغم اعلان الخليفة المامون ابن يعقوب المنصور الذى قال : « ايها الناس لا تدعوه المعصوم وادعوه المذموم الخ » وذلك فى اواخر القـــرن السادس الهجرى بعاصمة الدولة المركزية بمراكش ولما اعلن ابو زكرياء الحفصى استقلاله بتونس التى كان عامـلا عليها من قبل دولة الموحدين الحق بجاية بتونس وعين ولده ــ ولي عهده ــ بها لمكانتها فصارت العاصمة الثانية للدولة الحفصية الناشئة وكثيرا ما تقاسمت تونس قاعدة الحكم ٠

سبق لنا ان بجاية بنيت سنة 460 هـ بناها الناصر بن علناس الملك الرابع لدولة بنى حماد ، ولما توفى الناصر هذا خلفه ولده المنصور ونقل مقر العاصمة من «قلعة بنى حماد» ــ الــتى توالت عليها هجومات بنى هلال ــ الى بجاية ، ونظرا لموقعها ، امكنها ان تتجنب غارات بنى هلال وتربط صلتها مع الدول التى كانت تتبادل معها التجارة على طريـــق اسطولها البحرى ، فحافظت على مكانتها الاقتصادية ، وقد وصفها الشريف الادريسى فى « نزهة المشتاق » فقال « ومدينة بجايـة فى وقتنا هذا مدينة المغرب الاوسط ، وعين بلاد بنى حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافـل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، واهلها مياســـير تجـــار ، وبها من

---

4) المسيلة وتسمى ايضا المحمدية اسسها على ابن حمدون المشهور بالاندلس فى عهد العبيديين وبها نشأ المعز لدين الله الفاطمى وبلقين وجعفر بن على بن حمدون ممدوح الشاعــــر ابن هانى الاندلسى ٠

5) حمزة تعرف الآن بالبويرة بين الجزائر وسطيف اسسها الادارسة فى مدة حكومتهم بتلمسان والمغرب الاقصى ٠

الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصـــى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ، ولها بـــواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيرا ، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ، وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة وبها من الصناعات كل غـــريبة ولطيفة الخ » .

كما امكنها المحافظة على مركز القلعة الثقافى الممتاز اذ عـــلاوة على علماء القلعـــة الذين انتقلوا اليها ، وردت عليها نخبة من علماء الاندلس الذين شجعهم المنصور وسهل لهم سبل الاقامة ماديا وادبيا ففى مدة قليلة صار علماء الاندلس يمثلون اغلبية الطبقات المثقفة ببجاية وقد طبعوا الثقافة الاسلامية بطابـــع خاص سنتحدث عنه فى موضعه . كان علماء الاندلس الذين وردوا على بجاية من بقايا انصار الفقهاء المالكيين وبالطبـــع كانت وجهتهم السياسية تميل الى دولة المرابطين التى قضى عليها الموحدون ، لم ينس الفقهاء الاندلسيون انهم لم يشاهدوا عـــهد استقرار وتقدير وتأييد فى كفاحهم الطويل الذى ابتدأ منذ ظهور الدولة الشيعية فى افريقيا ، مثل ما نالوه فى عهد المرابطين ، خصوصا بالاندلس والمغرب ، ولهذا لـــم يطمئنوا للانقلاب الذى احدثته دولـــة الموحدين بل عدوه كارثة .

كان من جملة اللاجئين الاندلسيين اساطين من قادة الفكر اذ ذاك ، خصوصا الفلاسفة الذين احدثت تآليفهم وآراؤهم دويا فى العالم لا زال يردد صداه الباحثون والعلماء من مختلف الاجناس والاديان ، ولما ذكرناه كان احتلال الموحدين لبجاية سنة 542 لم يرض العلماء الاندلسين الذين لم يقاسموا السكان استبشارهم وتفاؤلاتهم بالانقلاب ، ولم يكن ذلك راجعا الى ازمة الحماديين من الحكم ببجاية فحسب ، بل كان مرجع ذلك الى القضاء على دولة المرابطين بالاندلس والمغرب ، ولهذا كان رد الفعل مساهمتهم المبكرة فى المؤامرة التى دبروها لبنى غانية ، بقايا دولة المرابطين بجزر ميروقة وسهلوا لهم احتلال بجاية التى كانت منطلق شـــرارة هذه الثورة التى رغم ما لاقته من مقاومة كانت نتيجتها ، تفكيك عرى دولة الموحدين والاطاحة بها وقلع جذور الفكرة الموحدية من اساسها ، عند ملوكها ، حتى صاروا يتبراون منها ، ويلعنون مؤسسها من اعلى منابر مساجـــد العاصمة اسوة بما فعله ملوك بنى زيرى مع الفاطميين عندما صرح خطيب مسجد القيروان سنـــة 433 فى عهد المعز ابن باديس وقال « اللهم العن الفسقة الكفار والمارقين الفجار اعداء الدين وانصار الشيطان » .

اطلنا فى هذا التقديم او المدخل الذى فرضه علينا سياق الحديث اذ لم يتمكن التعرض لجوهر الموضوع من دون ذكر هذه التوطئة ، كما ان كثيرا من القراء لم تتح لهم دراسة تاريخ بجاية عبر عصورها حتى نكتفى بالاحالة او الاشارة الى الوقائـــع ·

هذا ملخص ما شاهدته بجاية العاصمة العلمية التى لعبت ادوارا فى تاريخ البلاد الفكرية والسياسية ولنرجع الى موضوع الدراسة اى الحياة الفكرية فى العهدين الحفصى والتركى بمزيد من التفصيل ·

لا شك ان دولة الموحدين لما تفككت اوصالها ، وتنازع ولاتها ، وتقاسموا اعمالها او ولاياتها مما هو مشهور ، كانت مملكة بجاية من نصيب الولاة الحفصيين ، الذين استقلوا عن الخـــلافة الموحدية بمراكش فى عهد ابى زكرياء الحفصى والى تونس المتمرد على حكومة الموحدين المركزية ·

كانت قاعدة الدولة الحفصية الاولى مدينة تونس ، والقاعدة الثانية بجاية ، التى تولى عليها ولى عهد الملك ابى زكرياء الحفصى ·

ثم شاءت الاقدار ان تكون دولة الحفصيين الناشئة هذه بلغت اوج العظمـــة ، وامكنها ان تحظى بمبايعة الاندلسيين والحجازيين ، ونفس مزاحميها فى وراثة دولة الموحدين المركزية كبنى مرين ملوك المغرب ، وبنى زيان ملوك تلمسان ·

امتازت الدولة الحفصية فى أول نشأتها بملوكها الذين كانوا من اكابر العلماء فنالت الثقافة فى عهدهم ازدهارا ، وغص بلاط ملوكها بفطاحـــل العلماء والمؤلفين ، الذين خلدوا العهد الحفصى وبوؤوه مكانة سجلها له التاريخ ، ولم تحظ بها الا دول قليلة ·

ففى العهد الحفصى خصوصا فى عهد مؤسس الدولة ابى زكرياء وولده المستنصر باللـــه ، ظهرت تآليف حازم القرطاجنى ، وابن عصفور النحوى ، وابن الانبار الاندلسى ، واحمد الغبرينى وابن المطرف المخزومى ، كما ظهرت بعدهما تآليف التجانى صاحب الرحلة وابـــن قنفذ القسنطينى صاحب الـــوفيات ، وديوان العبر لابن خلدون ، وظهرت فى ميـــدان الفلسفة تآليف ابن سبعين (6) خصوصا رسائله التى احدثت هزة عنيفة فى الاوساط العلمية المسيحية الذين كانوا فى بلاط الامبراطور فردريك الثانى ملك صقلية ، وتآليـــف محى الدين (7) ابـــن عـــربى الحاتمى

---

6) عبد الحق ابن سبعين (613 ــ 667 هـ) وقد اختلف فيه كثير من الباحثين فمنهم من كفره ومنهم من جعله فى اعالى مراتب الصلاح وقد نشرت رسائله بعـــدة لغـــات ولا زال الكتاب يخصونه بالتآليف ·

7) محى الدين بن عربى (560 ــ 638 هـ) له ما يزيد على 150 تاليفا وقد اختلف ايضا فيه معاصروه ومن بعدهم وخصوه بتآليف قيمة منهم السيوطى ·

والششترى (8) والحرالى وغيرهم اذ لا زالت هذه التآليف محل عناية الكتاب والباحثين الى يومنا هذا ، وان تتبع كل ما ظهر من الآثار الثقافية فى العهد الحفصى يحتاج الى سلسلة مقالات ٠

وقد احتفظ لنا التاريخ باهم اثر لذلك العهد وهو كتاب « عنوان الدراية فى ذكر من عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » الذى ترجم فيه مؤلفه لخمسين ومائة عالم وقد كان هذا الكتاب من انفس المصادر وانفعها لتاريخ بجاية الثقافى ، اذ لا يخلو تاليف من تآليف تراجم ذلك العهد من ذكره ، خصوصا تاريخ تراجم علماء الاندلس ، وقد الفت كثير من الكتب الهامة فى جميع فروع المعرفة ضاع الكثير منها ، ونظرا لما يتطلبه بحث كهذا من الاختصار نقتصر فى هذا العرض على ذكر عالم بجائى امكنه ان يحدث ما يسمى فى زمامنا هذا بثورة ثقافية فى ميدان كانت له اهمية فى ذلك العهد الا وهو ميدان الفقه المالكى ، والفقه المالكى اذ ذاك كان هو دعامة الثقافة الاسلامية خصوصا بالاندلس والمغرب العربى حيث كان الفقهاء قادة الفكر ، الا ان كثيرا منهم استغلوا الظروف التى اطلق لهم فيها قيادة وتوجيه الرأى العام ، فبالغوا ، واسرفوا ، حتى جر عليهم موقفهم وابلا من النقد ، ومن جملة منتقديهم اذ ذاك ابو بكر ابن العربى الاندلسى الذى قال عنهم فى كتابه « العواصم على القواصم » قال صار التقليد ، دينهم والاقتداء بغيتهم فكلما جاء احدهم بعلم حقروا امره ودفعوا فى صدره ، الخ ٠ هذا العالم البجائى هو ناصر الدين (9) المشذالى الذى اقام مدة فى مصر ونقل الى بجاية ومنها الى المغرب العربى الطريقة التى انتصر فيها اصحابها فى ميدان الفقه المالكى هذه الطريقة التى انتهج فيها الفقه المالكى منهجا جديدا حيث دخل فى مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد هو مقياس الفتوى والعمل وقد اعتنى اخيرا احد (10) افاضل الباحثين فقال فى الموضوع « كان د رسوا الفقه اذ ذاك يطبقون الاحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة فرضت فيه تلك الاحكام من الظروف الزمانية والمكانية فاذا رأوا ان بعض تلك الظروف تبدل مالوا الى العدول عن القول المشهور الى قول غيره اجتهادا منهم واستحسانا واعتبارا للمصالح الشرعية ، وهذا كله ناتج عن الطريقة التى احدثها مختصر ابن

8) ابو الحسن الششترى ولد سنة 610 هـ وقد اعتنى به كثير من الكتاب مسلمين واجانب ومن اهم البحوث اطروحة د٠ سامي النشار استاذ جامعة الاسكندرية ٠

9) ناصر الدين المشذالى (631 – 731 هـ) ذكره ابن خلدون اذ هو استاذ استاذة عمران المشذالى وصهره واشاد بعمله وتحقيقه كما اشاد به تلميذه ابن مرزوق الخطيب وغيرهما ٠

10) محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الجمهورية التونسية سابقا ٠

الحاجب الفقهى الذى جمع ستاوستين الف مسئلة وعظم به الاعجاب واقبل عليه دارسو الفقه وهو الذى قال فيه ابن خلدون انه جاء كالبرنامج للمذهب) (II) ·

« كان طريق اتصال مختصر ابن الحاجب ببلاد المغرب العربى على يد ناصر الدين المشدالى الذى تخرج على تلامذة ابن الحاجب ونشره فى تلاميذه ببجاية ومن بجاية انتقل الى عامة اقطار المغرب العربى » هذا ما قاله الفاضل ابن عاشور وقد ايده كثير من مؤرخى الفقه الاسلامى ومنهم محمد الحجوى فى تاليفه « الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى » قال فى الموضوع : « ان ناصر الدين المشدالى البجائى هو اول من ادخل مختصر ابن الحاجب الفقهى للمغرب ورغبهم فيه ·

اقتصرنا على اثر ناصر الدين المشدالى لانه امكنه ان يخفف من وطأة الخلافات داخل صفوف الفقهاء اذ رغم براءة ملوك الموحدين من مذهب امامهم تحت ضغط الرأى العام الذى كان يقوده الفقهاء ويوجهونه ، فقد بقيت طبقة تنتصر للظاهرية والموحدية ، الا ان الخلافات حينئذ لم تتعد الاوساط العلمية ، بخلاف ما كانت عليه قبل ، فكان العوام والساسة يتداخلون ، وان ملوك الحفصيين كانوا ينتصرون لمذهب امامهم المهدى ابن تومرت الا انهم وقف الكثير منهم ، ان لم نقل جلهم ، مواقف نزيهة حيادية ، لم يستعملوا وسائل الضغط او الاغراء لنصر مذهبهم كما فعل ذلك الخليفة يعقوب المنصور الذى حرق كتب مذهب مالك ، وفعله قبله الحاجب ابن ابى عامر بالاندلس فحرق كتب الفلسفة فى الشوارع العامة تحت تصفيق الجماهير ترضية للعوام واشباههم الذين كان تدالخهم فى الميدان من الكوارث وعلاوة على التآليف التى خصها اصحابها الى تراجم ملوك الدولة الحفصية وما اظهروه من تشجيع للحركة الفكرية ، ثم كتب تراجم علماء ذلك العهد فاننا نجد بعض الرحالين زاروا بجاية سواء زاروها عابري سبيل ، او طلاب علم ، وقد سجلوا انطباعاتهم عن بجاية فى القرون السابع والثامن والتاسع وذلك مثل العبدرى صاحب الرحلة المغربية (I2) الذى وصف بجاية وصفا دقيقا وذكر من لقيه بها من علمائها ـ ومنهم ناصر الدين المشدالى ـ ووصف مسجدها الجامع وموقعها فى اواخر القرن السابع اى حوالى سنة 680 هـ ثم اعقبه خالد البلوى الاندلسى الذى زار بجاية حوالى سنة 730 وسجل انطباعاته فى رحلته (I3) المشهورة وذكر كثيرا من علمائها ، وتعرض بالخصوص لمآثرها ، وقصورها ، وقد زارها

II) من مقال قيم للمرحوم محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الديار التونسية نشره قبل وفاته باشهر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد 44 رجب 1389 اقتبسه فيما يظهر من « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » للمقرى ·

I2) الرحلة المغربية طبعت منذ سنوات قليلة بتحقيق محمد الفاسى وزير الثقافة سابقا بالرباط و د· ابن جدو استاذ بجامعة الجزائر ·

I3) رحلة خالد البلوى لا زالت مخطوطة فى عدة خزائن : الجزائر ، تونس ، الرباط ، الخ ·

عبد الرحمن بن خلدون الذى استقدمه ملكها ابو عبد اللـــه الحفصى وولاه الحجابة التى هى بمثابة (رئاسة الوزراء) فذهب اليها من المرية سنة ست وستين وسبعمائة (766 هـ) ولم يتعــرض ابن خلدون لوصف الحالة الثقافية ببجاية مدة اقامته الا اننا استفدنا منه انه اخذ عن بعض كبار علمائها كاحمد بن ادريس وقد كان فى وقت اضطراب وخلافات بين افراد اسرة ملوك بنى حفص الذينتقاسموا ولايات تونسوبجاية وقسنطينة الا انه تقدم مدة اقامته لخطبة الجمعة بالجامع الاعظم ـ جامع القصبة ـ وفى ذلك قال عن الملك ابى عبد الله الحفصى الذى استقدمه « وقدمنى للخطبة بجامع القصبة لا انفك عن ذلك » ٠

وقال عن احمد ابن ادريس فى معرض حديثه عن القاهرة التى بهرته اذ ذاك عندما وصلها قال « وسألت شيخنا احمد بن ادريس ابا العباس كبير العلماء ببجاية » الخ ٠

اقام ابن خلدون ببجاية سنتين اى من سنة 766 الى 768 وغادرها فى ظروف خطيرة اذ تغلب عليها ملك قسنطينة اذا ذاك ، ولولا علائق اسرته مع الحفصيين من عهد جده الذى تولى شبـــه وزارة المال حوالى سنة 727 هـ وتواصلت العلائق الى عهده الزلقى حتفه ، وهذا الجانب هو الذى تعرض اليه ابن خلدون مدة اقامته ببجاية ومن حسن الحظ اننا وجدنا احد طـلاب العلم ورد على بجاية فى نفس المدة التى كان فيها ابن خلدون اى سنة 766 هـ وذكر انطباعاته عن الوســط البجائى وهذا الطالب هو محمد بن عمر الهوارى دفين وهران الشهير (المتوفى سنة 843 هـ) فقد ذكر مترجمه ابن صعد (14) الانصارى الاندلسى ما يلى : « وكان مبدأ قراءته بمدينة بجاية دخلها بعد صومه بسنة ، فقرأ على اعلامها الجلة ، عين منهم الامامين سيدى عبد الرحمـــن الوغليسى وسيدى احمد بن ادريس ، وكلامه ـ اى الهوارى ـ فى منظوماته (15) مليئات بالثناء على اهل بجاية ، وذكـــر محاسنهم فى الايثار والصدقات ، واشتمالهم على الغرباء ، وحبهـم للفقـــراء ومحافظتهم فى معاملتهم على الربا ، وصرح فى كثير من كلامه انه لقى بها جملة من العلماء اهل الصدق والورع اجازوه فى جميع العلوم وفى نظمه المسمى بالتسهيل قولـــه ٠

لو وصفت لك ما ريـت فى بجاية وهى هيا   بلد الورع والعـــلم وترابى حقيقيــا الخ ٠

---

14) ابن صعد الانصارى الاندلسى صاحب « روضة النسرين فى التعريف بالاشياخ الاربعـــة المتاخرين » الفه فى اواخر القرن التاسع لخزانة المتوكل على الله الزيانى ملك تلمسان ٠

15) منظومات الهوارى كلها باللغة الدارجة اى الزجل ولهذا ظن كثير من مترجمين انه لا يحسن العربية الفصحى مع انه كان من اكابر العلماء فقد اخذ ببجاية ثم بفاس ثم ختم رحلته العلميـــة بالمشــــرق ٠

ثم دخلها كطالب علم ايضا فى تلك المدة ابو عبد الله الشريف التلمسانى ـ احد كبار مشايخ ابن خلدون الذين ترجمهم واشاد بعلمهم وفضلهم فقال عنها : « انه وجد العلم ينبع من صـــدور رجالها كالماء الذى ينبع من حيطانها ٠

ثم زارها بعدهما طالب ثالث وهو عبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبى دفين الجزائر (المتوفى حوالى سنة 875 هـ) فقال فى فهرسته بعد ان عرف بنفسه ومقر ولادته ابتداء رحلتـــه العلمية : « ٠٠ ثم تناهت بى الرحلة الى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة فلقيت بها الائمة المقتدى بهم فى علمهم ودينهم وورعهم اصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع ابى زيد عـــبد الرحمن بن احمد الوغليسى واصحاب الشيخ ابى العباس احمد بن ادريس وهم يومئذ متوافرون اهل ورع ووقوف مع الحدود لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم وسلك اتباعهم وطلبتهم مسلكهم رضى اللـــه عنهم اجمعين » ثم ذكر الثعالبى بعض مشائخه الذين اخذ عنهم ببجاية باسمائهم اذ طالت مدة اقامته بها٠

والثعالبى الذى اشاد بالعلماء الذين « كانوا لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم » لا يقصـد مقاطعتهم للامراء بل كانوا قائمين بمأموريتهم : نشر العلم ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكـــر والابتعاد كل البعد عن مواقف التهم ، ملتزمين بما تعهدوا بـــه لمشائخهم الذين كان شعـــارهم ـ خصوصا علماء (16) الحديث ـ «اقطعوا الياس مما فى ايدى الناس تعيشوا اعزة » وقد رأينا آثار ما تركته مقاومة الفاطميين ، فان الفقهاء السنيين قاطعوهم مقاطعة شملت من انتصر لهم من العلماء ، فقاطعوا تآليفهم ، ومن جملتهم البراذعى صاحب « تهذيب المدونة » وغيره فالثعالبى الذى وصف تلامذة ابن ادريس والوغليسى بانهم على سننهما « لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم بقصد انهم لم يكونوا دعاة لمذاهبهم ، ولا أبواقا لسياستهم اذ كان من جملة ما تساهلوا فيه سفك الدماء لادنى تهمة ، فالمستنصر بالله ووالده قبله قتلا كثيرا من اساطين العلم ، وبلغ بهم الاستهتار والعتو ان حرقوا تآليف ضحاياهم ـ كابن الابار وقائمة ضحايا العهد الحفصى من العلماء طويلة ولم تحمل مسؤليتها الملوك الحفصيين وحدهم ، وانما يشاركهم فى تحمل اوزارها كثير من العلماء الذين كانوا يستغلون تقربهم الى البلاطات ليوشوا بخصومهم لعدة اسباب ومعظمها يرجع الى الحسد ثم ان كثيرا من العلماء كانوا لا يعطون قيمة لبعض الوزراء المقربين اذهم اعـــرف الناس بقيمهم ويتحققون انهم لم ينالوا مناصبهم باستحقاق وانما كانوا يستعملون طرق التزلف والتقرب والثعالبى الذى حمـل على المخالطين للأمراء كان ينتمى الى اكبر امارة حكمت عاصمة الجزائر وسهول متيجة انتصر افرادها للمهدى ابن تومرت عندما مر عليهم ، اشتهر علماء الدين فى بجاية

(16) كان علماء الحديث عندما يجيزون الرواة عنهم الراغبين فى سلسلة السند يوصونهم كتابـة ومشافهة « اقطعوا الياس مما فى ايدى الناس تعيشوا اعزة » فصارت شعارا لهـم ٠

بالورع والنزاهة من زمان ومترجموهم متفقون على ذلك ، اذ امتازت الثقافة ببجاية من اول عهدها اى ابتداء من القرن السادس بطابع خاص بقيت آثاره ملازمة لها ، الا وهو التصوف ، وكان هذا النوع من التصوف تمثله طبقة لها ميول خاصة للزهد والورع ، لا ما يدعيه محترفو التصـــوف ، ولهذا لما ظهرت طائفة ادعت الزهد والولاية وارادت ان تخلف الائمة الاولين وتتشبه بهم لاغـراض دنيوية محضة تصدى لكشف حقيقتها علماء التصـوف انفسهم ، كما ستظهر ذلك بوضوح فى ختام هذه الدراسة والخلاصة فى هذا الباب انه رغم الاضطرابات السياسية التى تعرضت لها بجاية فى العهد الحفصى فان الحياة الثقافية كانت مزدهــــرة ٠

وفى اواخر العهد الحفصى اى اواخر القرن التاســـع لما ضعفت الدولـة ، واندلعت عليها ثورات الاعراب ، ورؤساء الاقطاع ، استغل كثير من ملوك اوروبا الوضع فحصلوا لجالياتهم على امتيازات خولت لهم الحرية التامة فى تصرفاتهم ذكر المؤرخ الفرنسى (17) فيرو أن ملك فرنســا لويس الحادى عشر كاتب ملك بجاية سنة 1482 م (حوالى 887 هـ) ليجدد المعاهدة التجارية بين بلديهما ، فتجددت المعاهدة التى التزم فيها ملك بجاية بضمـــان أمن الجالية الفرنسية المقيمة فى بجاية ، وحينئذ عقد المؤرخ المذكور فصلا ذكر فيـه بتفصيل حالة الجالية الفرنسية المقيمة ببجاية وبقية الجاليات الاوربية فقال « فالجاليات الاوربيـــة كانت تسكن بفنادق خاصة بها ، فكل جالية يخصص لها فندق يقيم فيه افرادها تحت نظر قنصلها الذى كان يسكن معها ، فالفندق كان مخصصا للسكنى والتجارة ،وكان عبارة عن قرية اذ يشتمل على كنيسة ومقبرة (وكان قسيس الكنيسة تابعا لاسقف جنوة) ٠

كانت شرطة الفندق تحت تصرف القنصل والحراس الذين كانت اكثريتهم من المسلمين وكان لهم الحق ان يمنعوا اى احد كان مسلما او مسيحيا من الدخول الى الفندق ، ان لم يظهر جـوازا للدخـــول ٠

فالضباط المسلمون ممنوعون من اقتحام حرم الفندق اذا دعتهم المصلحة الى تتبع متهم من الجاليات الاجنبية الا باذن القنصل ٠

هذه هى حالة البلاد ابتداء من تدهور الحكم الحفصى فى اواخر القرن التاسع ، وقد وصف حالة بجاية اذا ذاك الفقيه احمد الشريف (18) البجائى الذى وجه سؤالا الى استاذه احمد بن الحاج

---

17) « تاريخ بجاية » لفيرو الترجمان العسكرى ببجاية اثر الاحتلال الفرنسى والكاتب المشهور٠

18) نشر صاحب « البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » هذا السؤال فى ترجمته التى عقدها لاحمد بن الحاج البيدرى المذكور (ص 140) (المتوفى سنة 930) ٠

اليبدرى التلمسانى بعد رجوعه من تلمسان ذلك السؤال الذى ضمنه وصف حالة بجاية قال « مـــا جوابكم فى موضع كثر فيه الظلم والاشرار وانتشـــر فيه الباطل والسكر كل انتشار ، وذل فيه المسلمون وعز فيه الكفار ، وارتفع فيه الجور والظلم ، واتضع فيه اهل المعرفة والعلم ، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين ، واشكل الامر على المسترشدين الخ » وهكذا نرى انه رغم ما وصلت اليه بجاية فى اواخر القرن التاسع حيث امكن للجاليات الاجنبية ان تنال امتيازات لرعاياها كان من نتائجها انتشار الفجور والخمور والاباحية مما ادى علماءها الى طرح استفتاءات (داخـــل البلدة وخارجها) فىحكم الاقامة ببلاد اسلامية انقطع فيها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد هاجر بالفعل البلدة كثير من علمائها ، وانتقلوا الى القرى المجاورة ، ثـم الى قسنطينة وتونس ، سنتحدث عنها بتفصيل فى موضعها فى هذه الفترة التى اجتازتها بجاية ، ورد عليها احـد كبار علماء المغرب امكنه ان يحدث بحق ثورة فكرية كتب لها الانتشار والخلود طيلة ثلاثة قرون بـــل لا زالت آثارها الى زماننا هذا ٠

كان هذا العالم هو ابو العباس احمد زروق البرنسى القاسى الذى اخـــذ بتلمسان عـــن السنوسى وغيره ، ثم عن الثعالبى بالجزائر وكون مدرسة ببجاية كان من ابرز تلامذته فيها احمد بن يوسف دفين مليانة واحمد بن خـدة الراشدى ـ احد اجداد الامير عبد القادر الجزائرى ـ وصغير بن محمد الاخضرى ـ والد المؤلف الشهير عبد الرحمن الاخضرى صاحب السلم والجوهر المكنون ـ ومحمد بن على الخروبى دفين الجزائر٠

وقد كان انتشار مذهب زروق على طريق محمد الخروبى وعبد الرحمن الاخضرى ٠

كان احمد زروق عندما وصل الى بجاية وجد كثيرا من المبتدعين تقمصوا اثواب الصـــلاح والولاية وكونوا طرقا منحرفة عن تعاليم الدين فتصـدى لمحاربتهم ثم رأى انه امام الفوضى التى سادت اذ ذاك وتستر الدجاجلة والمبتدعين بعلم الحقيقة والتصوف والمراءاة الزائفة رأى ان الوضع فى حاجة الى جعل حد لهذه الفوضى فالف كتابه الشهير « قواعد التصوف » ثم اصـــول الطريقة » ونظم « عيوب النفس » للسلمى فبهذه التآليف ضـبط علم التصوف وقلع فكرة ان الحقيقة تخالف الشريعة او تباينها ثم الف كتبا اخرى قيمة فى الحديث والتفسير والفقه وما الى ذلك واذا اوجدنا تلميذه محمد بن على الخروبى نشر جل تآليف استاذه زروق التى تعهدها بالشرح والتعليق كأصول الطريقة » وعيوب النفس » ثم الف « كفاية المريد » و « تفسير القرآن » و « الحكم » وشرحها ـ وقد ظن بعض مترجميه انها « حكم ابن عطاء الله » والحقيقة انها تاليف له مع شرحه (19) ، انتشـرت

19) وقد احتفظ معهد من معاهد قرى بجاية بهذا التاليف النادر القيم بخط مؤلفه ٠

تآليف الخروبى وقد وصفها حسن العجيمى استاذ ابى سالم العياشى الرحالة فقال « ومن المعلوم أن تفاصيل السنة يطول ومن انفع الكتب لمن اراد الله له الجرى على هذه المحجة « كفاية المريد « للشيخ الخروبى » ٠

وذكر محمد بن على السنوسى دفين جغبوب (ليبيا) فى بعض فهارسه ان تآليف الخروبى شبيهة بتآليف الغزالى « فان هذه التاليف لم تجاوز اوساط الخاصة ، اما الذى خلد تعاليم زروق ونشرها عند الخاصة والعامة فهو ولد تلميذه : عبد الرحمن الاخضرى دفين بنطيوس بالزاب (بسكرة فقد الف منظومة سماها «القدسية (20)» تحتوى على 357 بيتا ضمنها كشف حالة المبتدعة والدجالين والمنحرفين المدعين للصلاح ، وقارن بينهم وبين الصالحين الحقيقيين ، فكان الاقبال على هذه المنظومة التى تناقلها طلبة العلم ، وصار اصحاب المعاهد يلزمون طلبة معاهدهم بحفظها ، وتحفيظها ، كما اعتنى كثير من العلماء بشرحها ، والتعليق عليها ، قال الاخضرى فى وصف المنحرفين الذين ادعوا التصوف فى « القدسية » ٠

قد ادعوا مراتبا جليلة	والشرع قد تجنبوا سبيله

الى ان يقول :

قد ملكت قلوبهم اوهام	فالقول ابليس لهم امام
كفاك من جميعهم خيانة	اذ ختلوا الدنيا بالديانة
وهتكوا محارم الشريعة	وسلكوا مسالك الخديعة

ثم بين ان المقياس الذى تقاس به اعمال الناس فى هذا الميدان هو اتباع السنة والكتاب وان كل ما خالف تعاليمهما فهو افك وبهتان والى هذا اشار بقوله

من كان فى نيل الامانى راجيا	وعن شريعة الرسول نائيا
فانه ملتبس مفتون	وعقله مختبل مجنون
هذا محال لا يصح ابدا	لان سيد الورى باب الهدى
وقال بعض السادة الصوفية	مقالة جليلة صفية
اذا رايت رجلا يطير	او فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع	فانه مستدرج أو بدعى

20) نشرتها « مجموعة الرسائل المنيرية » (المطبعة المنيرية 1346) الا انها ناقصة ٠

الى ان يقـــول :

والشـــرع ميزان الامـور كلها   وشاهــد لاصـــلها وفرعها

ثم يقـــول :

وقـــال بعض اوليـــاء اللـــه   السالكين لصـــراط اللـــه

فارفضـــه انما الفـــتى دجـــال   ولـــم يقـــف بـادب الجـــلال

ثم صرح الاخضرى فى ختام منظومته، القدسية بان اسوته فى منهجه هذا استاذ والـــده زروق وفى ذلك يقـــول :

ومن يـــرد معـــرفة بالبـــدع   وما اثبنا عليه اصـــل المـــدع

ففى كتـــاب شيخنا الـــزروق   عجائـــب فائقـــة تـــروق

وقد كان ذكر مقارنة بين المدعى لرتب الكمال والولاية الصحيحة فقال :

واعـــلم بان الـــولى الـــربانى   لتابـــع السنـــة والقـــرآن

والفرق بين الافك والصـــواب   يعـــرف بالسنـــة والكتـــاب

ففى هذه المنظومة وضح الاخضرى بطريقة جلية لالبس فيها ولا غموض ،

ثم يقتصر الاخضرى فى منظوماته وفى دروسه على محاربة المبتدعين واشباههم بل اشتغل ايضا بمن سماهم « علماء السوء » وقد كثروا فى ذلك العهد فتراموا على ابواب قصور الامراء ورؤساء الاقطاع الذين صدق عبد الكريم بن الفكون القسنطينى (988 ـ 1073) حيث كان يسميهم باللصوص فخصهم الاخضرى فى منظومته المشهورة باللامية (تحتـــوى على 250 بيتا) وهذه بعض ابيات منها :

واحذر « علمـاء السـوء » فقد   خصـــوا بالافـــك وبالخطـــل

حفظـــوا الاقوال وما عملـــوا   بالعـــلم فســـاء القـــوم قـــل

مـــا حـــرفتهم الا لعـــــب   ولحـــوم النـــاس بـلا قلـــل

اربـــاب قلـــوب قاسيـــة   للطاعـــة اصـــلا لـم تمـــل

لا نطـــق لذكـــر اللـــه لهـــم   الا باللهـــو وبالهـــزل

لا يكسبـــون العلـــم ســـوى   لريـــاء النـــاس وللجـــدل

طمس الاقوال تملقهم	لولا السوء دوى الخلل
يصلون دارا كما وردا	من قبل اولى الاوثان قل
فاترك افعالهم ابدا	وخذ الاقوال ولا تمل
حاش « علماء الخير » اولى	حظ فى العلم وفى العمل
فعليك اخى ! بمجالسهم	واظفر بمحبتهم تصل

واذا نظرنا الى العصر الذى عاش فيه الاخضرى اى فى اوائل القرن العاشر الذى سقطت فيه بجاية واحتلها الاسبان ولم يبق من مملكتها الا عنابة التى كان بها والى حفصى وكذلك قسنطينة التى استبد فيها الوالى الحفصى تبعا للملك الحسن الحفصى الذى كان بتونس واستعان بالاسبان وسهل لشار لكان احتلال تونس بعد ان دخلها خير الدين باشا وكان سببا فى تعصب والى قسنطينة الحفصى الذى انقسم سكان بلدة قسنطينة فى عهده الى قسمين تقاسما احياء المدينة طيلة سنوات وكان قسم الموحدين للوالى شيخ الاسلام عبد المؤمن واتباعه والقسم المؤيد للاتراك عبد الكريم بن الفكون الجد ـ المتوفى سنة 988 اما الزاب مسقط رأس الاخضرى فقد قطعت صلته ببجاية وبقسنطينة وتنازعه الثوار ولهذا لم يبالغ الاخضرى عندما وصف عصره فى « نظم السلم » بقوله :

لا سيما فى عاشر القرون	ذى الجهل والفساد والفتون

كما اشار الى تدهور البلاد والفوضى السائدة اذ ذاك فى عدة قصائد ·

يعد احمد زروق خاتمة العلماء الجامعين بين الحقيقة والشريعة وقد حظى بتراجم قيمة تدل على الثقة التى كان يتمتع بها عند الطائفتين معا ، وقد ادى خدمة جليلة بتاليفه « قواعد التصوف » وبقية تآليفه التى ضبط فيها علم التصوف وغلق كل المنافذ على المبتدعة وهو لا يقل قيمة عن « قواعد » محمد المقرى الجد و « قواعد » احمد ابن يحيى الونشريسى فى الفقه ·

لم يصلنا من شروح « قواعد التصوف » لزروق الا شرح استاذ (21) ليبى ذكر فيه مقدمته عند شرحه لقول زروق فى بيان منهجه فى التاليف وبعد فالقصد بهذا المختصر وفصوله تمهيد قواعد التصوف واصوله على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الاصول والفقه بالطريقة قال

(21) لم نطلع على اسمه وانما ذكر ان استاذه احمد ابن جابر نزيل مدينة طرابلس امره بشرحه (ترجمه فى « نفحات النسرين والريحان » احمد النائب الانصارى وتحقيق على مصطفى المصراطى) (مطبعة المكتب التجارى بيروت 1963) ·

فى الشرح « وسبب التفرقة ما ذكره ابن خلدون انه لما انقضت قرون السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم تباينت الاراء وظهر الخروج عن طريق الاستقامة وأغفل الناس تفقد قلوبهم واشتغل الجمهور باصلاح اعمال ابدانهم من غير اهتمام باصلاح الباطن فاشتغل الفقهاء بما تعم به البلوى من احكام المعاملات والعبادة الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصب الفتيا وهداية الجمهور واختفى ارباب القلوب باسم الزهاد والعباد وطلاب الاخرة منقطعين الى الله قابضين على اديانهم كالقابض على الجمر حسبما ورد ثم عرضت آية البدع فى المعتقدات وتدعى العبادة والزهد معتزلى ورافضى وخارجى لا ينفعه اصلاح اعماله الظاهرة ولا الباطنة مع فساد المعتقد فاشتغل بالرد عليهم وتصفية الحق من باطلهم اهل اصول الدين وانفرد خواص اهل السنة بالمحافظة على افعال القلوب مع حفظ الاعمال الظاهرة فيظن الجاهل من اجل هذا افتراق المعلومين والمعلمين واهلهما وما هو الا دين واحد» انتهى كلام ابن خلدون .

امتازت تعاليم زروق انه صار حجة عند الفقهاء والمحدثين والمتصوفين كما انتشرت تعاليمه وآثاره وحافظت بجاية علاوة على تاليفه بمحافظتها على وظيفته التى لا زالت تسرد فى مساجد بجاية وقراها هى ووظيفة استاذه يحيى العبدلى (22) كما لا زالت قرية من قرى بجاية تحتفظ باسمه ، اذ ترك زروق اسرة ببجاية ، توارث افرادها العلم والفضل ، كما توارثوا ـ من تراثه ـ شرحه على الوغليسية فى الفقه بخطه وكان من جملة احفاده المرحوم الهادى الزروقى الذى كان له فضل فى بعث الثقافة الاسلامية ببجاية وناضل نضال الابطال فى نشر الوعى الاسلامى وبلى فى سبيل مهمته ، والبلوغ الى هدفه واظن ان القرية تسمى « ايزروقى » .

كان فى عهد زروق ببجاية عدة معاهد واصلت التدريس ببجاية ثم بقراها المجاورة خصوصا بعد احتلال الاسبان لبجاية الا ان مدرسة زروق امتازت عنها بان تآليفه التى اعتنى فيها بوضع قواعد للتصوف واشتغاله بمحاربة البدع التى كثرت فى ذلك العهد كان لها صدى فى الجزائر كلها وكل من تصدى لأفكار الدجاجلة والمبتدعين كانت حجته تآليف زروق كما سننهى ذلك بمزيد من الايضاح فى القسم الثانى لهذه الدراسة التى نخصها للحياة الفكرية فى العهد التركى وآثارها .

---

(22) يحيى العيدلى صاحب معهد تمقرا الشهير تخرج من معهده كثير من العلماء واقام بمعهده احمد زروق واخذ عنه والف فى معهده بعض تآليفه له وظيفة حافظ على سردها بعض سكان بجاية الى زماننا هذا .

الفيلسوف ريمون لول[1] في بجاية

سنة 1307م

الشيخ بوعمران
كلية الآداب
جامعة الجزائر

كانت بجاية عاصمة شهيرة سياسيا وثقافيا وقد انتشرت سمعتها غربا وشرقا وتعددت علاقاتها بالمراكز الثقافية العربية والاوروبية ؛ فتردد عليها الرحالة والادباء والمفكرون واعجبوا بحضارتها واجتمعوا بعلمائها ومثقفيها .

ومن جملة الشخصيات الاجنبية التى انتقلت الى بجاية واقامت بها مدة من الزمن نخص بالذكر الفيلسوف الاسبانى ريمون لول (1233 ـ 1316 م) الذى كان يعتبر من الرجال الملهمين ؛ قد اشتغل بالتبشير طيلة حياته محاولا تنصير المسلمين واليهود ولا سيما الذين كانوا يعيشون بجزر الباليار (2) . ولهذا الغرض قام بعدة رحلات الى افريقيا وآسيا وزار خاصة تونس وبجاية قصد ادخال الاهالى المسلمين فى الدين المسيحى .

ولد ريمون لول بجزيرة مايوركا سنة 1233 موكانت اسرته قد قدمت من منطقة كاتالونيا (3) سنة 1231 م وترعرع الشاب هنالك واختلط بالسكان العرب وخطط لنفسه هدفين أساسيين :

أولا معارضة فلسفة ابن رشد والرد عليها بعدما انتشرت الرشدية فى الاوساط المسيحية ولا سيما فى جامعة باريس ، ثم تحويل المسلمين عن دينهم الى النصرانية فى اسبانيا والمغرب ومصر وسوريا (4) .

1) ريمون لول Raymond Lulle: مفكر اسبانى اشتهر برحلاته ومؤلفاته فى الفلسفة والتصوف ، اهتم خاصة بالتبشير فى البلاد الاسلامية فزار المغرب والمشرق وكانت حياته كلهـا نشاطا ومغامرات ؛ قد اطلق اسمه قديما على احد شوارع الجزائر العاصمة (فى حى القصبة) .

2) جزر الباليار Baléars : خاصة منها مايوركا ومنوركا Majorque et Minorque

3) كاتالونيا Catalogne : منطقة شرقية من اسبانيا ، عاصمتها برشلونة Barcelone

4) اعتمدنا فى هذا البحث على حياة ريمون Autobiographie التى نقلها عنه كاتبه الخاص وترجمها حديثا وعلق عليها السيد لويس صالة ـ مولينس Louis Sala-Molins ونشرها سنة 1967 م بباريس عند Aubier-Montaigne مع مقدمة ومجموعة من النصوص .

ريمون لول والثقافة العربية الاسلامية :

اتصل ريمون لول بالثقافة العربية منذ نشأته وتعلم اللغة العربية على يد استاذ مسلم بجزيرة مايوركا (5) وكان الغرض من هذا التعلم التبشير طبعا – فأجاد قراءة القرآن الكريم وتعرف على العلوم الاسلامية وعلى الفلسفة العربية ونقل الى لغته **منطق** الغزالي (6) واطلع على آراء الكندي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وألف بالعربية بعض كتبه منها : **(كتاب الكافر والحكماء الثلاثة)** و **(فن العثور على الحق)** و **(كتاب التأمل)** ••• واقترح على حاكم مايوركا مشروعا يرمى الى بناء ديرٍ يتكون فيه عدد من المبشرين ويتعلمون اللغة العربية فرحب الحاكم بالمشروع ووافق عليه البابا ايضا سنة 1276 م ••• **وبعد ذلك طلب** ريمون من الكنيسة ان تجعل العربية مادة للتدريس في جامعات أوروبا، فتم هذا في باريس وأوكسفورد وبولونية ورومة وسالامنك (7) ولكن الفيلسوف لم يوفق في مشروع آخر تقدم به كان يحرض فيه على تنظيم حملات جديدة من الحروب الصليبية والسبب في ذلك يعود الى ان هذه الحروب قد انتهت باستيلاء جنود المسلمين على مدينة عكة سنة 1291 م وكانت هي آخر قلعة من الاراضي الفلسطينية التي احتلها المسيحيون (8) وقدم ريمون لول ملتمسا الى البابا غير انه لم يتلق ردا عليه •

فغير رأيه بعد هذا الفشل وقرر الاعتماد على مساعيه الفردية ؛ وقام برحلات الى عدة بلدان قصد تحقيق خطته التبشيرية ورأى ان يوحد بين اليهودية والاسلام والمسيحية بفضل البراهين الفلسفية فقط (9) وكان يعتقد ان هذا التوحيد لا بد ان يتم في صالح دينه • وألف كتابا في هذا الموضوع وهو **(كتاب الكافر والحكماء الثلاثة)** وجعل النقاش يدور فيه بين كافر وعالم يهودي• وعالم مسلم وعالم مسيحي ؛ وتناظر هؤلاء العلماء وحاول كل واحد منهم ان ينتصر لدينه ويفضله على غيره (10) •

---

5) حياة ريمون لول – ص 22 – (6) لعله القسم الاول من مقاصد الفلاسفة للغزالي ، قد اشتهر هذا الكتاب في العصر الوسيط المسيحي ونقل على اللاتينية

7) Paris, Oxford, Bologne, Rome et Salanarque.

8) حياة ريمون لول – ص 27

9) لويس صالة – مولينس – ص 100

10) مقدمة (كتاب الكافر والعلماء الثلاثة) – ص 79

واعتمد ريمون لول على خبرته الفلسفية وحاول ان يفتح الحوار مع العلماء المسلمين خاصة ولهذا الغرض اتجه الى المغرب واجرى هناك مناظرات حول مسألة **التثليث** (11) • ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لان المسلمين لم يتفهموا التثليث ،بل زعموا – على حد قوله – ان النصارى يؤمنون بثلاثة آلهة (12) •

ريمون لول في تونس وبجاية :

ثم توجه الفيلسوف الى تونس سنة 1294 م والتقى فيها ببعض العلماء ولكنه لم يذكر لنا اسماءهم ؛ وصرح لهم بأنه مستعد لاعتناق الاسلام اذا استطاعوا اقناعه بالحجة القاطعة (13) • وكان موضوع المناظرة الصفات الالهية ولم يحصل على أي نتيجة • فواجه معارضة شديدة في مشروعه التبشيري وطالب أحد علماء تونس السلطة بقتله ، غير ان المستنصر بالله (1284م – 1295 م) لم يوافق على ذلك واكتفى بوضع ريمون لول في السجن مدة ثم أمر بابعاده ، وعند خروجه من السجن تعرض الفيلسوف المبشر الى الشتم والضرب من طرف الجمهور في الشارع • فأسرع الى مغادرة تونس على متن مركب كان متجها نحو جنوة (14) •

لم ييأس ريمون لول بعد فشله الذريع هذا وعقد العزم على محاولات أخرى للتبشير بدينه لدى المسلمين (15) • فأبحر من جزيرة مايوركا قاصدا مدينة بجاية في ربيع سنة 1307 م رغم تقدمه في السن اذ بلغ 74 عاما • ولعله كان قد زارها سابقا غير انه لم يشر الى ذلك فيما لدينا من آثاره وكان الغرض من رحلته هذه لا يختلف عن غرض رحلته الى تونس ولم يتعظ بما حدث له ولم يحترم شعور الناس • فتوجه الى ساحة في بجاية وتحدى الجمهور بكيفية مدهشة قائلا بالعربية : « ان شريعة المسلمين غير صحيحة واني مستعد لابرهن على ذلك » ؟ كأنه يريد المبارزة • فكان رد الفعل عنيفا وشتم الجمهور هذا الرجل الغريب ونزل عليه بالضرب (16) ؛ وسمع

11) التثليث La Trinité الاقانيم الثلاثة عند المسيحيين وهي الله والابن والروح القدوس .
12) حياة ريمون لول – ص 28
13) المصدر السابق – ص 31 ، ولويس صالة – موليتس – ص 123
14) جنوة Gênes : ميناء معروف بايطاليا
15) شجرة العلم – ص 133
16) حياة ريمون لول – ص 38

مفتي المدينة بالحادث فأمر بعض الاعوان بانقاذهوالاتيان به (17) • وعندما دخل ريمون تعجب المفتي من تصرفه وقال : « ما هذا الحمق الذى أدىبك الى التهجم على شريعة محمد الحقة ؟ الا تعلم ان من يتجرأ على مثل هذا يتعرض للقتل ؟) •فأجاب ريمون بانه لا يخشى الخطر فى سبيل المسيح ؛ وسأله المفتى : « اذ كنت تعتقد ان شريعة المسيح هى الصحيحة • وان شريعة محمد غير صحيحة فبين لنا ذلك بالادلة القاطعة » • فارتضىريمون ذلك واقترح : « لنتفق على نقطة مشتركة (الرحمة الالآهية) ثم سأقدم لك الدليل القاطع »وبعد ما وافق المفتى على هذا الاقتراح تناول ريمون الكلمة وحاول ان يبرهن على صحة التثليثولكن المفتى لم يرض بهذا الموضوع ؟ فرفض المناقشة وامر بوضع ريمون فى السجن ؟ وفىطريقه الى السجن تعرض الفيلسوفالى شتم العامة التى أهانته ••• وبقى هناك ستة اشهر الى انأمر الملك بالافراج عنه وطرده فورا • فارتحل ريمون الى جنوة غير ان مركبه غرق قرب الساحلالايطالى ؛ فنجا هو وبعض المسافرين وضاعت كتبه (18) •

هكذا انتهت رحلة الفيلسوف الاسبانى الى بجاية ولم يقتل فيها كما ردد ذلك بعض المؤلفين وما هذا الزعم الا اسطورة مختلقة ؛ والدليل علىعدم وقوع القتل ان ريمون عاش تسع سنوات بعد رحلته الى بجاية اذ توفى سنة 1316 م بجزيرةمايوركا ودفن هنالك • ولم يترك لنا ريمون لول أى وصف لمدينة بجاية ولم يهتم بازدهارها الحضارى والثقافى ، وانما اعتنى فقط بالتبشير الذى كان شغله الشاغل وفشل فى كل مساعيهلانه لم يراع عقائد الناس فتحداهم واصطدم بهم سواء فى تونس أو فى بجاية • ويجدر بالباحثينان يقارنوا بين رواية ريمون هذه التى اختصرناها وبين ما دونه الرحالة والمؤرخون المسلمون فى هذاالموضوع ذاته ليمكن التعرض على مدى صحة هذه الرواية لاننا لا نستطيع حاليا ان نعتبرهاصادقة فى كل ما ذهب اليه صاحبها •

---

17) اطلق ريمون على المفتى اسم الاسقف évêque ولم يعرفنا عليه من سوء الحظ . انظر حياته – ص 38

18) حياة ريمون لول – ص 40

الحياة العقلية فى بجاية

الفلسفة والكلام والتصوف

د.عمار طالبى
كلية الآداب
جامعة الجزائر

تعتبر بجاية مركزا من اهم المراكز الثقافية فى المغرب الاوسط ، اذ هى محط رحال طلاب العلم ، ورجالات الكلام والفلسفة والتصوف ، وعلماء اللغة والآداب ، والطب ، والصناعات المختلفة ، فكان ياوى اليها المشتغلون بعلوم الاوائل ، واصحاب المذاهب الصوفية والعقول المستقلة ، يجدون فيها متعة الاقامة (1) ، وراحة العقل ، وطمانينة القلب ، مما يتيح لهم ان يتاملوا وان يؤلفوا ، وان ينجوا من سطوة بعض الجائرين من السلاطين . وزادها اهمية انها مرسى ، وثغر يمر به الحجاج ، وطلاب العلم ، الذين يقصدون الى المشرق ، ويقيمون بها ، ياخذون عن علمائها ، فتتلاقح فى مواطنها العقول المختلفة .

فقد اخذ بها عن صوفيها الكبير ابى محمد عبد الحق بن الخراط (510 ـ 582 هـ) علماء ومتصوفون ومحدثون كثيرون ، امثال محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله الانصارى (ت 621هـ) الذى سمع عنه واجازه منصرفه الى الحج سنة 567هـ) . ومحمد بن عبد الرحمن بن على التجيبى نزيل تلمسان (2) (ت 610 هـ) ، فأخذ عنه على بن محمد العبدرى ببجاية سنة 576 هـ وسمع منه كتابه « تلقين الوليد » (3) ولقيه على بن احمد بن عبد الله البلنسى (ت 634 هـ) حين رحلته الى المشرق سنة 578 هـ مارا ببجاية ، وتتلمذ له فى بجاية على بن عتيق بن احمد الانصارى (ت 598 هـ) وهو من امهر المتكلمين والفقهاء والاطباء ، له معرفة بالرياضيات ، ونظم

1) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ج 7 ـ ص 241 ، حيث نص ابو مدين على ان الحياة فى بجاية تعين على الحلال .

2) محمد بن محمد المراكشى ابو عبد الله ، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة بيروت (1965) ـ ص 614

3) المرجع نفسه ـ ص 314

فى العقائد (4) ، ورحل الى الشيخ عبد الحق ، تلميذه على بن محمد المعافرى (5) (ت 605 هـ) ، وعلى بن هشام بن حجاج اللخمى (6) (ت 717هـ) ، ومكث عنده خمسة اشهر · وغير هؤلاء كثيرون ذكرهم اصحاب التراجم والفهارس والسير (7) · ونظرا لاهمية هذه الشخصية من الناحية الاخلاقية والعقلية ، فاننا نرغب ان تشير الى مكانتها الممتازة التى احتلتها فى المغرب والمشرق والى اثره فى من جاء بعده من المتصوفين والفقهاء والمحدثين ·

عبد الحق البجائى :

هو ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبدالله بن حسين الازدى الاشبيلى ، رحل الى بجاية واقام بها ، معاصرا لابى مدين شعيب (ت594هـ) درس عليه ، وحضر مجالسه كما انه عاصر أبا على المسيلى (ت 580 هـ) الغزالى النزعة · ولد عبد الحق سنة 510 هـ ونزل بجاية بعد سنة 550 هـ وتوفى بها سنة 582 هـ بعد محنة نالته من السلطة السياسية فى ذلك العهد (8)، وكتب تاريخ وفاته على رخام وضع على قبره ، خارج باب المرسى (9) ·

ويذكر ابن فرحون (ت 779 هـ) أن سبب هجرته الى بجاية هو ثورة الموحدين على الدولة المرابطية فى الاندلس قال : « نزل بجاية عند الفتنة الواقعة بالاندلس عند انقراض الدولة اللمتونية فنشر بها علمه » (10) وبين انه نهبت منه عدة مؤلفات أثناء ما سماه بالفتنة (11) ·

له مؤلفات كثيرة لم يصل الينا اغلبها منها كتاب « العاقبة » وكتاب « التهجد » وكتاب « الرقائق والانيس » فى المواعظ والامثال والحكم والآداب ، وكتاب « التوبة » ومقالة فى « الفقر والغنىٌ » وكتاب « الواعى » فى اللغة ، وديوان شعر ، والاحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى

4) المرجع نفسه ـ ص 257
5) المرجع نفسه ـ ص 315
6) المرجع نفسه ـ ص 417

7) تجد ذلك فى مواضع مختلفة من كتاب ابن الابار ، المعجم فى اصحاب القاضى الامام ابى على الصدفى ، مجريط ، 1885 م ـ ص 139 ، 167 ، 117 ، وفى كتابه : التكملة لكتاب الصلة ، القاهرة ، 1955 ج 1 ـ ص 262 وج 2 ـ ص 585 ، 589 ، 634 ، 635 ، 683 684 ـ 699 ـ 717 ـ 883 ـ 898 ـ 923 ـ 924

8) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، الكويت ، 1960 ج 4ـ ص 143 ـ 144
9) ابو العباس الغبرينى ، عنوان الدراية ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت 1969 ـ ص 43 ـ 44
10) ابن فرحون ، الديباج المذهب فى اعيان المذهب ، القاهرة ، (دون تاريخ) ـ ص 176
11) المرجع نفسه ـ ص 177

وكانت بينه وبين محدث الشام ابن عساكر ابى القاسم مراسلات (ت 571 هـ) (12) ، وكان لمؤلفاته أثر فى المشرق والمغرب ، وبلغت شهرتها الآفاق ، وعقب بعض المحدثين والفقهاء على كتابه « الاحكام » وردوا عليه كما فعل أبو عبد الله علي بن محمد القطان ، ونقل عنه ابن شاس أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 616 هـ) . ولكن ماهو مصدر عبد الحق فى مذهبه ومنهجه وطريقته ، فى كتابه الاحكام ؟ حدثنا ابن الابار (ت659هـ) ان مصدره فى ذلك كتاب احمد بن عبد الملك الانصارى (ت 549 هـ) اذ اعتمد (13) عليه ،وجعله مادة لكتابه ، ويعتبر الانصارى هذا فقيها ظاهريا ، ومحدثا على طريقة ابن حزم (ت456هـ) ويسمى كتاب الانصارى « المنتخب المنتقى » جمع فيه ما تفرق فى امهات المستندات من نوازل الشرع قال ابن الابار (ت 658 هـ) : « وعليه بنى كتابه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى فى الاحكام ، ومنه استفاد (14) وذكر ابن فرحون أيضا انه سبق الى ذلك ، سبقه أبو العباس بن أبى مروان الشهير بليلة « سبقه الى مثل ذلك أبو العباس بن ابى مروان (...) فحظى هو دون أبى العباس » (15) ، وممن شرح كتاب « الاحكام الصغرى » عبد العزيز بن ابراهيم بن احمد القرشي المعروف بابن بزيزة (ت 662 هـ) وهو من كبار المتصوفة والمتكلمين ، شرح كتاب « الارشاد » للجوينى (ت 478 هـ) وألف « شرح الاسماء الحسنى » وكتاب « منهاج المعارف الى روح العوارف » ومختصرا له اسماه « ايضاح السبيل الى مناهج التأويل » (16) . وانتصر لكتاب « الاحكام » احد تلاميذ عبد الحق وهو أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي (ت 628 هـ) وألف كتابا سماه « الاعلام بفوائد الاحكام » بين فيه قيمة كتاب استاذه (17) .

وانما يهمنا من آثاره فى هذا المجال كتاب « العاقبة » لما ترك من تأثير فى المتصوفة الذين جاءوا من بعده ، وخاصة الصوفى الجزائرى الذائع الصيت عبد الرحمن بن مخلوف الجزائرى (ت 875 هـ) فى كتابه « العلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة » (18) ، بين فى مقدمته انه اعتمد

12) المرجع نفسه ـ ص 176
13) ابن الابار ، التكملة ج 1 ـ ص 58
14) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
15) ابن فرحون ، الديباج ـ ص 176
16) المصدر نفسه ، ص 178 ، الثعالبى ، العلوم الفاخرة القاهرة ، 1317 هـ ج 1 ـ ص 131
17) ابن الابار التكملية لكتاب الصلة ، ج 1 ـ ص 628 ، الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 220
18) تولى طبعه السيد احمد بن مراد التركى ، بالمطبعة الحميدية المصرية سنة 1317 هـ بتحقيق العلامة المصلح تلميذ الشيخ محمد عبده الا وهو الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجه المدرس بجامع سفير ، وساعده فى التحقيق والمقابلة الشيخ قدور الامام الاول بالجامع الاعظم ، وذيله الشيخ مصطفى بكلمة مؤرخة بالجزائر غرة شعبان سنة 1317 هـ ، يقع الكتاب فى جزئين ، فى مجلد واحد ، الاول به 171 ص ، والثانى به 158 ص .

فى تآليفه على : « تصانيف جليلة ، كأبى حامـد الغزالى وابى عبد الله محمد بن احمد القرطبى وابى محمد عبد الحـق الاشبيـلى والمحـاسبى وغيرهم» (19) وبعد ان فحصنا هذا الكتاب وجدنا ان الثعالبى ينقل عنه نصوصا عديدة من كتابـه« العاقبة » ، فى مواضع مختلفة من « العلــــوم الفاخرة » بجزئيه » (20) .

ويبدو ان عبد الحق ينزع منزع الغزالى فى كتابه « الاحياء » ويذهب مذهب اتباعه فى المغـــرب أمثال ابى الحكم بن برجان (ت 530 هـ) الـذى اجتمع به ، وحادثه ، فقد ذكر الثعالبى هـذا اللقاء فقال : « قال عبد الحق حدثنى الفقيه ابوالحكم بن برجان وكان من أهل العلم والعمل رحمه الله » (21) واثبت محمد بن محمد مخلوف انـه تتلمذ عليه (22) ، ويعتبر ابن برجان من اعمـق متصوفة المغرب واشدهم ارتباطا بالمنهج الغزالى وهو متكلم اشعرى ، له تفسير هام وكتـــاب « شرح اسماء الله الحسنى » (23) ، وثبت ان عبدالحق أخذ عن ابى مدين (ت 594 هـ) وصحب ابا على المسيلى (ت 580 هـ) وهما يذهبان مذهـب الطوسى فى التصوف والذوق .

ونود ان نأتى ببعض الفقر من نص كتـــاب« العاقبة » حتى يتبين للقارىء بعض ملامح منهج عبد الحق ومشربه الصوفى الذى يتصل اتصالا وثيقا بمشرب الغزالى ، فى تصوفه السنى البرىء من الحلول والاتحاد ، ووحدية الوجود ، وما الىذلك من شطحات المتصوفة ، وطامات تهم ورموزهم وغموض كتاباتهم .

ويبدو لنا كذلك من هذه النصوص اسلوبـه الواضح السلس ، الرقيق رقة العواطف العميقة، والفقر المسجوعة ، سجعا خاليا من التكلف والتقعر. قال عبد الحق فى العاقبة « اعلموا رحمكم الله تعالى ان الناس فى ذكر الموت على ضروب، فمنهم المنهمك فى لذاته ، والمضيع فيها ما لا يرجع اليه من اوقاته ، لا يخطر له الموت على بال ، ولا يحدث نفسه بزوال ، قد طرح أخراه ، واكب على دنياه ، واتخذ الهه هواه ، فاصمه ذلك واعماه، ان ذكر له الموت نفر عنه وشرد ، وان وعظ أنف وعند ، قد

19) المصدر نفسه ج 1 ـ ص 2

20) فى ج 1 ـ ص 6 ، 7 ، 15 ، 20 ، 26 ، 29 ـ 30 ـ 47 ، 68 ، 73 ، 88 ، 89 ـ 91 ـ 92 ـ 95 ـ 98 ـ 115 ـ 117 ـ 119 ـ 120 ـ 130 ـ 131 ـ 148 ـ 149 ـ 157 . وفى ج 2 ـ ص 35 ـ 49 ـ 82 ـ 120 ـ 157

21) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ج 1 ـ ص 88

22) مخلوف ، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة . 1350 هـ ـ ص 132

23) لدينا منه نسخة مخطوطة .

حاد عن سبيل نهجه ، ونكب عن طريق رشده ،مقبلا على بطنه وفرجه ، فتبت يـــداه ، وخسر (مسعاه ، كأنه لم يسمع قول الله عز وجل : كل نفس ذائقة الموت) .

•آخر قلبه معلق بالدنيا ، وهمه فيها ، ونظره مصروف اليها ، وهو مع ذلك من طلابها المحرومين وابنائها المكدودين لم ينل منها حظـا ، ولارقى منها مرقى ، ان ذكر له الموت تصامم عن ذكره ، ولم يمكنه من فكره ، رجاء ان يبلغ ما أمل او يدرك بعض ما تخيل ، فعمره ينقصّ وحرصه يزيد ، وجسمه يخلق وامله جديد ، وحتفه قريب ، ومطلبه بعيد ، فنعوذ بالله من الحرمان ، ومن شماتـــة العدو الشيطان ، فهذا والذى قبله ، ان لم تكن لهما عناية أزلية ، وسابقة أولية ، فيمسك عليهما الايمان ، ويختم لهما بالاسلام ، والا فقد هلكـا كل الهلاك ، فنعوذ بالله من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الاعداء ، فانظر رحمك اللـــه كيف تقر عين عاقل فى هذه الدار ، مع وجود هذه الاخطار ، ولله در القائل :

وكيف تنـــام العـين وهى قريـــرة ولـــم تـــدر فى أى المنازل تنـزل

ورجل آخر – وقليل ما هم – ممن ازيل عـن عينه قذاها ، وابصر نفسه وهواها ، وزجرهـــا ونهاها ، فلبى المنادى ، واجاب الداعى ، وشمر لتلافى ما فات ، ونظر فيما هو آت ، وتأهب لحلول الممات ، والانتقال الى محل الاموات ، ومع هذا فانه يكره الموت ان يشاهد وقائعه ، او يـرى طلائعه ، وليس يكره الموت لذاته ، ولا لانـــه هادم لذاته لكنه يخاف ان يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد ، والاكتساب ليوم الحساب ، ويكره ان تطوى صحيفة عمله ، قبل بلوغ أمله وان يبادر باجله قبل اصلاح خلله ، وتدراك زلله، فهو يريد البقاء فى هذه الدار ، لقضاء هذه الاوطار فهذا ان مات يا لله دره من ميت ، ما افضل حياته واطيب مماته ، واعظم سعادته ، واكـــرم وفادته ، واتم سروره ، واكمل حبوره ، واعلـم ان هذا لا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم (من كره لقاء الله كره الله لقاه) ، كما قـــد وقع مفسرا فى الحديث .

ورجل آخر – وهو من أقل القليل – قـــد عرف الله تعالى باسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وشاهد ما شاهد من كمال الربوبية ، وجمـــال الحضرة الالهية ، فملأت عينه وقلبه واطـاشت عقله ولبه ، فهو يحن الى ذلك المشهد ، ويستعجل انجاز ذلك الموعد ، وقد علم ان الموت حجاب بينه وبين محبوبه ، وستر مسدول بينه وبين مطلوبه ومقدمات هذا وامثاله ، تدل على ما وراءها ، من الوصال والاتصال ، والانس بذاك الجلال والجمال.

ورجل آخر قد شاهد ما شاهد ذلك ، وربما زاد عليه ، لكنه فوض الامر الى خالقه ، وسلـم الحكم لبارئه ، فلم يرض الا ما رضى له ، ولـم يرد الا ما اريد به وما اختار الا ما حكم فيه ، ان ابقاه في هذه الدار ابقاه ، وان اخذه أخذه » (24)

فهذا النص صنف فيه عبد الحق بن الخـراط البجائي الناس في حياتهم الاخلاقية والروحية الى درجات اعلاها درجة الفناء ، فناء الكائن البشري عن الارادة البشرية ، والاخلاق الانسانية الصادرة عنها ، وفوض أمره كله الى الارادة الالهية ، وتليها درجة العارف ، صاحب الشهود الذى وصل ، وأنس بجلال الله وجماله .

وقال عبد الحق في فقرة اخرى : « فانظر رحمك الله كيف تقر عين عاقل في هذه الدار ، وكيف يستقر له فيها قرار ، مع هذه الحال ، وتوقع هذا المثال ، لكن حجاب الغفلة الذى غطى على القلوب كثف ، فلا ترى ما وراءه ، والوقر الـذى في الآذان عظم فلا تسمع من ناصح دعاءه ، وقد بكى أولو الالباب على هذا فاكثروا ، وسهروا مـن اجله الليالى الطويلة واسهروا ، ورام عاذلوهـم كفهم عماهم فيه فلم يقدروا ، وذلك للعلم الـذى لاح لهم ، والتأييد الذى شملهم ، والتوفيق الذى يسر لهم ، وربما هبت عليهم نفحـات الرجـاء فاستبشروا ، وسكنوا من ذلك الهيجان وفتروا ، فلتسلك رحمك الله على منهاج هـؤلاء العقـلاء ، ولتمش على آثار هؤلاء الفضلاء ، وأدم حسرتـك وامزج بدم الفؤاد عبرتك ، وابك على نفســك ثم ابك ، البكاء بالبكاء ، والاسى بالاسى ، حتى تنكشف لك هذه الغاية (...) وقد علمت رحمك اللـه ان الناس صنفان صنف مقرب مصان ، وآخـر مبعد مهان ، صنف نصبت لهم الاسرة والحجـال والارائك والكلال ، وجمعت لهم الرغائب والآمال وآخرون اعدت لهم الاراقم والصلال ، والمقامع والاغلال ، وضروب الاهوال والانكال ، وانت لا تعلم من ايهما انت ، ولا في اى الفريقين كنت :

نزلوا بمكـة في قبائـل نوفـل	ونزلت بالبيداء ابعـد منـزل
وتقلبـوا فرحـين تحـت ظلالهـا	وطـرحت بالصحـراء غـير مظلـل
وسقـوا مـن الصافي المعتق ريهم	وسقيت دمعـة واله متملمـل (25)

24) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ، ج 1 ـ ص 6 ـ 7 نقلا عن « العاقبة » لعبد الحق البجائي

يتشف من هذا النص ومن غيره من الفقرات التى اوردها الثعالبى ، ان عبد الحق قصد من كتابه « العاقبة » وعظ الناس وتذكيرهم ، وترقيق قلوبهم ، فلم يأت كتابه على نمط الحلاج او ابن عربى او ابن سبعين ، وانما هو فى روحه العامة ، وسمات اسلوبه ، ذو نزعة زهدية سنية ، لاتشوبها شائبة الرموز والالغاز ، وما الى ذلك من سمات الباطنية او العرفانية الصوفية ، الموغلة فى الرمزية التى يستخدمها أولئك المتصوفون الذين اشرنا اليهم ، ولهذا لما اورد ابن قنفذ القسنطينى (ت 810 هـ) عنوان كتاب « العاقبة » اشار الى سمته ومضمونه وهو : « فى الوعظ والتذكير(26) ويؤيد ماذهبنا اليه ايضا انه محدث ، فهو على طريقة أهل الحديث فى الزهد ، ورقة القلب ، ولزوم السنة .

ومن تلاميذ عبد الحق ، الصوفى المؤرخ صاحب كتاب « النبذ المحتاجة فى اخبار صنهاجة بافريقية وبجاية » ابو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي (ت628هـ) وهو قلعى درس بالقلعة التى وصفها الغبرينى (ت704هـ) بانها : «كانت حاضرة علم»(27) ووصفها ابن خلدون بانها من المواطن التى : « رحل اليها من الثغور ، والناحية والبلد البعيد، طلاب العلوم ، وارباب الصنائع لنفاق اسواق المعارف ، والحرف ، والصنائع »(28) فيها ثم انتقل من بجاية ودرس فيها على الشيخ ابى مدين (ت 594 هـ) أخذ عنه كتاب الغزالى الموسوم« بالمقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى » بمنزله ببجاية سنة 531 هـ ، كما أخذ عن عبدالحق « الموطا » وغيره من المؤلفات ، ودرس على ابى على المسيلى (ت 580 هـ) الملقب بابى حامد الصغير ، وعلى غيره من متصوفة وعلماء القلعة وبجاية والجزائر وتلمسان (29) . كان ذا ضلاعة فى الحديث والاصول وعلوم الرقائق ومن أهم تآليفه كتاب « الاعلام بفوائد الاحكام » وهو كتاب فى خدمة كتاب شيخه ، وفى الابانة عن قيمته فى مجال الحديث والفقه (30) .

ومن المعاصرين لعبد الحق والنازلين ببجاية ابو بكر محمد بن الحسين بن احمد الانصارى الميورقى تلميذ الطرطوشى (ت 520 هـ) كان ذا نزعة زهدية وظاهرية هرب من سلطان المغرب الاقصى فى عهد المرابطين ، بعد ان حمل اليه هو وابو العباس بن العريف (ت 538 هـ) وابو

26) ابن قنفذ ، الوفيات ، تحقيق هنرى بيريس ، مصر ،(دون تاريخ)
27) الغبرينى ، عنوان الدراية ـ ص 218
28) ابن خلدون « ديوان المبتدأ والخبر » دار الكتاب اللبنانى ، 1959 ج 6 ـ ص 350
29) الغبرينى ، عنوان الدراية ـ ص 219
30) المرجع نفسه ـ ص 220 . ابن الابار ، التكملية ، ج 1 ـ ص 628

الحكم بن برجان (ت 530 هـ) وهم جماعة عرفوا بالتصوف ، فخشيت منهم السلطة السياسية المرابطية بتحريض من الفقهاء ، وكانوا الغالبين فى تسيير الاوضاع الاجتماعية والحياة العقلية ، فدعتهم الى عاصمتها لاسباب سياسية وايديولوجية ، ولمعارضة الفقهاء للنزعة الصوفية ولمنهج الغزالى فى تحليله للعلوم الدينية ، ونقده اللاذع للفقهاء وعلومهم ، حدث محمد بن الحسين ببجاية ودرس (31) بها سنة 537 هـ ثم ذهب الى المشرق ، ومن الآخذين عليه فى بجاية عبد الحق البجائى (32) .

ومن الآخذين على عبد الحق تلميذه محمد بن جعفر بن احمد المخزومى الاندلسى (ت 632 هـ) اجازه فى تآليفه ، ونشر كتابه المسمى بكتاب « التهجد » فى بلده (33) وتتلمذ عليه ابن عربى (ت 538 هـ) .

ومن كبار المتصوفة والاصوليين على منهج الغزالى ، ابو الفضل يوسف بن محمد القلعى (ت 513 هـ) الذى ناضل الفقهاء المعارضين للغزالى ، وسخط عليهم احراقهم لكتاب « الاحياء » كان اهتمامه بأصول الدين وبأصول الفقه ، تجول فى المغرب الاقصى ، ثم عاد الى قلعة بنى حماد ، واخذ نفسه بالتقشف ، وهجر اللين من الثياب (34) يميل الى النظر والاجتهاد وله تآليف (35) ، توفى بالقلعة ، وكان قبره بها مشهورا يزار . ومما يؤيد ماذهبنا اليه من انه ذو ذوق غزالى ، ان أبا عبد الله بن على بن حماد قال فيه : « كان ابو الفضل ببلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا » (36) ومن الادلة على انه غزالى المنهج ، انه انتصر للغزالى لما افتى فقهاء قرطبة ، وامر السلطان اللمتونى على بن يوسف بن تاشفين (ت 537 هـ) باحراق كتب الغزالى ، ففى تطريز الديباج انه : « لما افتى الفقهاء بحرق « الاحياء » فاحرق فى صحن مراكش ووصل كتاب سلطان لمتونة بذلك وتحليف الناس بمغلظ الايمان ، ان ليس عندهم «الاحياء» انتصر وكتب للسلطان ، وافتى بعدم لزوم تلك الايمان ، ونسخ الاحياء ثلاثين جزءا يقوم كل يوم فى رمضان بنسخ جزء (37) قائلا :

31) ابن الابار ، التكملية ، ج 1 ـ ص 440
32) ابن الابار ، المعجم ، مجريط ، 1885 هـ ـ ص 139
33) ابن الابار التكملية ، ج 2 ـ ص 634
34) أبو يعقوب يوسف التادلى ابن الزيات ، التشوف الى رجال التصوف ، الرباط ، 1958 ـ ص 75 ـ 78
35) ابن فرحون ، الديباج ـ ص 349
36) المرجع نفسه ـ ص 350
37) كذا وفى البستان ، لابن مريم ، تحقيق محمد بن شنب ، الجزائر ، 1326 هـ 1908 ـ ص 301 : « يقرأ منه كل يوم جزءا فى رمضان » ، وهو أصح .

وددت انى لم انظر فى عمرى سواه »(38) وتنسب اليه قصيدة « المنفرجة » ، ولكن شك بعض الكاتبين فى هذا الموضوع ، فى نسبتها اليه .

ومن المتصوفة البجائيين الذين تأثروا برسالة القشيرى (ت 465 هـ) ابو عبد الله محمد بن على القصرى : « وكان اذا قرئت عليه رسالة القشيرى يأتى عليها بما لم يسبق اليه ، وربما لو سمعه أبو القاسم القشيرى ، لعلم انه العالم بمعانيها ، المحكم لاصول مبانيها » (39) وله معرفة متمكنة بأصول الدين ، واصول الفقه ، وهو من تلاميذ ابى الحسن الحرالى (ت 637 هـ) .

ومن كبار المتصوفة ومعلمى الفلسفة والمؤلفين فيها ببجاية ابو الحسن على بن احمد الحرالى (ت 637) صنف فى علم الاصول ، اصول الدين ، وفى اصول الفقه ، وصنف فى الفلسفة كتابا فى المنطق سماه : « المعقولات الاول » وله معرفة بالطبيعيات والالهيات (40) تأثر بابن سينا ، (ت 428 هـ) ، لم يكن يدرس الفلسفة فحسب بل كان ينقد الفلاسفة ، قال الغبرينى : « اخبرنى شيخنا ابو محمد عبد الحق رحمه الله قال لى : كنا نقرأ عليه « النجاة » لابى على بن سينا ، فكان ينقض عراه نقضا ، وذلك بعد ان يوضح منه ما يليق ، ويقرره باحسن طريق ، ثم ينقضه ويوهنه »(41) وكان رياضيا بارعا « واما علم التعاليم فكان اعلم الناس بها » (42) وصرح الغبرينى انه اطلع على مؤلفاته فى اصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق ، والتصوف ، وعلم الفرائض التى الف فيها كتابا سماه «بالوافى»(43) وله شعر فى الرقائق وفى التصوف والغزل .

اتهم بالكفر وحاولوا قتله ، وكان يقصد مسجد الامام المهدى بن تومرت ، وله حزب يلازمه ، ذكر الغبرينى نصه (44) ، انتقل الى المشرق ، وتوفى بحماه من بلاد الشام سنة 637 هـ . وكان للذهبى (ت 748 هـ) موقف فى ابى الحسن كعادته فى المتصوفين ، اذ انه هاجمه ووصف تفسيره بانه تفسير عجيب ، وان كان شهد له بمعرفة اصيلة بعلم الكلام والمنطق (45) كما كان لابن عبد السلام

38) احمد بابا التنبكتى ، تطريز الديباج ، القاهرة (دون تاريخ) – ص 350 ، ابن مريم ، البستان – ص 300
39) الغبرينى ، عنوان الدراية – ص 186
40) المرجع نفسه ، نفح الطيب ، ج 2 – ص 187 .
41) الغبرينى ، عنوان الدراية – ص 144
42) المرجع نفسه – ص 145
43) المرجع نفسه – ص 147
44) المرجع نفسه – ص 149
45) الذهبى ، العبر ، ج 5 – ص 157 . المقرى ، نفح الطيب تحقيق عبد الحميد محيى الدين ، القاهرة ، 1367 هـ 1949 ج 2 – ص 388 – 389

عز الدين (ت 660هـ) موقف حين اطلع علىتفسيره الاشارى الصوفى فامر بطرده من بلاده (46) .

ومن المدرسة الغزالية فى بجاية نجد اشهرمتصوفيها على الاطلاق ، أبا مدين امام الزهاد والعباد وشيخ الشيوخ . وهو شعيب بن الحسن(ت 594 هـ) تأثر بالغزالى واعجب به ، وبكتابه « الاحياء » ، ومما يدل على ذلك وصفه لكتاب الاحياء بانه لا نظير له فى التذكير ، قال : «وطالعت كتب التذكير ، فما رأيت مثل كتاب الاحياء »(47)فكان يلازمه ويعكف على قراءته ، وعلى تأمل مضامينه ، (48) كان معاصرا لابى على المسيلى(ت 580 هـ) ، ولابى محمد عبد الحق (ت582هـ) كما اشرنا من قبل ، اذ حضرا مجالسه واجتمعا بهواختبراه فى تحققه بالمعرفة ، والحقيقة الصوفية ، فاجابهما باشارة صوفية ، وبرمز يشير الى مكانتهفى التصوف ، وهو : « بى قل وعلى دل فأنا الكل » (49) ، فما كان من عبد الحق الا ان اعترفله وقال عنه : « هذا وارث على الحقيقة » (50) وكانت لابى مدين عناية (51) برسالة القشيرى(ت 465 هـ) مثل القصرى البجائى ، فكان يشرحها فى مجالس درسه وتذكيره ، كما كانتله عناية بكتاب « الرعاية لحقوق الله » للمحاسبى الحارث بن اسد (ت 243 هـ) (52) درسه على شيخه ابى الحسن بن حرزهم (ت 559 هـ) الغزالى المنهج فى التصوف ، حج ابو مدين وزار المشرقولقى الشيخ عبد القادر الجيلانى (ت 561 هـ) البغدادى بعرفات ، فأخذ عنه الحديث فى الحرم ،وألبسه الخرقة ، وعهد اليه بطريقته (53) ، ومن شيوخ ابى مدين المباشرين ابو الحسن بن غالب(ت 568 هـ) والدقاق أبو عبد الله ومن معاصره أبو زكرياء يحيى الزواوى (ت 685 هـ) .

ومن اهم شيوخه الذين اخذ عنهم سندهم فىالتصوف ابو يعزى يلنور بن ميمون (ت561هـ) واتصل سنده (54) الى الحسن البصرى (ت 110هـ) وفى السلسلة من أهل التصوف ابو بكر بن

46) المقرى ، نفح الطيب ج 2 ـ ص 387
47) الغبرينى عنوان الدراية ـ ص 23
48) أحمد بابا التنبكتى ، تطريز الديباج ، بهامش الديباج، القاهرة (دون تاريخ) ص 127 ، ابن مريم ، البستان ـ 108
49) الغبرينى ، عنوان الدراية ـ ص 25
50) المرجع نفسه ـ ص 42
51) أحمد بابا ، تطريز الديباج ـ ص 128 وعنوان الدرايه ـ ص 26
52) ابن الزيات ، التشوف ـ ص 321 وكان ابن حرزهم من انصار الغزالى انتقده ثم اتبع طريقه ، واتفق مع ابن برجان فى هذه النزعة الغزالية .
53) التنبكتى ، تطريز الديباج ـ ص 127

العربى (ت 543 هـ) والغزالى (ت 505 هـ) وابوالمعالى الجوينى
(ت 389 هـ) ، الى أبى القاسم الجنيد (ت297هـ) ·

استوطن بجاية وفضلها على كثير من المـــدنويرى انها
ببجاية ، وارتفع شانه فى آفاقها ، بما كان يعقدهمن مجالس
وفودا ، من مختلف الآفاق ، فوشى به بعـــضالفقها. لد
(ت 595 هـ) ، وذكروا له انه يشبه الامام المهدىبن تومرت
فى مواطن كثيرة ، وانه اضحى خطرا على الدولةالموحدية سياسيا ، فاستدعاه ...
واوصى به ان يحمل الى العاصمة مراكش خير محمل ، فارسل به والى بجاية ، فشق على اهلها فراقه ، وما لبث ان ادركه الموت فى تلمســـــان ،فدفن فى كدية العباد بها، وذلك سنة 594هـ(55) ·

ونجد محيى الدين بن عربى (ت 638 هـ)حينيذكر ابا مدين يعبر عنه غالبا « بشيخنا » (56) مما يشير الى اتصاله الروحى به وبمنهجه ، ومماينسب الى ابى مدين من العبارات الصوفية نرى وجه الشبه بينه وبين ابن عربى فى فلسفتـــهالصوفية التى يرى كثير من الباحثين ان من أهم عناصرها الاساسية القول بوحدة الوجود ، ويبدو ذلك من هذه العبارات : بسر حياته ظهـــرت حياتى ، وبنور صفاتـــه استنـــارت صفـــاتى ، وبديمومته دامت مملكتى ، وفى توحيده أقيمـــت همتى ، فسر التوحيد فى قوله : لا اله الا أنـــا ، والوجود باسره حرف جاد لمعنى ، وبالمعنى ظهرت الحروف ، وبصفاته اتصف كل موصوف، وباسمهائتلف كل مألوف ، فمصنوعاته له محكمـــــة ، ومخلوقاته له مسلمة ، لانه خالقها ومظهرهـــا ،ومنه مبدؤها ، واليه مرجعها ، كما اظهرها ذرا فقال : (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) (57) ومـــنالعبارات التى أوردها كذلك ابن قنفذ القسنطينى (ت 810 هـ) قوله : « ان نظرت بالحقيقة تلاشتالخليقة » فوجود الله معنى وحقيقة، ووجود الاشياء أو الكائنات حروف معبرة عن هذه المعنى «الوجودبأسره حرف جـــــاء لمعنى ، فبالمعانى ظهـــرت الحروف » (58) فوجود الموجودات الطبيعية صفةله ، وهى مظاهر لحقيقته التى تتبدى فى كـــــل موجود : (وباتصافه اتصف كل موصوف » ·

54) المرجع نفسه ــ ص 128
55) ابن الزيات ، التشوف ــ ص 316 ، التنبكتى ، تطريز الديباج ــ ص 129 محمد البهلى النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى ، تونس 1965 ــ ص 206 ، ابن قنفذ ،أنس الفقير ، ص 102
56) ابن عربى ، الفتوحات المكية ط ، بولاق ج 3 = ص 51 – 195
57) ابن الزيات ، التشوف ــ ص 324 . ابن قنفذ انس الفقير ــ ص 96 مع اختلاف يسير بينهما .
58) ابن قنفذ ، انس الفقير ، ص 96 وعلق على ذلك بقوله : « اذا تأملت كلامه هذا مع كلامه فى اليقظة ، وجـــدت النفس والمنبع واحدا لا شك فى ذلك » .

ـب مذهب الفناء ، فناء صفات العبـــدوارادته « كل حقيقة لا تمحو اثر العبد ورسمه ـست بحقيقة » (59) ·

وعندما سئل عن خصائصه فى مجال المعرفةوالوصول والمقامات قال : « مقامى العبوديـــة ، وعلومى الالهية ، وصفاتى مستمدة من الصفاتالربانية ، ملأت علومه سرى ، وجهرى ، واضاء بنوره برى وبحرى » (60) اى ظاهره وباطنه ·ومن هنا يبدو لنا انه وان كان غزاليا فى وجهته العامة الا انه يميل الى هذا اللون من التوحيـــدأى واحدية الوجود ، فلا وجود على الحقيقة الا لله ومن هنا يأتى وجه الشبه بينه وبين تلميذه ابنعـــربى ·

ترك ابو مدين تلاميذ كثيرين ، واصحابا يعسرحصرهم ، عـد منهـم ابن قنفـذ (ت 807 هـ) جماعة (61) ومن مريديه فاطمة الاندلسية (62)وله اصحاب فى تونس ، لقيهم اثناء رحلته الى المشرق ، واجتمع بهم فى جامع السكاجين الـذىيسمى الى اليوم بمسجد ابى مديـن (63) وزاره بعضهم فى بجاية ، قصدوا اليه لاستكمال تربيتهمالروحيـة ، وهؤلاء الجماعـة هم : ابو يوسف الدهمانى (ت621 هـ) وعبد العزيز المهداوى(ت 621 هـ) وابو سعيد الباجى (ت 628 هـ) وابو على النفطى (ت 610 هـ) وابو محمد صالحبن محمد بن عبد الحـــق التونسى ، والطاهـر المزوغى (ت 646 هـ) وابو عبد الله محمد الدباغوغيرهم (64) ، وكان على رأس هؤلاء الزائرين ابو محمد عبد العزيز بن ابى بكر ، صاحب الخلـــوةالصوفية فى قصر المنستير ، وكان شاعرا ،وجرت بينه وبين ابى مدين مراسلات ، ومما كتب به الىابى مدين قوله :

شعيب ولى اللـــه ســـر عبـــاده	أبو مديـــن مغنى الانـــام بفخـره
فياجنـــة المأوى ويا علـــم الهـدى	ويا ناشرا عـــلم الالـــه بأمـــره
حضرت ولم تحضر وغبت ولـــم تغب	وما كنت فى كـــل بجانب طـــوره
فنورك نـــور اللـــه يهـدى له وهل	الى احد فى الناس اطفاء نـوره (65)

59) ابن الزيات ، التشوف ــ ص 324 . الغبرينى عنوان الدراية ــ ص 31
60) المقرى ، نفح الطيب ، ط . محيى الدين ، ج 9 ــ ص 346
61) فى كتابه أنس الفقير وعز الحقير
62) ابن قنفذ ، أنس الفقير ــ ص 91
63) البهلى النيال ، الحقيقة التاريخية ــ ص 206
64) المرجع نفسه ــ ص 206 ، ابن قنفذ أنس الفقير ــ ص 97 . والذين زاروه فى بجاية هـم : النفطى ، والدهمانى والطاهر المزوغى ، وابن هداس ، ومحفوظ بن جعفر ، وسالمالتباسى وابو محمد عبد العزيز :
65) ابن قنفذ أنس الفقير ــ ص 99

وكتب اليه ابو مدين رسالة ومما جاء فيها : « اما بعد فانه من اتقى الله سبحانه وقاه ، ومن توكل عليه حق التوكل كفاه ، ومن استعاذ بـه نجاه ، ومن شكره والاه ، ومن اقرضه جازاه ، واجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فانه لا عمل لمن لا نية له ولا اجر لمن لا خشية له »(66) .

ذكر المؤرخون انه تتلمذ عليه وتخرج مـن مدرسته ما يزيد على ألف شيخ ، ومن هـؤلاء كما اشرنا من قبل محيى الدين بن عربى (ت638هـ) قال محمد مخلوف : « وتخرج عليه اكثر من الف شيخ منهم محيى الدين بن عربى (67) دخل محيى الدين بن عربى بجاية فى رمضان (68) سنة 597هـ وكان ابو مدين قد توفى قبل ذلك بثلاث سنين (594 هـ) ويؤكد انه لقيه ما اثبته محمد رجب حلمى فى كتابه « البرهان الازهر » من انه أخذ عنه قال : « واخذ العلوم الباطنة عن حضرة العارف الشيخ أبى مدين المغربى» (69) وذهب الى هـذا الرأى ايضا ، واكد انه لقى ابا مدين ، واخـذ عنه الباحث الاسبانى (آنخل جنثالث بالنثيا) ، حيث اشار الى ان محيى الدين يبالغ فى وصـف رؤى ابى مدين ، وطريقته، وفضائله وكراماته(70) وينقل بعض المؤرخين انه انما درس على بعـض تلاميذه رسالة القشيرى ، ولقى اصحابه بتونس(71) .

اما عبد الرحمن بدوى فيذهب الى ترجيح انه لقى ابا مدين فى بجاية (72) حين زار تونس سنة 590 هـ فمر على بجاية ، ولا يعقل ان يكون أبـو مدين بهذه المثابة التى كانت له فى ذلك العهد ، ولا يرحل اليه ابن عربى الطلعة ، ومن جهـة أخرى فاننا نجده خبيرا باخبار واحوال أبى مدين ذاكرا له فى كتبه بلفظ « شيخنا » غالبا ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ومن هذه الاخبار انه كان له ابن من امرأة سوداء ، ويرى بدوى ان ابـن عربى يعتبر شيخه أبا مدين قد بلغ « غايـة الغايات » وانه يقول بالتوحيد أى ان الوجـود واحد ، ولا موجود الا الله ، وانه اعترف لـه بالقطبية واحتفظ له بذكرى أثيرة لديـه (73) وبسبب ما ذهب اليه أبو مدين من واحديـة

66) المرجع نفسه ـ ص 99

67) محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، ص 164

68) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ج 2 ـ ص 18 عنوان الدراية ـ ص 157

69) محمد رجب حلمى ، البرهان الازهر فى مناقب الشيخ الاكبر ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1326 هـ ـ ص 7 . ابو الوفاء التفتازانى (الطريقة الاكبرية) ، الكتاب التذكـارى لمحيى الدين بن عربى ، القاهرة ، 1969 ـ ص 300

70) آنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة 1955 ـ ص 373

71) محمد البهلى النيال ، الحقيقة التاريخية ـ ص 372

72) عبد الرحمن بدوى (أبو مدين وابن عربى)، الكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى فى الذكرى المئوية الثامنـة لميلاده أشرف عليه وقدم له د . ابراهيم مدكور ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، 1969 ـ ص 121

73) المرجع نفسه ـ ص 126 ـ 128

الوجود رماه الفقهاء بالزندقة (74) في بجاية ، وحرضوا عليه السلطان ، وسعوا به لديه ، وظاهروه عليه ·

وهذا يدفع ما كان قد ذهب اليه G. MARÇAIS من القول بان ابا مدين ليست له اصالة 75 في تصوفه وانما هو اتخذ مجرد التصوف المعتدل BRUNSCHVIG الذى ارتضاه الغزالى لنفسه ، فيما يقول فاذا كان الامر كذلك فحسب ، فلماذا يتابعه الموحدون ، وهم يجلون الغزالى وطريقته ، اذ هو شيخ امامهم المهدى بن تومرت وهل G. MARÇAIS أكثر فهما لابى مدين من تلميذه ابن عربى الذى شهد له بالاصالة ؟ وبلوغ القطبية ، وهى ارقى ما يمكن ان يصل اليه صوفى ، لم يبلغ – دون شك – درجة ابن عربى وابن سبعين فى القول بوحدة الوجود الصريح ، والايغال فى الميتافيزيقا الصوفية الكونية ، وانما اتجه اتجاها غزاليا مع أصالة ، وقول بواحدية وجود متعالية ·

أما ابن تيمية (ت 727 هـ) فيرى ان أبا مدين ليس من اصحاب وحدة الوجود (76) ، ولعله انساق الى ذلك بسبب اتصال أبى مدين بعبد القادر الجيلانى ، ولقائه له ، واخذه عنه ، فلا يعقل ان يكون تلميذ السلفى الجيلانى قائلا بوحدة الوجود ، التى يحاربها ابن تيمية حربا لاهوادة فيها ، ويكفر اصحابها كفرا صراحا ، لا ايمان معه ·

ويسير فى هذا الاتجاه ابن سبعين (ت 669هـ) الذى يذهب الى ان أبا مدين مجرد زاهد عابد ، ليس له قدم راسخة فى المعرفة وانما تأصلت قدمه ورسخت فى العمل والتعبد ، فقال : « شعيب عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة » · (77)

ولكن من المؤكد ان ابن عربى درس على احد تلاميذ ، واصحاب ابى مدين ، الا وهو ابو محمد عبد الحق بن الخراط ، اذ نص على ذلك نصا لا يحتمل التأويل فقال : « ومن شيوخنا الاندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلى ، رحمه الله ، قال : حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث ، وعين لى من اسمائها «تلقين المهتدى » « والاحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى، وكتاب « التجهد » وكتاب « العاقبة » نظمه ونثره ، وحدثنى بكتب الامام ابى محمد على بن احمد بن حزم عن ابى الحسن شريح بن محمد بن شريح ، عنه » · (78)

74) المرجع نفسه – ص 128
75) دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابو مدين »
76) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، القاهرة (دون تاريخ) ج 1 – ص 179
77) البهلى ، الحقيقة التاريخية – ص 385
78) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968 ، ج 2 – ص 168

وعندما نزل محيي الدين بن عربي مصر ، نقده أهلها ، وكادوا يقتلونه ، لو لا ان شفع له ابـو الحسن بن فتح البجائي (ت 652 هـ) ودافع عنه ،وبذلك انقذه من تلك المحنة في عهد الملك العادل الايوبي ، واعتذر ابن عربي له بعد نجاته وقال :« يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ، ولا عتب على سكران » . (79)

لم يؤثر ابو مدين في الصوفية المسلمين فحسب بل ان تأثيره بلغ متصوفة النصارى ، ويـذهب عبد الرحمن بدوي الى القـول بان فرشسكـو الاسيزي (1182 ـ 1226 م) وهو صوفي نصراني رحل الى مصر ولقي متصوفيها وعلماءها بقصد المناظرة وكانت شهرة ابي مدين بلغت المشرق ، ومصر وغيرها من بلاد الاسلام ، فلا يبعد ان يكون قد عرف هذا الصوفي النصراني اخبار ابي مدين في حاله وكراماته ، وفضائله ، فقلده فيما ينسب اليه من كرامات ، فقد نسب النصارى كرامات الى هذا الصوفي تشبه الى حد بعيد ما نسب الى ابي مدين ، منها اخضاع الحيوانات ومعاشرتها كما فعل ابو مدين مع الغزال ، ومع الاسد ، ومنها انه كانت تحوم حوله في مجالسه طيور تأنس بحديثه ، وتستمع اليه ، وربما مات بعضها حبا ،وشوقا ، فمن اين هذا التشابه ان لم تكن هناك صلة ما من الصلات ، وتأثير ما ؟ .

ومن المتأثرين بتصوف ابن عربي ممن دخـل بجاية رامن لل RAMON Lull أو RAYMONDO Lullo: رايمند ولوليو (1235 ـ 1315 م) وهو متصوف نصراني وراهب مسيحي اعتمد عـلى تصـوف المسلمين كل الاعتماد ، وتجول في سواحل المغرب الاسلامي ، فاطلع على أحوال ابي مدين ، وعرف ابن سبعين ، والششتري ، والعفيف التلمساني ،وتأثر بابن عربي تأثرا واضحا لا مجال للشك فيه ، فقال « بالنورين » وبالمقامات DIGNITATES وباسماء الله الحسنى المائة Les cent noms de Dieu وكان يعرف العربية يكتب بها ويجادل بهـا المسلمين ، واخذ معاني ابن عـربي بحرفيتهـا ونصوصها (81) واستخدم الرمز بالحـروف ،وبالاشكال الهندسية ، واستعمل مصطلحات ابن عربي الصوفية وذهب الى الاتحاد ، والى القول بان الذوق طريق المعـرفة لا العقـل (82) ، بالاضافة الى تأثره بالغزالي الذي ترجم كتـابه « تهافت الفلاسفة » Destructio philosophorum

79) الغبريني ، عنوان الدراية ـ ص 158
80) بدوي ، (ابن عربي وابو مدين) الكتاب التذكاري ـ ص 119
81) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ـ ص 547
(82) Julian RIBERA, origines de la philosophia de Raymondo Lulio, in Disertaçiones y opusculos (Madrid, 1928), Tomo I, pp. 169-172.

وعرفه لل ريمون من خلال ترجمة عبرية ، ومـن خلال ترجمة « تهافت التهافت » (83) لابن رشد (ت 595 هـ) الذى أورد فيه كلام الغـزالى وردعليه • كان ريمون لل قائما بحملة تبشيرية فى الاوساط الاسلامية ، فسافر الى الشرق الاوسط ،والمغرب وخاصة الجهة الشرقية من شمال افريقيا : تونس وبجاية ، فدخل تونس مرتين ، مرة فى سنة 1292 م ولقى بها علماء الاسلام ، واخــرى فى أوت سنة 1314 الى ديسمبر من سنة 1315 م ،واصله من جزائر البليار اما بجاية فقد أقـــام بها من الربيع الى الخريف من سنة 1307 م واعلن فى ساحة عمومية امام ملإ من المسلمين ببجاية قائلا : « ان شريعة النصارى حق ومقدســـة ،ومقبولة عند الله ، واما شريعة المسلمين فهى باطلة وخطأ او ضلال ، وانى على استعداد للبرهنة على هذا » (84) واثر هذا الصنع ثارت عليه العامة ، ولكن مفتى بجاية الذى سماه فى كتابه بـ : HAMAR

ولعله « عمر » أو « عمار » حسب تحريفه لنطق الكلمة تبعا للهجته ، لاطفه ، وانقذه من الجمهور ودعاه للمناظرة ، وقال له : برهن على ما تذهب اليه وانى على استعداد للاستماع اليك،ومناقشتك والجدير بالذكر ان ريمون لل شهد واقر لهـــذا المفتى بالمعرفة الفلسفية وبانه ذائع الصيت فيها، ومشهور بها فقال : «Ce Mufti avait une grande réputation de philosophie» (85).

« ان هذا المفتى كانت له شهرة فلسفية ، اوكان مشهورا بالفلسفة » ولعله وصفه بهـــــذا الوصف ليبرهن على انه ذو قدرة فائقة على الجدل مع ذوى الامتياز فى مجال الفلســـة نفسها ، ويحتمل ان يكون هذا الفقيه • مشتغلا بالكلام والفلسفة حقيقة .(86)

كان « لـــل » يدعو للثالوث وللدين المسيحى باسلوب فلسفى ، وتذكر المصادر الاجنبية ان الذى طرده هو خالد الاول الذى كان واليا عـــلى قسنطينة،فقد أمر باخراجه من البلاد بعد ان سجن وكان عمره اذ ذاك 72 عاما • وكان يـــرى ان الانسان فى عهد الانبياء فى حاجة الى المعجـزات لكى يؤمن ، أما الآن فقد وجب ان يبين الايمـــان للناس بأدلة فلسفية •

(83) Gilbert VARET, manuel bibliographique philosophique, presses universitaires de France, Paris, 1956, p. 166.
(84) A. LLINARES, "Le séjour de Raymond Lulle à Bougie" et la "disputatio Raxmundi Christiani et HAMAR Saraceni" (1307), Estudio Lulionos, 1960, Vol. IV, Fasc. I, pp. 63-72
وايضا Raimundi Lulli, opéra latina, Palma : de Majorque, 1959, Vol. I, pp. 14, note 31 et Vol. II, pp. 251-280 : opéra Tuniciana.
(85) Ibid, p. 66. نقلا عن مؤلفه ليل نفسه وهو : P. 36 vita coetanea :
86) لم تشر المراجع العربية ـ فيما أعلم الى هذا الحادث ولذلك فاننا لا نعلم لحد الآن عن هذا المفتى شيئا ولكـــن عرف من البجائيين من رد على النصارى وهـو احمد بـن عبـدالصمد الخزرجى (ت 582 هـ) فى كتابه : « مقامع الصليان » (تطريز الديباج للتنبكتى ـ ص 59)

هذا ما يمكن ان نشير اليه فيما يتعلق بتأثير ابن عربى فى من جاء بعده مما يناسب هذا المقال ·

ونود ان نشير الى اصول لفلسفة ابن عربى الصوفية ، استخلصها ابن تيمية (ت 728 هـ) فهو يرجعها الى عنصر جهمى ، ويعتبره من غلاة الجهمية (87) اذ أول من قال بوحدة الوجود فى الاسلام انما هم الجهمية ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان (ت 128 هـ) ويرى ابن تيمية ـ الذى تتلمذ فى أول أمره على كتب ابن عربى ثم تبين له غرضه بعد قراءته كتاب « الفصوص » (88) ـ ان ابن عربى لا يفرق بين الوجود العلمى والوجود العينى الخارجى ، تفرقة واضحة ، حيث ذهب الى ان المعدوم شىء ثابت فى العدم (89) ، وهو مايقول به المعتزلة ، ومن تبعهم من الشيعة ، أما أهل السنة فانهم يفرقون بين الوجود العلمى للاشياء أى وجودها فى علم الله ، وبين الوجود العينى الخارجى ، بين وجود الاشياء قبل كونها ،وبين ثبوتها فى الخارج (90) ·

وتفطن ابن تيمية فى بصارة الى مصادر المتصوفة المتاخرين امثال ابن عربى ، وابن سبعين والقونوى ، والتلمسانى ، وارجعها الى عناصر ثلاثة : الى سلب الجهمية وتعطيلهم ، والى عبارات المتصوفة القدماء الغامضة ، وعبارات الذين تكلموا فى حال غيبوبة ، والى آراء الفلاسفة فى العقول والنفوس ، والوجوب ، والامكان ، والنبوات (91) ·

ويرى ابن تيمية ان القول بان المعدوم شىء ثابت فى العدم أدى باصحابه الى الاعتقاد بان الماهيات غير مخلوقة ، وبان الوجود زائد على الماهية ، ففرقوا بين الوجود والماهية ، كما يلزمهم بان اعيان الاشياء قديمة ، وبان مادتها قديمة ،دون صورها (92) · اما اهل السنة فيرون ان الماهيات مجعولة مخلوقة ، ويذهبون الى ان الوجود والماهية شىء واحد ، فماهية كل شىء وجوده ، فالوجود الخارجى هو « الشىء وهو عينه ، ونفسه ، وماهيته ، وحقيقته وليس وجوده وثبوته فى الخارج زائدا على ذلك (93) ·

87) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ج 5 ـ ص 127
88) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 171
89) أول من قال بهذا من المعتزلة ابو عثمان الشحام شيخ أبى على الجبائى المعتزلى المرجع نفسه ج 1 ـ ص 6
90) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 175
91) المرجع نفسه ج 1 ص 6
92) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 6
93) المرجع نفسه ـ ص ج 1 ـ ص 15

ومن المتصوفة الذين أقاموا مدة ببجاية عبـدالحق بن سبعين (ت 669هـ) ومن اجل هذا اعتبره الغبريني بجائيا فترجم له من بين 107 علم مـــن أعلام بجاية ، الذين ترجم لهم في كتابه ، حيث نص على ان ابن سبعين « سكن بجاية مدة ، ولقيه من اصحابنا أناس ، واخذوا عنه ، وانتفعوا بـه ، في فنون خاصة ، له مشاركة في معقول العلـوم ومنقولها »(94) كان ابن سبعين ذا معرفة بالفلسفة اليونانيـة ، ناقـدا لها مـن خـــلال الفلاسفـــة الاسلاميين نقدا نفسانيا لماحا ، وعنيفا ، فى اغلبه تأثر بابن عربى تأثرا كبير وان كان اكثر منـــه ميلا الى الفلاسفة . أما ابن عربى فهو أقرب الى المتصوفة القدماء والى الجهمية (95) والاشاعـرة ،منه الى الفلاسفة ، ولذلك فضله ابن تيمية عـلى غيره من متأخرة المتصوفة كالعفيف التلمساني ،والصدر الـرومي ، والقونـوى ، والششترى ، وجعله أقرب الى الحقيقة الاسلامية (96) ، ويلاحظ انه يجعل العفيف التلمسانى اعمقهم جميعا ، واكثرهم توغلا فى وحدة الوجود ، اذ انه « لا يفرق بين الوجود والثبوت ، كمـا يفرق ابـن عربى ، ولا يفرق بين المطلق والمعين ، كما يفعـل الرومى ، ولكن عنده ما ثم غير ولا سوى ، بوجه من الوجوه » . (97)

ذكر المؤرخون ان ابن سبعين اجتمع بتلميذه أبى الحسن على الششترى (ت 668 هـ) فى بجاية عام 648 هـ ، وكان الششترى يقول : « انا غلام ابن سبعين ، فظل ملازما لمجالس ابن سبعين فى بجاية ، ولما بدا له يوما ان يتجه الى اصحاب ابى مدين قال له ابن سبعين : « الزم طريقة واحدة ، فان اردت الجنة فعليك بابى مدين ، وان اردت الله فتعال الى » (89) فتبع طريقة شيخه ابـــن سبعين فى المعرفة ولزمها ، وتغنى بوحدة الوجود فى موشحاته ، التى ترنم بها المتصوفة فى حلقاتهم ومجالسهم ويتغنون بها الى اليوم .

ومن ثم فقد جمعت بجاية بين جنباتها الحلابة ،وجبالها الشامخة الجليلة ، أبا مدين ، وابن عربى وابن سبعين ، والششترى ، وهم أقطاب التصوف فى صورتيه : السنية والفلسفية .

---

94) عنوان الدراية ـ ص 237 ونقل عنه المقرى فى نفح الطيب ، ج 5 ـ ص 317

95) ابن تيمية الرسائل والمسائل ، ج 1 ـ ص 26

96) المرجع نفسه ج 5 ـ ص 176

97) المرجع نفسه ، ج 5 ـ ص 177

98) البهلى ، الحقيقة التاريخية ـ ص 386

والتقى ابو الحسن الششترى بأحد زهاد بجاية وعبادها الا وهو ابو الحسن بن علال فاعجب بطريقة الششترى حين حضر مجالسه مع أهل المعرفة ، فكان فى نظره جيد المحاضرة ، فائقا فى مخاطبة القلوب .

وتنطوى فلسفة الششترى الصوفية على نزعة افلاطونية ، اذ استخدم مصطلحات افلاطون من « المثل » و « الصور » (99) ، بل انه ذكر افلاطون نفسه فقال :

وجرد امثال العوالم كلها   وابد افلاطون فى امثل الحسنى (100)

ومن المتصوفة الجزائريين الذين أقاموا ببجاية واخذوا بها عن علمائها ومتصوفيها الشيخ عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبى (ت875هـ) نص فى رحلته على انه اقام ببجاية فقال: «ومما وقع فى بجاية فى عام اربعة وثمانمائة وكنت اذ ذاك بها (101) ولكن بداية دخوله بجاية كانت فى سنة 802 هـ كما ورد فى نص من نصوص رحلته التى نقل عنها صاحب « التطريز » قال الثعالبى : « رحلت فى طلب العلم من ناحية الجزائر فى آخر القرن الثامن ، فدخلت بجاية عام اثنين وثمانمائة ، فلقيت بها الايمة المقتدى بهم فى العلم ، والدين والورع ، اصحاب الفقيه الزاهد الورع عبد الرحمن الوغليسى (ت 786 هـ) واصحاب الشيخ أبى العباس احمد ادريس (ت 789 هـ) متوافرون يومئذ ، اصحاب ورع ، ووقوف مع الحد ، لايعرفون الامراء ولا يخالطونهم ، وسلك اكثر اتباعهم مسلكهم ، كشيخنا ابى الحسن على بن عثمان المكلاتى ، وشيخنا الولى الفقيه المحقق ابى الربيع سليمان بن الحسن ، وابى الحسن على بن محمد البليلتى ، وعلى بن موسى ، والامام العلامة ابى العباس النقاوسى ، حضرت مجالسهم ، وعمدتى على الاولين ، ثم دخلت تونس عام تسعة أوائل عشرة » (102) .

ولعبد الرحمان الثعالبى تآليف وصلنا بعضها، تدل على نزعته الزهدية الغزالية ، على طريقة ابى مدين لا على طريقة ابن سبعين وابن عربى ، من هذه المؤلفات « الانوار المضيئة الجامع بين الحقيقة

---

99) النشار ، وعباس الشربينى ، (ترجمة فيدون) دار المعارف الاسكندرية ، 1965 – ص 222

100) ديوان الششترى ، تحقيق د . النشار ، الاسكندرية، 1960 – ص 74 – 75

101) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ، ج 1 – ص 91

102) التنبكتى ، تطريز الديباج – ص 173

والشريعة » وكتاب « الفائــق فى الاذكـــاروالدعوات » و « العلوم الفاخرة فى أحوال الآخرة» وكتاب « النصائح » وما الى ذلك من المؤلفات التىأوردها فى فهرسته (103) ٠

ومن متصوفة بجاية فى القرن التاسع الهجرىالشيخ التواتى ، وله مؤلفات ، وشهرة عند أهل بجاية فى عصره ، وكانت فتاواه لا ترد من بجايةالى توزر (104) ومنهم الشيخ يحيى العبـــدلى ، وسعيد العلمى ، ومنهم عبد الرحمن الصباغ ٠

وفى القرن العاشر والحادى عشر محمد امقران(105) ، وفى العصور الاخيرة اصبحت بجايـــة وواديها الاكبر ، وما حوله من جبال بنى وغليسوغيرهم ، مأوى للطرق الصوفية وزواياها، وخاصة الطريقة الرحمانية (106) التى كان من اعلامهـاالشيخ ابن الحداد ، الذى « ألـف رسـالـة فى التصوف كنا كتبنا عليها فى عدد من هذه المجلةواشرنا الى الحياة الصوفية لعهده ٠

فلا غرو بعد هذا كله ان تكون بجاية مركـزاللثقافة وتربة صالحة ثرية ، لانجاب ذوى الفطرة الفائقة ، والمعرفة ، ولتخريج السالكين سبيـــلالحقيقة ، لذلك كله قال الشريف التلمســـانى (ت 771 هـ) « دخلت بجاية فى القرن الثامنفوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الـذى ينبع من حيطانها (٠٠٠) وقد سمعت ان بجايةفيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة ، واما اللائى يحفظن ابن الحاجب ، فلا يحصى عددهن الا الله » ٠ (107)

وبعد فلسنا بهذا نزعم اننا استوفينا الحديثعن اعلام المنهج الصوفى البجائيين ، فهم كثـــر ، والمقال لا يسمح لنا بأكثر من هذا الذى تعرضناله ، وسنعرض فى قسم تال لهذا ، للذين كانت وجهتهم كلامية أو فلسفيـــة ، او كانت هاتـانالوجهتان عليهم أغلب ، وبهم ألصق ، واوثق ، باذن الكبير المتعال ٠

---

103) المرجع نفسه ـ ص 174

104) الحسين بن محمد الوثيلانى ، نزهة الانظار فى فضل التاريخ والاخبار ، الجزائر 1326 هـ ، 1908 م ـ ص 27

105) الوثيلانى ، الرحلة ـ ص 27

106) تحتاج هذه المرحلة الى دراسة جادة معتمدة على الوثائق والآثار .

107) المرجع نفسه ـ ص 28

أعلام أقاموا بجاية
في القرن السابع الهجري

محمد بلغراد
كلية الآداب
جامعة الجزائر

ترجم الغبريني في كتابه عنوان الدراية لطوائف شتى من مشاهير المائة السابعة من علماء بجاية الاصلاء او الوافدين عليها من انحاء الجزائر نفسها او من الاندلس ـ ومن اشهر الاندلسيين الذين جاءوا الى بجاية واقاموا فيها ابن الابار القضاعي الاديب المحدث المؤرخ وابن سبعين الصوفي ومحيي الدين بن عربي المتصوف الذائع الصيت وغيرهم . والحديث عن ابن عربي شهي ممتع ولكنه صعب ومحرج وابن عربي امام كبير من أيمة التصوف والفلسفة الصوفية هو محيي الدين ابو بكر محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائي ولد بمرسية سنة 560 وتعلم القرآن والحديث باشبيلية واقام فيها نحو ثلاثين عاما ثم رحل الى المشرق .

قال صاحب عنوان الدراية : رحل الى العدوة ودخل بجاية في شهر رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمس مائة (598 هـ) اهـ . ولقي بها ابا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلي دفين حي العباد بضاحية تلمسان . اخذ ابن عربي الحديث عن ابن عساكر وابن الجوزي وساح في بغداد والموصل وبلاد الروم . وقد مارس حياة التصوف مع شيوخ كثيرين . واخذ عنهم الكثير من الرياضات الصوفية وكان ياخذ الحكمة حيثما وجدها ولا يبالي أكان صاحبها رجلا ام امراة .

وقد اتفق ان اخذ مرة عن عجوز لزمها خادما ومريدا وشاهد بنفسه ما كان يجري على يدها من ظواهر التنبؤ الغريبة .

وذكر حكايتها التي جرت له في اشبيلية قال :وخدمت انا بنفسي امرأة من المخبآت العارفات · يقال لها : فاطمة بنت المثنى القرطبي خدمتها سنتين · وكنت استحي ان انظر الى وجهها وهي في هذه السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجلالها ، وكانت تؤثرني على من كان يخدمها وتقول : « ما رأيت مثل فلان ، اذا دخل علي دخل بكله لا يترك منه خارجا عني شيئا واذا

خرج من عندى خرج بكله ، لا يترك عندى منه شيئا » اهـ • وما زلت اخدمها بنفسى • وبنيت لها بيتا من قصب بيدى على قدر قامتها ، فمازالت فيه حتى درجت • وكانت تقول لى : « انا امــك الالهيــــة » •

وفى سنة 598 هـ توجه الى مكة وجاور فيها ، وهناك توثقت علاقته بأسرة امام مقــام ابراهيم وتعلق بابنة له تدعى نظام • واوحى اليه تعلقه بها ديوانه : « ترجمان الاشواق » وهو من ناحية ظاهره مجموعة من شعر العشق الذى قاله فى هذه الفتاة ، أما معانيه فصوفية ، المقصود بهــا الله والملأ الاعلى وحلاوة الفناء فى الخــالق •

وقصد مكة مرة اخرى سنة 610 هـ وكتب فيها « ذخائر الاعلاق » شرحا على ديوانه « ترجمـــان الاشواق » ليقضى به على الاراجيف الــتى كــان الفقهاء واهل الدين يذيعونها حوله اذ استعظموا معانى العشق الواردة فى الترجمان وما تتحدث عنه من عاطفة حسية مادية • وقد غابت عنهــم المعانى الصوفية التى أرادها •

وقد ظهرت على يديه كرامات وتسرب الى جمهور الناس قوله بوحدة الوجود • يريد بذلك ان اللــه والعالم شئ واحد يختلفان فى الصورة فقط ولا يختلفان فى الحقيقة • وان رؤية الاشياء مختلفــة كمنزل ورجل وشجرة ليس الا امر قضت بــه الضرورة • وليس الا خداعا من الحواس ومطاوعة للعقل الانسانى القاصر • فهو يشبه ما يقـــول به الفلاسفة المحدثون من ان كل شئ اساسه الذرة ، وانما تختلف الاشياء باختلاف النواة الذرية وكمية شحناتها الكهربائية • والا فالحقيقة فى الكـــل واحدة وربما عبر عن هذا بقوله « سبحان من خلق الاشياء وهو عينها » فهناك خــالق ومخلـوق فى الظاهر ولكنها فى الحقيقة شئ واحد ، وهو شئ – كما يقول – لا يدرك بالعقل بل بالقلب •

وفى ذلك يقول :

يــا خالـــق الاشيـــاء فى نفســـه   انــت لهــا تخلقــه جــامــــــع
تخلـــق ما لا ينتـــهى كـونـــه   فيـــك ، فانــت الضيــق الواســـع

ومن ناحية الظاهرة والحديث المألوف هنــاك خالق ومخلوق وظاهر وباطن وأول وآخر •

فليس العالم والله شيئين منفصلين وليس الله فى السماء وحدها ولا فى الارض وحدها • بل هو فى كل شئ ، بل هو كل شئ ، وليس هنـــاك محب ومحبوب وعاشق ومعشوق بل المحــــب

والمحبوب واحد ، يختلفان فى المظاهر والاحوال ويتحدان فى الحقيقة • وكل شيء فى العالم له مظهر فان متغير متقلب وله مخبر دائم باق لا يتغير ونفس الانسان كذلك نفس ناقصة فانية ظاهرة، ونفس كاملة باقية باطنة • والنفس الاولى تشق الطريق لتحقيق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفنى فيها وسمى الصوفى هذا المسلك طريقا وسمى نفسه سالكا وسمى المسافات التى يقطعها فيقف عندها للاستجمام مقامات وسمى الغرض الذى يقصده من سلوكه اتحاد نفسه بالحقيقة •

وبعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله والفناء فى الحق وسموا كل مقام باسم • فهو عند بعضهم مقام التوبة ثم مقام الورع ثم مقام الزهد ثم مقام الفقر ثم مقام الصبر ثم مقام التوكل ثم مقام الرضاء ثم ان السالك يشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها احوالا ، فحال الخوف وحال الرجاء وحال الشوق وحال الانس وحال الطمانينة وحال المشاهدة وحال اليقين ، فتلك مراحل يجب على السالك ان يجتازها حتى يصل فى النهاية الى حالة اتحاده بالعالم وبالله فيستحق بذلك ان يسمى عارضا ، ويحتاج السالك فى هذه الطريق الوعرة الملتوية الى دليل يهديه فى المسالك ويجنبه المهالك • فهذا الدليل هو الشيخ •

وكان محيى الدين بن عربى مكثرا من التآليف، وكتاباته تتناول كل شيء من علوم وفقه وفلسفة وشرح وفلك وما الى ذلك • ونحن نلمح عنده الاثر الذى خلفه فى مؤلفاته اختلاط المذاهب المتشبعة التى سمع بها اثناء سياحاته الطويلة او حصلت له نتيجة لاتصاله باقوام ذوى عقائد شتى يختلف بعضها عن بعض اختلافا عظيما • وهو يقول فى ذلك انه لا يعرف طريقة من طرق الصوفية او فرقة من الفرق او عقيدة من العقائد لم يلق واحدا من السالكين فيها او ممن يعتنقونها ويمارسون طقوسها قولا وعملا • وان كل ما سطره فى كتبه فمنه ما شاهده ومنه ما نقله من كتب مشهورة رواها سماعا أو قراءة أو كتابة (2) •

يقول آيس بالاثيوس : ان الاسلام فى عصر ابن عربى كان قد تمثل علوم اليونان جميعا وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التى قام بها ابن سينا والغزالى وابن حزم وابن رشد ••• وظهرت مذاهب ذات طابع نظرى غالب وهى فى أساسها تتجه نحو القول بوحدة الوجود ، وتقوم كلها على محاولة التوفيق بين شتى المذاهب والآراء وهى محاولة متشعبة محيرة اهـ •

هذا وشيوخ ابن عربي في علوم أهل الباطن يعدون بالمئات والكتب التي يبدو انه قراها وعرف ما فيها في التصوف وغيره لا تحصى ، وهذه الآراء كلها التي تجمعت لديه من مصادر مختلفة قد اختمرت في رأسه . وكان ذهنه بطبعه مضطربا بسبب مزاجه الصوفي البالغ القوة .

وقد تأثرت طائفة من الصوفية المسلمين كابن عربي وابن سبعين وغيرهما بمذهب وحدة الوجود الذي انجر اليهم من الافلاطونية الحديثة وهي مذهب فلسفي ظهر في الاسكندرية وبقي موجودا من القرن الثالث حتى القرن السادس بعد الميلاد . فبعد استيلاء اسكندر الاكبر على الاسكندرية صارت هذه المدينة ملتقى المدنيات اليونانية والشرقية والتحمت فلسفة فيثاغوراس وأرسطاطاليس وافلاطون بعناصر فلسفية هندية وعبرية وصار كل ذلك المزاج يدعى بالافلاطونية الحديثة . وحاول اصحابها ان يجدوا في فلسفة افلاطون ما عسى ان يوحد بين شتى عناصرها ، ومن ثم تسميتها بالافلاطونية الجديدة وكان أفلوطين من اشهر اصحابها . ويذهب هؤلاء الى ان مصدر كل كائن كامن في الوحدة المطلقة . وكل شيء يستمد وجوده من الله الاحد بوساطة الفيض ، والكائن الاول الذي استمد وجوده من الفيض هو اللوغوس وهو الكلمة والعقل الاول . واللوغوس عند النصارى هو كلمة الله او المسيح . ثم ان العقل في نظر الافلاطونية الحديثة تستمد الروح وجودها منه ، والروح في زعم هذه الفلسفة هي أصل الحركة والمادة . فالله الاحد والعقل والروح هي الاقانيم الثلاثة التي ترتكز عليها الافلاطونية الجديدة . والكائن المخلوق يتسامى الى الكمال بطريقة الفيض وذلك هو الارتداد الى الله ، وكل شيء مصدره الخير وينزع الى الخير . ولا تتحد الروح بالمصدر الاول الا اذا جاوزت الفكر وفنيت في الله واتحدت به وفقدت كل وعي بنفسها ، ويقول أفلوطين انه توصل مرتين أو ثلاث مرات في حياته الى هذا الاتحاد بأرقى الاقانيم .

ومذهب وحدة الوجود لم ينبع من فكر الصوفية والمسلمين بل هو مذهب عتيق ظهر أولا في مظهر ديني فخم عند الهنود في فجر التاريخ ، ويدعى عند الافرنج PANTHEISME وهذا اللفظ مركب من : ANP ومعناه كل ومن : THEOS ومعناه اله .

ويراد بهذا اللفظ : الحلولية او الاحدية أو وحدة الوجود وهو المذهب القائل بان الله والطبيعة شيء واحد وبان الكون المادي والانساني ليسا الا مظاهرا للذات الالهية ، وصارت وحدة الوجود مذهبا فلسفيا عند الاغريق وذلك في فلسفة زينون الرواقية .

ثم في الافلاطونية الحديثة التي يعد افلوطين PLOTINE من مؤسسيها - وقد شرح أفلوطين فلسفته في كتابه التساعيات LES EMEADES وهي فلسفة انصهرت فيها المذاهب الفلسفية القديمة وقد تأثرت الافلاطونية الحديثة بالمسيحية .

وقد صاغ سبينوزا وحدة الوجود صوغا هندسيا . وهو الذي يقول بان ذات الله هي الذات الوحيدة الفريدة الواجبة الوجود السرمدية اللامتناهية وبان عدد الصفات الالهية لا ينتهي وبأننا لا نعرف منها الا اثنتين هما الفكر والامتداد في الفضاء وملء حيز منه وبان الله لما كان هو الذات الفريدة ينشأ عن ذلك انه لا يكون شيء الا فيه والا به ، وبان الله هو العلة الملازمة لكل شيء اتصف بالوجود . والكائنات ما هي الا اشكال خاصة لصفات الذات الالهية التي تنمو طبقا للقوانين الحتمية لطبيعتها . والحتمية الكونية هي نتيجة لوحدة الوجود هذه .

ونجد وحدة الوجود ايضا في فلسفة التشاؤم عند شوبنهور وفي فلسفة هارتمان ، ولكن الكنيسة المسيحية ترفض وحدة الوجود وتعاديها وتحرم على اتباعها الخوض فيها .

وقد وقع اختلاف كبير بين العلماء في ابن عربي مدحا وقدحا . فقد ورد في الشذرات ان له مؤلفات لا نهاية لها تدل على سعة باعه وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة وانه بلغ مبلغ الاجتهاد في الاختراع والاستنباط وتأسيس القواعد والمقاصد التي لا يحيط بها ولا يدريها الا من طالعها بحقها : وقد لوحظ انه وقع له في بعض تضاعيف تلك الكتب كلمات كثيرة اشكلت ظواهرها وكانت سببا لاعراض كثيرين لم يحسنوا الظن به ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين والعلماء العاملين والائمة الوارثين ان ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد . وانما المراد أمور اصطلح عليها متأخروا أهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الالفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لانه لا يمكن التعبير عنها بغيرها .

وقد استعرض ابن العماد المواقف المختلفة التي وقفها الناس من ابن عربي وذكر انهم تفرقوا في شأنه شيعا وسلكوا في أمره طرائق قددا . فذهبت طائفة الى انه زنديق لا صديق وقال قوم انه واسطة عقد الأولياء ورئيس الاصفياء وصار آخرون الى اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه وان جلال الدين السيوطي قال في مصنفه « تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي » ان القول الفيصل في

ابن العربى اعتقاد ولايته وتحريم النظر فى كتبهفقد نقل هو عن ابن عربى نفسه انه قال : نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا ·

وقد سئل يوسف الصفدى عن قراءة الناس لكتب ابن عربى فقال : ان هذا العلم المنسوب الى ابن عربى ليس هو بمخترع له · وانما هـو كان ماهرا فيه · وقد ادعى أهله انه لا تمكـن معرفته الا بالكشف · فاذا فهم المريد مرماهـــم فلا فائدة فى تفسيره · لانه ان كان المقرر والمقدر له مطلعين على ذلك فالتقرير تحصيل الحاصل ،وان كان المطلع احدهما فتقريره لا ينفع الآخـر والا فهما يخبطان خبط عشواء · فسبيل العارف عدم البحث عن هذا العلم · وعليه السلوك فيما يوصل الى الكشوف عن الحقائق ، ومتى كشف له عن شىء علمه ·

وكان ممن ناصر ابن عربى الفيروز ابـــادى صاحب القاموس المحيط وشهاب الدين السهـر وردى وفخر الدين الرازى وابن السبكى ـ وكان من الناقمين عليه ابن الخياط والحافظ الـذهبى وابن تيمية وابن اياس والتفتزانى وغيرهم ·

ولما رحل ابن عربى الى المشرق وألف تآليف فيها ما فيها نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا فى اراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيـخ أبى الحسن البجائى · فانه سعى فى خلاصه وتأول كلامه · ولما وصل اليه بعد خلاصه قال له البجائى كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت ؟ فقال له ابن عربى : يا سيدى تلك شطحات فى محل سكر · ولا عتب على سكران ·

واختلاف الناس فى مثل هذه الظروف أمـــر طبيعى فالناس عادة من طبيعتين مختلفتين ومزاجين متباينين فعلماء النفس يقسمون الناس الى هذين قسمـين ·

فقد نشب النزاع دائما بين الحسيين والمعنويين بين أهل الظاهر والباطن · بين من مزاجه ذوقى ومن مزاجه عقلى · بين من يأخذ بالظواهر ومـن لا تقنعه الظواهر · بين أهل الكشف واهل العقل · بين الفقهاء والمتصوفة ·

واذا اردنا ان نصل الى اقصى ما يمكن الوصول اليه من حقائق العالم يجب ان نستخدم كـــل ما نستطيع من ملكاتنا وليست ملكات الانســان مقصورة على القوة العقلية · فلديه الشعور ولديه الارادة · فلماذا يستخدم القوة العقلية وحدها وهى آلة العلم ولا يستخدم الشعور ايضا وهـو وسيلة اخرى من وسائل المعرفة ؟ وقد انصف المتصوفة فسموا نتيجة استخدام المنطق علمـا

وسموا نتيجة استخدام الشعور والذوق والكشف معرفة وسموا من يعانى الاول عالما والثانى عارفا وقد دلت التجارب على ان الانسان لا يسيره عقله أو علمه فقط . وانما يسيره كذلك شعوره ، فهو يدرك حقائق العالم بعقله وشعوره معا ، والناس مختلفون بحكم فطرتهم فمن قوى رأسه كان أقرب الى المنهج العلمى ومن قوى قلبه كان أقرب الى المنهج الشعورى والدينى والفنى . فليس من العقل ان يتطلب حقائق العالم بقوة العقل وحده ونشل سائر الملكات ، وانما العقل ان تستعمل كل ملكاتنا فى ادراك حقائقه ، فلرجال العلم ان يستكشفوا ما شاءوا من عجلة العالم . والفنانون لهم ان يستكشفوا ما شاءوا من جمال العالم . والانبياء والمتصوفة يبلغون ادراك محرك العالم وقيم معنوياته ما يفوق مستكشفات العلم والهامات الفن .

ثم اعتلت صحة ابن عربى وزاد ما كان يبدو عليه من مظاهر الجذب واضطراب العقل . وفى هذه الحالة من الاعتلال الجسمى والعقلى كتب كتابه « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة ونقض لآرائهم على طريقة الغزالى فى « التهافت » . ثم اختار دمشق مستقرا له ومقاما من سنة 620 حتى وفاته . والف فيها ثلاثة كتب : « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » و « الديوان » .

وقد ادركته منيته — رحمه الله ورضى عنه — ليلة الجمعة 28 ربيع الثانى 638 ، ودفن بسفح جبل قاسيون خارج دمشق بالتربة الصالحية .

وقد اعطى بلاغة فى القول وعمقا فى التفكير وسعة فى الخيال . وكلما نزل بلدا اتصل بمتصوفيها . له النثر الكثير والشعر الكثير لا يعبأ بمال ولا جاه . وكان كثير الشطح كثير التأويل ، وربما كانت له قصص كثيرة تبين منحاه فى القول . فقد قال :

يا من يرانى ولا أراه	كم ذا أراه ولا يرانى

فاعترض عليه : كيف لا يراه الله ؟ فقال :

يا من يرانى مجرما	ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما	ولا يرانى لائذا

وله كلام كثير ظاهره الالحاد وباطنه الاسلام مع التأويل .

وبلغت مؤلفات ابن عربى نحو 200 كتاب ذكر منها بروكلمن 156 وذكر اماكن وجودها . واكثرها فى التصوف . وبعضها فى الجفر و اسرار الحروف.

من أهمها فصوص الحكم • ألفه سنة 626، والى هذا الكتاب يرجع الفضل فيما يتمتع به ابن عربى من شهرة كبيرة بين الصوفية كمؤلف لكتـــاب المكاشفات التى ترفع الحجب عما وراء الغيب ، وفيه يعرض مذهبه الغامض المتناقض فى وحـــدة الوجود ، وقد نقل Titus Burckhardt كتاب فصوص الحكم الى الفرنسية بعنوان La Sagesse des Prophètes

غير ان اعظم كتاب لابن عربى هو الفتوحات المكيـــة •

ويمكن القول بان المؤلف جمع فيه كل ما ذكره فى مؤلفاته الاخرى ، وضمنه ما فتح الله عليـه به اثناء مقامه بمكة • وفى الكتاب ستة اقسام ـ المعارف ـ المعاملات ـ الاحوال ـ المنـــازل المنازلات ـ المقامات •

وهو كتاب ضخم يقع فى 4000 صفحة ـ وكانت ضخامته وما فيه من شطح والغاز سببا فى قلـة انتشاره ، ويذكر صاحب الشذرات ان الامـــام الشعرانى اختصر كتاب الفتوحات ، وللفتوحات المكية شروح متعددة •

مصادر البحث ومراجعه

1) ابن سبعين ـ رسائل ابن سبعين ، القاهرة 1965

2) ابن العماد ـ شذرات الذهب ، بيروت بلا تاريخ

3) ابن قنفذ ـ كتاب الوفيات تحقيق عادل نويهض بيروت 1971

4) أحمد امين ـ ظهر الاسلام الجزء الثالث ، القاهرة 1953

5) أحمد أمين ـ فيض الخاطر الجزء الثالث الطبعة الرابعة ، القاهرة بلا تاريخ

6) أحمد أمين ـ فيض الخاطر الجزء الرابع ، القاهرة 1949

7) افضل فونذالذ يالنثيا ـ تاريخ الفكر الاندلسى نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، القاهرة 1955

8) ـ جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثالث تحقيق د • شوقى ضيف ، القاهرة 1957

(بقية مصادر البحث فى صفحة ١٧٠)

ابن خلدون فى بجاية

عبد الله عنان
مؤرخ مصرى

لعبت بجاية فى تاريخ افريقية والمغرب الاوسط ادوارا سياسية وثقافية هامة ٠٠ فقد كانت حاضرة لعدة ممالك متعاقبة ، وقد لبثت عصورا مركز اشعاع علمى وادبى واسع المدى ٠ وقد اضطلعت فى ظل الدولة الحفصية بادوارها التقليدية ، فكانت غير مرة عاصمة لمملكة مستقلة ، تقوم تحت رياسة بعض امراء الاسرة الحفصية الموحدية ، وكانت بالاخص عقب انهيار شرق الاندلس ، وسقوط قواعده التالدة بلنسية وشاطبة ودانية ومرسية فى ايدى النصارى ، فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى منزل رهط كبير من علماء الاندلس النازحين من القواعد الذاهبة ، وفى مقدمتهم عدة من اقطاب التفكير والآداب الاندلسية ، مثل ابن الابار القضاعى وابن عميرة المخزومى ،وابى عبد الله الجنان ، وابىبكر بن محرز ، وغيرهم هذا عـــدا النازحين اليها من القواعد الاخرى ، من اشبيليه وغيرها من قواعد الغرب ٠ نزل اولئك العلماء الوافدون ببجاية ، وبثوا بها علومهم وفنونهم بين طوائف زاخرة من الطـلاب ، وفدوا الى بجاية من مختلف الحواضر الافريقية والمغربية ٠ وقامت فى بجاية تلـك المدرسة الاندلسية الزاهرة التى لبثت حتى اواخر القرن السابع الهجرى ،مركز اشعـــاع عظيم للعلوم والآداب ٠

ولنذكر كذلك ، انه ، حتى قبل انهيار شـرق الاندلس ، ونزوح علمائه وأدبائه الى بجاية ، كانت بجاية دائما محط الانظار ، ومنزل علماء الاندلس الوافدين الى افريقيـــة او الذاهبين الى المشرق لاداء فريضة الحج ، يدرسون على علمائها ، أو يقرئون الطلاب الوافدين عليها ٠ ولنضرب

لذلك مثلا بارزا بولى المغرب الكبير ، أبى مدين شعيب بن الحسين الانصارى الاندلسى ، أعظم علماء الدين والحديث فى عصره فقد وفد من الاندلس الى المغرب ، وتجول فى سبتة ومراكش وفاس يدرس على شيوخها · ثم رحل الى المشرق ، وعاد بعد أداء فريضة الحج ، فنزل فى بجاية يسبقه صيته فى العلم والورع والزهد ، فهرعت اليه الطلاب من كل صوب ، وذاعت شهرته فى كل مكان ، وقصده الناس بالاخص للتبرك بورعه وكراماته ، وكان من صيت ابى مدين ، وذيوع علمه ونفوذه بين الكافة ، أن وشى به بعض شيوخ الموحدين عند الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وحذروه من نفوذ الرجل ، وتأثيره الروحى الواسع المدى · فاهتم المنصور بالامر أيما اهتمام ، وبعث الى والى بجاية فى استقدام ابى مدين اليه ليختبره ، بنفسه ، وأوصى بالاعتناء بشانه ، وأن يعامل خلال رحلته بمنتهى الرفق والرعاية ، فلما علم بذلك أصحاب ابى مدين وتلاميذه شق عليهم ، وأبدوا اعتراضاتهم ، فهدأهم أبو مدين ، وقال لهم انه شيخ كبير ، وانه مريض يشعر بدنو أجله ، وأن الله بعث اليه من يحمله برفق ويسوقه أحسن سوق وأنه لن يرى السلطان ولن يراه · ثم ساروا به حتى وصلوا الى احواز تلمسان · فلما وصل الى وادى يسر القريب ، اشتد به المرض ، وتوفى فى اواخر سنة 594 هـ · فحمله أصحابه الى رابطة العباد ، ودفن بها ، وما زال مزاره هنالك مقصد الزوار من سائر الانحاء ·

وقد لبثت بجاية تقوم بعد ذلك بدورها التالد السياسى والعلمى· وقد كان للمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، خلال مختلف ادوار حياته بافريقية صلة وثيقة بمثلث الحواضر الثلاث ، قسنطينة ، وبسكرة ، وبجاية · ففى قلعة سلامة ، من أعمال توجين ، الواقعة بين بسكرة وقسنطينة ، عاش ابن خلدون مدى اربعة اعوام فى عزلة وهدوء ، بعد ان عاف حياة السياسة وفر من أحداثها · وهنالك كتب مقدمته الخالدة ، ومعظم أجزاء تاريخه العظيم ، وقد كانت تربطه بقسنطينة روابط عائلية ، اذ كان أخوال زوجته من قسنطينة ، وهو يقول لنا ، انه حينما اعتزم الرحلة الى الاندلس ، فى سنة 762 هـ ، على أثر خلافه مع الوزير عمر بن عبد الله ، المتغلب على عرش المغرب واستقالته من وظائفه فى بلاط فاس ، بعث بزوجه وأولاده الى أخوالهم بقسنطينة · وانه لما استقر بغرناطه ، وغمره سلطان الاندلس ، محمد الغنى بالله بثقته وعطفه ، واقطاعاته ، استأذن السلطان فى استقدام اسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها ، وعاشت معه حينا فى رغد وطمأنينة · واما عن بسكرة فان السلطان ابا العباس ، سلطان قسنطينة وبجاية ، حينما سخط على ابن خلدون ، وكان ابن خلدون من بين وزرائه فر منه الى بسكره ، وقد كان له بها كما سيجىء عهد سابق ، فقبض ابو العباس على أخيه الاصغر يحيى ، واعتقله ببونه ، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم ، وكان ذلك سنة 766 هـ ·

هذا ، واما عن بجاية ثالثة حواضر هذا المسنت التاريخى ، فقد كان لابـن خلدون فى بعض احداثها دور هام ، وينقسم هذا الدور الى مرحلتين ، تمت الاولى منهما فى سنة 753 هـ (1352 م) وقت أن كان ابن خلدون فتى لا يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، يخطو خطواته الاولى فى ميدان الحياة العامة • ويجدر بنا قبل ان نقص تلك الاحداث التى خاض ابن خلدون غمارها فى بجاية ، أن نشير بايجاز الى ما كانت عليه أحوال الدول المغربية ، فى تلك الفترة ، أعنى فى منتصف القرن الثامن الهجرى • فقد كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع ، والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والاسر • وكانت تقوم امارات صغيرة متعاقبة فى القواعد والثغور الوسطى • مثل بجاية وقسنطينة وبونة فى الناحية الشرقية ، وتلمسان فى الناحية الغربية ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها • وكان انحلال الدولة الحفصية وتفككها ، هو المسئول عن احداث الناحيـــة الشرقية • وأما تلمسان ، فقد لبثت حينا مســرح الكفاح بين امرائها الاصليين من بنى يغمراسن او بنى عبد الواد ، وبين دولة بنى مرين القوية التى كانت تسير الى تلمسان حملاتها المتوالية • وهكذا كانت عروش المغرب كلها ، تهتز فى يد القدر ، وكانت قصوره مهبط الاطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح انظار المتغلبين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك • وكانت العروش والامارات دائمـــة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الاهلية دائمة الضـــرام بين مختلف الاسر أو فروع الاسرة الواحدة ، ومع ذلك فقد كانت هذه القصـــور المضطربة تسطع فى فترات السلم القليلة ، وتتنافس فى البهاء والبذخ ، وتجتذب اليها رجال التفكير والادب • وكان بنو حفص ، وبنو مرين ، بالاخص ملاذ العلماء والادباء ، يلتفون حولهم ، ويستظلون برعايتهم ، ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة • ونلاحظ فى تاريخ المغرب فى هذه الحقبة ، أنالحركة الفكرية تزدهر وتستقر ، وتتنقل ، طبقا لأحوال الدول وتقلباتها وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل وانها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع الى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال • وكما أن الحركة الفكرية ، كانت يومئذ فى المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل ، فكذا كانت دائمة التـردد بين المغرب والاندلس • وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الاندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها ، خصوصا عقب الانهيار الذى ترتب عليه سقوط معظم القواعد الاندلسية التالدة ، فى الشرق والغرب • ولذا نرى كثيرا من علماء الاندلس وادبائها ينزحون الى المغـرب باعتباره أوسع آفاقا ، وأوفى طمأنينة ، وايسررزقا • وقد كان لبجاية ، حسبما قدمنا من هذه الهجرة العلمية الاندلسية أوفر نصيب •

فى معترك هذه الظروف والاحوال بدأ ابن خلدون حياته العامــة • وكان بنو خلدون ، ينعمون برعاية الدولة الحفصية ، ويتداولون فى ظلها مراتب الجاه والنفوذ • وكان ابن خلدون يتطلع منذ

البداية الى اجتناء تراث أسرته ، وسنحت له أول فرصـــة للنزول الى ميدان الحياة العامة حينما استدعاه أبو محمد بن تافراكين ، المتغلب على الدولة لكتابة العلامة عن محجوره السلطان الفتى أبى اسحق ، وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسم الملكية· وكان المؤرخ يومئذ حدثا دون العشرين ·

على ان ابن خلدون لم يكن مع ذلك راضيا عن منصبه المتواضع · وكان ينظر الى ضـــعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع · وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم · ولـما غادر السلطان أبو الحســـن المرينى تونس الى المغرب الاقصى ، غادرها فى ركابه معظم المفكرين والادباء من شيوخ ابن خلدون واقرانه ، ايثارا للعيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحا الى اجتناء الجاه والرزق ، بعد ان نفقت سوقهما فى تونس · وكانت مثل هذه الامنية تجيش بنفس المؤرخ · فلما استدعى لكتابة العلامة ، اخذ يترقب الفرص للنزوح الى المغرب الاقصى ، ليبحث وراء طالعه ليعمل على تحقيق أطماعه حيثما يلوح افق المغامرة أوسع وأجدى ·

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة· ففى أوائل سنة 753 هـ زحف أمير قسنطينة ابو زيد ، حفيد السلطان أبى يحيى فى قواته على تونس يريد الاستيلاء عليها ، واسترداد تراث اسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين · فســار ابن تافراكين فى جنده الى لقائه · وصحبه ابن خلدون فى ركبه · ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائـرة فيها على جند تونس وعندئذ انسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، واقام حينا فى أبة عند بعض الشيوخ المرابطين ، ثم قصد الى تبسة ، ثم ارتد الى قفصة حيث التقى ببعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ امير قسنطينة ، ومن هنالك سار معهم الى بسكرة ، وقضى بها فصل الشتاء ·

*

* * *

وفى ذلك الحين كان السلطان الكبير أبو الحسن المرينى ، ملك المغرب الاقصى ، قد توفى فى شهر ربيع الثانى سنة 752 ، على اثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه ، واستيلائه على فاس حاضرة الملك · وكان أبو عنان اميرا وافر البأس والعزم ، فما كاد يستقر على العرش ، حتى أخذ يهيىء العدة لافتتاح المغرب الاوسط واستعادة تلمسان ، التى افتتحها أبـــوه من يد بنى عبد الواد ، ثم استعادوها لاعوام قلائل · فزحف عليها فى اوائل سنة 753 هـ واستولى عليها ، ثــم استولى على بجاية بدخول صاحبها السلطان ابى عبد الله محمد فى طاعته · وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان ابىعنان اثناء مقامهبتلمسان ويقوللنا المؤرخ

ان السلطان اكرمه بما لم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية ، حيث شهد مراسم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت معه الوفود الى ركابه ، سار ابن خلدون معهم ، وحظى بلقاء السلطان مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه . وارتد ابن خلدون مع ابن ابى عمرو الى بجاية واقام هنالك تحت كنفه حتى أواخر سنة 754 هـ (1353 م) .

تلك هى المرحلة الاولى من اتصال ابن خلدون باحداث بجاية . وكان قد تعرف خلال هذه الفترة بسلطانها المخلوع ابى عبد الله محمد بن السلطان أبى يحيى اللحيانى . وكان السلطان ابو يحيى حينما تغلب على تونس ، واستقر على عرشها ، قد اقطع الثغور لاولاده ، فتولى امارة بجاية ابنه الامير ابو زكريا ، ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة 746 هـ . وخلفه فى حكمها ولده الاكبر الامير ابو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن المرينى على افريقية لافتتاحها ، خلع الامير محمدا فيمن خلع من امراء الثغور . ونفاه الى المغرب . ولما ثار السلطان ابو عنان على ابيه اثناء غيبته فى حملة افريقية ، رد الامراء المخلوعين ، ومنهم الامير محمد الى ثغورهم ، لكي يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حينا آخر فى حكم بجاية . ولما توفى السلطان ابو الحسن ، وتم الامر لابى عنان ، عاد فانتزع بجاية من صاحبها وأرغمه على النزول عنها ، ونفاه الى المغرب مرة أخرى .

وفى تلك الاثناء كان ابن خلدون يسعى الى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنان ، حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون ، ان السلطان هو الذى استدعاه ، بعد ان جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار طلبة العلم ، فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى ، وكلفه بشهود الصلوات معه ، وما زال يحبوه بعطفه ، حتى عينه ضمن كتابه وموقعيه . على ان ابن خلدون ، يقول لنا انه قبل هذا المنصب على كره منه ، لانه ليس من المناصب التى شغلها اسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها اهمية ومقاما . و فى ذلك بما يدل على ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الاطماع الكبيرة على انه استطاع اثناء مقامه بفاس أن يستأنف الدرس والقراءة على جماعة من اكابر العلماء الوافدين عليها من الاندلس ، وباقى اقطار المغرب وكانت فرصة طيبة ، استعاد فيها ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية بارزة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ، تأخذ بقسط ملحوظ فى تطورات هذه الدول وتقلباتها . وكأن ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره .. ولكن ذكاءه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة اطماعه واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما الى طلب المزيد من الجاه والرزق . وكانت أحوال الدول

والقصور المغربية فى ذلك العصر ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم · وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان ابى عنان ، وهو يومئذ اعظـــم سلاطين المغرب ، وانتظامه في سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتح افقه ، وبدء ذلك النشاط الزاخر الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة ، وبين قصر وقصر ، وبين الرفعة والسقوط ، والنعم والمحن ، مرارا وتكرارا ·

بيد أنه كان من سوء الطالع أن يبدأ ابن خلدون نشاطه السياسى بمحاولة خطرة · وبالرغم من أن سيده وحاميه السلطان أبا عنان ، لم يدخر باعترافه وسعا فى اكرامه ورعايته ، وبالرغم من أنه ولاه ، على حداثته منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه فانه لم يحجم عن التآمر عليه مع الامير ابى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ معتقلا فى فاس ، ويروى لنا ابن خلدون فى « التعريف » قصة هذه المؤامرة فى عبارات غامضة ، ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية المعتقل من التفاهم او « المداخلة » وفقا لتعبيره ، وانه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود التحفظ · ولكنه يعتذر لنا بانه حمل على ذلك ، بما كان بين اسرته ، وبين بنى حفص الذين ينتمى اليهم الامير المخلوع من الود القديم ·

وكان السلطان ابو عنان يومئذ مريضا ، فنمى اليه خبر المؤامرة ، وان ابن خلدون يعمـل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على ان يوليه حجابته ،متى تم له الامر · ويصور لنا ابـن خلدون هذا الحادث فى عباراته على النحو الاتى :

« ولما قدمت على السلطان أبى عنان سنة خمس وخمسين ، واستخلصنى منه ، نبضت عروق السابق بين سلفى وسلف الامير ابى عبد الله واستدعانى لصحابتـه ، فاسرعت · وكان السلطان ابو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك · ثم كثر المنافسون ، ورفعوا الى السلطان ، وقد طرقه مرض ارجف له الناس ، فرفعوا له ان الامير ابا عبد الله ، اعتزم على الفرار الى بجاية وانى عاقدته على ذلك ، على ان يولينى حجابته » ·

وكانت النتيجة أمر السلطان أبو عنان بالقبض على ابن خلدون والقاه فى غيابة السجن · ومع انه اطلق أمير بجاية فيما بعد ، فانه ابقى المـــؤرخ على اعتقاله · ونزلت بابن خلدون تلك المحنة ، التى ينسبها الى سعاية خصومه فى اوائل سنة 758 هـ (1357 م) ·

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ، وتضرع الى السلطان ابـى عنان مرارا ان يطلقه · ولكن السلطان اعرض فى شانه عن كل تضرع وشفاعة · واخيرا رفع المؤرخ اليه قصيدة طويلة فى نحو مائتى بيت ، يلتمس فيها عطفه وصفحه · ومما جاء فيها :

على اى حـــال لليالى اعاتــب | واى صـــروف للـــزمان اغالـب
كفى حزنا انى على القـرب نازح | وانى على دعـــوى شهودى غالب
وانى على حكـــم الحوادث نـــازل | تسامنى طـــورا وطـورا تحارب

ويقول لنا ابن خلدون ان قصيدته وقعت من السلطان احسن موقع · وكان ابو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالافراج عنه · ولكن المرض اشتد به ، وتوفى قبل تحقيق هذا الوعد فى ذى الحجـة سنة 759 هـ (اواخر سنة 1358 م) ·

فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بامر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الاخرين ورده الى سابـق وظائفه واغدق عليه عطفه ورعايته ·

*
* * *

لسنا فى حاجة لان نتتبع حياة ابن خلدون فى بلاط فاس ، وما وقـــع خلال ذلك من احداث وتقلبات فى مصاير الملك ونكتفى بالقول بان ابـــن خلدون لبث فى بلاط فاس ، يشهد الحوادث خلال حكم السلطان أبى سالم الذى غلب على العرش (سنة 760 هـ) ، وما وقـــع من مصرعه بعد ذلك بعامين ، ثم تغلب الوزير عمر بن عبد الله عـلى الدولة ، وما وقع بينه وبين ابن خلدون مـــن خلاف ، بسبب عدم تحقيقه لآمال المؤرخ ، فى الظفر بوظائف الدولة العليا ، واضطرار المؤرخ ان يغادر فاس ، وأن يعتزم الرحلة الى الاندلس ، بعد ان حظر عليه الوزير ان يسافر فى اتجاه الشرق الى تونس ، خوفا من مشاريعه الخطرة ضده ·

وعبر ابن خلدون البحر فعلا الى الاندلس فى اوائل سنة 764 هـ · ولسنا بحاجة ايضا ، لان نتتبع حياة ابن خلدون فى بلاط غرناطة · وانما نكتفى بالقول بانه لقى من سلطان غرناطة السلطان محمد الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب كل ترحاب ورعاية ، واغدق عليه السلطان عطفه وصلاته ، وأوفده سفيرا عنه الى مـــلك قشتاله فادى سفارته بنجاح · ثم تطورت الاحوال بعد ذلك ، وشعر ابن خلدون بتغيير السلطان نحوه ، وشعر فى نفس الوقت بان ذلك يرجع الى سعى الوزير ابـــن الخطيب فى حقه ، فقرر مغادرة الاندلس · ووصلته فى نفس الوقت رسالة من صديقه الامير أبى عبد الله محمد أمير بجاية ، بانه استرد ملكه وانه يرغب فى قدومه لكي يوليـــه حجابته ، وفقا لعهوده · وكان قد كتب للمؤرخ بذلك عهدا بخطه · واستاذن ابن خلدون السلطان فى السفر فاذن له وزوده بصلاته ، وشيعه معززا مكرما ، فغادر الاندلس وركب البحر من المرية الى بجاية ، وكان ذلك فى منتصف سنة 766 هـ (1364 م) ·

وكان الامير أبو عبد الله محمد ، قد سار عقب اطلاق سراحه من معتقل فاس الى بجاية ، وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه (سنة 765 هـ) واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الاصغر وبعث الى ابن خلدون يستدعيه لتولى حجابته ، وفاء منه بعهده ، فاستجاب المؤرخ لدعوته حسبما قدمنا ، ووصل الى بجاية فى منتصف سنة ست وستين • فاستقبله الامير محمد ، وأهل المدينة اجمل استقبال • ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه فى تلك العبارة الرنانة ! « فاحتفل السلطان بقدومى » وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون اعطافى ويقبلون يدى • وكان يوما مشهودا » •

وتولى ابن خلدون فى الحال منصب الحجابة لسلطان بجاية ، وقد كانت الحجابة يومئذ فى الدول المغربية حسب تعريفه هى « الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وأهل مملكته ، لا يشاركه فى ذلك أحد » •

واستبد ابن خلدون بشئون الدولة ، ومضى يدبر الامور بعزم ، ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية ، يستخلص منها الجباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه • ولكن الخصومة ما لبثت ان نشبت بين أمير بجاية ، وبين ابن عمه السلطان ابى العباس صاحب قسنطينة • وكان أبو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية ، ويثير على أميرها القبائل والبطون المجاورة • ويقول لنا ابن خلدون أيضا ان الامير محمدا لم يحسن السيرة فى أهل بجاية ، بل كان يرهقهم ، ويشدد الوطأة عليهم ، حتى انحرفوا عنه ، واعتزموا الخروج عن طاعته ، استجابة لتحريض أبى العباس • وفى سنة سبع وستين ، قصد ابو العباس فى جموعه الى بجاية ، والتقى فى ظاهرها بالامير محمد وجموعه وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا • وكان ابن خلدون اثناء ذلك يلزم القصر داخل المدينة ، فلما كانت الدائرة على محمد ، خاطبه بعض الزعماء فى تولى الامر ، والدعوة لاحد ابناء السلطان القتيل ، فابى وخرج كعادته الى تحية الظافر ، والانضواء تحت لوائه • وسلم ابن خلدون المدينة الى أبى العباس ، فاكرمه واقره حينا فى وظيفته • ولكن ابن خلدون ما لبث ان شعر بانحرافه وتغيره ، فانصرف باذنه الى أحد الاحياء القريبة • ثم رأى ابو العباس بعد حين ، ان يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة • فقبض ابو العباس على أخيه الاصغر يحيى ، واعتقله ببونة ، وفتش بيوتهم ، وصادر اموالهم •

وهكذا اختتمت تلك المغامرة المثيرة التى كان ابن خلدون نفسه مدبرها منذ البداية ، أيام أن كان معتقلا بسجن فاس ، الى جانب صديقه الامير القتيل محمد • وهكذا كانت المرحلة الثانية من صلة ابن خلدون بأحداث بجاية • وقد كانت المغامرة كلها من نفثات أطماعه ، وكانت كسابقتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الاثرة ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان

انتهازها ينافى الوفـاء والولاء والعرفان · كان ابن خلدون حسبما تدل تصرفاته ومراحل حياته المتعاقبة ، ينطلق فى خططه واعماله عن احتقار عميق ، للعاطفة والاخلاق المرعية · ويحاول ابـن خلدون ان يعرب لنا عن ندمه واسفه لتطور الحوادث على هذا النحو المؤلم ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الامـير ابو عبد اللـه بادرت الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيـب لاستكثرت مـن الخير » · ولكن الذى لا ريب فيه ، هو ان ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتنـاء ثمرة فرصة ترقبها وهياها منذ بعيد · ولا ريب ان مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا ان الظافر قد انكـره غير بعيد ، وأدرك بذلك خسران صفقته ·

ولم تكن هذه آخر صلة لابن خلدون بأحداث بجاية · ذلك ان سلطان تلمسان ، الامير أبا حمو موسى بن يوسف ، وقد كان صهرا لامير بجاية المقتول ، متزوجا بابنته ، اعتزم ان يحاول الزحف على بجاية وانتزاعها من يد ابى العباس ، ولكنه بالرغم من كثرة حشـوده · اخفـق فى محاولته ، فاستدعى اليه ابن خلدون ، وأصدر اليه مرسوما بتولى حجابته ، وطلب اليه ان يعمل لاصطناع اهل بجاية ، بما كان له بينهم من نفوذ ، واستمالتهم الى جانبه ، فقام ابن خلدون بتلـك المهمة واستطاع بسعيه ، وبراعة وسائله ، ان يؤلبهم على السلطان ابى العباس ، وان يحملهـم على الاستجابة الى دعوة سلطان تلمسان · ولكن ابن خلدون لم يستجب مع ذلك الى السلطان أبى حمو فى تولى حجابته ، وبعث اليه أخاه يحيى ، وكان قـد تخلص من الاعتقال ، ليقوم مكانه · ويقول لنا ابن خلدون ، ان نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة ، وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب واشتاقت الى الدرس ، بعد أن هجرتـه طويلا ، فعـول على استئناف الدرس والقراءة ، والاعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية · بيد انها لم تكن سـوى توبة مؤقتة ، ولم يلبث تيار الحوادث أن حمله على خوض هذه الغمار مرة أخرى ·

بقية مصادر البحث :

9) الزركلى ـ الاعلام ، القاهرة 1954 ـ 1959

10) شكيب ارسلان ـ الحلل السندسية الجزء الثالث ، القاهرة 1939

11) الغبرينى ـ عنوان الدراية تحقيق الاستاذ رابح بونار الجزائر 1970

12) الغبرينى ـ عنوان الدراية تحقيق الاستاذ عادل نويهض بيروت 1969

13) ـ د . محمد مصطفى ـ ابن الفارض والحب الالهى ، القاهرة 1971

14) Larousse du XX^{e} siècle, Paris 1952.

15) Léon Gauthier : La Pensée Musulmane à travers les âges. Alger, 1957.

16) MUHYI-D-DIN IBN 'ARABI : « La Sagesse des Prophètes », (FUÇUÇ AL-HIKAM) traduction et notes par TITUS BURCKHARDT Ed. Albin Michel, Paris, 1955.

17) Dr SOUHEIL Idriss et Dr JABBOUR Abdel-Nour Al-Manhal, Beyrouth, 1970.

ابن خلدون في بجاية

عبد الحميد حاجيات
كلية الآداب
جامعة الجزائر

يمكن تقسيم حياة عبد الرحمن بن خلدون الى ثلاث مراحل ، لكـــل منها ميزة خاصة • فالاولى (732 ــ 753 هـ) مرحلة النشـــاة والتكوين ، قضاها فى مسقط رأسه ، تونس والثانية (753 ــ 784 هـ) مرحلة التجول عبر أقطار المغرب الاسلامى ، أما الثالثة (784 ــ 808 هـ) فكانت مرحلة الاستقرار بالمشرق العربى ، فى آخر حياته (1) •

ولا ريب أن أخصب هذه المراحل ، بالنسبة لتبلور نظريته حــــول العمران البشرى ، هى الثانية • وذلك أن تنقل ابن خلدون فى مختلف أنحاء المغرب ، مكنه من التطلع على اختلاف أحوال المعيشة والعمران ، حسب المجتمعات والظروف الطبيعية والاقتصادية ، وغير ذلك •

ومن بين مناطق المغرب التى تجول فيها ابن خلدون ، ولاية بجاية • والغرض من حديثنا هذا محاولة تسليط بعض الاضواء على الفترة التى قضاها فى بجاية ، والتطلع على الدور الذى قام به فى تاريخها السياسى ، ثم على ما اكتســـب فيها من تجربة فى مجال دراســـة المجتمع الانسانى وتطـــوره •

*
* * *

كانت ولاية بجاية تمثل ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى ، القسم الغربى من امارة افريقية ، الخاضعة آنذاك لحكم الدولة الحفصية وكان قد ضعف شأن الحفصيين منذ وفاة المستنصر (675) ،

1) انظر ابراهيم مدكور ، ابن خلدون (مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، 1962) ، ص 568 •

نتيجة الاضطرابات السياسية وتهافت الامراء الحفصيين على الحكم ، وما ادى اليه ذلك من حروب أهلية وتخريب وفوضى وقد بلغ الضعف بالملوك الحفصيين ، فى فترات عديدة ، الى حد أن نفوذهم أصبح لا يتجاوز عاصمتهم تونس وبعض المدن التابعة لها • اما نواحى قسنطينة وعنابة وبجاية ، وأراضى الجنوب كلها فكانت تحت سلطة غيرهم من الامراء ورؤساء القبائل •

فكانت بجاية والنواحى التابعة لها تكون امارة مستقلة ، يحكمها فى اغلب الاحيان احد الامراء الحفصيين • وكان نفس الوضع سائدا فى قسنطينة ، مماجعل بلاد المغرب تعيش آنذاك فى جـــو سياسى يشبه شيئا ما عصر ملوك الطوائف فى الاندلس • واذا كان لهذا التشتت نتائـــج وخيمة فى المجال السياسى ، فلا شك أنه ساهم فى ازدهار الحياة الفكرية والادبية ، بما ادى اليه مـــن تنافس بين بلاطات الامراء ، فى هذا الميدان •

وقد سجل التاريخ بعض المحاولات لتوحيد بلاد المغرب وجمع شتا تها تحت سلطة سياسيـــة واحدة ، الا أنها باءت بالفشل ، فمن بينها حركة السلطان ابى الحسن المرينى ، الذى استولى على بجاية ، ثم على تونس وسائر مدن افريقية ، سنـــة 748 هـ ، فبسط النفوذ المرينى على تلك الاقطار لاول مرة ، وحقق توحيد أجزاء المغرب لمدة وجيزة ، لم تتجاوز سنتين • وذلك انـــه لم يوفق فى اخضاع قبائل العرب المتمركزة فى جنوب افريقية ، فمنى بهزيمة شنعاء قرب القيروان ، فى محرم 749 هـ ، ثم لم يجد بدا من مغادرة افريقية بحرا فى شـــوال 750 هـ •

والجدير بالملاحظة أن زحف ابى الحسن المرينى هذا ، كان له أثر هام جدا فى تكوين ابـــن خلدون ، وفى حياته السياسية والعلمية ، واتجاهه الفكرى • وذلك أن عددا كبيرا من العلمـــاء والادباء الجلة قدموا مع السلطان ابى الحسن الى تونس ، وأخذوا يبثون العلم فيها ، وكان ابن خلدون من بين الطلبة الذين انتفعوا بتعليمهم انتفاعا كبيرا وتأثروا بآرائهم تأثرا بالغا ، كان لـــه نتيجة محمودة فى النهوض بالحياة الفكرية فى افريقية وتوجيه طلبـــة العلم بها نحو التجديد والابـــداع •

ولا يمكن ، فى حديثنا هذا ، ان نتطرق الى موضوع تكوين عبد الرحمن بن خلدون ، ومدى تأثره بعلماء البلاط المرينى ، مثل الآبلى ، والسطى ، وعبد المهيمن الحضرمى ، وأبى عبد اللـــه بن الصباغ ، وأبى عبد الله بن عبد النور ، وأبى القاسم بن رضوان ، وأبى العباس بن شعيب ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » (2) •

2) انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابـــن خلدون ، تحقيق ابن تاويـــت الطنجى ، ص 19 – 23 ، و 31 – 49 •

ويكفينا ان نشير الى التأثير العميق الذى تركه هؤلاء العلماء فى نفس صاحبنا ، ومـا أدى اليه ذلك من رغبة ملحة فى اللحاق بهم بعد أن عادوا الى المغرب الاقصى ، لينهل من ينابيع علمهم ، وكذلك ليحقق ما كان يصبو اليه من مطامح وآمـــال •

ولم يتمكن ابن خلدون من تحقيق هذه الرغبة الا فى سنة 755 هـ ، حيث التحـــق بالبلاط المرينى ، فى عاصمة المغرب الاقصى آنذاك • وكان الذهاب الى فاس يتطلب المرور ببجاية والاقامة بها برهة من الزمان ، فكانت هذه الدوافع أول فرصـــة سنحت لمؤرخنا الشهير للتطلع على مدينة بجاية والتعـرف عليها •

اما الظروف التى مهدت له مغادرة تونـــس والتوجه الى بجاية ، فقد اشـــار اليها فى « التعريف » ، وذكر انه كان قد عين قبل ذلك بقليل فى منصب كتابة العلامة للسلطان الحفصى ابى اسحاق ، باستدعاء من الحاجب ابى محمد بن تافراكين •

وكانت الاحوال السياسية بافريقية تجتاز آنذاك ازمة خطيرة ، حيث كان العرش الحفصى مهددا من جراء ثورة امير قسنطينة ، ابى زيد بن محمد ابن السلطان ابى يحيى الحفصى ، الذى حشد العساكر وقصد بها الى تونس • فنهض الحاجب ابن تافراكين والسلطان ابو اســـحاق لمدافعته ، وصحبهما عبد الرحمن بن خلدون ، وكان اللقاء بين الفريقين فى فحص مرماجنة ، أول سنة 753 هـ ، فانهزم الحاجب ابن تافراكين ومن معه ، وتفرق شملهم •

اما ابن خلدون فلنه لم يرد البقاء فى خدمة الحاجب المفلول ، وانتهز فرصة بعده عـــن تونس للتوجه نحو الجنوب الغربى من بلاد افريقية ، فنزل تبسة اياما ، ثم انتقل الى قفصـــة حيث استقر مدة ، ليترقب سير الحوادث • وهناك قدم محمد بن منصور بن مزنى بأخبار هامة ، مفادها ان الامير ابا زيد كان قد حاصر تونس ، ولكنه اضطر الى رفع الحصار لظهور خطـــر بنى مرين من الناحية الغربية ، فاقلع عن تونس ، راجعا الى قسنطينة عن طريق الجنوب •

وكان ابو عنان المرينى قد ارسل جيشا جرارا الى المغرب الاوسط فاستولى على تلمسان ، فى اواسط 753 هـ ، ثم توغل نحو الشرق الى ناحية بجايـــة • ولم يقو اميرها أبو عبد الله محمد الحفصى على مدافعة المرينيين ، فسلم بجاية لابى عنـــان •

فكان من شان هذه الانباء ان اعادت الى ذهن ابن خلدون ذكرى اشياخه الذين عادوا الى المغرب الاقصى ، فصمم على الالتحاق بالبلاط المرينى ، راجيا ان ينال فيه ما كان يصبو اليه مـــن مواصلة الدرس ، والدخول فى سلك رجال العلم ، والحصول على وظيف سام فى البلاط •

وكان محمد بن منصور بن مزنى متوجها الى بسكرة ، بقصد الالتحاق باخيه يوسف ، سيد تلك الناحية • فرافقه ابن خلدون اليها • وكانت بين بنى آل خلدون وبنى مزنى صداقة قديمة ، يرجع عهدها الى جد ابن خلدون •

فاقام ببسكرة بعض الاشهر ، ينتظر أن يحين أوان متابعة سيره نحو المغرب الاقصى • وفى أول سنة 754 هـ ، قصد تلمسان حيث كان السلطان أبو عنان ، ولما بلغ مدينة البطحاء (3) ، لقى الحاجب المرينى أبا عبد الله محمد بن أبى عمرو ، على رأس جيش قوى ، وكان هذا الاخير متوجها الى بجاية لتعزيز النفوذ المرينى بها ، وقطع دابر العناصر المناهضة للسلطة المرينية •

ولم يترك ابن خلدون فرصة الاتصال بشخصية سامية مثل الحاجب ابن أبى عمرو تذهب سدى ، فانضم الى جماعته ، وسار معهم الى بجاية •

الاقامة الاولى فى بجاية (754 ــ 755 هـ)

تلك هى الظروف التى أدت الى مسيرة ابن خلدون الى بجاية لاول مرة ، والى تعرفه على تلك المدينة التى كانت آنذاك من أعظم أمصار المغرب الاسلامى ، بما امتازت به من ازدهار اقتصادى وفنى وعلمى •

وكانت بجاية من أهم القواعد السياسية فى المغرب ، اذ كانت تشكل بالنسبة لبنى مرين مرحلة حاسمة فى طريق افتتاح بلاد افريقية ، واحتلال تونس • فكان تحقيق مطامح المرينيين ، فى فرض سلطتهم على سائر اقطار المغرب ، يتوقف على تدعيم نفوذهم فى ولاية بجاية ، والقضاء على ما كان فيها من العناصر المعادية •

وفعلا ، فان الاوضاع السياسية فى بجاية لم تكن حسنة آنذاك ، بل كانت الاحوال بها فى غاية الاضطراب والتأزم • وذلك أن الحزب الموالى للحفصيين كان قد أعلن الثورة ضد بنى مرين فى ذى الحجة 753 هـ ، وكان يضم عناصر من قبيلة صنهاجة ، الذين التفوا حول فارح ، حاجب الامير أبى عبد الله الحفصى ، فوثبوا على العامل المرينى ، فى قصر الامارة ، وقتلوه (4) •

وكان المتآمرون يظنون أن الامر سيكون هينا بعد مقتل العامل ، ولكن سرعان ما وجدوا أنفسهم فى مازق حرج • وذلك أنهم أعلنوا الطاعة لامير قسنطينة أبى زيد الحفصى ، الا أن هذا الاخير لم يحرك ساكنا وتثاقل عنهم • ولا شك أن موقفه هذا كان يعكس تخوفه من الخطر المرينى وعزمه على اجتناب كل حادث قد تجر غضب السلطان أبى عنان •

3) كانت البطحاء مدينة هامة ، آنذاك ، وكانت تقع على شاطىء نهر مينا ، قرب مدينة غيليزان

4) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 832 ــ 833 •

وعندئذ ضعف شأن الحزب الحفصى الثائر ببجاية ، ولا سيما أن السالطان المرينى لم يتقاعد عن تلافى الموقف ، فأمر باعتقال الامير ابى عبد الله محمد ألحفصى الذى كان قد أخذه معه الى تلمسان ، كما امر باعتقال وفد من وجهاء بجاية ·

ولم يدع شيوخ بجاية الامر يتفاقم ، اذ ادركوا ما ينجم حتما عن ذلك من أضرار وأخطار ، من جراء بطش بنى مرين ، فاجمعوا رايهم على جعل حد لثورة فارح ورهطه ، قبل أن يرسل اليهم ابو عنان عساكره لقمع الثورة ·

وسرعان ما نفذوا هذه الخطة ، ولقى فارح مصرعه ، فلجأ من سانده فى ثورته الى الفرار فخلا الجو من جديد للنفوذ المرينى ، وبعث وجهاء بجاية بطاعتهم لابى عنان ، الذى بادر بارسال حاجبه ابن ابى عمرو الى بجاية ، مع جيش قوى ، لضبط شؤونها (5) ·

اما لقاء ابن خلدون بالحاجب المرينى ، بالبطحاء ، فانه يمثل اول اتصال باحد رجالات الدولة المرينية ، بعد مغادرته لتونس · وقد تحدث فى « التعريف » عن حفاوة الحاجب واكرامه ، وذكر أن ابن أبى عمرو رده معه الى بجاية ·

وهكذا كان نزول ابن خلدون مدينة بجاية لاول مرة تحت ظل السلطة المرينية ، وبرسم الرغبة فى خدمتها والعمل من أجل تدعيم نفوذها ·

ومكث فى حاشية الحاجب المرينى حوالى سنة ، تمكن اثناءها من الاطلاع على الاوضاع السياسية فى ولاية بجاية وعلى الجهود التى كان يبذلها بنو مرين لتدعيم نفوذهم بها · وبفضل ذلك اقبل الدواودة على الحاجب ، يعربون عن ولائهم للدولة المرينية واستعدادهم لنصرتها ، فنالوا من اكرامه واحسانه ما ارضاهم وزاد فى تعلقهم ، كما وفد عليه يوسف بن مزنى ، صاحب بسكرة فاجزل صلته وبالغ فى حفاوته ·

والغرض من مصانعة المرينيين للدواودة واضح ، وذلك أن قبائل البدو القاطنة فى المناطق الجنوبية كانت تشكل قوة يحسب لها حسابها ، وكانت تساهم فى معظم المعارك التى كانت تدور رحاها فى شتى انحاء المغرب ، حتى أن مصير الملوك اصبح متوقفا على من يهب لنصرتهم من العرب البدو ·

وكان عبد الرحمن بن خلدون لا يجهل ذلك ، وانصرافه الى ناحية الجنوب كان راجعا ، بالدرجة الاولى ، الى ادراكه لما كان يتمتع به العرب من نفوذ وسلطة مطلقة ، فى تلك البلاد ، ورغبته فى

5) عن الظروف التى ادت إلى تعيين ابن ابى عمرو للقيام بهذه المهمة ، انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 608 ـ 608 ·

الابتعاد عن مناطق الفتن والحروب ، وانتظار تحسن الاوضاع السياسية فى بيئة تمتاز بالهدوء والطمانينة · ثم ان استعداده لسلوك السبيل الذى ســار عليه الدواودة آنذاك فى مشايعة بنى مرين قد أدى الى تمكين عرى الصداقة بينه وبينهم

ولما توجه الحاجب ابن ابى عمرو الى تلمسان ، فى اول جمادى الاولى 754 هـ ، بعـد ان اعتقل جماعة ممن شاركوا فى ثورة فارح ، وسيرهـم الى المغرب الاقصى عن طريق البحر ، كان معه شيوخ الدواودة وبعض وجهاء بجاية ، صحبوه ليعربوا عن تعلقهم بالدولة المرينية ، وولائهم لابى عنان (6) · وكان عبد الرحمن بن خلدون من جملة الوافدين على السلطان المرينى ، وقد اشار الى الاستقبال الحسن الذى خصصه لهم هذا الاخير ، والى ما ناله منه من جائزة سنية ، ووعـد بتجديد الاقطاعات التى كانت لآل خلدون بافريقية (7) · وكان الرجوع الى بجاية ، مع ابن ابـى عمرو ، فى فاتح شعبان من السنة المذكورة (8) ·

وتمادت اقامة ابن خلدون ببجاية شهورا أخرى ، اتيحت له اثناءها الفرصة لحضور المجالس العلمية ، والدرس على علمائها ، وعقد أواصر الصداقة مع ادبائها ووجهائها ، ومع الوافدين عليها من أشياخ العرب الموالين لبنى مرين · فكانت هذه الاقامة اول تجربة أحرز عليها فى مجال دراسة المجتمعات الانسانية والتعرف على تطورها ، بعد مغادرته لمسقط رأســه ·

وابن خلدون من صنف اولئك الرجال الذين لا يكتفون بما يجدونه فى خـزائن الكتب وما يتلقونه من علماء مدينتهم ، بل يرون ضرورة الارتحــال الى مختلف الاقطار المجاورة لبلدهم أو البعيدة عنه ، بغية التطلع على أحوالها السياسية والاجتماعية والثقافية· وانماء بضاعتهم العلمية والبحث عن وظيف سام يناسب مؤهلاتهم ومطامحهم ·

ولذا ، فانه لم يرتض البقاء فى بجايــة أمدا طويلا ، رغم ما ناله فيها من نعمة واحسان ، بل آثر مغادرتها خلال سنة 755 هـ ، والتوجه الى فاس ، عاصمة الدولة المرينية ، وأهم مراكزها الثقافية · وانتهى بذلك اقامة ابن خلدون الاولى فى بجايـــة ·

وكان السلطان ابو عنان قد انتقل قبل ذلك ، من تلمسان ، الى عاصمة دولته وقد جاء فى « التعريف » أن السلطان المرينى هو الذى كتب الى الحاجب ابن ابى عمرو يأمره بارسال ابـــن

6) انظر كتاب العبر ، ج 6 ، ص 833 ــ 834 ، و ج 7 ، ص 605 ·

7) انظر الاستقصا للناصرى السلاوى ، ج 3 ، ص 168 ، التعريف بابـــن خلدون ، ص 58 ، العبر ، ج 7 ، ص 605 ·

8) كذا فى «التعريف» ، ص 58 ، وجاء فى العبر ، ج 6 ، ص 834 ، انه دخل بجاية فى رجب ، وفى ج 7 ، ص 608 ، انه دخلها فى آخر شعبان ·

خلدون ، وذلك بعد أن جرى ذكره فى مجلس السلطان ، وأشاد بقيمته العلماء الذين قدموا الى تونس مع أبى الحسن المرينى وكانوا يترددون على منزل آل خلدون ٠

وكان يقيم بفاس أبو عبد الله الحفصى ، أمير بجاية سابقا ، نقله أبو عنان الى المغرب الاقصى بعد أن استولى على امارته ٠ فاتصل به ابن خلدون وكثر تردده عليه ٠

ولما مرض أبو عنان ، فى أواخر سنة 757 هـ ، وجهت التهمة للامير أبى عبد الله بأنه كان يعمل للفرار من فاس ، بقصد الالتحاق ببجاية واحياء امارته بها ، كما اتهم ابن خلدون بمواطاته على ذلك فالقى القبض عليهما فى صفر 758 هـ ، ومكث صاحبنا فى السجن مدة سنتين ، الى وفاة أبى عنان ٠ وكان خروجه من معتقله على يد الوزير الحسن بن عمر ، اثر ذلك بقليل ٠

ثم امتدت اقامة ابن خلدون بفاس الى سنة 754 هـ ، حيث غادرها متوجها الى الاندلس ٠ وليس هنا مجال ذكر أخباره خلال فترة اقامته بفاس ، التى دامت تسع سنوات كما لا يسمح هذا الحديث بالاشارة الى مقامه بالاندلس ، والتطلع على ما لقيه بها لدى أميرها ووزيره لسان الدين بن الخطيب من اكرام وتقدير ٠ والذى يهمنا هو ما حدث بعد ذلك من مغادرة ابن خلدون للاندلس وتوجهه مرة ثانية الى بجاية ، فى منتصف سنة 766 هـ ٠

*

* * *

الاقامة الثانية فى بجايــة (766 ـ 767 هـ)

كانت بجاية انذاك قد عادت ، من جديد ، الى حكم الاسرة الحفصية ، وكانت تخضع لسلطة الامير أبى عبد الله محمد ، الذى تمكن من مغادرة المغــرب الاقصى فى شعبان 761 هـ ، بموافقة السلطان أبى سالم المرينى ، وأتجه الى بلده ، الا أنه لم يتمكن من الاستيلاء ، على بجاية الا بعد أربع سنوات ، وبعد أن قام بمحاولات عديدة لاحتلالها ، باءت كلها بالفشـــل ٠

ولم يرافق عبد الرحمن بن خلدون صديقه الامير أبا عبد الله فى حركته هذه لاستعادة امارته وقد ذكر فى « التعريف » أنه اتفق مع الامير الحفصـــى على أن يعينه حاجبا له متى تمكـــن من الاستيلاء على بجاية ، واكتفى بارسال أخيه يحيى معه ، ليكون « حافظا للرسم » (9) ٠

وكان دخول الامير أبى عبد الله بجاية فى رمضان 765 هـ ، استلمها من عمه السلطان أبــى اسحاق صلحا (10) ٠ فاستقدم عبد الرحمن بــن خلدون ، وفاء بالاتفاق الذى تعاقدا عليه مــن

9) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 97 ٠

10) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 853 ـ 855 ٠

قبل · واستأذن ابن خلدون السلطان أبا عبد الله بن الاحمر فى مغادرة الاندلس ، فلم يسعفه الا بعد أشهـــــر ·

وفى منتصف سنة 766 هـ ، ركب البحر من المرية ، وتوجه رأسا الى بجاية ، فنزلها بعد سفر دام خمسة أيام · وقد وصف الاستقبال الحار الذى لقيه بها ، فقال :« فاحتفل السلطان صـاحب بجاية لقدومى ، وأركب أهل دولته للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهودا · ثم وصلت الى السلطان ، فحيا وفدى ، وخلع وحمل ، وأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدى فى سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدمنى للخطابة بجامع القصبة ، وأنا مع ذلك عاكف ، بعـــد انصرافى من تدبير الملك غدوة ، الى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك » (11)

فهذا الاستقبال ، لا محالة ، يشهد على ما ناله عبد الرحمن بن خلدون ، فى بجاية ، من حظوة وجاه ، كما أن المهام التى أسندت اليه ، وهى الحجابة بقصر الامارة ، والخطابة والتدريس بجامع القصبة ، أصدق دليل على سمو منزلته وعلو شأنــــه فيها ·

الا أن الأوضاع السياسية التى كانت تســود امارة بجاية عندما حل بها صاحبنا ، للمــرة الثانية ، أي أواسط سنة 766 هـ ،كانت تدعو للقلق والتخوف · وذلك أن الامير أبا عبد الله نهــج ، منذ استيلائه على بجاية ، سياسة توسعية أدت الى قيام صراع عنيف بينه وبين ابن عمــــه أبى العباس أمير قسنطينة ·

وكان الامير أبو عبد الله يعتمد على تأييد الدواودة ، فى بلوغ مطامحه الرامية الى توسيـــع حدود امارته · غير أن الاحتفاظ بهذه العناصر الى جانبه كان يقتضـــى ارضاءهم بالكثير مـــن الاقطاعات والاموال · فكان مضطرا الى البحث عن وسائل تمكنه من الحصول على مبالغ ماليـة هامة ، مما دفعه الى انتهاج سياسة الشدة والقهر تجاه أهالى بجاية والقبائل الخاضعة لحكمه ، والزامهم بدفع ما عليهم من الجباية ، وبتقديم الرهائن لارغامهم على الطاعة ·

وقد تحدث عن ذلك عبد الرحمن بن خلدون فقال : « ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطـــان أبى العباس ، صاحب قسنطينة ، فتنة أحدثتها المشاحة فى حدود الاعمال من الرعايا والعمـــال ، وشب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح ··· وكانوا فى كل سنة يجمـع بعضهم لبعض ، فالتقوا سنة ست وستين (وسبعمئة) بفرجيوة ، وانقسم العرب عليهما ، وكان يعقـــوب

(11) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 97 ــ 98

بن على مع السلطان أبى العباس ، فانهزم السلطان أبو عبد الله ، ورجع الى بجاية مفلولا ، بعد أن كنت جمعت له أموالا كثيرة أنفق جميعها فى العــــرب » (I2) ٠

وهنا يمكن لنا ان نتساءل هل كان عبد الرحمن بن خلدون مؤيدا لسياسة الحزم والشــــدة التى سلكها أبو عبد الله الحفصى ، ومقتنعا بنجاعتها وسدادها ، وهل لعب دورا هاما فى الحوادث التى جرت بين اميرى بجاية وقسنطينة ٠

والجواب على هذا التساؤل يتوقف ، بالدرجة الاولى ، على تصريحات صاحبنا فى « كتاب العبر » وفى « التعريف » ، حول هذا الموضوع ٠

وأول ما يخطر بالبال ، هو الالتفات الى ما كانت تشتمل عليه خطة الحجابة آنذاك من مهام ، وما كانت تخول لصاحبها من ممارسة للشؤون السياسية فى نطاق وظيفته ٠ وقد حدد ابن خلدون نفسه مهمة الحاجب بقوله : « ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب ، الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل الدولة ، لا يشاركه فى ذلك أحـــد » (I3) ٠

ويظهر من هذا التحديد ، وان كان يتسم بشىء من المبالغة ، أن الحاجب كان يلعب آنذاك دورا سياسيا هاما ، فى المغرب ، وتاريخ ذلك العصر يتضمن أمثلــة عديدة تثبت أهمية دور الحجاب ، حتى أن بعضهم استطاع أن يستحوذ على الحكم من دون السلطان ، كالحاجب أبى محمد بن تافراكين مثلا ٠ وبصفة عامة ، كانت أهمية دور الحاجب تختلف حســـــب الظروف ، ولا شك أن شخصية السلطان كانت عاملا يحسب له حسابه ، فى ذلـك ٠

وفى « التعريف » ما يدل على مشاركة ابن خلدون الفعالة فى الاتجاه السياسى الذى سار عليه الامير أبو عبد الله ٠ وذلك انه يقول فيه : « ولما رجع (الامير أبو عبد الله ، من هزيمة فرجيوة) أعوزته النفقة ، فخرجت بنفسى الى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منـــذ سنين ، فدخلت بلادهم ، واستبحت حماهم ، وأخذت رهنهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا فى ذلك مدد واعانة » (I4) ٠

وهذا التصريح ، ان دل على شىء ، فانما يدل على مطاوعة ابن خلدون لمولاه الامـير ، فى سياسته الشديدة ، واقدامه على ما تقتضيه هذه السياسة من عمليات تعسفية ضد الاهالى ، من

I2) التعريف بابن خلدون ، ص 97 ٠
I3) التعريف بابن خلدون ، ص 98 ٠
I4) التعريف بابن خلدون ، ص 97 ٠

أجل جمع الاموال لمواصلة الحرب ضد امير قسنطينة ، مما تتطلبه وظيفته الهامـــة فى جهاز الدولـــة ٠

ولا يستبعد أن يكون ابن خلدون ممن أيد هذا الاتجاه وحث على شن الحرب ضـــد أمير قسنطينة ، بغية بسط نفوذ امارة بجاية فى المناطق الشرقية ، وتوسيـــع مساحتها ٠ والراجـــح لدينا أن الصداقة المتينة التى جمعت بينه وبين الامير أبى عبد الله حوالى عشر سنوات ، كانت منبعثة عن تناسب فى مزاج كلا الرجلين ، وبخاصة عن طموح مفرط ، وترام الى اعلى الرتب واسمى الدرجات ٠ والاغلب على الظن أن السياسة التى سلكها أمير بجاية وحاجبه كانت ابعادها ترمى الى الاستيلاء على امارة قسنطينة ، ثم امارة تونس ، وبذلك يتسنى للامير أبى عبد الله أن يتقلد مراسم الملك الحفصى ، وينتصب على عرش أجداده الحفصيين ، ويتمكن حاجبه من بلوغ ما كان يصبو اليه من سلطة كبرى وجاه عريض (15) ٠

ولذا ، فلم يتأخر الامير أبو عبد الله عن معاملة رعاياه بقســـارة نادرة ، وتعسف شديد فكان ذلك اقوى عامل على صرف أنظارهم عنه ،وتعليق آمالهم على انتصار ابن عمه ، أمير قسنطينة٠ وقد وصف ابن خلدون سياسة الامير أبى عبد الله ، فقال : « وكان شديد الوطأة على أهل بلده ، مرهف الحد لهم بالعقاب الشديد ، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل سنتين فى ملكه ، فاستحكمت النفرة ، وساءت الملكة ، وأعضل الداء » (16) ٠

الا ان مآل هذه السياسة كان على عكس ما ارتجاه أصحابها ، فانفض الدواودة من حول الامير أبى عبد الله ، وانضموا الى صفوف عدوه ، كما انحرف عنه أهالى بجايـــة ، وواعدوا الامير أبا العباس على تسليم المدينة اليه ٠ ولما نهض أمير قسنطينة لغزو امارة بجاية ، فى شعبان 767 هـ ، لم يلقه من أنصار أبى عبد الله الا شر ذمة لا يعتد بها ، وانتهى الامر بمقتل أمير بجاية ، وانحياز أهل بجاية ومعظم رجال الدولة الى جانب الامير أبى العباس (17) ٠ فاضطر عبد الرحمن

15) ومما يؤكد مثل هذا الطموح عند عبد الرحمن بن خلدون ما حكاه عن نفسه ، حينما شغل منصب كتابة السر لابى عنان المرينى ، وهو أحط من منصـب الحاجب ، فقال : « ثم استعملنى (أبو عنان) فى كتابته ، والتوقيع بين يديه ، على كره مني ، اذ كنت لـم أعهد مثله لسلفى » ٠ انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 59 ٠

16) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 268 ٠

17) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 857 ـ 859٠

بن خلدون ، الذى كان قد اعتصم فى القصبة ، الى تسليم المدينة للعدو المنتصر ، والانضمام الى حاشيته (18) ·

ولم يطمئن على نفسه ، بعد ذلك ، فاستأذن فى مغادرة بجاية · وبعد مدة ، اذن له الامير ابو العباس بالانصراف ، فتوجه نحو الجنوب ، ونزل على شيخ الدواودة يعقوب بن علي ·

ثم بدأ للامير أبى العباس أن يصادر أموال ابن خلدون ومنازله فى بجاية ، وأمر باعتقال أخيه يحيى بعنابة ، فتحول الى بسكرة ، والتجأ عند ابن مزنى ، فأكرم مثواه · وانتهت بذلك صفحة هامة من حياة عبد الرحمن بن خلدون ، الذى حول انظاره ، بعدها ، الى آفاق أخرى ·

*

* * *

خاتمـــــة :

وبعد ، فان اقامة ابن خلدون فى بجاية ، التى حاولنا عرضها بما يسمح به هذا المقام من التفصيل والتدقيق ، تكتسى أهمية كبرى بالنسبة لحياته ولانتاجه الفكرى ·

ويمكن اعتبار سنة 768 هـ بداية مرحلة جديدة فى حياة ابن خلدون فى المغرب ، وتاريخا فاصلا بين عهدين ، أولهما عهد حياة البلاط مع السعى الحثيث وراء المناصب السامية ، والالحاح فى طلبها والتقلب فى عواصم الملوك والامراء ، ومصانعة كبار الشخصيات قصد الوصول الى بغيته ، وثانيهما عهد العدول عن حياة البلاط الى الاقامة فى أحياء الدواودة وغيرهم من عرب رياح وزغبة القاطنين بافريقية والمغرب الاوسط ، الا فترات قصيرة قضاها بتلمسان وفاس وتونس ·

ويظهر ذلك جليا من خلال كتاب « التعريف » ، فيما ورد من أخبار ابن خلدون بعد مغادرته لبجاية ، فمن ذلك أنه لما عرض عليه أبو حمو موسى الزيانى ، سلطان تلمسان ، أن يتولى حجابته فى رجب 769 هـ ، لم يجب داعيه بأكثر من حث الدواودة على مشايعته والتخلى عن نصرة الامير أبى العباس الحفصى · وقد تحدث عن ذلك ، فقال : « وكان اخى يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة ، وقدم علي ببسكرة ، فبعثته الى السلطان أبى حمو كالنائب عنى فى الوظيفة ، متفاديا عن تجشم أهوالها ، بما كنت نزعت عن غواية الرتب ، وطال علي اغفال العلم ، فأعرضت عن الخوض فى أحوال الملوك ، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس » (19) ·

---

18) لا شك أن انضمام العرب الدواودة الى الامير ابى العباس ، وتخليهم عن ابى عبد الله الحفصى ، كان أكبر عامل لهزيمته ومقتله ، وقد يكون ذلك من جملة أسباب تشدد ابن خلدون تجاه العرب فى بعض فصول «المقدمة» ·

19) التعريف بابن خلدون ، ص 103 ·

والذى يهمنا ، فى هذا التصريح ، هو التحول العميق الذى جرى فى اتجاه ابن خلدون بعد مغادرته لبجاية ، من ناحية علاقته بالامراء والملوك · انه لا يعرض تماما عن خدمتهم ، ولكن الخدمة التى يرتضيها ويقدم عليها ، هى التى لا تحرمه من حريته ، اذ هى تنحصر غالبا فى الاتصـــال برؤساء قبائل العرب ، ومداخلتهم فى تأييد أمير أو سلطان دون غيره ، كما كان الامـر ، ايضا ، أيام السلطان عبد العزيز المرينى (20) ·

ثم نراه ، بعد ذلك يغادر تلمسان ، سنة 776 هـ ، برسم السفارة للسلطان أبى حمو موســى الزيانى الى الدواودة ، فى شأن استئلافهم وكسب نصرتهم للعرش العبد الوادى ، ولكنه سرعان ما غير اتجاهه ، مؤثرا الانقطاع للعلم والعزلة فى أحياء اولاد عريف من قبيلة سويد ، بقلعة بنى سلامة ، فينصرف هناك الى تأليف مقدمته الخالـــدة (21) ·

وهكذا يتضح لنا أن التجربة السياسية التى حصلت لعبد الرحمن بن خلدون فى بجايـــة ، وما أسفرت عنه من فشل وخيبة ، قد كانت السبب الرئيسى فى اقلاعه عن طلـب الرتب السامية فى بلاطات الامراء ، وعن الحرص الحثيث للحصول عليها ، واقتصاره على حضور المجالس العلمية والتدريس ، والاقامة فى احياء العرب · ولا شك أن هذا الاتجاه كان أسلم له ، اذ كان يحميه من خطر أعدائه ، وسعاية حساده ·

ولا يخفى على أحد ما أدى اليه هذا الاتجاه الجديد من نتائج فى مجال انتاج ابـن خلدون الفكرى · فالتردد على أحياء الدواودة وسويد وغيرهم من العرب البدو ، كان بمثابة نقطة الانطلاق لنظرياته الاجتماعية ، اذ كان يمكنه من الاطلاع عن كثب على المجتمع البدوى ، كما كان يحمل فى طياته عناصر أساسية لدراسة تطور العمران البشـــرى ·

ولذا ، فان كان كثير من الباحثين يرون فى تخلى عبد الرحمن بن خلدون عن خدمة الامراء والملوك ، وانتقاله من بلاط الى آخر ، وعدم استقراره فى منصب من المناصب ، نوعا من قلـــة الوفاء والاخلاص ، فان الالتفات الى الظروف التى تحيط بذلك ، والتى تفسر ما حدث من تغير وتقلب فى اتجاهاته قد يخفف الكثير من هذه الاتهامات ، ويجعلنا لا نلومه على تصرفاته ، ما دمنا نعتقد أنه كان يهدف ، من وراء ذلك ، الخلاص مما كان يهدد أمثاله من الاخطار ، والتفرغ لخدمة العلم والاخلاص له ·

(20) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 276 ـ 277 و 683 ـ 685 ·
(21) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 244 ـ 245 ·

المراجـــع :

1 ـ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج 4 ، ص 145 ـ 147 .

2 ـ المقرى ، نفح الطيب ، ج 8 ، ص 277 ـ 297 .

3 ـ أحمد بابا التنبكتى ، نيل الابتهاج ، ص 169 ـ 170 .

4 ـ ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص 263 ـ 265 .

5 ـ ابن القاضى ، درة الحجال ، ج 2 ، ص 357 ـ 358 .

6 ـ الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلـف ، ج 2 ، ص 213 .

7 ـ عبد السلام بن سوده ، دليل مؤرخ المغرب ، ج 1 ، ص 169 ـ 170 .

8 ـ الزركلى ، الاعلام ، ج 4 ، ص 106 ـ 107 .

9 ـ كحالة ، معجم المؤلفين ، ج 5 ، ص 188 ، و ج 13 ، ص 396 .

10 ـ عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثـه الفكرى ، القاهرة ، 1933 .

11 ـ ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، جزآن ، القاهرة ، 1953 .

12 ـ عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، 1962 .

13 ـ محمد الفاسى ، ابن خلدون والسياسة (مهرجان ابن خلدون ، الرباط ، 1962) ص 67 ـ 77 .

14 ـ أحمد توفيق المدنى ، ابن خلدون والجزائر (مهرجان ابن خلدون ، القاهـــرة 1962) ص 535 ـ 543 .

15 ـ ابراهيم مدكور ، ابن خلدون (مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، 1962) ص 567 ـ 581 .

16 ـ عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر ، ج 7 ، بيروت ، 1957 .

17 ـ عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، تحقيق ابن تاويت الطنجى ، القاهـــرة ، 1951 .

18 - C. Brockelmann, G. A. L., II, pp. 314-17, sup. II, pp. 342-44.

19 - R. Brunschvig et H. Pérès, Ibn Khaldoun, sa vie et son œuvre, dans Bulletin d'Etudes Arabes, 1943, x pp. 55-60 et 145-60.

20 - S. Zmerli, La vie et les œuvres d'Ibn Khaldoun, dans Revue Tunisienne, 1911, pp. 532-36.

21 - Ali Mérad, l'Autobiographie d'Ibn Khaldoun, dans I.B.L.A., 1956, pp. 53-64.

22 - M. Talbi, Art. Ibn Khaldoun, dans E.I. 2, III, pp. 849-53.

إقامة ابن خلدون في بجاية ودوره فيها

د . محمد سعيد رعد
كلية الآداب
جامعة الجزائر

لا يحتاج مؤلفنا الكبير عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون الى تعريف لإنه كفى غيره مؤونة هذا العمل فعرف نفسه بنفسه احسن تعريف (1) وكثيرون كتبوا عن حياته من جوانب كثيرة ، فمنهم من جعله في مقدمة العلماء وبعضهم وضعه في مكان الصدارة بين المؤرخين اذا لم يكن بين الفلاسفة المتقدمين ، ولا مراء في كل ذلك فقد جمع ابن خلدون في كتابه « العبر ، سواء في مقدمته او في تاريخه أو في تعريفه جميع ما يحتاجه الكاتب من المواد التي تؤهل مؤلفنا الجليل ، بدون شك ، لان يتبوا اعلى درجات العلماء في التاريخ .

فاذا اراد الكاتب اجراء دراسة عن شخصية ابن خلدون فسوف لا يجد مشقة في قراءة ما كتبه هو نفسه في « التعريف » فتكلم عن نشأته ومشيخته وحاله وعن رحلاته واتصالاته الكثيرة وما جرى له من حوادث وما اطلع ورأى من احداث وقد ذكر ناشر هذا « التعريف » بان ما ذكره عن نفسه هو من أهم « الوان المعرفة وأوكدها » ، اما اذا رغب القارىء في مطالعة التاريخ فسوف لا يجد(2) أحسن مما كتب ابن خلدون عن تاريخ المغرب فهو أحسن مرجع تاريخي وأوثقه لا سيما في الفترة التي اقام فيها في المغرب الاوسط ، فقد وجد في هذه البلاد متسعا للقيام بدراسات علمية وتاريخية عن كثب فاستطاع ان يصل على ضوء مطالعاته التاريخية وما لاحظه اثناء رحلاته الكثيرة مادة مكنته من وضع كتاب يعتبر حجة في دراسات المجتمع الانساني وتطوره .

---

1) التعريف بابن خلدون ـ لمحمد تاويت الطنجي ط . 1950/1370 القاهرة .
2) التعريف بابن خلدون ـ للطنجي ـ التقديم ص هـ .

التعريف ببجاية : تمهيد عام .

ومن بين المدن المغربية والاندلسية التى زارها ابن خلدون خلال رحلاتــه الكثيرة فقــد نالت « بجاية » حاضرة المغرب الاوسط بقسط كبــير من اهتمامه واذا جمعت كتاباته عن هذه المدينة فى مناسبات كثيرة وفى مواضيع متفرقة فى كتابه « العبر » فانها تصبح « تعريفا » لا يقل عــن « تعريفه » عن نفسه وهذا مما يدل على ان المغرب الاوسط وحاضرته بجاية ، نال حظوة كبيرة عند مؤلف « العبر » ولم يخصها بهذا القدر مــن الاهتمام الا ولديه اسباب جعلته يدرس تاريــخ هذه المنطقة والادوار الحضارية التى مرت فيهــا وستظهر من خلال هذه الدراسات مدى الاستفادة التى حاز عليها ابن خلدون اثناء اقامته فى بجاية والمنطقة التابعة لها ولاستيفاء هــذا الموضوع حقه من البحث ، والاستقصاء فلا بد من متابعــة ذكر المناسبات التاريخية أولا ثم جمع ما كتبــه ابن خلدون فى هذه المواضيع التاريخية الــتى جعلها مادة صنع منها منهاجه « العمرانى » وبنى عليه « نظريته العمرانية » التى كانت الاساس « لعلمه الجديد » علم العمران » .

ولا بد ونحن فى مقدمة الحديث عن ابن خلدون ان نتساءل عن الغرض الكبير الذى كان يسعى لتحقيقه من وراء نشاطه الواسع فى مجال الفكر وميدان السياسة فقد اطلع بحكم مركزه كعالــم متبحر فى العلوم المعروفة فى زمانه وكسياسى عرف السياسة حق معرفتها وقضى سنوات طويلة من عمره فى نشاط دائب فى كلا المجالين المذكورين ولا بد ان نتعرف ايضا على الدور الخطير الــذى قام به فى تاريخ المغرب بصورة عامة والمغــرب الاوسط بصورة خاصة ولماذا كان يدعو اليه ، فهل كان يدعو الى مذهب من المذاهب الاجتماعية أو انه كان يريد من وراء نشاطه هــذا احداث حركة سياسية خاصة ولا سيما وان العصر الذى عاش فيه كان مفعما بالاحداث التى غيرت مجرى التاريخ فى العالم ، كل ذلك يحتاج الى تفصيلات لا يتسع لها هذا المقال ، ولا سيما وان ابــن خلدون رغم تعريفه بنفسه وتعريفه بتاريخ ميلاده وعصره فانه لم ينبئنا صراحة عن اغراضه العلمية أو السياسية ، فلا هو وضع عنوانا لكتابه الاول ليستشق الباحث عن مغزى الكتاب ولا هو شرح خلال ابحاثه الكثيرة فى كتابه « العبــر » منهجا محددا فترك للباحثين المجال لمعرفة ذلك من خلال السطور . وفى هذه الحالة وجدنا من الفائــدة الرجوع الى أقوال العلماء الذين درسوا اراء ابــن خلدون بصــورة شاملة وفى مقدمتهم العلمــاء المذكورون فى ادناه لنرى ما توصلوا اليه مــن احكام بالنسبة لهذا الموضوع :

ـ **الدكتور علی عبد الواحد وافی (1) .**

ذكر الدكتور وافی فی كتابه القيم من مقدمة ابن خلدون ان « عبقرية ابن خلدون تبدو .. فی نواحی كثيرة اهمها انه المنشیء الاول لعلم الاجتماع وحجته فی ذلك ان المؤلف عالج فی « المقدمـــة » ما يسمى الآن « بالظاهرات الاجتماعية » ويسميها المؤلف المذكور « بواقعات العمران البشرى أو احوال الاجتماع الانسانی » .

ـ **الدكتور طـه حسين (1) .**

وفی جملة الابحاث التی اجراها الدكتـور طه حسين فی « المقدمة » البحث عن طبيعة « علـم العمران) الذی يدعی ابن خلدون انه علم جديد استنبطه من دراساته الطويلة فقال ان هذا العلم ليس بعلم للتاريخ بل هو علم مستقل يتنـاول المجتمع البشری فی احواله وتطوراته وينكر علی ابن خلدون ان يكون منشیء علم الاجتماع وما هو الا عالم «اجتماعی» وعذره فی ذلك ان الابحاث فی كتاب « العبر » لا تصلح ان تكـــون فی جملتها موضوعا خاصا بعلم الاجتماع وهو اضيق من ان يكون دراسة لعلم خاص للاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو أی علم آخر قائم بذاته ويتابـع الدكتور طه حسين مناقشته للموضوع بأنه من الخطأ القول ان ابن خلدون عالم اجتماعی بالمعنى الحديث وذلك بسبب انه اتخذ المجتمع موضوعا لبحثه فقد يكون المجتمع احيانا موضوعا للتاريخ أو ان يكون للاخلاق أو للفلسفة (2) وقد اتسعت دراسات المجتمع فی الوقت الحاضر حتى اصبـح موضوعا لعلوم كثيرة ولا يكفی ان يدرس الانسان المجتمع من جهة معينة كعلم ليقال عنـه انـه يدرس علم الاجتماع ، اذ يفقد عندئذ هذا العلم صفته هذه ولا يصلح الا ان يكون بحثا فی العلوم الاجتماعية ولا شك كما يقرر الدكتور طه حسين ان ابن خلدون اورد فی مناسبات كثـــيرة آراء اجتماعية بالغة الصدق والاهمية وعميقة وطريفة واذا قيل ان ابن خلدون ليس بعالم اجتماعی فان

1) الدكتور علی عبد الواحد وافی ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق وشرح وتعليق . ط. القاهرة 1965 ـ ص 227 .

1) الدكتور طه حسين ـ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ نقد وتحليل ـ ص 65 ترجمة عبد الله عنان ـ ط . القاهرة .

2) راجع « محمد مهدی » فی كتابه فلسفة التاريخ فی ابن خلدون كاساس لعلم الثقافة باللغة الانكليزية . Ibn Khaldun in philosophy of history ed. U.S.A. 1964.

هذا لا يعتبر انتقاصا لقدره لانه كان يتلمس حقا مبادىء صحيحة فى علم الاجتماع وعلوم أخـرى •
ويبدو من قول الدكتور طه حسين وتحليله لاراء ابن خلدون فى « مقدمته » انه شعر بحيرة لتبيين طبيعة « علم العمران » وانتهى من مناقشته لهذا الموضـوع الى ان مـن الاهتداء الى تحديد ابتعاد « علم العمران » وماهيتـه كان منـه الا ان اطلق على دراسته لمقدمة ابن خلدون اسم « فلسفة ابـن خلدون الاجتماعية » ولعله اراد بذلك ان يـدع باب المناقشة للموضوع مفتوحا وقد احسـن ما فعـل •

الكاتب الروسى باشيفا (1) •

يقـول الكاتب المـذكور ان القصـد الاجتماعى أو الغرض الرئيسى الذى كتب ابـن خلدون كتابه من اجله عن « طبائع العمران » وهو بحث عن الاجتماع الانسانى « البشرى » لا يزال قيد البحث والكشف عنه فى الدراسات الدائرة حول هذا المؤلف العربى الكبير(1) حتى الآن واردف قائلا فى مقالته ان الفلسفة الماركسية ـ اللينية تفيد فى تحليلها لطبيعة المجتمع البشرى ان هنالك انقسام فى الطبقات ولهذا تبدو الآراء الاجتماعية فى دراسة هذا المجتمع وكأنها «آراء طبقية حزبية» وعلى هذا الاساس فان نظرية ابن خلدون التاريخية ـ الاجتماعية لا توضح الا من هذه الزاوية ـ أنى دراسة ماهيتها الاجتماعية التاريخية ودورها فى مجال التفكير الطبقى • (2)

ولما كانت الغاية الرئيسية لهذا المقال التعريف بابن خلدون أولا والتعريف بالدور الذى قام به وبذل جهوده لانجازه ثانيا فى مجالى العلم والسياسة وعلى صعيد المغرب متنقلا بين تونس وبجاية والمنطقة المجاورة فى ذلك الاقليم وبالتالى التعريف ثالثا بالاحداث التاريخية التى لابست هـذه المنطقة والتى اشترك ابن خلدون فى ملابساتها ومناسباتها واطلع على تاريخها وتتبع اسبـاب حدوثها وذلك بغية معرفة ما كان يسعى للوصول اليه كهدف رئيسى ؛ فاننا لا نغالى فى القـول اذا قررنا بأن البحث فى تاريخ ابن خلدون مجدمن الناحية التاريخية العلمية لانه استطاع ان يقدم لنا علما مستنبطا سماه « علم العمران » وهـو علم جديد بناه على اساس الاستقراء من الاحداث

2) المصدر السابق ـ ص 121 •
3) BACIEVA (S.M.) Les bases sociales de la doctrine historio-philosophique d'Ibn Khaldoun, in A. La mémoire de l'Académicien I.J. Kratchkovski. Leningrad, 1958, pp. 192-201 (en russe).
S.M. BATSEVA - translate grom'iche Russian by jan W. Weryho - the Islamic Quarterby vol. XV. N° 283 London April-September 1971.

التاريخية فى المغرب وفى غيره من البلاد وعين موضع هذا العلم وذكر بعض مسائله وترك للعلماء الذين سيخلفون استكمال دراسة ما بدأ به (3) ٠ وكما قال ابن خلدون فاننا نكتفى بالاشارة الى هذا العلم الذى لم ينل من جانب المختصين بدراسات ابن خلدون ما يحدد ماهيته ويعين طبيعته ؛ ولعل السبب يرجع الى التعمق بالنسبة لهم فى تقصى جذور العلوم التى اشار اليها ابن خلدون بضرورة غلاقتها لعلم العمران ولكنها فى الحقيقة ليست ضرورية لان علم العمران الذى استنبطه واضح فى تعريفه وبسيط فى شرحه وتعيين ابعاده واكثر مسائله موضوعة بشكل سهل موجز ٠

ولما كان هذا الاثر العلمى الفكرى الكبير وهو ذلك العلم الجديد « علم العمران » الذى استنبطه على اساس « نظريته العمرانية » التى ستسرد تعريفا لها فيما بعد ، لم يكن ليظهر لدى ابن خلدون الا حين اقام فى بجاية وما حولها من الوطن المغربى ، فاصبح لا بد من ان نستمر بالتعريف ببجاية والمنطقة التى حولها وما حدث فى ربوعها من الاحداث التاريخية التى عرفها ابن خلدون حق المعرفة وكرس جزءا من تاريخه فى « العبر » لحوادثها لانه هو فى الحقيقة قد عاش فيها وتأثر بها ووعى اسبابها واستقرء نتائجها وربما برزت لنفسه مقدراتها ، وكان لا بد كذلك من ان نتابع ما قام به ابن خلدون من نشاط فى هذه المنطقة المغربية الهامة سواء عن طريق السياسة أو عن طريق الدراسة العميقة ، وبهذه الوسيلة يظهر لنا الدور الذى قام به ابن خلدون فى بجاية وما حولها من المغرب الاوسط بأجلى مظاهره فمعظم آرائه وملاحظاته جاءت مستقاة من التاريخ الكبير الذى احتوى كتابه عليه ونابعة من البيئة التى عاش فيها وتابع احداثها وهل يعدل تلك الاحداث بما يماثلها فى التاريخ الوسيط من حيث اهميتها مثلا كسقوط بغداد والحرب الصليبية وبدء نزوح العرب من الاندلس ويقظة أوربا وحركة المدن فى ايطاليا ٠

---

(3) ابن خلدون المقدمة ـ ط ٠ بيروت والتجارية ـ ص 558 ٠

« ٠٠٠ وقد كدنا ان نخرج عن الغرض وغرضنا ان بعض الضعاف عن القول فى هذا الكتاب الاول الذى هو طبيعة العمران وما يعرض فيه ٠ وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من ياتى بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم متين يغوص من مسائله على اكثر ٠٠٠ » ٠

مدينـــة بجايـــة

بجاية مدينة بالقطر الجزائرى على شاطىء البحر تابعة لاقليم قسنطينة وهى تقع عـــلى خـــط طول 5،9 شرقى جرينوتيش وخط عرض 36،49 شمالا ، فهى واقعة فى المنطقة المعتدلة ومناخها معتدل صيفا وشتاء ساعد على وفرة محاصيل للنطقة الزراعية التى تحيط بها .

وقد بنيت فوق منحدرات تطل على البحر وعلى خليج يحميها من الغزو سواء من ناحية البر أو البحر ويجعلها ميناء صالحا لارساء السفن ومعقلاحصينا له موقع استراتيجى عظيم متوسط بـين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ؛ وقد ادرك القرطاجنيون ذلك فانشأوا لتجارتهم مركزا سمى « صلداى » وهو المكان نفسه الذى انشئت عليهمدينة بجاية (1) ، ثم خضعت بجاية للسيطـرة الرومانية والفاندالية والبيزنطية حتى جاء الفتحالاسلامى (2) ، فدخلت تحت الحكم الاســـلامى حوالى سنة 708 م بعد ان فتح المسلمون المغـرب ،الا ان المعلومات التاريخية التى تتصل بهذه المدينة فى القرون الثلاثة الاولى للفتح الاسلامى قليلة ،وقد وصفها ابو عبيدة عبد الله البكرى فى كتابه المسالك والممالك فى القرن الخامس الهجرى (3) ،وفى منتصف القرن السادس الهجرىيصف المدينة الشريف الادريسى (4) ، فيقول انها قاعدة بنى حماد اتخذوها حاضرة لسكنهم بدلا من «القلعة» ثم يتابع قوله ان بجاية فى وقته (548 هـ) مدينةالمغرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد فتأتى اليهـا السفن من الشمال وتحط فيها القوافل فتصبحمحطة ومخزنا للامتعة المجلوبة برا وبحرا وبها

1) د . شارل فيرو — بجاية — ص45 ط 1869 قسنطينة .

« ان مطابقة بجاية بصلداى (ثابت بدليل وجود نقش لاتينى محفوظ فى المتحـف الجـزائرى — اللوفر — باريس .

2) الجيلالى عبد الرحمن بن محمد — تاريخ الجزائر ، ج 1 — ومؤنس (حسين) — فتح العـرب للمغرب — ط . 1947 ، القاهرة .

1) انظر : فيرود (شارل) — بجاية — ص 12انها ازلية (قديمة) آهلة عامرة باهل الاندلس ومرسى مأمون (هذا يدل على ان كثيرا من التجارالاندلسيين كانوا يسكـنونها عقب تأسيسها كما كانوا يسكنون مدنا ساحلية اخرى بالمغـــرب الاوسط .

2) الادريسى — وصف افريقية الشماليـــة و الصحراوية المأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق — ط . الجزائر 1957 — ص 62 .

من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد « واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ... فاصبحت قطبا لكثير من البلاد ولها علاقات واسعة مع أوروبا (5) .

ويذكر ابن خلدون فى تاريخه 1332 ـ 1404)ان موقع مدينة بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمى بجاية أو بقاية (بقاف معقودة)فاطلق هذا الاسم على المدينة وسميت به .

بجاية فى عصر دولة بنى حماد

كانت دولة بنى حماد دولة ملوكية ، يتولى ملوكها الحكم بالوراثة ويتخذون امراء (عاملين) ووزراء وحجاب محاكاة للزيريين بنى عمومتهم للزريين الصنهاجيين الذين كانوا يحكمون افريقة (تونس) والمغرب الاوسط نيابة عن العبيديين الذين كانوا قد نقلوا مقر ملكهم الى مصر .

وكان حماد بن بلكين أول مؤسس لهذه الدولة سنة (405 هـ) وكان ولاؤها السياسى مرة للفاطميين ومرة للعباسيين تبعا لمصالحهم السياسية وكثيرا ما كان الملوك الحماديون يستقلون بامورهم ولا سيما فى عهد الملك الحمادى الناصر بن علناس (454 ـ 481 هـ) الذى بنى عاصمة جديدة لملكهم « بجاية » وسماها « الناصرية » نسبة له سنة 460 هـ بدلا من «القلعة» حاضرة البلاد الاولى التى تعرضت لهجمة العرب الهلالية .

وكان حماد وهو مؤسس الدولة يجهد فى تدعيم مملكته (1) .

وهو الذى اختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة 398 هـ (2)، وكان عهده كما قال لسان الدين بن الخطيب عهد بناء وتشييد لاسس الدولة واما الناصر بن علناس (454 ـ 481 هـ)وهو خامس ملك حمادى فكان اعظمهم ملكا وهو الذى بنى بجاية (3) .

---

3) المصدر السابق .

1) ابن خلدون : العبر ، ج 6 ـ ص 250 .

1) تاريخ الجزائر للميلى ، ج 2 ـ ص 196 .

اعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب ـ نشر الدكتور مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى ص 86 « هو نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا ، قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل » انظر بونار رابح ـ المغرب العربى ص 208 .

2) انظر المصدر السابق قسم 2 من اعمال الاعلام لابن الخطيب .

وقال عنه ابن خلدون : « بلغت جنـــوده الىدركلان واخضع بسكرة ونواحيها ، واسس بجاية سنة 460 هـ وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان مـــن اعجب قصور الدنيا ، ونقل الناس الى بجايـــة واسقط الخراج عنهم ، ثم قال « وفى ايام الناصرهذا كان استفحال ملكهم وشغـوفه عـــلى ملـك ابن باديس اخوانهم بالمهدية لما اضرع منه الدهربفتنة العرب الهلاليين وبفتنة الزمان حتى اضطرب عليهم امرهم ، وكثر الثوار منهم عليهم ، فاعتز آل حماد هؤلاء ايام الناصر هذا وعظم شانه ، فبنى المبانى الموثقة ، وشيـد المدائن العظيمـــة وردالغزوات الى المغرب ، وتوغل فيه الى ان هلك سنة 481 هـ وكان نفوذه واسعا وحدود مملكته تشمل صفاقس وقسنطينة والقيروان وتونس وغيرها»(4)

ولما تخوف الناصر من ثورة الاعراب وهجماتهم الساحقة على عاصمته « القلعة » سعى فى اختطاط بجاية وبناها على انقاض «صلداى أو سلداى» الفينقية والرومانية سنة 460هـ كما سبق وذكر ، اذ كانت من اهم مدن نوميديا فى القديم ، ثم انتقل اليها حماد واتخذها عاصمة دولته وقصدها الناس من مختلف النواحي ، فلم تلبث ان استبحر عمرانها وكثر سكانها ، واصبحت مركزا هاما لاوربا والشرق فاصبحت من ذلك التاريخ من اعظـــم مدن القطر الجزائرى وقد ازدهرت المملكة فى عهده وفى ايام ابنه المنصور فاعتبر عصره عصرا ذهبيا لكثرة العلوم وانتشار الثقافة وتشييد المساجد والمدارس والمستشفيات والقصور الفاخرة (1) .

وعلى ذكر ابن خلدون مؤلف كتاب العبر الذى كرس قسما كبيرا من تاريخه لبلاد المغرب بصورة عامة وقطر الجزائر بصورة خاصة ولا سيما الادوار التاريخية التى مرت بها حاضرة المغرب الاوسـط بجاية والمنطقة الموجودة حولها ، فاكثر ابن خلدون من سرد الوقائع واسماء الرجال والقبائل وغيرها من الفئات التى اراد ابن خلدون من وراء تسجيلها استنتاج عبر تاريخية تكون دعامـة لنظريتــه العمرانية ، فخص بالذكر الفترات التاريخيــة التاليـــة :

1 – 335 هـ/946 م وهو الزمن الذى نشأت فيه الاسرة الزيرية (زيرى بن مناد) الصنهاجية .

2 – 405 هـ وهو الزمن الــذى ظهرت فيــه الدولة الحمادية فى عصر حماد بن علناس بصورة خاصة (460هـ/1067م .

1) ابن خلدون : العبر ج 6 .

2) ابن خلدون – العبر ج 2 – ص 257 – 258 والقسم الثالث من اعمال الاعلام للسان الدين الخطيب – ص 97 (رابح بونار – المغرب العربى ص 212) .

3 ـ 546هـ/1152م وهى الفترة التى ظهر فيهاعبد المؤمن ، ملك الموحدين الذى استولى على بجاية 546/1152 واسقط فيها الدولة الحمادية ٠

4 ـ ثم يأتى عهـــد الحفصيين 626هـ/1228عندما جـــاء ابو زكريا الاول الحفصى وتأسست الامبراطورية الحفصية واحتفظت بجايـــة اثناءهابمركزها الاول حيث كان ينوب فيها عن الملك ابنه أو ولى عهده ٠

5 ـ ثم جاءت فترة القرن الرابع عشر ميلادىوهى الفترة التى قام ابن خلدون بدوره الرئيسى وبصورة فعلية وفضلا عن تسجيله حوادث هـذاالعصر الذى امتلاء بالمنازعات بين اسر ثلاث ٠

أ) بنى مرين فى فاس ٠

ب) وبنى زيان فى تلمسان ٠

ج) والحفصيين فى تونس ٠

تلك المنازعات التى عاش فيها ابن خلـدونواشترك فى احداثها وكانت نتيجتها وقـــوف التقدم العمرانى فى الاقطار المغربية وكانت بجايةفى هذه الاثناء معرضة لمؤثرات كبيرة تاريخية ولكنها ظلت تحتفظ بمركزها ولـــا هاجمهـــاالاسبانيون فى عام 1509 وجدوا فيها مقاومـــة كبـــيرة ٠

وبهذه المناسبة فاننا نجـــد اكثر الرواياتالتاريخية عن هذه الفترة فى تاريخ العبر لابـــن خلدون وقال المؤلف الفرنسى الذى كتب مؤلفا عن« بجاية » ان ذلك العمل القيم الذى قام به ابـــن خلدون بكتابه العبر ليعتبر حقا ذو فائدة ومصدراثمينا لافريقية الشمالية عامة وتاريخ هذه المنطقة بصورة خاصة وانه ليشعر بالاسف ان يقـف تاريخ ابن خلدون بما ضمنه من ملاحظات صغيرة تاريخية عن سنة 1394 م وهو الوقت الذى كان قد ترك فيه المغرب (1384 م) وبـــدأ يسكـــن القاهرة ٠ (1)

ويتبين من ذلك الدور التاريخى الذى قام به هذا المؤلف (ابن خلدون) بمتابعة تسجـــل احداث هذه المنطقة المغربية ولا سيما بجاية وماحولها وقد كتب فيها ابو العباس احمد بن احمد

1) فيرود (شارل) بجاية ـ ط ٠ قسنطينـة 1869 ـ ص 127 ٠

الغبريني في عنوان الدراية وقد جعله في نطاق تاريخ « من عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية » (2) ولكن يظل تاريخ ابن خلدون المرجع الاول لتاريخ هذه المنطقة المغربية .

ومما يجعل لهذا التاريخ اهمية ان كثيرا من الحوادث التي جرت فيه والتي بنى عليها المؤلف الى حد كبير آراءه بالنسبة للعمران هي مستقاة من هذا التاريخ ؛ ومن جملة هذه الاحداث لاحظ ابن خلدون ظاهرة كبيرة ، ربما كانت هي التي دفعته الى كتابة تاريخه الكبير « العبر » وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر وهذه الظاهرة كانت تبدو له كلما تعمق في دراسة تاريخ هذه الاقوام الثلاثة ، فقد لاحظ حركة « نزوح » سكانية كبيرة من مكان الى آخر تبعا لعوامل كثيرة لا تقع تحت حصر ، ولاجل متابعة ابحاثه لهذه الظاهرة ولظواهر أخرى تابعة لها تساعده على تعقب احداثها في تاريخ هذه الشعوب المذكورة في العصور السابقة لعصره والموازنة بينها وبين ما يماثلها من الظواهر الانسانية جميعها والتأمل في مختلف شؤونها للوقوف على طبائعها ثم الانتهاء من هذه الامور الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر من قوانين ؛ فان ابن خلدون وضع لنفسه منهاجا قوامه : **أولا** ـ جمع ملاحظاته الحسية والتاريخية لهذه الظواهر وما شاهده في بطون التاريخ عنها بشكل مواد اولية وهذا ما قام به في تاريخه للمغرب وغيره وسماه العبر . **ثانيا** ـ والطريقة الثانية في منهاجه هذا هي عرض جميع القوانين التي كان لها أثر في تحريك هذه الظاهرة والظواهر بشكل يدخل في عمليات عقلية يجريها المؤلف على هذه المواد الاولية المجموعة في تاريخه والتي جعلها اساسا لاستخلاص « علمه الجديد » الذي انشأه ابن خلدون منذ اكثر من خمسة قرون وهو منقطع النظير : يحوم عليه العلماء حوله ، ولكن بدون ان يستطيعوا الاتيان بمثله في شموله واستيعابه لجميع ظواهر الاجتماع الانساني ، وسلامة منهجه ودقة اغراضه ووحدة بنيانه » . (1)

تلك الظاهرة في نزوح أهل الاندلس الى ثغور المغرب وخاصة « بجاية » وما جاورها من ثغور لفتت انظار ابن خلدون وقد كانت شديدة التأثر على عقليته ، اذا استرعت هذه الظاهرة ـ ظاهرة الهجرة انتباهه وايده في ذلك كثيرون ومن جملتهم المؤرخ الكبير « المقري » صاحب كتاب نفح الطيب

---

1) الغبريني (ابو العباس احمد ابن احمد) ـ عنوان الدراية ـ تحقيق رابح بونار ، ط . الجزائر .

1) د . علي عبد الواحد وافي ـ تحقيق مقدمة ابن خلدون ج ، 1 ـ ص 264 ـ ط . 1965 .

اذ قال : « ان حصر اهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا حال » وكان ذكر فى كتابه جماعة كبيرة من هاجر الى المغرب والمشرق • وهنالك مؤلف آخرصاحب كتاب « عيون الدراية » الذى ذكر كثيرا من تراجم العلماء ببجاية فى المائة السابعة للهجرةوهم من علماء بجاية الاصلاء أو الوافدين عليهــا وهم كثيرون • (2)

واذا اعدنا هجرة العلماء الاندلسيين الى حواضرالمغرب وافريقية وثغورها وخاصة بجاية لاسباب فمنها التدهور السياسى الـذى اصاب الاندلسعقب سقوط الدولة الاموية (430هـ) وقيام ملوك الطوائف (430 ـ 480 هـ) واستفحال « المد أو الردة المسيحية » الـــتى اسماها الاسبانيون بالركونكيزيتا وكانوا يقصدون بهذه الحركـــة « استرداد » البلاد ، وهؤلاء العلماء هم أول من يشعر بحافز للهجرة من الاندلس الى المغـرب الاقصى وافريقية وخاصة المغرب الاوسط لقرب ثغوره للهجرة الاندلسية وحسن استقبالها لهـم،وذلك رغبة منهم فى الاستقرار واستئناسا بالوضع السياسى الذى تكون فيه السلطة الاسلامية قوية مهيبـــة • (3)

ومن الاسباب التى جعلت كثيرا من اعـــلام الاندلس يهاجرون الى حواضر المغرب ولا سيمــا بجاية بالذات هو ما حكـــاه صاحب المعجب فى اخبار المغرب عندما قال ان سقوط الاندلس فى يد المرابطين (488 هـ ـ 530 هـ) على يد يوسف بن تاشفين كان فاتحة خير وبركة على النهضة الثقافية والحضارية فى المغرب ، حيث هاجر كثيرمن اعلام الاندلس الى المغرب مقر السلطة الحاكمة ونقلوا معهم حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم (4) •

2) عنوان الدراية ـ لابى العباس احمد بن احمد بن على الغبرينى ـ تحقيق رابح بونار ، ط • الجزائر ، ص 26 ـ 29 •

3) عنوان الدراية ـ تحقيق رابح بونان ـ ص 27 ، انه يروى عن ابن رشيق المسيلى القيروانى انه قال :

مما يزهـــدنى فى ارض انـــدلس ... أسمــاء معتصــم فيها ومعتضـــد
القــاب مملكــة فى غـــير موضعهــا ... كالهـر يحــكى انتفــاخا صولة الاسد

وهذا يعبر عن راى كثير من علماء الاندلس انفسهم ممن غادروا الاندلس فى هذه الفترة وبعدها •

4) المراكشى عبد الواحد ـ المعجب فى اخبار المغرب ـ ص 864 ، اذ قال : « فانقطع الى امـير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه مـن اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق فى عصر من الاعاصير ، فصارت مراكش منـتدى الادبـاء والشعراء •

ولاشك ان بجاية كانت فى ايـــام الدولـــةالحمادية وبعدها تنافس مراكش فى ازدهارهمـــا العلمى والادبى وقد وفد عليها كثيرون من الاندلسوالقيروان ولم يكن عهد الموحدين بأقل نصيبا من المرابطين فقد كثر اتصال الاندلسيين بحواضر المغرب وصارت الامبراطورية الموحدية تستهوى وتستقبل اعلام الادب والفلسفة وقد استقر ببجايةوتلمسان وغيرها نخبة من اعلام الفقـــه والادب والتصوف والفلسفة فأفادوا اهلها واستفادوامنهموعلى سبيل المثال نذكر الصوفى الكبير ابى مدين الذى استقر ببجاية فى منتصف القرن الخامسمدة طويلة ثم انتقل الى تلمسان 591 هـ وكذلك عبد الحق الاشبيلى المحدث الكبير الذى نزل بجايةوتوفى فيها فى آخر القرن السادس للهجـــرة وكثيرون غيرهم حتى ان ابا عـلى المسيلى اشار الى كثيرين منهم (1) جاءوا الى بجاية .

واذا تحدثنا عن المرابطين والموحدين اثرهـمفى احتوائهم لهذا التراث المنقول من الاندلس الى المغرب عن طريق الهجرة ، فيجب ان لا نغفـــلعن دور الحفصيين الذين كانوا من اشد الناس التصاقا بعبد المؤمن زعيم الموحدين و « كـانالشيخ ابو حفص كبير هنشاتة زعيم دولتهم وولوه (الموحدون) على اشبيلية وغرب الاندلس مرارا ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها فى ايامهم ، ثـم ابنه زكريا حيث كان لابن خلـــدون باشبيليـــة اتصال بهم » . (2)

ثم يتابع ابن خلدون فى كتابه « التعريف » انالامير ابو زكريا انتقل الى ولاية افريقية فى سنة 620 هـ ودعا لنفسه وخلع دعوة بنى عبد المؤمنسنة 625 هـ واستبد بافريقية وانتقض حكـــم الموحدين بالاندلس فاضطربت البـــلاد وازداد الضغط المسيحى وقوى مدهم وازدادت الهجرة وكان بنو خلدون من جملة الذين ساءت عاقبتهم مع الطاغية وارتحلوا من اشبيلية الىالعدوة ونزلوا سبتة وجاء احد اجداده (الحسن بن محمد) الى ابىزكريا لما كان بين سلفه وبنى خلدون من سوابق فاكرمه وفرض له الارزاق وكان احد السلاطـينالحفصيين (ابى اسحق) جعل ابنه (ابا فارس) نائبا عنه فى بجاية فجعل محمد جد ابن خلدون حاجبا له ؛ وهكذا نشأ ابن خلدون فى المغـرب حيث ولد فى تونس عام 732 هـ وبينه وبـين آل حفص الحاكمين فى هذه المنطقة من الصلات

1) المغرب العربى تاريخه وثقافته ـ لرابح بونار ـ ص 28 ، فقال : ابو على المسيلى انه « ادركت سبعين أو تسعين مفتيا ما منهم الا وله اطلاع كبير... ولا شك ان من هؤلاء المفتين جماعة مـــن الاندلسيين اختاروا بجاية محل اقامة وتعليم » .

2) التعريف بابن خلدون ـ ص 9 .

الطيبة ما جعله يقوم بنشاط سياسى ملحوظ فى هذه الفترة التى عاشها فى تلك البلاد وكانت سنة 749 هـ وهى التى انتشر فيها الطاعون والــذى ذهب بوالده وبكثير من مشايخه واساتذته الذين اخذ عنهم العلم ٠

وبقيت الدولة الحفصية منذ 625 هـ ــ 1228م الى 915هـ/1510م عندما دخلت العساكر الاسبانية الى بجاية واستولت عليها ٠

تاريخ ابن خلدون فى بجاية وما حولها والــدور الذى قام بــه فى هذه الفترة :

يبدأ تاريخ ابن خلدون بالذات عندما استولى الموحدون (1) ، على الاندلس وملكوها مــن يــد المرابطين ، وكان ملوكهم : عبد المؤمن وبنيه وكان الشيخ ابو حفص زعيم دولتهم وولوه على اشبيلية وغيرها وكان لسلف ابن خلدون باشبيلية اتصال بهم(2) فلما اضطربت الامور فى الاندلس وخشى بنو خلدون كغيرهم سوء العاقبة ارتحلوا من اشبيلية الى العدوة ونزلوا سبتة ولما كان لجد ابن خلدون (الحسن بن محمد) سوابق من سلفه عند الامــير ابى زكريا الذى كان انتقل الى ولاية افريقية سنة 620 هـ ودعى لنفسه بها وخلع دعوة بنى عبــد المؤمن واستبد بافريقية فانه قصده وقدم اليه فاكرم قدومه (3) ٠

وكما يذكر ابن خلدون نفســـه فى كتابــه « التعريف » فانه ولد فى تونس سنة 732 هـ ونشأ فيها ولا يعد الامر غريبا اذا تهيأت له الظــروف كلهــا لتمهد له الطريق ليتعلم ويدرس على اساتذة العلوم العقلية والنقلية وان يأخذ كثــيرا من هذه العلوم وهو فى مقتبل العمر وعن مشائخ اشتهروا بالادب والفقه وعلوم الدين ؛ وحــدث فى زمانه حادثان عاقاه عن متابعة دراسته وكان لهما اثر بليغ الاول حادث الطاعون الذى انتشر سنة 749 هـ والحادث الثانى هلاك والديه فى هذا الوباء وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره وهلاك الكثيرين من اساتذته ٠ ولهذا كان لا بد له

1) تبتدىء دولة الموحدين بالمغرب سنة 564 على يد مهدى الموحدين محمد بن تومرت وتنتهى سنة 668 هـ وامتد سلطانها الى الاندلس من سنة 540 هـ ــ 609 هـ ٠

2) ابو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتانى أول التابعين لمهدى الموحدين من بين قومه ، والمختص بصحابته ، وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ والى هذا تنسب الدولة الحفصية بافريقية انظر (التعريف بابن خلدون ــ ص 9) ٠

3) التعريف بابن خلدون ــ ص 11 ٠

من جراء ذلك ان يتطلع الى تولى الوظائف العامة والاشتراك فى شؤون السياسة ويسير فى الطريق الذى سار فيه اجداده ٠

غير انه يبدو ان نفسه كانت تواقة الى ركوب الاخطار للوصول الى ما لم يصله أحد قبله ، وكيف الوصول الى ذلك والوسائل غير ميسرة له كلها بتونس لمتابعة دراسته والتبحر فى العلوم ، وكان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى اثناء رحلاته سواء فى تونس أو بجاية أو فاس أو غرناطة ، فاينما سار كان يجد متسعا لاشباع رغباته الكامنة فى نفسه وهى رغبات عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية ، فافاد بها التراث الانسانى ايما فائدة ؛ ولا غرابة فى ذلك فبيته عريق بالحسب والنسب وسبق لجدوده ان تقلدوا أعلى المناصب فى الدول التى هيمنت وسيطرت على مناطق كثيرة وفى ادوار مختلفة سواء فى الاندلس أو فى افريقية ٠

ليس المقصود فى هذا المقال سرد تفاصيل حياة ابن خلدون لانه ذكر فى أوله انه هو قام بتعريف نفسه والشىء الذى نسعى لايجاده فى حياة ابن خلدون هو الدور الذى قام به فى حياته الحافلة بجميع الاحداث فى تاريخ المغرب وفى فترة خطيرة جدا وغيرت مجرى التاريخ ، فرجل ذو عقلية فائقة ونظره فى الامور حادة ثاقبة وتوفرت له جميع السبل للوصول الى اعلى المراتب ، فلا بد وان يكون له دور فى التاريخ ، والحق يقال ، فانه لم يقصر فى هذا الحقل فقد ترك مأثرة خالدة بكتابة البلاد التى عاش فى احداثها فكان تاريخه الاول والاخير وكثيرون يأسفون لانه لم يطل عمره وقد عاش عمرا مديدا لانه توقف عند حوادث 1394 م فجرت احداث كبيرة بعد ذلك ولكن لم يكن هنالك رجل كابن خلدون يكتب عن تاريخ بجاية والمغرب ودوله واقوامه وما تقلب عليهم من تطورات سواء فى السياسة أو غيرها ، هذا دور سجل فيه ابن خلدون ما جرى على بجاية وشقيقاتها من ثغور المغرب وانه لدور عظيم جدا ٠

يتوارد السؤال الآتى بصدد الكلام عن ابن خلدون والدور الرئيسى الذى قام به ؛ فهل ترك مأثرة خاصة فى السياسة وهو الذى تقلب فى ادوارها وعرك جميع أحوالها فهى لم يتبوأ ملكا ولا ادار حكومة فيخلف ذكرا خالدا من اصلاحات أو انجاز مشاريع حيوية لبلاده أو انه قام بفتوحات تسجل له فى التاريخ كشأن الملوك والقادة العظماء ؟ ان ابن خلدون قام بعمل لا يستطيع غيره القيام به فما هو هذا العمل ؟

وانه ليفهم من مطالعة ما كتبه ابن خلدون سواءفي النواحي التاريخية او السياسية أو العلميـة انه كان دائما يحمل في نفسه رغبة ملحة شغلتعليه نفسه طيلة حياته وفي جميع الادوار الـــتي اشترك في احداثها • ولنفهم ما كانت تنطـــوي نفسه عليه من رغبات وما يدور في رأسه مـــن آراء ، فلا بد ان نشير الى الظاهرة الكبيرة التي اشرنا اليها سابقا وهي « حركة نزوح » كبيرة من أرض الى أرض ومن قطر الى قطر ، حركة مستمرةفي التاريخ ، لفتت انظاره فجلس يفكر ويفحص لعله يجد اسبابا حقيقة لهذه الظاهرة الكبـيرة ،وهذا واقع مؤثر ترك في حياته اثرا بالغا فقد رأى ارض اجداده تنهب ويذهب معها المجد ومعه كل شيء ؛ كانت الاندلس جنة نعيم واستدامت النعمة طويلا فأخذت تزول تدريجيا وهو بالطبع أخـــذيشعر بهذه الحركة وهي تتطور وتنتقل الهجـــرة الى افريقية والمغرب بطرفيه وقد سار معها فانتقلابن خلدون من مكان الى آخر في رحلات واسفار كان احيانا يساق اليها سوقا وعاد الى الاندلسوزارها واطلع على آثار سلفه وتحدث مع أناس كثيرين وهو بالطبع اثناء ذلك يعالجالموضوع الكبيرويحاول الجواب على السؤال ، ماذا يجري في هذا الجزء من العالم وهل هنالك قانون أو قوانين تسير الكائنات ولماذا لا يجد المجتمع بملوكه وطوائفه وعلمائه مخرجا من ذلك المازق الذي دخل فيـــه الناس في الاندلس والمغرب وفي غيرها من البلاد• هذا هـــو الموضوع الذي كان يقلبه في ذهنه •وعندما اعتكف السياسة وقد ناهز الاربعين أو اكثر من عمره ورأى في سبيله في الحياة عقباتلم يستطع التغلب عليها فانه تفرغ للتأليف في قلعة « ابن سلامة » فشعر ان الافكار اخذت تأتيه كشآبيب الغيث المنهمر وبقي من سنة 776 هـ الى 780 هـ اتم فيها كتابة « العبر » وانجز وضع ماكان يفكر به من آراء حول العلم الذي استنبطـه وهو العمران اشهرا فقط فخرج من بين يديـهمؤلف فريد في بابه •

ولتاييد ما جرى لابن خلدون في حياته منتصرفات في ميادين السياسة أو غيرها ، يلزم علينا سرد تاريخ منفصل لاعماله نذكر فيه كـــل حادثة أو مناسبة جرت له ونعللها ونقلبها مـــن وجوه عديدة ، لا سيما وان المؤلف لم يترك لنا بابا نولجه أو طريقا نسلكه بهذا الشأن ؛ فهـــو لا شك لم يعتزل الحياة العملية السياسية ليتفرغ للكتابة لمجرد ذلك لان الاثر العميق الذي تركته احوال بلاده استأثر عليه كل افكاره واعماله ولميعرف عنه انه سعى لمجد مؤثل او ثروة طائلة أو صيت ذائع أو الجلوس على ارائك وثيرة لان الاسفارالتي قام بها والمهمات التي اضطلع بها تكـــاد تؤدي بحياة اشد الناس عزيمة واقواهم جسما ،فهو في الحقيقة يظل يجهد نفسه وكان يعمل في

سبيل تحقيق هدف وانجاز عمل يكون من ورائهأثر كبير للعالم وليس هو بالفيلسوف المثالى ولا بالمستبد برائه وقوله وفى تنفيذ قراراته ، مـع العلم انه اينما حلواستقر كانيحتل مركز الاهتمام والاحترام لعلمه ولفضله الجم وهذا ما سجلـــهله التاريخ فى جميع المناسبات وهى كثيرة ومنها :

اعمـــال ابن خلـدون

أولا : انه قبل الوظيفة فى ديوان السلطـــانالفضل بن السلطان يحيى الحفصى واستـــوزر بن تافراكين الذى ولى ابن خلدون فى سنة 750هـ/ 1350م وظيفة«كتابة العلامة»ومع ان هذا لا يقتضى الكثير من العمل ولكن قبول ابن خلدون بهـــذهالوظيفة لاول مرة فتحت له الباب لمجالسة اهـل الدولة والاطلاع على خفايا الامور الادارية وغيرهامن شؤون الحياة العامة ، والمعروف ان بـــين آل خلدون والحفصيين من المودة والصلات الطيبةما جعل المؤلف يقبل هذه الوظيفة وكلهم فى النكبة سـهـــواء ٠

ثانيا : انه اتصل بالسلطان ابن عنان فاكرم وفادته واخذ يظهر ولاءه ، فعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى بفاس حيث اقام هنالك عام755 هـ وافسحت له هـذه المناسبـة ليطلع على احوال المغرب الاقصى بعد ان عرف المغرب الادنىوالاوسط وفى اثناء ذلك كله لا ينصرف عن الدرس والتدريس ومتابعة قراءة الكتاب ومحادثة العلماءورجال الدولة ويختلف الى مكتبات فاس التىكانت من اغنى المكتبات الاسلامية فاتسع اطلاعه ٠ وكان لزيارته لفاس اثر طيب فى نفسه اذ قال :

« وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة مناهل المغرب واهل الاندلس الوافدين فى غـرض السفارة (أى السفارة بين امرائهم وسلطانالمغربالاقصى) وحصلت من الافادة منهم على البغية »(1) ـويبدو من كلامه انه اثناء هذه الاقامة فى فاساخذت تتكشف له النظريات التى كانت تشغل باله عن احوال البلاد فى الاندلس والآن فىالمغربالاقصى وقبل ذلك فى المغرب الاوسط ٠

ثالثا : انه بعد اقامته نحـو سنتين فى فاسشعر انه يستطيع التحرك سياسيا ليتمم بغية لم يفصح عنها فقد اتفق مع الامير الحفصى ابو عبد اللهمحمد الحفصى صاحب بجاية المخلوع ، وكان اسيرا فى فاس وجرى بينهما التفاهم على ان يوليهمنصبالحجابة (وهو ارقى منصب فى الدولة) ويسعى

1) التعريف ــ 59

لتحريره واسترداد ملكه (2) . ولم يفعل ابن خلدون ذلك الا وهو يعلم نتائج عمله وبعد ان كتب كتابه الكبير « العبر » يظهر من آرائه هدف بعيد شعر انه قد يتحقق اذا عاد الامير المخلوع الى بجاية وهى المنطقة التى بعث كحاضرة لعالم جديد حتى ان مدينة بجاية اصبحت كعبة الرواد من جميع الاصناف وظهر عليها من العمران ما جعل المؤلف يفكر بأن يضعها محورا لمشروعه العلمى أو بالاحرى « نظرية العمرانية » ويعرف ما بينه وبين الدولة الحفصية من العلاقات الطيبة فاذا نزح العمران عن قرطبة لماذا لا يكون مستقره فى بجاية وفيها جميع اسباب الازدهار والعمران حسبما كان يفكر ابن خلدون بالطرق التى أوجزها فى كتابه الاول من كتاب « العبر » .

رابعا : انه لم يكف عن السعى لتحقيق بغيته وبعد ان رأى مشروعه الاول مع الامبراطورية الحفصية فلماذا لا يجادل مع الدولة المرينية ورأى ان الفرصة كانت تسنح له وذلك ان أبا سالم بن ابى الحسن كان يسعى لاسترداد العرش فعبر من الاندلس حيث كان اخوه ابو عنان قد نفاه الى المغرب وارسل الى ابن خلدون يقوم ببث دعوته والتمهيد لاستلائه على السلطان ومن ثم ينزله اعظم منزلة وجلس ابو سالم على العرش بفضل جهود ابن خلدون سنة 760 هـ وعين ابن خلدون فى كتابة سره وجعله موضع ثقته وعطفه(3) وظل ابن خلدون عامين فى كتابة السر والانشاء والمراسيم للسلطان ابى سالم وقد غير ابن خلدون فى طرق الكتابة ولعله بدأ يخط مشروع كتابه « العبر » ويبنى لنظريته العمرانية الاسس لتطبيقها أو الاعلان عنها شيئا فشيئا ولكن اخيرا قام رجال الدولة واولو الرأى بثورة على السلطان ابى سالم وانتهت الثورة بخلع السلطان وتولية اخيه فخاب أمل ابن خلدون ثانية وقرر الرحيل عن فاس ؛ وكأنه اراد اجراء محاولة ثالثة فى ابن حمو من بنى عبد الواد فى تلمسان والآن وقد فشل مع الحفصيين والمرينيين وهنا أيضا لم تنجح خطته فمنع المرور بطريقه على ابى حمو فى تلمسان وذهب الى غرناطة بالاندلس فى عام 764 هـ بعد ان قضا ابن خلدون بالمغرب الاقصى نحو ثمان سنين وفى غرناطة جرت له سفارة بين ملك غرناطة وملك قشتالة « لطهره بن الهنشة بن أذقونش » . (I)

2) كان ذلك فى سنة 758 هـ واطلع ابو عنان على هذا التدبير فسجن الامير وابن خلدون واطلق سراح الاول وبقى الثانى فى السجن مدة عامين واطلق سراحه بعد وفاة السلطان ابن عنان عام 759 هـ .

I) التعريف ــ 70 .

2) تحقيق المقدمة للدكتور على عبد الواحد وافى ــ ص 78 .

خامسا : لا شك ان ابن خلدون اثناء اقامته فى غرناطة وذلك فى سنة 764 هـ كان يكمل من كتابه ما كان ينقصه من اطلاع وتثبيت لما شاهده فى الاندلس ولا سيما فى اشبيلية موطن اجداده ولا يعلمنا المؤلف ماذا كان يدور بين الشيخين الجليلين ابن خلدون وابن الخطيب وهما يملكان قدرة عقلية فائقة ولا بد انهما تناقشا فى شؤون البلاد كلها ومستقبلها والاخطار التى كانت تحدق بها وهما اعلم ببواطن الامور وفى هذه الاثناء وافق وقت وجوده بغرناطة ان ابا عبد الله محمد الحفصى ـ امير بجاية ـ وفيها الحبيب والمحبوبة لدى قلب ابن خلدون واليهما يستطيع ذلك الفكر المتوقد والعالم المتبحر وزاد العزيمة القعساء التى لا تعرف الوجل والكلل لان الامر هام وخطير والعمر قصير وكان لابد ان يتحفز ابن خلدون مرة ثانية وقد سنحت له الفرصة فقد عاد ذلك الرجل الى ملكه واستولى على عرش بجاية من سنة 765 هـ ولم ينس هذا الامير ابن خلدون ولم ينس الوعد الذى كان قد قطعه معه بان يوليه الحجابة اذا تم له استرداد عرشه .

ولما كتب الامير الحفصى الى ابن خلدون قرر السفر فى سنة 766 هـ وركب البحر من المرية الى بجاية فى منتصف سنة 6 7هـ وقضى فى الاندلس نحو سنتين ونصف سنة ، وهنا فى بجاية بدت الامور تسير حسبما كان يشتهى ويفكر فاستقبله الامير والناس وولاه الحجابة وصار صاحب السلطة الاولى بعد الامير ويقول ابن خلدون انه رغم قيامه بتصريف الامور كان لا ينفك عن المطالعة والتدريس بجامع القصبة (2) واستفاد من اقامته هنا انه اتصل بالناس وخالط القبائل وعرف نزعاتها واهوائها ولكن الامور تسير على غير ما يهواه فتنشب الخصومة بين الامير ابى عبد الله أمير بجاية وابن عمه السلطان ابى العباس احمد صاحب قسنطينة الذى كان يرغب فى امتلاك بجاية لاهميتها فقام بمساعدة القبائل وهاجم المدينة سنة 767 وقتل ابا عبد الله ؛ اما ابن خلدون فقد خاطبه الناس لاستلام زمام الامر والبيعة لبعض ابناء السلطان الصغار ولكنه رفض مسايرة القوم فى بجاية وفضل الخروج الى السلطان القادم الجديد ابى العباس الذى اقره فى منصب الحجابة واخيرا وجد ابن خلدون خوفا من بطش السلطان به ان يخرج من بجاية وينزوى فى « بسكرة » وحاول « ابى حمو » فى تلمسان استمالة ابن خلدون واستخدامه ولكن الاخير علم ان بغيته التى تدور فى نفسه لم تتحقق فعزف عن قبول الوظيفة لدى « ابى حمو » وفضل كتابة

1) التعريف ـ 98 .

ما كان يفكر به فى كتاب يرضى بذلك نفسهواكتفى بالرد على ابن حمو بان اجابة لبث الدعاية بين القبائل من اجل استلائه على بجاية التى اصبحتفى ذلك العصر حضرة المغرب كله لما جاء اليها من العمران وتوافد عليها الناس من الاندلسفعاد ازدهارها الذى شهدته فى ايام الدولة الحمادية واكثر فازدادت صلاتها مع العالم ولا سيما أوربا وازدادت تجارتها فاصبح المغرب الاوسط وكانه اندلسيا ثانية من ناحية العمران والسكانأما ابن خلدون فقد انعكف فى قلعة بنى سلام لتأليف كتابه مرة اربع سنوات واربع اخرى راجع كتابته فى تونس وذلك قبل الرحلة للشرق

التعريف « بعلم العمران »

عرفنا ابن خلدون ببجاية حاضرة المغرب من خلال قراءة تاريخه وسنعرفهما الآن عن طريق معرفة علمه الجديد الذى استبنطه وسماه « علم العمران » وقد اشتهر ابن خلدون بتاريخه الذى لا يقل اهمية بالنسبة للمغرب عن علمه ، ولنعرف الآن ماذا اراد المؤلف بوضع هذا العلم الذى استخرج الاسس الهامة فيه من تاريخه الذىضمنه كتابه المشهور بالعبر فانه يجدر بنا العودة الى موضوع « حركة نزوح » الاندلسيين الى المشرقواستيطانهم فى المغرب وقد لاحظ ابن خلدونهذه الظاهرة العجيبة وتابع تطوراتها وكانت نتيجةدراسته هذه فى « نظرية عمرانية » وضع فيها خلاصة أفكاره وما توصل اليه من آراء تساعدهعلى فهم سيرها لا فى المغرب فقط بل فى العالم كله . فما هى هذه النظرية وما هو هذا العلم ـ علم العمران ـ وما هى اهميته ؟

قال ابن خلدون فى تعريفه للعمران بما يلى :

« انه هو التساكن والتنازل فى مصر أو حلة للامس البشر واقتضاء الحاجات » وسمى هذه العملية « عمرانا » لان الآية الكريمة تقول :

« ... يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيرههو انشاكم من الارض واستعمركم فيها » (1) .

وانطلاقا من هذا المعنى اخذ ابن خلدون يدرس التاريخ ، تاريخ بلاده أولا وخصه بالاهتمام لانه استطاع ان يطلع على حوادثه ووضع لنفسهمنهاجا لدراسته فاخذ يجمع اثناء رحلاته فى البلاد ملاحظاته الحسية وما شاهده من آثار هذهالظاهرة كمادة أولية ثم اخذ يستخرج منها مسائل

1) القرآن الكريم سورة هود ، 61/11 .

كثيرة انتهى من دراستها الى اكتشاف قوانين عامة تتحكم بسير هذه الظاهرة التى بدت له انها ازلية وهى باقية ما بقى فى الوجـود اجتمـاع بشرىووجد ابن خلدون ان هذه الظاهرة احيانا تأخذ اشكالا مختلفة على حسب البيئة والعصر الــذىتأخذ سيرها فيه فاحوالها هى احوال البشر فى معاشهم وصناعاتهم واعمالهم الاخرى التى تظلفى جوهرها واحدة وهذا ما دعى بعض المؤرخين ان يقولوا ان التاريخ يعيد نفسه والحقيقـة انالحركة العمرانية واحدة ولكن العادات والنظم تختلف بحسب الظرف الذى يحيط بها فشبه ابنخلدون ذلك بالاحداث الماضية وهى تماثـل ما يحدث الآن وسيحدث غدا بالماء دائما يشبه الماءوانما يختلف الاناء وما كانت وظيفة التاريـــخ دائما الا انه كالجراب يستوعب ما جرى من حكمةأو عبرة عبر العصور كلها ٠

وعلى ذكر الحركة العمرانية هذه التى لاحظهاابن خلدون فى الاندلس والمغرب وجد انها قـد تكبر وتصغر وتسرع وتبطىء وفقا لظـروف أوصروف الدهر واحواله فالانسان المدنى أو الحضرى أو البدوى سواء فهو سائر فى حركة عمرانيـــةوالاختلاف بين الاثنين نسبى تماما فما اندفـــع المسلمون من جزيرتهم العربية الا انهم شعـــروابحركة خفية تدفعهم وربما كانت الحاجة أو الدعوة الاسلامية التى زادت فى سرعة سير هذه الظاهرةولكن ابن خلدون يقول بان الحركة العمرانية تسير بدوافع اخرى غير دينية بدليل وجود العمران منالازل ٠ وعلى هذا الاساس فان «نزوح» الاندلسيين امر طبيعى لان القوانين التى تتحكم بالحركـــة العمرانية طبيعية ازلية سماها ابن خـــلدون « بطبائع العمـــران » ٠ وتنازلهم وتساكنهم فىالمغرب الاقصى وعلى سواحل المغرب الاوسط وفى غيره من المناطق امر طبيعى وقد ثبت هذا الامــر بشكل واضح فى ازدهار مدن المغرب الاوســط وخاصة بجاية التى شاهد ابن خلدون مظاهر هذهالحركة العمرانية باجلى مظاهرها ٠

وعلى سبيل المثال والتأكيد فلم يكن الفتح العربى الا امتداد لحركة عمرانية واسعـــة لان البواعث لها كثيرة وقوية واقوى شىء فيها «الدعوةالاسلامية » وقد تقتصر الحركة العمرانية عـــلى نطاق ضيق فتظهر فى حياة مدينة تظهر وتزدهر ثم تندثر أو كانت احيانا تتباطؤ وتكسل فيقل عمرانها الى ان يأتيها الرفد من السكان وتنصبسياجا لها بتوطيد ملكها فتعود تتحرك وتواكب ركب « الحضارة » والامر بالنسبة لابن خلـدونعبارة عن معرفة وعمل وادراك ما هو حسن واحسن وفاضل وافضل ٠ ونتيجة لهذه النظرية العمرانيةفكلما تبحر الانسان فى العمران وقارب الحضارة واصبح عمله لا للعمل خالصا بل للعمل للبذخوالترف كان سيره معاكسا لحركة العمران الفلكية

وهو قد لا يجد نفسه مندحرا متدهورا ولكن يجد نفسه امام كوارث لا يفهمها وهو كان من ناحيته السبب فى وجودها لانه لم يساير ولم يتلاءم مع شروط سير هذه الحركة فيجد نفسه فى ارض غير ارضه وحضارة غير حضارته وعصر غير عصره فلا يعلم ماذا يفعل ويشعر بنفسه تائهة حائرة وهذا ما حدث لشعوب وحضارات اندثرت وحلت مكانها شعوب وحضارات جديدة ٠

قلنا قبلا ان ابن خلدون لم يميز العمـــران الحضرى عن العمران البدوى الا باختلاف طبيعة العمل بالنسبة للمعاش فالبداوة بهـــذا المعنى حضارة ولكنها تختلف فى سيرها بالنسبـــة للحركة العمرانية ولم يكن الفتح العربى للمغرب والاندلس طمعـــا بارض أو مال وانمـــا تهيـأت الظروف سواء من ناحية بلاده او من ناحية البلاد المفتوحة التى ساعدت عـــلى هذا المد الاسلامى العربى وبعد ثلاثة قرون تقريبا من الفتح أخـــذ سكان الاندلس ينعمون بترف زائف ولم يعـــد عمل الناس يصرف من اجل العمل الـــذى هو الضمان الوحيد لحفظ النوع كما هـــو الامر فى الكائنات الاخرى فشعروا بتقاعسهم وتخاذلـــوا امام مد جديد من طرف الاسبان فتحركوا نحـــو الناحية الضعيفة بالنسبة لهم ووراءهم « دعوة » أو عصبية كما يسميها ابن خلدون ولم يكن المد الاسبانى موجها للمشرق بل اجتاز البحـــر الى مجاهل افريقيا وامريكا ويقال ان « كورتز » فاتح المكسيك عرض على ملك الاسبان معاودة فتـــح الجزائر بعد ان فشل شارل الخامس فى فتحهـــا 1509 هـ على شرط ان يتركوا الحكم له فيها فرفض طلبه ولا نغالى ونحن بصدد هذه الحركة العمرانية اذا قلنا ان المد الجديد فى المغرب وخاصـــة فى الجزائر يشير بمستقبل زاهر لان الهمم اخذت تشحذ لمباشرة العمل المثمر والعمل لاجل العمل الذى هو احد مقومات العمران حسب نظرية ابن خلدون العمرانية ولا يبعد بنا الزمن الا ونرى ان البلاد الجزائرية بما فيها من مدن وقرى ومؤسسات تسير وفقا لطبائع الحركة العمرانية التى وضع لهـــا ابن خلدون « علم العمران » وهو علم جديد ووضح كل رسالته فيه ٠

ثمـــرات النظرية العمرانية :

وتوصل ابن خلدون الى تحقيق انجاز علـــمى بالاضافة الى « علم العمران » الذى استنبطه وكان من ثمرات دراسته لهذا العلم انه اكتشف معنى للتاريخ ارتفع بموجبه الى مرتبة العلوم أو الفنون، اذ ان العمران بمفهوم ابن خلدون لا يتم الا بجمع ما توصل اليه الانسان منذ القديم من حصيلـــة

عمرانية سواء كانت بطريقة الجمع أو الاتعاظ بهاعلى سبيل « العبرة » فالعمران بحوادثه هو المبتدأ وما التاريخ الا وهو « الخبر » .

وكذلك ظهرت ثمرة ثالثة على هامش « علـم العمران » أخذ يولى العلماء اهتمامهم بها حديثا وهى « الثقافة » وهى مجموعة ما يتوصل اليـه الانسان من نظم ومعرفة واصول وعادات وغيرها فتصبح على مر العصور « حصيلة » لما قام بـــه الانسان منذ القديم فيودعها تاريخه الذى المنا اليه وبهذه الوسيلة وبطريقة العمران يستطيع الانسان ان يتعرف على وضع بلاده فى « المسيرة العمرانية » بواسطة اجراء دراسات ثلاثة متلاحمة متلائمة دراسة عمرانه وتاريخ عمرانـــــه والثقافة التى تربط بين الاثنين فاذا كانت البلادوالشعوب التى تعيش فيها تسير وفقا لطبائـــع العمران العامة فانها ولا بد باقية وخالدة ايضا .

دقة ابن خلدون وصرامته

- في شؤون العلم والقضاء
- ومرونته في شؤون السياسة

مظهران لهذه المرونة وفي توليه أمور بجاية ، وفي لقائه مع تيمورلنك

د٠علي عبد الواحد وافي
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس
المغرب

من اهم صفات ابن خلدون انه كان يلبس لكل حال لبوسها اللائق بها ، ويقف حيالها الموقف الموائم لشئونها :

ففي ميادين البحث الاجتماعي كان يجرد نفسه من جميع الافكار المسبقة ، ويدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية ناظرا اليها على انها اشياء ، ويجري مناهج البحث العلمي على معطياتها للوقوف على حقيقتها ووظائفها وطرائق تطورها وما تخضع له في مختلف اوضاعها من قوانين بالمعنى العلمي لكلمة قانون ٠ فاستحدث بذلك في دراسة هذه الظواهر علما جديدا لم يسبقه اليه احد من الباحثين من قبله وهو ما نسميه الآن علم الاجتماع أو «السوسيولوجيا» لان قوام هذا العلم هو دراسة هذه الظواهر بهذا المنهج ولهذه الاغراض ٠

وفي هذا يقول هو نفسه : « واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنفة غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أكثر عليه البحث ، وادى اليه الغوص ٠٠٠ وكانه علم مستنبط النشاة ، ولعمري لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة » (1) ٠

وكان في بحوثه التاريخية يمحص ما يصل اليه وما يطلع عليه في بطون الكتب من الاخبار تمحيصا دقيقا ، ليميز بين غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها ، فيستبعد منها ما تحوم حوله شبهة

1) المقدمة تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، الجزء الاول صفحة 414 ٠

الكذب المتعمد الذى تدفع اليه عوامل كثيرة منها التزلف والتملق للملوك والرؤساء وذوى الجـاه او شبهة الكذب غير المتعمد الذى يحدث نتيجة للتشيع للاراء والمذاهب ، ويستبعد كذلك ما تحكم قوانين الطبيعة او قوانين علم النفس او قوانين الاجتماع او العادات المألوفة باستحالة وقوعه ، وقد ضرب لذلك كله امثلة كثيرة من مغالط المؤرخين فى فاتحة مقدمته (1) ولا ياخـذ مما يبقى بـعد استعباد هذا كله ما يدعمه تواتر موثوق به او يؤيده سند قـوى ٠

*

وفى ميادين القضاء الذى تولى شئونه فى مصر (عين اكثر من مرة قاضيا لقضاة المالكية فى مصر) كان مثلا اعلى فى توخى العدالة فى ادق معانيها ، والحرص على المساواة بين جميع الناس امام القانون ، والعزوف عن طرائق الحيـل والالتواء والمحاباة ، والصرامة فى توقيـع العقوبات على مستحقيها ٠ وقد شهد له بذلك كله حتى الدخصومه انفسهم ، وكان هذا سببا فى اثارة السخط عليه من كل ناحية ، ولكنه لم يابه لشىء من ذلك ، وسار فى جادته لا يخشى لومة لائـم ولا يلقى بالاطاعى ان يناله من جراء ذلك من اذى ، وقد حلت به بالفعل بسبب هذا المسلك كوارث جمة بدون ان تقوى على زحزحته شروى نقير عن منهجه ، ويصف هو نفسه مواقفه هذه اذ يقول : « فقمت بما دفع السلطان الي (يقصد الظاهر برقوق سلطان مصر حينئذ » من ذلك المقام المحدود (يقصد منصب قاضى قضاة المالكية الذى ولاه السلطان اياه بمصر) ووفيت جهدى بما امننى عليه من احكام الله ، لا تأخذنى فى الحق لومة ، ولا يزعنى عنه جاه ولا سطوة ، مسويا فى ذلك بين الخصمين ، آخذا بحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عـن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ٠٠ وكبحت اعنة اهل الجهل والهوى ، ورددتهم على اعقابهم ٠٠٠ فارغمهم ذلك منى ، وملاهم حقدا وحسدا على ٠٠٠ وانطلقوا يدرسون الى السلطان التظلم منى ٠٠٠ وانا فى ذلك محتسب عند الله ما منيت به من هذا الامر ، ومعرض عن الجاهلين ، وماض على سبيل سواء من الصرامة ، وقوة الشكيمة ، وتحرى المعدلة ، وخلاص الحقوق ، والتنكب عـن خطة الباطل متى دعيت اليها ، وصلابة العـود عن الجاه والاغراض متى غمزنى لامسها ٠٠٠ ولم يكن ذلك شان من رافقته من القضاة ٠٠٠ فكثر الشغب على من كل جانب ، واظلم الجوبينى وبين اهل الدولة » (2) ٠

---

1) المرجع السابق صفحات 350 ـ 413 ٠

2) انظر : على عبد الواحد وافى : « عبقريات ابن خلدون » صفحات 81 ـ 84 ، وانظر كتـاب « التعريف بابن خلدون » وهو الكتاب الذى ترجم فيه ابن خلدون عن نفسه ، طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1951 ، تحقيق محمد تاويت الطنجى ، صفحات 254 ـ 260 ٠

ولكنه فى ميادين السياسة كان يتقمص شخصية أخرى تختلف كل الاختلاف عـن شخصيته فى ميادين العلم والقضاء · وذلك انه لما كانت السياسة فى عهده ـ بـل لعلها كذلك فى جميع العهود ـ تقتضى المرونة والتلون والالتواء ، فقد لبس لها لبوسها ، فتلون والتوى حينما دعته الى ذلك مقتضياتها ·

وفيما يلي موقفان ليس فى كليهما للسياسة هذا اللبوس : احدهما موقفـه حينما تولى شئون بجاية ، والآخر موقفه فى لقائه مع تيمورلنك ·

اما فيما يتعلق بموضوع بجاية فان اميرها ابو عبد الله محمد الحفصى قد كتب الى ابـن خلدون سنة 766 هـ يستدعيه من غرناطة ، ليشاركه فى أمره ، ويوليه حجابته (وكان منصـب الحجابة حينئذ ارقى منصب فى الدولة بعد منصب السلطان ، ويشبه منصب رئيس الوزراء فى عصرنا الحاضر) ، فبادر ابن خلدون بتلبية هذا العرض الكريم · ولما وصل الى بجاية فى منتصـف سنة 766 استقبله اميرها نفسه واستقبله اهلها استقبالا حفيا يصفه ابن خلدون اذ يقول : « فاحتفل السلطان صاحب بجاية بقدومى ، واركب اهل دولته للقائى ، وتهافت اهـل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهودا » (1) ويصـف المنصب الذى تولاه فى بجاية وهو منصب الحاجب فيقول انه يمنح صاحبه « الاستقلال فى الدولة والوساطة بين السلطان واهـل دولته ، لا يشاركه فى ذلك احد (2) ، ويمضى ابن خلدون فى وصـف ما قام به فى هذه الفترة فيقول : « فاصبحت من الغد ، وقد امر السلطان اهل الدولـة بمباكرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدى فى سياسة اموره وتدبير سلطانـه وقدمنى للخطابة بجامـع القصبة ، وانا مع ذلك عاكف ـ بعد انصرافى من تدبير الملك غدوت الى تدريس العلم اثناء النهار بجامع القصبة لا انفك عن ذلك » (3) ·

وهكذا جمع ابن خلدون فى هذه الفترة بين ارقى مناصب الدولة وارقى مناصـب العلم ، ومنحت له فرصة طيبة لاشباع مطامعه العلمية العميقة من جهة وارضاء ما كان يطفو على سطحها من تيارات تندفع به نحو السياسة من جهة اخرى · ومضى يدبر الامور بعزم ، ويعالج الفتـن القائمة ، ويتجول بين القبائل البدوية يجنى منها الضرائب بدهائه وصراحته (4) ·

1) التعريف 97 ـ 98 ·
2) التعريف 97 ·
3) التعريف 98 ·
4) التعريف 98 ·

ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين الامير ابى عبد الله امير بجاية وابن عمه السلطان ابى العباس احمد صاحب قسنطينة ، وكان ابو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية ، فاخذ يثير على اميرها القبائل والبطون المجاورة • وفى سنة 767 هـ قصدها بجموعه فهزم ابا عبد الله وقتله ودخل بجاية ظافـــرا •

وكان ابن خلدون حينئذ يلزم القصر فى بجاية • وقد طلب اليه بعض الزعماء أن يدعو لصبى من ابناء السلطان القتيل ويقوم هو بالامر باســم هذا الصبى ويدافـــع عن البلاد ويرد عنها المعتدين ، وكان الوفاء للسلطان القتيل الذى اسدى اليه اكبر فضل وولاه ارقى وظيفة فى دولته ، والبر بالبلاد التى اكرمته ، كان كل ذلك يقتضيه ان يذعن لما طلبه اليه هؤلاء الزعماء ، ويدافع عن البلاد ويحاول ان يرد عنها الاعتداء ، ويحفظ العرش للاسرة المالكة ، ولكنه لم يذعن لهذه المثـل العليا وما تتطلبه من غلاب وتضحية واقدام ، واذعـــن لمقتضات السياسة والتواءاتها ، فآثـــــر العافية ، وأبى ان ينفذ ما اشار به عليه هؤلاء الزعماء ، ولم يتخذ موقفا سلبيا فحسب ، بل خـرج الى تحية الظافر ، والانضواء تحت لوائه ، وسلمه المدينة ، ويصف ابن خلدون هذا الموقف فيقول : « وجاءنى الخبر بذلك ، وانا مقيم بقصبة السلطان وقصوره ، وطلب منى جماعة من اهـل البلد القيام بالامر ، والبيعة لبعض الصبيان من ابناء السلطــان ، فتناديت من ذلك ، **وخرجـــت الى السلطان ابى العباس ، وامكنته من البلد** (1) •

فاكرمه ابو العباس فى مبدأ حكمه ، واقـره فى منصب الحجابة حينا ، ثم ما لبث ان ارتاب منه ، فتنكر له ، ورغب عن خدمته ، فتوجس ابـن خلدون خيفة منه ، واستاذن فى الانصراف الى احد الاحياء القريبة ، فآذن له ، ولكن عن له بعد ذلك ان يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة وهكذا كانت نتيجة المرونة والتلون والالتواء •

واما فيما يتعلق بلقائه مع تيمورلنك فان ابن خلدون نفسه يصفه وصفا رائعا دقيقا اذ يقـــول « فلما وقفت بالباب خرج الاذن باجلاسى فى خيمة هناك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد فى التعريف باسمى انى القاضى المالكى المغربى (كان ابـن خلدون حينئذ مقيما بمصر وكان قد تولى فيهـــا منصب قاضى قضاة المالكية ، ولكنه وقت لقائــه مـع تيمورلنك لم يكن فى هذا المنصب) فاستدعانى ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقــه ،وصحاف الطعام تمر بين يديه ••• فلمـا دخلت عليه فاتحت بالسلام ، واوميت ايماءة الخضوع فرفع رأسه **ومد يده الى فقبلتها** ، واشار بالجلوس فجلســـت حيث انتهيت ، ثـــم استدعـى من بطانتـــه الفقيـه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فاقعده يترجم بيننا) •

1) التعريف 99 •

وبعد أن ذكر ابن خلدون ما دار بينهما من حديث يتعلق بتاريخ ابـن خلدون وحياته فى مصر ، وحياة أسرته فى المغرب ، وما استطرد اليه هذا الحديث من الكلام على بلاد المغرب الادنى والاوسط والاقصى ، وســؤال تيمورلنك عــن مواقع هذه البلاد ، قال ان تيمورلنك لم يكتف بما قلته له شفويا وقال له : « احب ان تكتب لي عن بلاد المغرب كلها اقاصيها وأدانيها وجباله وانهاره وقراه وامصاره حتى كانى اشاهده · فقلت يحصل ذلك لسعادتك · وكتبت له بعد انصرافى مــن المجلس ما طلب من ذلك واصبت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر ثنتي عشرة من الكراريس المنصفة (1) » · ويظهر ان تيمورلنك كان يقصد غزو المغرب ، فاراد ان يقف على تفاصيل بــلاده ومواقعها وجغرافيته · **ولم يجد ابن خلدون غضاضة فى ان يعينه على غزو موطنه الاصلى ومسقط رأســـه ·**

ويظهر ان ابن خلدون قد عاوده حينئذ داؤه القديم ، وســاوره الحنين الى المغــامرات السياسية ، فكان يعلق على صلته بتيمورلنك آمالا كبيرة ، ولعله كان يأمل الانتظام فى بطانة هذا الفاتح والحظوة لديه · ولذلك اخذ يطنب فى مدحه ويذكر له انه كان عظيم الشوق الى لقائه منذ امد طويل ، ويتنبأله فى مستقبله بملك عظيم مستدلا على صحة تنبوءاته بحقائق عــلم الاجتماع وأقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب ، ويظهر كذلك أن ابن خلدون قد آنس سذاجة فى هذا الفاتــح وحبا فى المديح ، فأخذ ينفخ فى كبريائه بهذه التنبوءات ، ويروى ابن خلدون ما ذكره لتيمورلنك بدون ان يصرح بما دعاه الى ذلك فيقول : « ففاتحته وقلت له : ايدلك اللــه الى اليوم ثلاثون أو اربعون سنة اتمنى لقاءك · فقال لي الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت امران : **الاول انك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما اعتقد انه ظهــر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ـ** ولست ممن يقول فى الامور بالجزاف ، فانى من أهل العلم ··· (ثم أخذ يؤيد قوله بنظريات اجتماعية عن قوة العصبية وأثرها فى الملك) ، وأما الامر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائه فهو ما كنت أسمعــه من أهل الحدثان (وهم المنجمون والملهمون بالغيب من حوادث العالم من طوائف المتنبئين) بالمغرب والاولياء » · واختلق له طائفة من أقوال هؤلاء تتنبأله بملك عظيم (2) ·

غير ان ابن خلدون لم يوفق الى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق ، واستأذن تيمورلنك فى العودة الى مصر فاذن له ·

1) التعريف 370 ·
2) التعريف 372 — 373 ·

وفضلا عن اخفاق ابن خلدون فى الوصول الى ما كان يأمله من تيمورلنك فان هذه الرحلة كانت مغرما كبيرا له ، فقد تجشم فى اثنائها هديتين قدمهما لتيمورلنك ، وفقد فى طريق عـــودته منها جميع ما كان معه من مال ومتاع ٠

وكانت الهدية الاولى تشتمل على « مصحف رائع حسن فى جزء محذو ، وسجادة انيقة ، ونسخة من قصيدة البردة الشهيرة للبوصيرى فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم واربع عـلب من حلاوة مصر الفاخرة » (1) ٠

ويصف ابن خلدون الهدية الثانية فيقول : « ولما قرب سفرى ، واعتزم على الرحيل من الشام ، دخلت عليه ذات يـوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت الى ، وقال : اعندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ٠ قال حسنة ؟ قلت نعم ٠ قال وتبيعها ، فانا اشتريها منك ؟ فقلت ايدك الله ! مثلى لا يبيع من مثلك ٠ انما انا اخدمك بها وبأمثالها لو كانت لي ، فقال انما اردت ان اكافئك عنها بالاحسان ، فقلت وهل بقى احسان وراء ما احسنت به : اصطنعتنى واحللتنى من مجلسك محـــل ضواحك ، وقابلتنى من الكرامة والخير بما أرجو الله ان يقابلك بمثله ، وسكت وسكت ، **وحملت البغلة وانـا معـه فى المجلس اليه ، ولم أرها بعد** » (2) ٠ وهكذا أراد ان يضحك على تيمورلنك ويغرر به ، فضحك عليه تيمورلنك ، واستلبه اعز ما كان معه ٠

ويصف ابن خلدون ما اصابه فى اثناء عودته من ضياع ماله ومتاعه فيقول : « وسافرت فى جمع من أصحابى ، فاعترضتنا جماعة من العشير ، قطعـــوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، **ونجونا الى قرية هناك عرايا** » (3) ٠ وهكذا كانت النتيجة لما دعتـــه اليه مقتضيات السياسة وآمالها من مرونة ومداهنة والتواء !

1) التعريف 377 ٠
2) التعريف 387 ٠
3) التعريف 379 ٠

إقامة ابن تومرت ببجاية وملالة

د. رشيد بوروبية
كلية الآداب
جامعة الجزائر

بمناسبة اصدار عدد خاص من مجلة الاصالة يتعلق بمدينة بجاية ظهر لنا من المفيد ان نذكر حدثا هاما وقع بعاصمة الحماديين فى عهد العزيز بن المنصور الأمير الحمادى الثامن وهو : اقامة ابن تومرت ببجاية وملالة ، ان ابن تومرت عند رجوعه من المشرق زار بالتوالى طرابلس والمهدية والمنستير وتونس وقسنطينة ثم وصل الى بجاية .

فاختلف المؤرخون فيما يخص تاريخ اقامة ابن تومرت بعاصمة بنى حماد فقال ابن القطان (1) انه وصل اليها سنة 511 /1117 ـ 1118 وذكر ابن خلدون 2 انه زارها فى سنة 1118/512 ـ 1119 واعلمنا البيلق (3) بانه اقام بها فى شهر رمضان وعيد الفطر بدون ان يحدد لنا السنة .

اننا بينا فى مقال صدر فى مجلة « تاريخ وحضارة المغرب (4) ان اصح القول فى نظرنا هو ما جاء فى كتاب ابن القطان .

مهما كان الحال نزل ابن تومرت ، عند وصوله الى بجاية ، مسجد الريحانية وكان اذ ذاك مصحوبا بيوسف الدكالى والحاج عبد الرحمن وابى بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيلق ، صاحب كتاب هام عنوانه « كتاب اخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » . وقام الفقيه السوسى ، كما كانوا يسمونه وقتئذ ، اثناء اقامته ببجاية بالتدريس والامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فيما يخص التدريس ذكر المراكشى (5) انه« اظهر بها تدريس العلم والوعظ ، واجتمع عليه الناس ومالت اليه القلوب » وافادنا البيذق (6) باسماء العلماء الذين كانوا يحضرون الى دروسه : محرز وابراهيم الزبدوى وابراهيم بن محمد الميلى ويوسف بن الجزيرى الجراوى وعبد الرحمن بن الحاج الصنهاجى القاضى .

اما فيما يتعلق بالامر بالمعروف والنهى عـــن المنكر فقال ابن القطان (7) : « لما دخل ابن تومرت بجاية لقى بها الصبيان فى زى النسا. بالضفائر والاضراس والزينة وشواشى الخزوالقى الارذال قد فتنوا بذلك وانهمكوا فغير المنكر جده وازال ذلك الزى مستطاعه . ثم حضر عيدا . فراى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكملين ما لا يحل ، فزجرهم وغير ذلك عليهم فوقعت لاجل ذلك نفرة استطال فيها الشـــر ،وسلب النساء حليها وقام الهرج » .

وذكر البيذق من جهته (8) : « كان ابن تومرت ينهى الناس عن الاقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات للرجال ويقول لا تتزينوا بزى النسا. لانه حرام وكان يبيح الطيب للرجـــال والنســـا. » .

ولاحظ ابن خلدون (9) اخيرا : « ولما دخل ابن تومرت بجاية وبها يؤمئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من امرا. صنهاجة وكان من المترفين فاغلظ له ولاتباعه بالنكير . وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات فى الطـــرق فوقعت بسببها هيعة » .

كما تظنونه هذه الهيعة لم ترض الامير العزيز .

فذكر ابن القطان فى هـــذا الصــــدد (IO) :« فسال العزيز عن سبب ذلك ، فعرف بانـــه لا سبب له الا الفقيه السوسى وكذلك كان ــ رضى الله تعالى عنه ــ يعرف بالمشرق ــ ووجد المشنعون سبيلا الى القول فيه ، فقالوا واوغروا عليه قلب العزيز ، فامر بجمع الطلبة لمناظرته فى جرأتـه على الملوك . فاجتمعوا فى دار احدهم واحتفلوا فى اعداد المطاعم والمشارب ووجهوا عن الامـام ــ رضى الله تعالى عنه ــ الى المسجد الذى كان يحل فيه ، فامتنع من الوصول اليهم ، فوجهوا اليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلاصقه واقسم عليه ورغبه وتضرع اليه حتى أسعفه ، فوصل اليهم ، فناظروه وساءلوه ، فاجابهم ما اسكتهم ، ثـــم سألهم فما أحاروا جوابا . ولاطفه ابن فلفـول عند ذلك يراوده على ترك ما هو بسبيله مـــن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وقال المراكشى (II) فى نفس الموضــــوع :« فامره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عن عاديته » .

اذن اضطر ابن تومرت الى مغادرة بجاية والى السير الى قرية ملالة التى تقع على نحو 7 كم من العاصمة الحمادية على الطريق التى تـــؤدى الى الجزائر العاصمة .

ولكن ذكر البيذق انه رجع اليها فى يوم من الايام وعند وصوله الى باب البحر اهرق الخمر وقال : « المؤمن تمار والكافر خمار فرمى فيه اليد سبع ابن الامير العزيز وقالوا له من امرك بالحسبة . فقال الله ورسوله » (12) ثم رجع الى ملالة واستقر بها .

فوجد بملالة بنى اورياكل وهم على قول ابن خلدون (13) قبيلة صنهاجية ذات « اعتزاز ومنعه. فآووه واجاروه » . فطالبهم الامير العزيز باسلامه اليه ولكنهم «ابوا واسخطوه» ويعلمنا البيذق(14) من جهته « ان ابناء العزيز ، لما رأوا ابن تومرت بملالة قالوا له : « يا فقيه نريد ان نبنى لك مسجدا هنا » . فقال لهم ـ رضى الله عنه ـ ان شئتم ! فبنوا له مسجدا بها واقبل الطلبة يصلون اليه من كل مكان » .

اذن نرى ان السبب الاول الذى دفع ابن تومرت الى اختيار قرية ملالة لالقاء دروسه هو انه وجد بها حماية بنى أورياكل واعانة ابناء الامير الحمادى .

هناك سبب ثان وهو ان الفقيه السوسى كان يحدثه قلبه ان ، بملالة يقع حدث يؤثر تأثيرا كبيرا فى حياته . فذكر المراكشى (15) فى هذا الصدد ان ابن تومرت لما نزل ملالة « سمع وهو يقول ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل احرفها ، وذلك لما كان يراه ان أمره يقوم فى موضع فى اسمه ميم ولامان ؛ فكان ـ كما ذكرنا اذا كررها يقول : ليست هى ! » وقال البيذق من جهته (16) : « فكان الطلبة يقرؤون العلم عليه فاذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروبة العجوز وهو ابدا ينظر للطرق ويحرك شفتيه بالذكر وذلك الموضع يعرف بخروبة العجوز فبينما هو ذات يوم قاعد اذ سمعناه يقول الحمد لله الذى انجز وعده ونصر عبده وانفذ امره واقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر .

وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن انكره » . اما ابن خلكان (17) فذكر ان ابن تومرت « كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم اهل البيت وانه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه تاى ن م ل ورأى فيه أيضا ان استقامته ذلك الامر واستلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من اصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن »

والحدث الهام الذى كان ينتظره ابن تومرت هواتصال عبد المؤمن به لان جميع المؤرخين ما عدا ابن ابى زرع (18) والمراكشى (19) اتفقوا على انهذا الاتصال وقع بملالة ٠

ولكنهم اتفقوا او كادوا على المكان الذىوقع اتصال عبد المؤمن بابن تومرت فاختلفوا فى السبب الذى دفع عبد المؤمن الى السير الىملالة ٠

فذكر ابن القطان (20) : « ان بعد موت التونسى برباط تلمسان اتفق اصحابه المواظبون لمجلسه ان يجلبوا الى مكانه ابن تومرت ٠ فوجهوااليه عبد المؤمن ٠

ونجد فى « كتاب العبر روايتين عن السببالذى دفع عبد المؤمن الى الاتصال بابن تومرت ان الرواية الاولى ، الموجودة فى تاريخ قبيلةكومية (21) تؤيد رواية ابن القطان ٠ فجاء فيها ان طلبة تلمسان بعد موت شيخهم عبد السلامالتونسى ، بلغهم خبر وصول ابن تومرت ببجاية ٠ فتشوقوا « الى الاخذ عنه وتفاوضوا فى ذلكوندب بعضهم بعضا الى الرحلة اليه لاستجلابه وان يكون له السبق باتحاف القطر بعلومه ٠فانتدب لها عبد المؤمن على مكانه من صغر السن بنشاطه للسفر لبداوته فارتحل الى بجاية للقائهوترغيبه فى نزول تلمسان » ٠

وجاء فى الرواية الثانية التى توجد فى تاريخدولة الموحدين ان عبد المؤمن عند اتصاله بالفقيه السوسى كان حاجا مع عمه (22) ٠

واما المراكشى(23)وصاحب «الحلل الموشية(24)والبيذق (25) فذكروا ان عبد المؤمن كان يريد السفر الى المشرق لطلب العلم ٠ فاتجه نحو بجايةصحبة عمه يعلو ٠ فلما وصل اليها سمع الناس يتحدثون عن ابن تومرت فطلب من عمه ان يأذنله بالاتصال به ٠

هذا فيما يخص الظروف التى وقع فيها لقاءعبد المؤمن لابن تومرت ٠ اما فيما يتعلق بالاتصال نفسه فلنا روايات عديدة ٠

فقال البيذق فى هذا الصدد (26) : « اعلم يا اخى انه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة فى طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ بابالمسجد فرفع المعصوم رضه راسه فوافقه امامه فقال له ادخل يا شاب فدخل فاراد ان يقعد فىجملة الناس فقال له الامام المعصوم رضه اذن يا شاب فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربهحتى دنا منه فقال له المعصوم ما اسمك يا فتى فقال عبد المؤمن فقال له المعصوم وابوك على فقال نعم فتعجب الناس من ذلك فقال له يا شاب

من أين اقبالك قال له من نظر تلمسان من ساحل كومية فقال له المعصوم تاجرا أم لا فقال له نعم، فزاد الناس تعجبا فقال له المعصوم رضه أيـن تريد يا فتى فقال يا سيدى نحو المشرق التمس فيه العلم فقال له المعصوم رضه العلم الذى تريداقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب فلما انصرف الناس من القراءة اراد الخليفة ان ينصرف فقال له المعصوم رضه تبيت عندنا يا شاب فقال له نعم يا فقيه فبات عندنا فلما جن الليل اخذ الامـام المعصوم بيد الخليفة رضهما وسار فلما نصف الليل نادانى المعصوم يا ابا بكر ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر فدفعته له وقال لى اسرج لنا سراجا .فكان يقرأه على الخليفة من بعده وانا يومئذ ماسك السراج اسمعه يقول لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال يا فقيه ما كنت فى شىء من هذا انما انا رجل اريد ما يطهرنى من ذنوبى فقال له المعصوم انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يدك .

ثم دفع له الكتاب وقال طوبى لاقوام كنت انت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر » .

وجاء فى « الحلل الموشية (27) ان عبد المؤمن الذى كان اراد السفر الى المشرق لطلب العلم مر بملالة واتصل بابن تومرت » وجلس معه فسأله عن اسمه فقال له عبد المؤمن بن على وسأله عـن بلاده فقال له قطر تلمسان فقال تكون من تاجرا قال نعم وانا اريد الرحلة فى طلب العلم لبـلاد الشرق فقال له المهدى العلم الذى تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب الى ان اقرأ عليه المهدى كتابا يقول فيه لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن سراج الموحدين . فبقى معه يقرأ عليه برباط ملالة » .

وعلى قول ابن خلدون كان ابن تومرت «يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك»(28) وذكر ابن الاثير من جهته ان ابن تومرت سأل عبد المؤمن عن اسمه وقبيلته « فاخبره انه من قيس عيلان ثم من بنى سليم فقال ابن تومرت هـــذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم ، حين قال ان الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس فقيل من أى قيس فقال من بنى سليـم فاستبشر بعبد المؤمن وسر بلقائه » .

وقال المراكشى اخيرا ان ابن تومرت «استدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم ابيـه ونسبه . فتسمى له وانتسب ؛ وسأله عـــن مقصده فاخبره انه راحل فى طلب العلـــم الى

المشرق : فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال شرف الدنيـــا والآخـــرة ، تصحبني وتعينني على ما انا بصدده ، من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع ، فاجـابه عبـد المؤمن الى ما أراده » (29) .

هذا ما جاء في كتب المؤرخين عن اتصال عبدالمؤمن بابن تومرت .

هناك احداث اخرى وقعت اثناء اقامة الفقيهالسوسي ببجاية وملالة .

فذكر ابن القطان (30) ان والد ابن تومرت« لحقه ببجاية قافلا ، فاكد عليه في القفول شوقا اليـــه »

واخبرنا البيذق (31) بدوره بحدثين اخرينهامين أولهما هو ان يوما من الايام « اقبـــــل رجلان يريدان المشرق اسم احدهما عبد اللـــهبن عبد العزيز والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم فقال لهما الامام رضه من أين اقبلتما ايها الرجلانقالا من بلاد المغرب ... من درن من تينملل . فسألهما في قولهما ودعا لهما » ، والحدث الثـانيهو ان احد ابناء ملالة اسمه يزرجن بن عمر اخذ عن ابن تومرت واراد ان يصحبه في رحلته الىالمغرب الاقصى . فدعا الفقيه السوسي « براحـل والدة يزرجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقيوقال لها يا راحل تتركين ابنك عبد الواحد يسير معنا فقالت له يا فقيه هو معك اذا اراد ان يسيرفقال لها يا أمي أسير معهم »

واعلمنا المراكشي (32) أخيرا ان عبد المؤمـــنعند رجوعه من فتح افريقية مر ببجاية « فسأل عن بياع بها سماه باسمه : فاخبره أهل السويقةبوفاته فقال : هل خلف عقبا ؟ قالوا : نعـــم ؛ فامر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقـةوأوقفها عليهم ، وامر لهم بمال كثير ، ثم التفت الى بعض خواصه وقال له : اتيت الى هذا البياعولي وللامام ـ يعني ابن تومرت ـ والجماعة مـــن أصحابنا من الطلبة ايام لم نطعم فيها ، وما معيالا سكين الدواة . فاخذت منه خبزا واداما ، ثم وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فابى قبولهوقال لي : « اني توسمت فيك الخير ، فمتى أعوزك شيء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقهعليك اكثر من هذا » .

هذه هي الاحداث الهامة التي وقعت اثناء اقامةابن تومرت ببجاية وملالة . فغادر الفقيه السوسي هذه القرية الاخيرة بعد ايـام على قـول ابـــنخلدون (33) واشهر حســـب البيـــذق (34) والمراكشي (35) . فكانت هذه الاقامة كما قد رأيناه ممتعة الى اقصى حد فقام ابن تومـرت اثناءها بالتدريس والامر بالمعروف والنهي عن المنكـــرواستقبل اباه وشيخين من المغرب الاقصى اتصل

بيزرجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقى الذى اصبح من اخلص صحبته وبعبد المؤمن الذى خلفه على رأس الدولة المـــوحدية ·

التعـاليق :

1) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 21
2) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 – ص 362
3) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
4) ر . بورويبة Chronologie d'Ibn Tumart, Revue d'histoire et civilisation du Maghreb, pp. 39-47.
5) المراكشى ، المعجب – ص 179 – 180
6) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
7) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 41
8) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – 52
9) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 – 467
10) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 41 – 42
11) المراكشى ، المعجب – ص 180
12) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
13) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 467
14) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 53
15) المراكشى ، المعجب – ص 181
16) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 53
17) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ، 4 – ص 138
18) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص 120 يذكر ان عبد المؤمن اتصل بابن تومرت بتاجرا
19) المراكشى ، المعجب – ص 182 ذكر ان اتصال عبد المؤمن بابن تومرت كان بفنزرة أو بملالة
20) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 22 – 23
21) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 259
22) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 467

23) المراكشي ، المعجب — ص 182

24) الحلل الموشية — ص 86

25) البيذق ، كتاب اخبار المهدى — ص 53

26) البيذق ، كتاب اخبار المهدى — ص 55 — 56

27) الحلل الموشية — ص 86

28) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 — ص 259 — 260

29) المراكشي ، المعجب — ص 181

30) ابن القطان ، نظم الجمان — ص 35

31) البيذق ، كتاب اخبار المهدى — ص 57 — 58

32) المراكشي ، المعجب — ص 231

33) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 — ص 467

34) البيذق ، كتاب اخبار المهدى — ص 54

35) المراكشي ، المعجب — ص 181

عباقرة من رجالنا
تزهى بهم عواصمنا الصنهاجية

احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ـ الجزائر

كان لصنهاجة بالمغرب الاوسط ـ اثناء امارتهم او ملكهم ـ ثلاث عواصم ، حكموا منها ، واستقر كرسيهم بها ، وازدهرت حضارتهم فيها : الاولى « اشير » عاصمة مؤسس بيت الحكم فيهم زيرى بن مناد بن منقوش ، كانت له عاصمة ولاية ، كما كانت كذلك لابنه بن بعده بلكين بن زيرى الى ان استخلف على افريقيا والمغرب كافة فانتقل الى القيروان وبقيت اشير عاصمة ولاته الى ان اسس حماد القلعة ـ وهى العاصمة الثانية ـ بناها سنة 398 هـ وسكنها سنة 400 لتكون عاصمة ملكه وملك ابنائه من بعده حتى الزحف الهلالى سنة 457 وتشتهر باسم « قلعة بنى حماد » ۰ اما الثالثة فهى الناصرية او بجاية التى اسسها المنصور بن علناس على مقربة من خرائب « صلداى » المرسى الفينيقى ، ليقى عاصمة ملكه مآلا شبيها بمآل القيروان التى اتى عليها الخراب سنة 449 ۰ وكان بناء بجاية سنة 460 وانتقل اليها بعد سنة واحدة ۰ فاصبحت عاصمة ملوك الحماديين ثم ولاة الموحدين على المغرب الاوسط ، ثم ولاة الحفصيين ، الى ان سقطت بيد الاسبانيين سنة 910 هـ ۰

وكان لكل هذه العواصم حضارة وعمران ومجد تليد ، وصيت بعيد ، وتاريخ مجيد ۰ وقد عرفت الجزائر فى حكم الحماديين عهدا جديدا لم يسبق ان عرفته من قبل من الامن والرخاء ، وازدهار العمران ، وكثرة من نبغ فيها من فحول العلماء والادباء والشعراء والفنانين ۰

واذا كان الصنهاجيون قد امتازوا بشدة الباس فى الحرب ، والخبرة بفنون القتال ، وبالمهارة فى فن السياسة والحكم ـ فقد اشتهروا ـ بجانب ذلك بحبهم العمـــران ، وبنـــاء الحضارة ، وشغفهم بالعلوم والفنون واكرامهم لاهلها ، وسخائهم بالاموال والنفائس من اجلهـــا • فحيثمـا اسسوا ملكا ، او باشروا حكما ، ازدهر العمران ، وارتقت الفنون والصنائع ، وشاعت المعـرفة والثقافة وعم الرخاء والترف • واقوال المؤرخين الثقات ، والآثار الباقيات ،خير شاهد باعمالهم

فقد مصر بلكين بن زيرى ـ بأمر من أبيه ـ مدن مليانة ، ولمدية والجزائر ، وما تزال شاهدة بعزة الاب والابن ، ناطقة بفضل حكمهما • ولما اجتاز الى الاندلس زاوى بن زيرى ـ اخو بلكين ، واسس الامارة الصنهاجية سنة 403 بكورة البيرة مصر مدينة غـــرناطة لتخلف البيرة التى اتى عليها الخراب ، فزهت وازدهر عمرانها ، وشيكا ثم كانت من بعد عاصمة الاندلس قال ابـــن الخطيب : « وانحازت صنهاجة مع رئيسها المذكور الى غرناطـــة فاووا اليها واتخذوها ملجأ ، وحماها زاوى واقام بها ملكا واحل بها سلطانا لذويه **فهو اول من مـــدن غرناطة وبناها** وزادها تشييدا ومنعة ، واتصل ملكه بها (1) » وقال عن ابن اخيه وخليفته من بعده حبوس بن ماكسن بن زيرى « وكان رئيسا بيسا ، طاغية جبارا ، شجاعا داهية جلدا شديد الامـــر سديد الـــرأى بعيد الهمة ••• ضخمت به الدولة ونبهت الالقاب ، وأمنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناحـه سيف العمران (2) » • ولم تلبث غرناطة ان اصبحت مزدهرة بالعلوم والفنون ، قبلة اعظم الرجال ومنبتهم ، الى ان غربت شمس الاسلام عن الاندلس ، وما تزال آثارها المكتوبة والمروية والقائمة شاهدة بامجاد بنى قومنا •

وعن حكم الصنهاجيين وعهدهم بافريقيا يقول ابن ابى دينار :

« صنهاجة وان كانوا فى الحقيقة عمالا لبنى عبيد فقد بلغوا درجة الملك وكانت لهم ضخامة وصيت وغالب اهل تونس لا يحققون لهم ولاية ، وانا ـ استغفر الله ـ اقول : ان ايام دولتهم اقوى من دولة بنى حفص ، الا ان بنى حفص خطب لهم بامير المؤمنين ولم يخطب لصنهاجة بهذا الاسم (3) » • ويقول عن عهدهم الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب « هو عصر افريقيا الذهبى فقد بلغت فيه البلاد ذروة حضارتها بالثروة والعلم والفنـون الجميلة وتبسط السكان فى العيش وركنوا الى البذخ والترف فتدفقت الاموال على طبقات الشعب فمالوا الى اقتناء الكماليات النفسانية وجنحوا الى الآداب الرفيعة فزها الادب وسار الشعر فى مدارج الارتقاء وراجت سوق الافكار ايما رواج

1) الاحاطة ج 1 ص 146 •
2) الاحاطة ج 1 ص 443 •
3) المؤنس ص 73 الطبعة الثالثة •

... ولقد سهل آل بلكى الصنهاجيون ـ وخصوصا المعز بن باديس وابناءه من بعده ـ على العلماء النزوح اليهم فقربوا منزلتهم منهم واجروا الارزاق عليهم وبالغوا فى اكرامهم وعولوا على آرائهم (4) » . وكانت القيروان عاصمة الدولة الصنهاجية الموحدة ، فكان علماؤها يمثلون انحاء هذه الدولة اذ هى عاصمتهم جميعا قبل ان تنفصل عنها الدولة الحمادية ، وقد « بلغت القيروان فى العصر الصنهاجي منتهى عمرانها الاسلامى الذى لم تزاحمها فيه أى مدينة من مدن المغرب ... تقاطر الناس عليها افواجا من كل حدب وصوب للارتزاق بالتجارة والصناعة أو العلم والادب او باسباب الملاهى والطرب (5) » .

عبقريان جزائريان فى اعلام القيروان :

ولم تكن الجزائر خالية من مدن العلم ومعاهده فقد كان لتيهرت معاهد ورجال وللمحمدية علماء أفذاذ ، ولكن القيروان عاصمة الدولة كانت تمتص العبقريات ، وتجتذب اليها اعظم الكفاءات ، وكان فيمن اجتذبتهم اليها فى هذا العصر فهاجروا اليها واستوطنوها وانتسبوا الى علمائها عبقريان بلغا القمة فى المجد والشهرة والانتاج ، وهما عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى ، وابو الحسن على بن رشيق ، كلاهما نشأ بالمحمدية (المسيلة) وأخذ عن شيوخها وكان له ذكر قبل ان يهاجر الى القيروان فالمعلوم عن النهشلى ـ وهو استاذ بن رشيق ـ انه نشأ بالمحمدية يقول الدكتور عبد الرحمن باغي « وقد علمنا أن منشأه بالمحمدية (6) » ، « وكان عبد الكريم شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب واشعارها ، مؤلفا جليلا (7) » . شهد له عارفوه بالقوة فى الشعر والخبرة بفنه وبأهله وألف فيه كتابا قيما هو « كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله ... وقد ارتاد عبد الكريم بالممتع افقا من آفاق النقد ، وهيأ لغيره السبيل لكي يمضى فيه ويوضح أساليب النقد ومناحيه (8) » . وسلك سبيله من بعده تلميذه ابن رشيق فى كتابه العمدة واعتمد عليه ، وانتفع به فقلما يخلو باب من ابواب العمدة من ذكره والنقل عنه وشرح آرائه ومناقشتها . وقد يأخذ برأيه ويدعمه ، وقد يناقشه ويصححه ، وقد يرفضه ويرد عليه . ومع ذلك فقد كان وفيا له ، يحبه ويقدر كفاءته ويدافع عنه ، فقد اشتبك فى خصومة مع احد فحول شعراء القيروان وأدبائها ذات يوم لطعنه فى كفاءة عبد الكريم الشعرية وقال فى ترجمته له فى كتابه الا نموذج

---

4) المنتخب المدرسى من الادب التونسى ص 50 الطبعة الثانية .
5) المنتخب المدرسى من الادب التونسى ص 51 .
6) حياة القيروان 140 .
7) المنتخب من الادب التونسى 55 .
8) حياة القيروان 141 .

« اجتمعت مرة وانا حديث السن ولم اكن قبلها رأيته فاخذ فى ذكر الشعراء ، وغض من عبد الكريم وقال هو مؤلف كلام غير مخترع فاغلظت له فى الجواب فالتفت الى منكرا وقال : وأنت ما دخلك بين الشيوخ يا بني ؟ (9) » ·

واما ابن رشيق فاشهر من ان يعرف ، ولد بالمحمدية (المسيلة) سنة 390 هـ وقيل 370 هـ وصحح الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب انه ولد سنة 385 هـ · واجمع مترجموه على انه تادب بالمسيلة ثم ارتحل عنها الى القيروان وان سنة 406 هـ « بعد أن قال الشعر وطلب العلم والادب فاخذه عن علماء بلدته المحمدية ، وحينما آنس من نفسه قدرة على التفوق فى الشعر والادب اثر أن يتوجه الى افق أوسع فتوجه الى القيروان دار العلم والادب فى ذلك الحين (10) » ·

وهذا يرجح ما صححه الاستاذ حسن حسنى من أنه ولد قبل عام 390 مستشهدا بأن ابن رشيق قال وهو يترجم لشاعر اندلسى « اجتمعت به بالمحمدية سنة 401 ··· وانه لا يعقل ان تكون سن ابن رشيق اذ ذاك عشرة اعوام وهو يجالس الادباء المشاهير (11) » · وكانت القيروان يوم هاجر اليها غاصة بفحول الرجال من علماء الشريعة والادب والتاريخ والرياضيات فكان فيمن اخذ عنهم من علماء الشريعة ابو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن ابى الحاج الذى قال فيه ابو بكر الباقلانى يخاطبه « لو اجتمعت فى مدرستى انت وعبد الوهاب بن نصر — وكان اذ ذاك بالموصل — لاجتمع فيها علم مالك : أنت تحفظه وهو ينصره ولو رآ كما مالك لسر بكما (12) » واخذ اللغة والادب عن امام اللغة فى عصره ابى عبد الله محمد بن جعفر التميمي القزاز ، وعن عبد الكريم النهشلى وغيرهما وتاثر كثيرا بامام الكتابة والانشاء والادب أبى الحسن علي بن ابى الرجال ، وله الف كتاب العمدة منوها به بعد المقدمة فى اغلب الابواب راويا أشعاره مبينا محاسنها · عاش ابن رشيق — بعد المحمدية — بالقيروان طالبا مجدا · ثم منشئا ، ومؤلفا بارعا مدة 43 سنة عانت القيروان فى السنوات الاخيرة منها مر العذاب اذ حاصرها الاعراب المسلطون عليها من خليفة العبيديين بمصر من 446 الى 449 ثم شرعوا « فى هدم الحصون والقصور وقطع الثمار وخربوا الانهار ، واقام المعز بها الى سنة 449 فعندها انتقل الى المهدية فى شعبان (13) » وانتقل معه ابن رشيق ، وبكى القيروان وصور محنتها أبلغ تصوير فى قصيدة رائعة شهيرة جاء فيها :

9) حياة القيروان 113 ·
10) حياة القيروان 116 ·
11) حياة القيروان
12) ترتيب المدارك للقاضى عياض ج 4 ص 704 وتوفى ابو عمران سنة 430 ·
13) حياة القيروان للدكتور عبد الرحمن باغي ص 160 ·

والمسلمـــون مقسمـــون تنالهم	ايـــدى العصـــاة بذلة وهوان
خرجـــوا حفـاة عائذين بربهـــم	من خوفهـــم ومصـــائب الـوان
هربـــوا بكـــل ولـــيدة وفطيمة	وبكـــل ارملـــة وكـل حصـــان
والمسجد المعمور جامـــع عقبـــة	خـــرب المعاطـــن مظلم الاركان

ولم يستقر بالمهدية اذ وقعت بينه وبين المعز جفوة فغادرها الى صقلية حيث مات ـ رحمه الله بمازرة سنة 456 والا صح انه مات سنة 463 وترك تراثا ادبيا حافلا بضعة عشر كتابا او رسالة اعظمها واخلدها كتاب «العمدة» فى صنعة الشعر قال فيه ابن خلدون فى مقدمته « لم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » · وشملت كتبه ورسائله الادب والنقد والتاريخ والفقه والحديث · ذكر صاحب كشف الظنون أن ابن رشيق « ممن شرحوا الموطأ » وروى حسن حسنى ان له مختصر الموطا·

قلعـة حماد تنافس القيروان ثم تخلفهـا :

ولمنافسة القيروان فى امجادها السياسية والعلمية والعمرانية أسس حماد بن بلكين عاصمته الجديدة : « قلعة أبى طويل » التى اشتهرت فيما بعد بـ « قلعة حماد ·· ، انشاها فى مكان يفـوق اشير حربيا واقتصاديا يقيه شر هجمات زناتة ، وبأس باديس ان اراده بشر متأثرا بدسائس بلاطه· تم انشاؤها والتحول اليها فى مدة قصيرة (398 ـ400) وسرعان ما « أستبحر عمرانها ورحل اليها أهل البلاد النائية من التجار وارباب الصنائع واهـــل العلم (14) » وتحولت فى بضع سنين من عاصمة ولاية الى عاصمة دولة وما زالت فى نمو مطرد حتى اصبحت « مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب (15) » · والتجأ اليها بعد خـــراب القيروان وانهيار دولتها جموع من اللاجئين ، وغصت بالعلماء ، وكانت فى أوج عزها لما فاجأها زحف اعراب بنى هلال واحتلالهم بسائطها بعد هزيمة ملكها الناصر فى معركة ضدهم بسبيبة سنة 457 فأسس الناصر بجاية سنة 460 فرارا منهم ، وانتقل اليها 461 واخذ الضعف يتسرب الى القلعة وان بقيت عمارتها الى ان حرق جيش الموحدين مساكنها سنة 547 واستولى الاعراب على جبلها فخربـــت ·

والى القلعة ينتسب علماء اعلام ، وادباء عظـــام ممـــن انبتتهم تربتها ، او آوتهم واكرمت وفادتهم فاستوطنوها ، او نبت بهم فتغربوا عنها ، وعطروا بمآ ثرهم ذكرها ·

14) تاريخ الجزائر للميلى ج 2 ص 203 و 204
15) تاريخ الجزائر ج 2 ص 204 نقلا عن البكرى

من هؤلاء الاعلام ابو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى ، اصله من توزر ، ولكنه كان ثاويا فى اهلها ، أخذ عن شيوخها ثم بث علومه بها ودفن فى تربتها · شـرق فى طلب العلم فاتصل بامام المالكية علي بن محمد الربعي اللخمي القيروانى نزيل صفاقس فأخذ عنه الفقه وصحيح البخارى ولما جاءه « سأله : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأ نسخ تأليفك التبصرة فقال : انما تريدان تحملني فى كفك الى اهل المغرب ·· يشير الى ان علمه كله فى هذا الكتاب (16) » واخذ بالقلعة عن شيوخ جلة أعظمهم ابو عبد الله محمد بن الفرج المازرى المعروف بالذكى ، وكان هذا آية من آيات الله ، وأصله من صقلية ولكنه سكن القلعة وبث فيها علومه ، ولقى جلة شيوخ القيروان فشهدوا بحفظه وذكائه · وكان زعيمهم أبو القاسم عبد الحق السيورى يقول عنه : « أبن الفرج أحفظ من رأيت فقيل له : تقول هذا وقد رأيت ابا بكر بن عبد الرحمن وأبا عمران الفاسى ؟ فقال : هو احفظ من رأيت · وكان القاضى ابو عبد الله بن داود يقول : شيخنا الذكى ، افقه من ابى عمران ومن كل مالكي ، حتى فضله على اسماعيل بن اسحاق القاضى » · فهذا النابغة من علمائنا «حمل عنه ادب كثير وعلم جم والف فى علوم القرآن كتابا كبيرا ··· وله تعليق كبير فى المذهب مستحسن وخرج على انه الف سؤال (17) » فكان نجما ساطعا بالقلعة فلما ارتحل الى المشرق ووصل بغداد وجد مذهب مالك قد درس وقل طالبه فدرس فى النحو وعلم لسان العرب واستصحبه ··· الملك العادل الى اصبهان لتدريس بقية الادب فذهب علمه بالسنـة هنـاك ضياعا ··· وتوفى باصبها بعد الخمس (18) » · وقد كان أبو الفضل ابن النحوى « عارفا باصول الدين والفقه يميل الى النظـر والاجتهاد » حريصا على بـث العلم ونشر الهداية شجاعا لا يهاب أحدا مؤثرا فى اتباعه متقشفا زاهدا فى الدنيا ارتحل الى المغرب الاقصى فدخل سجلماسة ، وفاس ، وكان حيثما حـل يقرئى أصول الفقه وأصول الدين ، ويفسر لطلبته مذهب الاشعريين ، ولم يكن انذاك مقبولا عند الرسميين ففى سجلماسة ، وفى فاس ، كما فى القلعة تعـرض ـ من اجل تدريسه علم الكلام للاذى ، ومنـع فكانت عاقبة منعه خسرا على الاعداء « دخل قاضى الجماعة يوما الجامع وابو الفضل ليقرئى الطلبة علم الكلام فسأل القاضى عن الحلقة فاخبر فامر بابطال الدرس فقال ابو الفضل : اللهم كما تسبب فى امانة مجلسنا او فى اهانة العلم فارنا فيه العلامة · وخرج ، فتبعه ولد القاضى ، وكان له اعتقاد فى ابن الفضل فقال له : ارجع الى والدك لتواريه التراب فرجع الولد فوجد ابـاه قتل صبرا (19) » · وبسجلماسة اقرأ الاصلين « فقال ابن بسام احد رؤساء البلد يريد هذا ان يدخل

16) نيل الابتهاج ص 349 ـ البستان ص 300 ·
17) ترتيب المدارك للقاضى عياض ج 4 ص 796 ·
18) المصدر السابق 793 ·
19) نيل البستان ص 300 ·

علينا علوما لا نعرفها فأمر بطرده من المسجد فقال : أمت العلم أماتك الله هنا فجلس ثاني اليوم لعقد نكاح سحرا فقتلته صنهاجة (20) . وجرى له بفاس مع قاضيها ابن دبوس شبيه بهذا فقال : اللهم عليك بابن دبوس ، فأصيب بداء رهيب ومات وشيكا (21) » أيكون موت خصومه قضاء وقدرا ام يكون نتيجة عملية فدائية من مريديه ؟ لا شك أن موت ابن دبوس كان بداء رباني ، أما موت القاضي وابن بسام فقد يكون نتيجة عملية فدائية قام بها من يغار لدين الله . وقد كان الصراع العقائدي على اشده ببلدنا بين آراء الباطنية ، والسلفية ، والاشعرية . وكانت الدعوة الاشعرية ما تزال تختمر ، وصاحبنا ابو الفضل شديد الاعجاب بالغزالي وبكتابه احياء علوم الدين ، ينسخه بيده ، ويتحدى ذوي السلطان من أجله ، فلا عجب اذا كونت هذه الدعوة انصارا فدائيين ، ومثل ابي الفضل في ذكائه وشدة ايمانه لا يخفى عليه أن من ظلمه من أجل عقيدته وبثها فدعا عليه أمام الناس انما قد تلا حكما باعدامه ، فلا عجب اذا رأيناه موقنا بموته .

وقد انتهى ابو الفضل من تجواله بالمغرب وعاد من فاس الى القلعة سنة 394 واخذ نفسه بالتقشف فترك اللين من اللباس والاكل ، ولبس جبة صوف الى ركبته . وكأن تقشفه ذهب بحدته وسرعة دعوته على خصومه . بل صار يقابلهم باللين والمسامحة والغفران « كانت جبته الى ركبته فمر يوما بالفقيه ابي عبد الله بن عصمة المفتي فلم يسلم عليه لشغل باله فعظم ذلك عليه فلما رجع ناداه محقرا له : يا يوسف فلباه وجاءه فقال له : يا توزري صفرت وجهك ورققت ساقيك وصرت تمر ولا تسلم ؟ فاعتذر له فلم يقبل واغلظ له في القول فقال : غفر الله لك يا فقيه يا أبا محمد وانصرف (22) » . وهكذا نراه عفا عنه ولم يسل عليه سلاحه الرهيب ، وهو الدعاء ، فقد اشتهر انه مجاب الدعوة ، حتى كان يقال نعوذ بالله من دعوة ابن النحوي » اكان هذا من أثر عهده الجديد ؟ أم انه كان في الحالات الاخرى يرى أن الحق اليه فمن تعرض له عوقب ، وفي هذه الحالة الحق حقه الشخصي فلم ير الانتقام لنفسه .

« اخذ عنه جماعة من الائمة الاعلام النظار كالفقيه ابي عبد الله محمد بن الرمامة رئيس المفتين بفاس ، والاخوين الفقيهين أبي بكر ومحمد ابني مخلوف بن خلف الله ، والفقيه ابي عمران موسى بن حماد الصنهاجي (23) » . وتوفي بالقلعة سنة 513 وقال عنه القاضي ابو عبد الله محمد

20) نيل الابتهاج ص 350 .
21) نيل الابتهاج ص 350 - 351 - البستان (ص) 301 .
22) نيل الانتهاج ص 351 البتسان 303 .
23) نيل الابتهاج ص 351 البستان 303 .

بن علي بن حماد هو فى بلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا · ترك تاليف ، واشهر انتاج مما بقي له القصيدة المنفرجة ، وما تزال الى اليوم ببلادنا يحفظها الصغار والكبار ، واكثر ما تنشد فى احتفالات المولد النبوى — وهى :

اشـــتدى ازمـــة تنفـــرجي ... قـــد اذن ليلـــــك بالبلـــج
وظـــلام الليـل لـــه ســـرج ... حتى يغشـــاه ابـو الســـرج
وسحـــاب الخـــير لها مـــطر ... فـاذا جـاء الابـــان تجـــى

ومنها

ومعاصـــى اللـــه سماجتهـــا ... تـزدان لـــذى الخلـق السمج
ولطـاعتـــــه وصبـــاحتهـا ... انـــوار صبــــاح منبلـــج

ومنها

وخيـــار الخلـــق هداتهـــم ... وســـواهم من همـــج الهمـــج
واذا كنـــت المقـدام فـــلا ... تجـــزع فى الحـــرب من الرهج

وقد أولع الناس بهذه القصيدة ، ورووها بالاسانيد المتصلة ، شرحها كثير ، وخمسها ابو محمد عبد الله بن نعيم الخضرمى القرطبى الناشىء بتونس والمتوفى بقسنطينة سنة 636 قال الغبرينى « وما زالت هذه القصيدة معلومة الافادة ظاهرة الزيادة (24) » ·

بجايـة حاملة مشعل النور لمدة اربعة قرون ونصـــف :

وكانت بجاية أمجد عواصم الحماديين ، واخلدهن ذكرا ، واثبتهن على عواصف الـــزمن · فمنذ تاسسها اصبحت عاصمة الدولة القوية المتينة البنيان وانتقلت اليها دواونها ، ورغب الناس فى سكناها ، ونضجت الحركة التى كان للحماديين الفضـــل فى غرسها وتعهدها « وظهر بالجزائر الحمادية العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والاطباء والرياضيون ظهورا لا عهد للجزائر بـــه من قبل (25) » · وساعد على سرعة ازدهار العمران والحضارة الحمادية « فرار الناس من افريقيا الى الحماديين امام الهجوم الهلالى ، ومن صقلية امام استيلاء النرمان ، ومن الاندلس امـــام استيلاء المرابطين (26) » · وهكذا لم يمر على تأسيس بجاية سوى زمن يسير حتى أصبحت موئـل

24) عنوان الدراية 336 ط بيروت ·
25) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ج 2 ص 195 ·
26) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ج 2 ص 188 ·

حركة علمية ونهضة فكرية يقوم بها افذاذ من العلماء والادباء والكتاب ، واصبحت مدارسها تخرج اعظم الكفاءات لشغل اسمى المناصب العلمية والادارية • يقول الغبريني بعد ان ترجم لعدد يسير من علماء المائة السادسة «وقد بقى خلو كثير من اهل المائة السادسة ممن لهم جـــلال وكمال ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم ، وقد مضى من قول الشيخ ابى علي المسيلى ••• ادركت ببجاية مـــا ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف ابا علي الحسن بن علي المسيلى من يكون ؟ • واذا كان من المفتين تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والادباء وغيرهم ممن تقدم عصره ولم يدركه• كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويراد (27) •

والعصر الذى سبق المسيلى حمادى صـــرف ، والذى تكلم عنه متصل بالحماديين اذ ان هذا الحشد العظيم من المفتين تخرج من مدارسهم • فهذه الفقرة تبين ما كانت عليه بجاية من وفـــرة العلماء ورجال الفكر ، وما كان عليه الامراء والملوك من الاعتناء بهم والاهتمام بحركتهم •

ولم تكن بجاية خامدة الحركة ، خالية من ارباب الفكر ايام ابى علي المسيلى او ايام الغبريني فان مشعل النور ما زال يضيء الافاق من بجاية منذ نشاتها ، واستمر ينير السبل للسالكين بعـــد سقوط الحماديين فى عهد الموحدين ، ثم فى عهد الحفصيين ، الى ان سقطت فى يد اعـــــداء العلم والحضارة من الاسبانيين اوائل القرن العاشر (910 هـ) ثم اخرجهم منها الاتراك « فضعفت لتوالى الاحداث عليها ولولا اهميتها البحرية لكان سبيلها سبيل القلعـــــة (28) »• لقد كانت اثناء هذا العصر الذى تكلم عنه المسيلى مقصد طلاب المعرفـــة من الاروبيين فيها تعلم المهندس الايطالى والرياضى الشهير ليونارد فبوناتشيو FIBENACCIO
فيها تعلم الحساب والجبر والهندسة ••• ولـــدبمدينة بيزا حوالى 571 (1175 م) وقام باعمـــال رياضية جليلة ، وهو اول من طبق عمليات الجبر على الهندسة (29) » وذكر فى بعض كتبه شيخه الذى لقنه العربية والحساب من علماء بجاية •

وكانت المراة تاخذ بنصيبها وقد تتفوق على الرجل فقد ذكر الغبريني فى ترجمة القاضـــى الاديب الشاعر ابى الطاهر عمارة بن يحيى انه كانت لـــه بنت « تسمى عائشه كانت اديبة فصيحة لبيبة وكان لها خط حسن رايت كتاب الثعالبى بخطها فى ثمانية عشر جزء ••• وهى نسخة عتيقة ما رايت احسن منها ولا اصح وقد رايت منها نسخا كثيرة منتقدة الا هذه النسخة ولقد يجب أن تكون

27) عنوان الدراية ص 55 •
28) تاريخ الجزائر ج 2 ص 206 •
29) تاريخ الجزائر ج 2 ص 206 •

هذه النسخة أصلا لهذا الكتاب حين كان ويقع التصحيح منها (30) ، ولا يكان الاتقان فى النقل الا لذى ملكة راسخة فيما ينقل وفهم جيد له ٠ ولها طرائف أخبار ومستحسنات اشعار ضن علينا بنقلها الغبرينى لان المقصود من مؤلفه كما قال «التعريف بالرجال (30) » ٠

كانت المدرسة البجائية تؤهل متخرجها لشغل اخطر المناصب ، ففى عهد الموحدين مـــات كاتب سر أمير المؤمنين فدخل عليه فى خلوته أمير من امراء العـــرب كان معتادا لذلك ، فوجده مغتما ، وقد ظهر التغير فى وجـه فسأله عما به فأخبره أن كاتب سره قد مات وأنه لا يجد من يقيمه مقامه لاحتياجه الى صفات مخصصة فقال : « بشراك يا سيدنا يامير المؤمنين ان هذا الرجل ببجاية : أبو الفضل بن محشرة ووصف له من صفاته ما وقع منه موقع القبول (31) » ولم يتردد فى استدعائه الى عاصمة الخلافة مراكش معززا مكرما فلما حضر بين يديه لم يحتج الى اختباره لظهور فضله « فاكرم نزله ورفع منزلته ومحله ولما وقع الاطلاع على ما عنده من فنون العلم علـم ان الكتابة التى وقع الاستدعاء بسببها انما هى بعض صفاته واحدى آلاته » وابن محشرة وأبو الفضل بـن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسى ، من أهل بجاية ، وكان ابوه قاضيها و « له علم متســع المدى ٠٠٠ كان متمكن المعرفة (31) » أخذ العلم عن شيوخ بجاية وعـن الاندلسيين امثال السهيلى صاحب « الروض الانف » فى شرح السيرة النبوية ، وعبد الحق الاشبيلى ولــد سنة 540 وتوفى 598 ٠

فقد استدعى ابو الفضل لشغل هذا المنصـب الخطير لدى رئيس الدولة امير المؤمنين والدولة فى اعز ايام مجدها وقوتها ٠ ولم يكن طامحا لمثل هذا المنصب متهالكا عليه بل « ارتحل مـن بجاية وهو كاره لارتحاله مع علمه انه استدعاه (الخليفة) لمنصب يسمو به على امثاله ، ولكن عزة العلم اغنته عن الناس ، وحصلت له من المزية فى الانفس ازيد مما يقاس (32) » ولما باشر اعماله عرف قدره وقدر من يخدمه ونزل كلا منزلته فلما كاد له حساده نجا من المكيدة بفضل اخلاصه وسعة علمه بالسنة وحسن فهمه وتاويله ٠

ومن افذاذ علماء بجاية وعظمائهم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهرى الشهير بالاصولى صديق الفيلسوف العظيم أبى الوليد محمد بن رشد القاضى ورفيقه فى المحنة قال عنـــه الغبرينى «٠٠٠ الفقيه الاصولى المتكلم العالم المجتهد النبيل الفاضل الجليل ابو عبد الله ٠٠٠ من اهل بجاية رحل الى المشرق ولقى العلية والجلة من أهل العلم ، وولي قضـــاء المدن بجـــزيرة الاندلس ،

(30) عنوان الدراية 47 ــ 48 ٠
(31) عنوان الدراية 54 ٠
(32) عنوان الدراية 53 ٠

واستخلف بمراكش وولي قضاء بجاية ثلاث مرات وصرف عن اخرها سنة ثمان وستمائة وتوفى ببجاية بين عيد الاضحى والفطر سنة 612 هـ » (33) · واصـــل عائلته مـــن اشبيلية · ولما كان بالاندلس اتصل بينه وبين القاضى ابى الوليد بن رشد حبل المودة وكان بينهما اخاء وصفاء ، وكان يدرس معه علوم الاوائل · ثم كان سبب نجاته فى « لما وقعت الواقعة التى تكلم فيها ابو الوليد فى كتاب الحيوان له حيث قال : « رايت الزرافة عند ملك البربر » وهم أمير المؤمنين بالفتك به لم يكن سبب نجاته غيره (34)» وقد جادل عنه بوجهين الاول أنه كان قد جرى بمجلس الخليفة منع العمـل بالشهادة على الخط فلما نزلت هذه القضية هم الخليفة أن يعمل بالشهادة على الخط فقال الاصولى للخليفة : « منعتم الشهادة على الخط فى الدرهم والدينار ، وتجيزونها فى قتل المســلم (35) » · والوجه الثانى انه قال ان العبارة محرفة وأنه « انما الكتب رايت الزرافة عند ملك البرين ، وانما جاء فيه زيادة ونقص وهذا أحسن (36) » · واذا كان ابن رشد قد نجا بفضل دفاع صديقه فقد نالهما الاذى معا ، واخرجا من قرطبة وكتب فيهما الى الافاق وكانت المحنة سنة 593 ثم عفى عنهما وكرما لم يكن عالمنا هذا يهاب الخليفة ولا غيره فقد كان الخليفة اذا حضر مجلسه ووقعت المذاكـــرة سمحه الحاضرون من الطلبة (العلماء) فى المذاكرة « وكان هو لا يسامحه فى شىء وكان أميـــر المؤمنين يجد منه فى مجلسه ويعرف له مع ذلك فضـــلا فلا ينقصه شيئا من حقه (36) » · هذه فضيلة فى هذا العالم الربانى ، وفى هذا الخليفة العالم العظيم · وهكذا تكون الحرية مكفولة فى عظماء الرجال أيام عز الامة وسؤددها · أما سيرته فى ولايته القضاء فقد كان « شديدا على ولاة الامر الذين يكونون معه ببلد قضائه لا يسامحهم فى شىء من امورهم ويجاهدهم بما يكرهون فى حق الله وفى حقوق المسلمين ، وقد جرى بينه وبين والى بجاية كلام كانت فيه غلظة فقال له الوالى : والله لقد اصاب سيدنا أمير المؤمنين المنصور فيكم فقال له : ان كان اصاب امير المؤمنين المنصور افأخطأ فينا امير المؤمنين الناصر ؟ فأفحمه ورجع فاسترضاه (36) » ·

وكان المنصور قد كتب فيه وفى ابن رشد الى الآفاق ثم جاء من بعده النّاصر فاحسن اليـه وعطف عنه · هذه الشدة على الولاة ، ورباطة الجأش امامهم · ومجادلتهم تفسر لنا كثرة البلدان والمرات التى تولى فيها القضاء ثم صرف عنه · لقد أوتي جدلا · فقد حاول والى بجاية ان يورطه فى القدح فى تصرف لخليفة سابق هو المنصور ، فاذا به يقلب عليه الامر ويلزمه أن يقدح فى تصرف الخليفة الحالى ، فلم يسعه الا الاعتذار والاسترضاء ·

33) عنوان الدراية 208 ·
34) عنوان الدراية 209 ·
35) عنوان الدراية 209 ـ 210 ·
36) عنوان الدراية 210 ـ 211 ·

ومما يدل على شدة ذكائه ، وحسن تصرفه ،وبراعته فى التفتيش ، ما روي أنه احضرت الى مجلس امير المؤمنين لآلئ نفيسة فى طبق وعرضت على الحاضرين فى المجلس فعدت وفقدت منها واحدة فهم امير المؤمنين بتفتيش الحاضرين فاشار عليه بسوق قلة ماء مملوءة ويدخل فيها كـــل انسان يده سترا على الفاعل • فسيقت القلة ابتداء من يمين أمير المؤمنين وكان هو على يساره فلما انتهت اليه امتنع من ادخال يده وقال : صبوها فان وجد تم حاجتكم والا فهى عنـــدى فصبـــوها فوجدوها فخلص من الشك فيه وهذا من نبله وكياسته (37) •

وكان الفهرى عالما بالفقه والخلافيات والجدل وعلوم الاوائل.، والاصلى ، قد برز فى علم الكلام (اصول الدين) واصول الفقه ، وكان علـم وقته فى هذا الميدان حتى اشتهر بالاصولى • رحل الى الاندلس فتولى فيها القضاء وأقرأ والى مراكش فاستخلف ــ كما تقدم ــ فى القضاء ، ومات فى بجاية سنة 612 وهو مصروف عنه • رحمه اللــــه •

ومن أبناء بجاية الذين رفعوا رأس أمتهم عاليا ، وخلدوا لها ذكرا حسنا ابو الروح عيسى بن مسعود ••• بن يونيو المنكلاتى الحميرى الزواوى المالكى ، عاش حياته العلمية خارج وطنـه ، وتولى المناصب العظيمة فزانها ، وألف التآليف القيمة فأتقنها « كان فقيها عالما متفننا تفقه فى بجاية على ابى يوسف يعقوب (38) » وشيخه هذا فقيه • أصولى مشارك فى علم العقائد ، قرأ ببجايـــة واقرأ بها ، وتوفى 690 • أما المنكلاتى فانه زواوى الاصل بجائى الطلب ، ارتحل نحو الشـــرق وتفقه بالاسكندرية وعاد الى قابس فتولى القضاء بها مدة ثم رجع الى الاسكندرية ، ثم ارتحـــل نحو القاهرة فـ « اقام بها يشغل الناس بالعلوم بالجامع الازهر ، وسمع كتب الحديث من شـــرف الدين الدمياطى (38) » واشتغل عالمنا بالقضاء فى دمشق فى القاهرة قبل ان يعتزل المناصـــب الادارية ويتخصص للتدريس والتاليف •

« ولي نيابة القضاء بدمشق نحو سنتين ثم رجع الى الديار المصرية فولى نيابة القضاء بها عن قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف ثم من بعده عن قاضى القضاة تقي الدين الاخنائى ، ثم ولي تدريس المالكية بمصر بزاوية المالكية وترك ولاية الحكـــم (38) » • والجدير بالذكر أن محنة شيخ الاسلام ابن تيمية ودخوله السجن بمصر وقعت أثناء هذه الفترة فقاضى القضاة زين الدين بـــن مخلوف هو الذى وجه اليه التهمة انه « يقول : ان الله فوق عرشه حقيقه وان الله يتكلم بحـــرف وصوت ، فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه فقيل له : أجب ولا تخطب ••• فقال من الحاكـــم

37) عنوان الدراية 209 ــ 210 •
38) الديباج المذهب لابن فرحون ص 183 •

في ؟ فقيل له القاضي المالكي فقال له : كيف تحكم في وانــت خصمي فغضب غضبا شديدا وانزعج وحبس الشيخ (39) » كان ذلك سنة 705 وخرج من السجن ثم عادوا لمحاكمته من جديد، ولم يحضر ابن مخلوف ، ومثل القضاء المالكي قاضيان تونسي وجزائري ، هو الزواوي ، وطلب من القضاة ان يحكموا بحبسه لان المصلحة تقتضي ذلك · طلب من التونسي ان يحكم بهذا فقال : ما ثبت عليه شيء ، فطلب هذا من الزواوي ايضا فتوقف فقال ابن تيمية : « انا امضي الى الحبس واتبع ما تقتضيه المصلحة فقال الزواوي يكون في موضع يصلح لمثله » كان هذا في شوال 707 وهكذا نرى ترددا وتوقفا محمودا ، ثم نجد شاهدا من تاريخ قضائنا على الحكم بالسجن السياسي · وهذا ما لم تبلغ اليه اروبا الا حديثا ·

بعد ان ترك المنكلاتي الحكم اشتغل بالتدريس والتاليف ، وكان يملك مقـــدرة فائقة وعلما غزيرا واطلاعا واسعا·، وحذقا ومهارة مما مكنه ان يؤلف في الحديث والفقه والاصول والمساحة والجدل والسير والتاريخ ·

« شرح صحيح مسلم في اثنى عشر مجلدا وسماه اكمال الاكمال جمع فيه اقوال المازري ، والقاضي عياض ، والنووي واتى فيه بفوائد جليلة من كلام ابن عبد البر والباجي وغيرهما » وشرح مختصر ابن الحاجب في سبع مجلدات وحل الى كتاب الصيد ، واختصر جامع ابن يونس شـــرح المدونة ، وصنف في الوثائق والمناسك · ورد على ابن تيمية في مسالة الطلاق · والف في مناقب مالك ، وتاريخا في عشر مجلدات · « وكانت له اليد الطولى في علم الفقه والاصول ، والعـــربية والفرائض (40) » حفظ موطا مالك ، ومختصر ابن الحاجب في مدة يسيرة · مثل هذا الانتـــاج الضخم والنشاط الجم يدل على مكانة سامية بلـــغ اليها هذا الامام من علمائنا ·

وقد « كان اماما في الفقه واليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية » ولد سنة 664 وتوفى بالقاهرة سنة 743 · رحمه الله ورضي عنـــه ·

علماؤنـــا والاجتهـــاد :

ويستطيع ان يلاحظ من يدرس تراجم علمائنا · ويقرا تاريخهم وآثارهم ان يعرف مقدار ما كانوا عليه من استقلال في الرأي ، واستعمال للنظر ، وجرأة وشجاعة في الحق ، واخذ بالاجتهاد

39) ابن تيمية لابي زهرة ص 56 ·
40) الديباج المذهب ص 183 ·

فقد جاء فى ترجمة ابن الفضل ابن النحوى انه « كان عارفا باصول الدين والفقه يميل الى النظـر والاجتهاد (41) » · وجاء فى ترجمة ابى علي حسن بن علي المسيلى انه « المحقق المتقن المحصـل المجتهد (42) » وفى ترجمة ابى عبد الله محمد ابى ابراهيم الفهرى الاصولى انه « الفقيه الاصولى المتكلم العالم المجتهد النبيل الفاضل الجليل (43) » فالاجتهاد لمن ملك وسائله مشروع الى ذلك الحين فقد علمنا من اخواننا علماء المشرق ان باب الاجتهاد قد اغلق منذ القرن الرابع الهجرى وانهم يحمدون هذا الاغلاق وينصرون من فعله ويدعمون ذلك بحجج منها الخوف من جناية الطغاة من الملوك والامراء والحكام على الدين ، والخشية من مطاوعة علماء السوء لرغباتهم ، واستجابتهم لنزواتهم بدعوى الاجتهاد · وقد جاء من بعد القرن الرابـــع غزوات الصليبيين وتغلب التتار · واستبد بالمسلمين كثير من الطغاة ولولا ان باب الاجتهاد كان مغلقا لعمت البلوى ، وربما احلـوا الحرام ، وحرموا الحلال وانتهكت أحكام الشريعة بدعوى الاجتهاد فى الدين · ولم نر هذا الاجماع على اغلاق باب الاجتهاد من علمائنا المغاربة ، فما زالوا يتكلمون به ويدللون على بقائه مفتوحا الى يوم الدين ، ويسمون من ملك ادواته بالمجتهد فهذا ابو الفضل ابن النحوى يعلن عنه أنه كان عارفا ··· يميل الى النظر والاجتهاد فمعرفته أهلته للاجتهاد وقد توفى فى القرن السادس (513) وعاش المسيلى حتى سنة 580 ، وتوفى الاصولـــى سنة 612 وقال المقرى عن العالمين الجزائريين العظيمين أبى يزيد عبد الرحمن بن الامام واخيه ابى موسى عيسى « كان ابو يزيد واخوه ابو موسى يذهبان الى الاجتهاد ، ويتركان التقليد لما صار لهما من الصيت بالمشرق (44) » · وقد عاشا حتى نصف المائة الثامنة ولقيا فى رحلتهما شيخ الاسلام ابن تيمية وناظره فى العقائد · وقال الخطيب ابن مرزوق عن شيخه ابى علي الزواوى الشهير بناصر الدين المشذالى « ووصل شيخنا ابو علي درجة الاجتهاد سمعته من جماعـــة من أصحابه (45) » توفى علي سنة 731 ·

هذه النزعة الاستقلالية فى البحث والنظر والاجتهاد والتى لا تتطور المعارف الانسانية ارتقاء الا بفضلها ـ انتقلت من الشيوخ امثال ابن النحوى ، والذكي ، والمسيلى ، والاصولى الى تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم وخلفوهم فى مهمتهم فى بجاية ، وتلمسان ، وشرقوا وغربوا متسمين بها · فهذا ناصر الدين وريث ثقافة اسلافه وشيوخه يتوجه طلبته الى الافاق لتادية الرسالة فقد اخذ عنه

41) البستان ص 300 ·
42) عنوان الدراية ص 33 ·
43) عنوان الدراية ص 208 ·
44) نيل الابتهاج ، والبستان 124 ·
45) نيل الابتهاج ص 345 ·

فيمن اخذوا ابو علي منصور بن علي نزيل تلمسان واجتاز الى الاندلس فكان من جلـــة علمـاء غرناطة « فلقي رحبا وعرف قدره فتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبيهة وحلق للناس متكلما على الفروع الفقهية والتفسير وتصدر للافتاء وحضرته وصحبته فنلت منه (46) » وكان « له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العقلية والنقلية واطلاع وتقييد ونظر فى الاصول والمنطق ويد طولى فى الحساب والهندسة » • واستمر فى التدريس والافتاء بغرناطة مدة 12 سنة (753 – 765) ثم خرج منها لاصطدامه فى الفتوى بجماعة الفقهاء • وتكفيه شهادة ابن الخطيب انه حضره ونال منه وأنه كان ذا تقييد ونظر • وممن أخذ عنه الامام ابو اسحاق الشاطبى (47) صاحب كتـاب «الموافقات» البديع ، وكتاب الاعتصام • كما اخذ الشاطبى أيضا على ابى عبد الله محمد ابن احمد الشريف المعروف بـ «الشريف التلمسانى» • وكان الشريف رحمه اللـــه قد « اختص باولاد الامام وتفقه عليهما فى الفقه والاصول والكلام ولزم الابلى وتطلع فى معارفه فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه (48) • وكان عبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ الشهير من تلاميذ الشريف ذكره ونوه به • وقال عنه ابن مرزوق الحفيد « هو شيخ شيوخنا » واثنى عليه معاصره ابن مرزوق الخطيب وذكر انه وصل درجة الاجتهاد فى المذهب • ولم يكـن علماؤنا ممـــن يضيقون حلقـــة الاجتهاد ويحصرونها فى لمة قليل عددهم ثم يجعلون كل تلاميذهم ومن اخذوا عنهم مقلدين قال المقرى « شهدت مجلس ابى تاشفين صاحب تلمسان ذكر فيه أبوزيد ابن الامام أن ابن القاسم مقلد لمالك ، ونازعه ابو موسى عمران (بن موسى المشذالى البجائى نزيل تلمسان ، صهر ناصر الدين) المذكور وادعى انه مطلق الاجتهاد واحتج بمخالفته لمالـك فى كثير وذكر منه نظائر ، فلو قلده لم يخالفه • واحتج ابوزيد بتصرف الشـريف التلمسانى (فى جواب له على سؤال من الاندلس فرق فيه بين المجتهد المطلق ومجتهد المذهب) أنه مثل مجتهد المذهـــب بابن القاسم فى مذهب مالك ، والمزنى فى مذهب الشافعى ومحمد بن الحسن فى مذهب ابى حنيفة فاجابه عمران بانه مثال ، والمثال لا يلزم صحته » • واستدل ابن عبد السلام شيخ ابن عرفة على اجتهاد ابن القاسم المطلق بنحو ما استدل به عمران بن موسى البجائى « وتعقبه ابن عرفة بانه مزجى البضاعة فى الحديث • ونكت ابن غازى على تعقبه بانه : كيف يثبت الاجتهاد لشيوخه كابن عبد السلام وغيره وينفيه عن شيـــخ هداية المالكية بعبارة فظيعة ؟ (49) » • « ••• ولا ريب فى امامة ابن القاسم فى الحديث وناهيك بثنـــاء

---

46) البستان 292 – 293 – نيل الابتهاج 345 – 346 – والمتكلم هو ابن الخطيب فى الاحاطة •
47) البستان 294 – نيل الابتهاج 346 •
48) نيل الابتهاج •
49) نيل الابتهاج 216 •

النسائى عليه كما تقدم والعجب من الامام ابن عرفة كيف يثبت الاجتهاد لابن دقيق العيد ونظرائه ثم يقول : وفى المازرى نظر هل لحقه ام لا • ومعلوم أن ابن عبد السلام وابن دقيق العيد لا يبلغان درجة المازرى فى تفقهه وامامته » • والمستفاد من هذه المناقشة أن ابن عرفة قد أسند الاجتهاد المطلق لجماعة من العلماء دون ابن القاسم • وكلهم متأخرون عن القرن الرابع • ولما نفى هذه الدرجة عن ابن القاسم علل ذلك بنقص فى اداة من ادواته ، ولم يسلم ذلك له علماؤنا بل ناقشوه الحساب • وحتى القرن التاسع كان الاجتهاد يدعى ممن يرى نفسه اهلية له ، ويوسم به من يراه العلماء قد بلغ درجته ، ويتواضع عن ادعائه بعض الراسخين فى العلم « فهذا قاسم العقبانى والسناوى ، والبجائى من اهل المائة التاسعة يصرحون ببلوغ درجة الاجتهاد • والامام الشاطبى ، والحفيد ابن مرزوق ينفون ذلك عن انفسهما ومعلوم انهما اقوى علما واوسع باعا من الذين ادعوها (50) » • قال القلصادى فى ترجمة العقبانى « شيخنا وبركتنا الفقيه الامام ملحق الاصاغر بالاكابر العديم النظير والاقران مرتقى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان (51) ••• » مات العقبانى سنة 858 • وقد برهن الشاطبى تلميذ الماشذالى والتلمسانى فى كتابه الموافقات على بقاء باب الاجتهاد المطلق مفتوحا الى يوم الدين •

وهكذا نرى ان علماءنا لا يقولون ببقاء باب الاجتهاد المطلق مفتوحا امام من استكمل وسائله فحسب ولكنهم يعينون افرادا بلغوا هذه الدرجة ، ويتجادلون بالحجج الواضحة ، وقد يدعيها من يرى فى نفسه الكفاءة لتشنمها فتسلم له دعواه وقد ينازع ويناقش الحساب •

وقد كان علماؤنا اوفياء لدينهم قائمين بامر ربهم ، مخلصين له الدين ، لا يرهبون أحدا ولا يخافون فى الله لومة لا ئم فلم يحلوا حراما لاحد ، ولم يحرموا حلالا على احد ، يتحرون فى الفتاوى اشد الملوك قوة ، واعظمهم باسا ، اذا رأوا فى تصرفهم انحرافا • فهذا ابو الفضل ابن النحوى يتحدى اوامر امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، لما افتى الفقهاء باحراق كتاب الاحياء للغزالى فى صحن مراكش ووصل كتاب على بن يوسف اللمتونى بذلك وتحليف الناس بالايمان المغلطة ان ليس عندهم الاحياء فانتصر له « وكتب الى السلطان بذلك وافتى بعدم لزوم تلك الايمان وانتسخ الاحياء فى ثلاثين جزء يقرأ فى كل يوم جزء فى رمضان ، وقال وددت انى لم انظر عمرى سواه (52) » فاى تحد أشد من هذا واصرح ؟ ولما دخل الموارقة مدينة بجاية واكرهوا على البيعة اهلها ، قصدوا قاضيها ابا علي المسيلى ليكرهوه على البيعة وكانوا ملثمين على عادتهم

50) نيل الابتهاج 217 •
51) نيل الانتهاج 223 _ 224 •
52) البستان 299 •

فامتنع من البيعة وقال : لا نبايع من لا نعرف هل هو رجل ام امرأة فكشف له الميورقى عن وجهه وهذا منتهى ما بلغ توقفه وهو امر كبير عند مطالبته بالبيعة ، ولولا علو منصب الفقيه ابى على ما ساعده علية (53) » ٠ وارسل اليه والى بجاية ـ وكان الوالى احد ابناء عبد المؤمن بن علي ـ يستدعيه بتحريض من القاضى ليمنعه من النشاط الثقافى ويامره ان يشتغل بشأنه ويقتصر على خاصة امره « فوصله رسوله وهو جالس بالجامع الاعظم بمحل تدريسه منه فاخبره عن حديث السيد وكان من جملة القراء بين يديه حفيد له فقال له : اقرأ عليه ولم يامره بما يقرأ فاستفتح متعوذا فقال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون » فانفصل الرسول وقد انتقع لونه وهو ترتعد فرائصه ولما حصل اثناء الطريق وصله رسول السيد يسترجعه ويقول : لا تحدث الشيخ عن شيء ٠٠٠ ثم رده اليه ليعتذر له ، ووصله ٠٠٠ فقبل عذره ورد الصلة (54) » ٠ وقد تقدمت مجابهة الاصولى للخليفة الموحدى ومجادلته فى أمر ابن رشد ٠

فمثل هؤلاء الاعلام لا يخشى أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ويؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة وفى علماء المشرق ابطال فى هذا الميدان ممن عاصروهم ، مثل العز ابن عبد السلام ، وشيخ الاسلام ابن تيمية وابن دقيق العيد ٠ وقد شهدلهم علماؤنا ببلوغ درجة الاجتهاد ٠ ان ديننا صالح لكل زمان ومكان ، والزمان يتقدم ، والاقضية تحدث ، وعلى علماء الاسلام أن يماشوا به الاحداث ويحلوا المشاكل الجديدة على قواعده ولن يعدموا اصلا يرجعون اليه ٠ هذه مزية كان يتسم بها علماؤنا ويعملون بمقتضاها وهم اشد الناس اخلاصا ووفاء للاسلام ٠

---

53) عنوان الدراية 34 ـ 35 ٠
54) عنوان الدراية ص 35 ٠



مصباح حمادي من الآجر ، وعاء للبلسم من الزجاج وآنية من القيشاني ، من عهد بني حماد .

عبدالحق الاشبيلي البجائي

محدث القرن
السادس الهجري

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

تمهيد : لقد شهد المغرب العربي كله والاندلس في مطلع القرن السادس الهجرى ثورة كبيرة فى مجال التفكير العلمى ، والبحث النظرى على يــد المهدى ابن تومرت الذى دعا عقب عودته من المشرق سنة 514 هـ الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، وتصحيح بعض مفاهيم الاعتقاد (1) وحارب جمــود الفقهاء الذين عكفوا على كتب الفروع ، واهملوا النظــر فى كتب الحديث والقــــرآن ·

وساعد على ايجاد جو جديد تنطلق منه الدراسات الفقهية والكلامية ، ومحاولة الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة مباشرة ·

ولعل هذا الاتجاه النقدى الذى عاب جمود الفقهاء والمتكلمين نجده قبل ابن تومرت عند الامام المحدث الكبير ابن عبد البر الذى انتقد الفقهاء فى القرن الخامس الهجرى ، وعاب عليهم جمودهم وعكوفهم على اقــوال فقهاء المالكية مع اغفال طريق الاستدلال وفى ذلك يقول : « يتركون طريــق الاستدلال ، والفروع لاحد لها ومن رام ان يحيط باقوال الرجال فقد رام مالا سبيل اليه ، والايام تضطره الى الاستنباط مع جهله بالاصول » (2) ·

وكان منذر بن سعيد البلوطى (ت 335 هـ) قبل ابن عبد البر ينتقد جمود الفقهاء باقتصارهم على اقوال الايمة دون العناية بدراسة القــرآن والحديث ، ومحاولة الاستنباط منهما فيقول :

عذيرى من قوم يقولــون كلمات　　طلبــت دليــلا هكذا قال مالك
فان عدت قالوا هكذا قال اشهب　　وقــد كان لا يخفى عليه المســالك
فان زدت قالوا قال سحنون مثله　　ومن لم يقل ما قالـه فهو آفـــك
فان قلت قال الله ضجوا واكثروا　　وقالوا جميعا انت قرن مما حــك
وان قلت قد قال الرسول فقولهم　　اتت مالكا فى ترك ذلك المسالك (3)

1) المراكشي ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 278 ـ 280 ·
2) ابن عبد البر ، يوسف : جامع لبيان العلم وفضله ج 2 ص 170 ـ 171 ·
3) المرجع السابق ج 2 ص 172 ·

واذن فالدعوة التى دعا اليها المهدى ابن تومرت من العودة الى الكتاب والسنة نجد لهـــا سندا عند من سبقه من المحدثين والمتكلمين ، وانما اشتهرت به ، ونســـبت اليه ، لمناصـــرته لها بمؤلفاته ، ودعمها بنفوذه ، ونفوذ خلفائه من بعده وقد كان لهذه الدعوة أثرها الفعال فى توجيه الاذهان الى الدراسات القرآنية ، ودراسات الحديث وعلومه وان لم تحقق الغـــرض الذى كان يستهدفه ابن تومرت وهو القضاء على المذهب المالكي ٠

ونجد من نتائج هذه الدعوة الى الحديث والقرآن نبوغ جماعة كبيرة من المحدثين فى العصر الموحدى وما بعده ، ومن هؤلاء المحدثين الكبـار : ابو محمد عبد الحق الاشبيلى البجائى الذى ولد سنة 510 هـ وقضى نشاته الاولى ، وهو يسمع فى مجالس شيوخه صدى لهذا الاتجاه الجديد فى دراسة الفقه والاحكام من منابعها الاولى ، فاعجب به ، ومال اليه وترك مؤلفات كثيرة فيه ٠

حياته : ولد عبد الحق بن عبد الرحمن بـن عبد الله بن حسين بن سعيد بن ابراهيم الازدى الاشبيلى باشبيليه سنة 510 هـ ونشا بها ، وأخذ عن شيوخها ، ثم انتقل الى لبلة من مدن الاندلس واخذ بها عن ابى الحسن خليل بن اسماعيل ، وتفقه عليه، واقام بلبلة حتى غمرتها الفتن السياسية فانتقل منها الى بجاية (4) ٠ وهذه الفترة التى قضاها عبد الحق بالاندلس فترة يكتنفها الغموض الشديد ، وقد اشار اليها من ترجموا له بكلمات مقتضبة لا تفيدنا كثيرا فى القاء الضوء على هذه الفترة الهامة من حياة عبد الحق الاشبيلى ونحـن ينبغى لنا ان نقف عند هذه الفترة قليلا لا يضاح بعض الغموض الذى يسودها لانها تساعدنا على دراســـة شخصية عبد الحق وعوامل التحاقه ببجايـــة ٠

أما ولادة عبد الحق الاشبيلى فقد كانت سنة 510 هـ كما ذهب الى ذلك ابو العباس الغبرينى (5) والذهبى فى تذكرة الحفاظ (6) وابن فرحون فى الديباج المذهب (7) ٠

وذهب ابن الزبير فى صلة الصلة الى ان ولادته كانت سنة 514 هـ (8) وهى رواية انفرد بها عن اصحاب التراجم الآخرين ٠

واما مدة اقامة عبد الحق باشبيلية ولبلـة قبل هجرته الى بجاية فقد اشار اليها اصحاب التراجم اشارة غامضة قالوا فيها ان هجرته الى بجاية كانت وقت حدوث الفتنة التى انقرضت فيها الدولة الملتونية (9) ٠

---

4) راجع : ابا جعفر احمد بن الزبير : بغية الملتمس (مجريط مطبعة روخس 1884) ص 378 ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ (بيروت : دار احياء التراث) ج 6 ص 1350 ٠
ـ الغبرينى احمد : عنوان الدراية نشر ابن ابى شنب ص 20 ـ 23 ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص 175 ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات (مصـــــر سنة 1951 م) ج 1 ص 518 ـ بروكلمان : تاريخ الاداب العربية ج 1 ص 458 ٠

5) عنوان الدراية ص 20 ـ 23 6) تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 7) الديباج المذهب ص 175
8) صلة الصلة ص 4 ـ 5 9) راجع : الديباج ص 175 ـ وتذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 وفـوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

وهذه الفتنة التى كانت عاملا من عوامل هجرة عبد الحـــق الشبيلى الى بجاية قد ذكرها المؤرخون ، وفصلوا احداثها ونحن بسوقنا لاحداث اشبيلية ولبلة وما يتصـــل بهما مـن اخبار الاندلس فى منتصف القرن السادس الهجرى نصل الى تصوير هذه الفتنة العارمة ٠

يذكر الناصرى فى الاستقصا : ان الموحدين زحفوا الى لبلة وكان بها من الثوار يوســـف بن احمد البطروجى فأطاعهم ، وسلم اليهم المدينة ثـــم زحفوا الى اشبيلية وفتحوها فى شعبان سنة 541 هـ ٠ وفر المرابطون الذين كانوا معتصمين بها ، وقتل فى جملتهم عبد الله ولد القاضـى ابى بكر بن العربى وهو من شيوخ عبد الحق الاشبيلى وهناك حادث خطير تعرضت له مدينة لبلة وكان ذلك عقب ثورتها على الموحدين ، وزحف اليها هـــؤلاء بقيادة يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية وفتحوها سنة 599 هـ (10) ٠

وقد ارتكب هذا القائد الموحدى فظائع وحشية بعد ان فتح المدينة (عنوة وقبض على اهلها وخرج بهم الى ظاهرة المدينة وصفهم فى صعيد واحد ، ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم الى الفقيه المحدث ابى الحكام بن بسطـــال ٠

والفقيه الصالح ابى عامر بن الجد ، وكان عدد من قتل من اهل لبلـــة فى ذلك الحادث ثمانية الآف منهم ، وقتل بأحوازها منهم اربعة الآف ، ثم بيعت نساؤهم وابناؤهم وأمتعتهم واسلابهم ، فعل ذلك افتياتا على عبد المؤمن ، وبلغه الخبر بمراكش فسخطه ٠٠٠ ولم يصرف الى اهل لبلة شيئا مما أخذ لهم ٠٠ (11) ٠

ولا شك ان هذه الحادثة الفظيعة التى شاهدها عبد الحـــق الاشبيلى ، ونجا من ويلاتها وشاهد بعض شيوخه يذهبون ضحيتها قد تركت آثارها السيئة فى نفسه ، وجعلت ميله الى المرابطين الذين كانوا يعزون شيوخه ويقدرونهم ميلا أصيلا فى نفســـه ٠

ولعل هذه الفتنة الحاصدة هى التى دفعته دفعا الى الهجرة من بلاده فى اتجاه الاماكـــن المقدسة ، ولم يذكر من ترجموا له تاريخ مغادرته للاندلس بالتحديد ، ولكن ابا العباس الغبرينى حاول ان يحدد تاريخ هجرته فقال ان عبد الحـــق غـــادر الاندلس الى بجاية بعد الخمســـين وخمسمائة (550 هـ) بعد ان قام بالاندلس من سنة 510 هـ الى سنة 550 هـ أى بعد ان اقام فيها نحو 40 سنـــة ٠

10) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 م) ج 2 ص 117 ٠

11) المرجع السابق ج 2 ص 125 ٠

وهذا التاريخ يوافقه تاريخ الفتنة الاخيرة بلبلة ، وقد وقعت سنة 549 هـ ، ولا يبعد اذن ان يكون عبد الحق قد فارق الاندلس اثناء هذه الفتنة او بعدها بقليل ، واستقر ببجاية حوالى سنة 550 هـ او بعدها بقليل (I2) ٠

وكانت نيته عند مغادرته للاندلس ان يرتحل الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج ، ولكنه عندما وصل الى بجاية اقام بها واختارها وطنا له كما يقول الغبرينى ٠

وقد اقام ببجاية نحو احدى وثلاثين سنة من سنة 550 هـ الى سنـــة 582 هـ ينعم بالطمانينة والاستقرار ، ومال فى هذه الفترة الطويلة من حياته الى الزهد والتدريس والخطابة فى الجامـــع الاعظم بها (I3) ٠

ولم يتول القضاء بها الا فى عهد بنى غانية لفترة قليلة وهذا ما لاحظه الغبرينى فى عنوانه (I4) ٠

وكان عبد الحق الاشبيلى يبتعد عن المناصب السياسية بحكم اتجاهه الزهدى ، ولذلك لـم يل القضاء الا فى عهد بنى غانية ولمدة قليلة وقـد امتنع عنه فى العهد الموحدى تحت حكم السادة من بنى عبد المؤمن واستغرب ذلك منه ، وفى ذلك يقول ابن الزبير : ودعـــى ببجاية الى خطتى القضاء والخطابة للموحدين فامتنع عن ذلك ، ودعى لذلك حين دخلها الميـــورقى (ابن غانيـــة) فاجـاب (I5) ٠

وقد استطاع عبد الحق ان يتفرغ للعلم والافادة ، وان يراجـــع ما درســـه على اشياخه بالاندلس ، وان ياخذ عن كبار العلماء الذين كانوا يمرون ببجاية ، وان يفيدهـم ، ولا غرابة ان ينبغ بعد ذلك فى الحديث وعلومـــه وفى الآداب ايضـــا ٠

وكان عبد الحق يفتخر بالمشيخة التى اخذ عنها بالاندلس وغيرها ، وكانت من رجالات الفقه والحديث والفقه والادب وغيرها ، ومنهم ابو الحسن خليل بن اسماعيل ، وابو الحسن شريح ، وابو بكر عبد العزيز بن خلف ، وابن برجان ، وابو حفص عمر بن ايوب وابو بكر بن مديد ، وأبو الحسن طارق ، وطاهر بن عطية وابو بكر ابن العربى الشهير ، واجازه من المشرق ابو القاسم ابن عساكر محدث دمشق وغيره ٠ وهكذا اشتهر عبد الحق الاشبيلى البجائى بالحديث وعلومه ، واعتبره ابـن

I2) عنوان الدراية ص 23 ٠

I3) الديباج المذهب ص I75 ــ تذكرة الحفاظ للذهبى ج 4 ص I350 ــ عنـوان الدراية ص 2I ــ صلة الصلة ص 5 ــ فـوات الوفيات ج I ص 5I8   I4) عنوان الدراية ص 29   I5) صلة الصلة صفحة 5 ٠

عساكر من اكبر المحدثين المعاصرين له بالمغرب ، ولا غــرابة ان يكون عبد الحق في هذا المستوى العلمي الذي اشتهر به في المغرب والمشرق ، فقد كان كما يقول ابن فرحون وابن شاكر « فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال » (16)

ولم يكن عبد الحق جماعا للحديث لا غيـر ، وانما كان دراسا له ، واعيا لما فيه من احكـام وآداب ، وقد نبغ فيه ، وترك مؤلفات كثيرة في مختلف علومه ٠

وكان الى جانب ذلك اديبا واعيا ، وشاعرا مطبوعا « يزاحم فحول الشعراء ، ولم يطلـق عنانه في نظمه بل اقتصر على باب الزهد وما يرجع اليه » كما يقول ابن الزبير (17) ٠

والواقع ان مؤلفات عبد الحق الاشبيلي تشهد له بهذا التحصيل الواسـع ، وبهذه العبقرية الفذة في دراسة الحديث وعلومه ٠

ومؤلفاته حسبما ذكرها من ترجموا له علـى اختلاف بينهم في ذلك هي في الحديث وعلومه ٠

1) الاحكام الكبرى 2) والاحكام الصـغرى 3) وهناك احكام كبرى اعظم من الاولى وذكر الغبريني انها ضاعت ٠

وهذه الكتب في الاحكام جرت عادة المؤلفين فيها ان يدونـوا الاحاديث وآراء الصحابة والآيات القرآنية حسب أبواب الفقه ، حتى يسهل استنباط الاحكام منها ، وقد سبق عبد الحـق الى هذا النوع من المؤلفات في الاندلس أبو العباس بن ابي مـــروان الشهيد عند هجوم القائد الموحدي عليها سنة 549 هـ وحظي ما كتبه عبد الحق بالقبول والبقاء دون ما كتبه ابو العباس بن ابي مروان ٠ ويلاحظ الغبريني ان الاحكام الكبرى والصغرى قد اشتهرتا في عصره في مجالس العلم شرقا وغربا وكتبت عليهما شروح ومن ذلك ما كتبه ابن القطان تحت عنوان « الوهم والايهام الواقعان في كتاب الاحكام وان كان لا يخلو من تعسف » (18) ٠

3) وله كتاب المرشد في الحديث ، وقد تضمن حديث مسلم وما زاد البخاري على مسلم ، واضاف الى ذلك احاديث حسنة وصحيحة من سنن ابي داوود ، وكتاب النسائي والترمذي ومـا وقع في الموطأ مما ليس في مسلم والبخاري ، وهذا الكتاب اكبر من صحيح مسلم ٠

16) الديباج المذهب ص 175 – فوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

17) صلة الصلة ص 5 ٠

18) ابن القطان : نظم الجمان (تطوان المطبعة المهدية) مقدمة الكتاب ، والملاحظ ان مخطوطات الكبرى والصغرى موجودة في الخزانة العامة بالرباط وغيرها من المكتبات كما يوجد فيها كتـاب العاقبة لعبد الحـق ايضا ٠

4) وله الجمع بين الصحيحين فى سفر ·

5) وله كتاب « الجامع الكبير » فى الحديث جمع فيه بين المصنفات الستة مع اضافة مـا جاء فى مسند البزار اليه ، وتكلم فيه على علل الاحاديث ، وقد نهب منه هذا الكتاب عند الهجوم على بجايـــة ·

6) وكتاب فى المعتل من الحديث ·

7) وكتاب تلقين الوليد فى الحديث فى سفر صغير ·

8) ومختصر كفاية الكفاية ، فى علم الروايـــة ·

9) وكتاب بيان الحديث فى قدر صحيح مسلم ونهب منه ·

وله مؤلفات فى الزهد والتذكير وهي :

10) كتاب الرقائـــق ·

11) وكتاب العاقبة فى التذكير ·

12) وكتاب الزهد وقد ذكره ابن شاكر (19) ·

13) وكتاب فضل الحج والزيارة ·

14) وكتاب التوبة فى سفرين ·

15) ومعجزات الرسول (ص) فى سفر ·

16) ومقالة فى الفقر والغنى ·

17) وكتاب الصلاة والتهجد فى سفر ·

18) وكتاب الرقائق فى الامثال والمواعظ والحكم والآداب من كلام النبى (ص) والصالحين ·

وله فى اللغة والشعر والانساب :

19) كتاب الواعى فى اللغة ، وقد حاكى بـــه كتاب الغبريين للهروى ، وهو فى نحو 18 سفرا عند الغبرينى ، وفى نحو 25 سفرا عند ابن فرحون

20) ومختصر كتاب الرشاطى فى سفرين فى الانساب والقبائل والبلاد وهو احسن من الأصل كما يقول الغبرينى (20) ·

19) فوات الوفيات ج 1 ص 518 ·

20) عنوان الدراية ص 22 ــ الديباج ص 175 ·

21) وديوان شعر في الزهد وشؤون الآخرة اشار اليه الغبريني (21) ·

تلاميذه : اخذ عن المترجم جماعة من المحدثين منهم :

الزاهد ابو الحجاج بن الشيخ البلوى ، والاستاذ ابو ذر الخشني ، والحافظ ابو محمد بن الحسن القرطبي كتابة ، والقاضيان ابو محمد وابو سليمان ابن حوط الله ، وابو الحسن المعافرى وابو محمد بن عطية وابو الخطاب بن خليل وهو آخر من حدث عنه (22) وغير هؤلاء ·

وقد اشتهر عبد الحق بالسلوك الامثل ، وبالفضائل السامية التى جعلته محبوبا لدى الخاص والعام ، وقد أحبه طلابه ، واعجبوا بسلوكه كثيرا ، فكان كما يقول ابن فرحون والذهبى وابن شاكر « موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، والتقلل من الدنيا » (23) ·

وكان شديد الرغبة فى نشر العلم ، وافادة الطلاب · فكان كما يقول ابن الزبير « عاكفا على الاشتغال بالعالم جادا فى نشره واذاعته ، حسن النية فيه ولذلك اشتهر ذكره » (24) ·

ويلاحظ الضبى فى بغية الملتمس ، وقد مر ببجاية وقرأ على عبد الحق ، واجازه كتبه انه « كان لا يدخل احد من الطلبة الا سال عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه » (25) ·

وقد حدثنا الضبى أن شيخه عبد الحق كان يقسم يومه الى اقسام ، فكان بعد صلاة الصبح يقرىء طلابه الى وقت الضحى ، ثم يصلى نافلته ويذهب الى منزله للتاليف حتى يدخل وقت الظهر فيؤدى صلاة الظهر ، ثم يقرىء الى العصر وبعد ذلك يخرج لقضاء حوائج الناس ·

صداقته لعلماء بجاية : كانت بجاية فى القرن السادس الهجرى تزدان بطائفة من العلماء والادباء نذكر منهم ابا مدين الصوفى الكبير ، وابا على المسيلى المتكلم الفقيه ، وابا الطاهر عمارة بن يحيى وبنته عائشة الشاعرة المشهورة ، وابا عبد الله محمد بن عمر القرشى المشتغل بالمباحث النظرية والعقلية وابا زكرياء الزواوى وغيرهم ممن ذكرهم الغبرينى فى عنوانه (26) ·

وقد حدثنا الغبرينى عن مظاهر الصداقة التى كانت تجمع بين عبد الحق وهؤلاء الاعلام ·

21) عنوان الدراية ص 21 ·
22) صلة الصلة ص 6 ·
23) الديباج ص 175 ـ تذكرة الحفاظ : ج 4 ص 1350 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ·
24) صلة الصلة ص 5 ·
25) بغية الملتمس رقم الترجمة 1104 ص 378 ·
26) عنوان الدراية ص 6 ـ 25 ·

ومن ذلك ما حكاه الغبرينى من ان عبد الحق كان يجتمع مع صديقه ابى على المسيلى ، وابى عبد الله محمد بن عمر القرشى « بالحانوت الذى هو بطرف حارة المقدسى ، وهو المقابل للطالع للحارة المذكورة ، وكان الحانوت يسمى مدينة العلم لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه ، وكان القرشى هذا من اهل النظر فى المعقولات » (27) ٠

وكان عبد الحق صديقا حميما لابى على المسيلى ، وذكر الغبرينى عنـــه انه كثيرا ما كان يجلس معـــه ٠

ولما اشتهر ابو مدين فى بجاية ، وانتشرت عنه غرائب عزم عبد الحق ، وابو على المسيلى علي الذهاب اليه لاختباره ، وسارا اليه وسالاه فاجابهما عن اسئلتهما ثم خاطبهما باشارة صوفية ملتفتا عن يمينه ويساره قائلا : بى قل ، وعلي دل فانا الكل ، (28) فبهرهما وانصرفا عنه معجبين بـــه مقدرين فضله ، وكان سلوكه مع عائلته سلوكا حسنا يتســـم بالسماحة والكرم ، فكان اذا اتته الوصيفة من المنزل تطلب منه قضاء حاجات لاهله ـ يعطيها اكثر مما تطلب ، ويقول لا اجمع على اهل المنزل ثلاث شينات : شيخ ، واشبيلى ، وشحيح بل يكفى ثنتان ، وهذا من خفة روحه ، وكرم طبعه كما يقول الغبرينى (29) ٠

موقفه من ثورة بنى غانية ببجاية : كان بنو غانية الذين استبدوا بامر جزائر ميورقة ومنورقة ولم يذعنوا لطاعة الموحدين ينتظرون الفرصة ليثوروا على الموحدين ، ويستردوا امـلاك الدولة المرابطية التى انتزعوها منها ، وقد اختاروا الهجوم على بجاية عقب وفاة الخليفة يوســـــف وهاجموها يوم الجمعة ، والناس فى صلاتهم ، وكان والى البلد السيد ابو الربيع بن عبد المـــؤمن خارج المدينة ، فدخلوها ، ولم يمانعهم اهلها (30)

وكان ذلك فى صفر سنة 581 هـ على ما ذهب اليه ابن خلدون واعتقل بنو غانية السيد ابـــا موسى بن عبد المؤمن الذى كان فى طريقه من افريقية الى مراكش ، واحتلوا مدينة الجـــزائر وما زونة ، ومليانة ، واعجزتهم قسنطينة ٠

وساق ابن ابى زرع خبر احتلال بنى غانية لمدينة بجاية بتفصيل اوسع فقال دخل على بـــن اسحاق مدينة بجاية يوم الجمعة فى 6 شعبان سنة 580 هـ والناس فى صلاة الجمعة فانتظر يحيى

27) عنوان الدراية ص 16 ـ 17 ٠
28) المرجع السابق ص 6 ٠
29) المرجع السابق ص 22 ٠
30) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر ج 6 ص 388 ٠

ابن اسحاق حتى احـــرم الناس بالصلاة ، واقتحم عليهم المدينة ، وعمد الى الجامـــع الاعظـــم وادار عليه فرسانه ورجاله « فمن بايعه خلى سبيله ، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه » (31) .

وجاء فى مجموعة رسائل الموحدين ما يشعر بوجود تواطوء بين بعض سكان المدينة ويحيى ابن اسحاق الميورقى .

واجبر يحيى هذا عامة السكان على بيعتـه وممن اجبره على ذلك ابو على المسيلى الذى لم يقدم بيعته حتى كشف له عن وجهه فبايعه حينئذ (32) .

ويبدو ان ابا على المسيلى سالم بنى غانية مدة حكمهم لبجاية ، وترك منصـب القضاء الذى كان يشغله من قبل لبنى الخطيب الذين تولوه بعده

اما صديقه عبد الحق الاشبيلى فقد كان على العكس من ذلك يناصر ثورة بنى غانية نفورا من الموحدين الذين نكلوا بشيوخه واصدقائه فى عهد شبابه ، ويامل فى اعادة الدولة المرابطية على ايديهم ، وكان الموحدون قبل هجوم بنى غانية على بجاية سنة 581 هـ قد طلبوا منه ان يتولى خطتى القضاء والخطابة فامتنع عن ذلك ، ولما اقبل بنـو غانية ، وطلبوه للقضاء والخطابة اجابهم اليهما وهذا ما جعل معاصريه من الفقهاء يستغربون ذلك منه ، وحكى ذلك ابن الزبير فى صلة الصلة ولكنه اردف ذلك بقوله قال : « ان جهات الاعتذار فى مثله متسعة » (33) .

واقام عبد الحق فى قضائه طيلة حكم بنى غانية لبجاية وهى كما يذكر ابن ابى زرع سبعـة اشهـــر (34) .

ونجد بعض علماء بجاية قد انحازوا ــ مثل عبد الحَق الاشبيلى ــ الى بنى غانية ، واسبغوا على حكمهم شرعية وتمجيدا ، ومنهم ابو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسنـــى الشاعر ، وقد امتدح بنى غانية بقصائد شعرية (35)

وكان منهم من خطب فى تمجيدهم وقال : الحمد لله الذى اعاد الامر الى نصابه ، وازاله من أيدى غصابه » (36) .

31) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء ، دار الكتاب 1954 م ج 2 ص 159 .
32) عنوان الدراية ص 16 .
33) صلة الصلة ص 6 .
34) الناصرى : الاستقصا ج 2 ص 159
30) عنوان الدراية ص 23 .
36) المرجع السابق ص 23 .

وكان ذلك باعثا للموحدين بعد استعادتهم لمدينة بجاية على أن ينكلوا بكل من شايع بني غانية ومنهم عمارة بن يحيى الشاعر ، وعبد الحق الاشبيلي ، وغيرهما ممن لم يذكـــرهم الغبريني تفصيلا ، وانما اشار اليهم اشارة مجملة في قوله : اشتدت وطأتهم « أي الموحدين » على اهـــل العلم ، واعتقلوا اناسا منهم ، وكان في جملة من اعتقل الشريف ابو الطاهر عمارة » .

وكان قد تولى القضاء لبني غانية « فوجه اليه وجيء به مصفدا في الحديد ، وبقي معتقـــلا مع اصحابه مدة » (37) .

ولا يبعد أن يكون الاعتقال قد شمل عبد الحق ، وصديقه ابا علي المسيلي وابا عبد الله محمد بن عمر القرشي وغيرهم واما ابو مدين الصوفي فلعله نجا من الاعتقال .

خاتمة عبد الحق الاشبيلي : لما عاد الموحدون الى بجاية تتبعوا انصـــار علي بن اسحاق الميورقي بالتنكيل ، ووقع عبد الحق في الاعتقال ، ولا ندري هل خرج من معتقله قبل وفاته ام بقي فيه حتى توفي سنة 582 هـ .

اما مترجموه فانهم يجمعون على انه توفـي بعد محنة نالته من الموحدين على عهد يعقوب المنصـــور (38) .

ولكنهم لا يذكرون هل توفي في المعتقل او بعد خروجه منه كما انهم لم يذكـــروا نوعية هذا الاعتقال ، ولم يتفقوا على تاريخ وفاته ولا تاريخ احتلال بني غانية لبجاية .

فابن خلدون يذكر ان علي بن اسحاق دخل بجاية في صفر سنة 581 هـ ، ويوافقه على ذلك صاحب الاستقصا (39) .

وكان ذلك بعد ان توفي ابو يعقوب يوسف ، واتم علي بن اسحاق استعداده الحربي .

اما ابن ابي زرع فانه يقول ! ان علي بن اسحاق هاجم بجاية ودخلها في 6 شعبان سنـــة 680 (40) .

واخذ بهذه الرواية ابن قنفذ القسنطيني في الفارسية (41) .

37) المرجع السابق ص 23 ــ 24 .

38) صلة الصلة ص 6 ــ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ــ تحفة الحفاظ ج 4 ص 1351 ــ الديباج ص 185 .

39) ابن خلدون : كتاب العبر ــ ج 6 ص 388 ــ ج 6 ص 507 الناصـــري : الاستقصا ج 2 ص 159 ــ 160 .

40) المرجع السابق ص 165 (41) ابن قنفذ : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية (الـــدار التونسية للنشر 1968 م) ص 108 ــ وجاء فيها ان المنصور تحرك لمحاربة ابن غانية سنة 683 هـ بعد ان مر على ثورته ثلاث سنوات .

واذا اخذنا برواية ابن خلدون فان ابن غانية يكون قد حكم بجاية فى شهور (صفر ، ربيع الاول ، ربيع الآخر ، جمادى الاولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، من سنة 581 هـ) وهى كمال سبعة اشهر ، ثم خرج منها ودخلها الموحدون

اما اذا اخذنا برواية ابى زرع فان على بن اسحاق الميورقى يكون قد حكمها من شهر شعبان سنة 580 هـ الى صفر من سنة 581 هـ ·

وفيما يخص وفاة عبد الحق الاشبيلى نجد فيها اختلافا بين اصحاب التراجم ، فالغبرينى وابن الزبير وابن قنفذ القسنطينى يذهبون الى ان المترجم توفى سنة 582 هـ (42) ·

وابن فرحون وابن شاكر والذهبى اثبتوا ان وفاته كانت سنة 581 هـ (43) ·

والرواية التى يمكن ترجيحها هى رواية الغبرينى ، لانه كان قريب عهد بالمترجم ، وقد اخذ تاريخ وفاته عن اشياخه الذين عاصروه ·

واذا اخذنا بهذه الرواية الراجحة ، واعتبرنا وفاته كانت سنة 582 هـ فان تاريخ دخول بنى غانية يكون فى صفر سنة 581 هـ كما ذهب الى ذلك ابن خلدون والناصرى (44) ·

وقد اقاموا فى بجاية من صفر سنة 581 هـ الى شعبان من هذه السنة ويكون عبد الحق قد اعتقل بعد دخول الموحدين الى بجاية خلال فترة تمتد من رمضان سنة 581 هـ الى ان توفى فى سنة 582 هـ ·

ولم يذكر ابن الزبير ، ولا الغبرينى الشهر الذى توفى فيه فى سنة 582 هـ · اما ابن فرحون الذى ذكر ان وفاته كانت سنة 581 هـ فقد حدد وفاته بشهر ربيع الاول ·

ولا يبعد ان يكون عبد الحق قد توفى فى اول سنة 582 هـ بعد محنة الاعتقال والمضايقة التى ابتلى بها من قبل ولاة الموحدين ، وكانت سنة عند وفاته 72 سنة ·

وقد استطاع عبد الحق ان يجعل من حياته ببجاية فترة نشاط علمى متواصل ، ومرحلة اعتكاف للتدريس والتاليف حتى ادركه اجله راضيا مرضيا ·

أدبه : كان كثير من علماء المغرب فى العصر الاسلامى الذهبى يجمعون بين علوم الشريعة وعلوم الادب فلم يكن الفقيه يزور عن الدراسات الادبية من نثر وشعر ، ولم يكن يعتبر دراستها

42) عنوان الدراية ص 23 ـ صلة الصلة ص 6 ـ الوفيات ص 45 ·
43) الديباج ص 175 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ـ تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1351 ·
44) العبر ج 6 ص 388 ـ الاستقصا ج 1 ص 165 ·

لغوا وعبثا بل كان يعدها علوما اساسية تساعده على فهم بلاغة القــرآن والسنة ، وتمكنه من استنباط الاحكام منهما ، ونجد كثيرا من الفقهاء كانوا ادباء منهم القاضى عياض وابن عبد البر ، وابن العربى وغيرهم · ومنهم بالتالى عبد الحق الاشبيلى ، وقد كان عبد الحــق اديبا شاعــرا استطاع ان يزاحم الفحول بشعره كما يقول ابـن الزبير فى صلة الصلة ، غير انه الزم نفســه بموضوع واحد هو الزهد وما يتصل به (45) ·

وقد جمعت قصائده الزهدية فى ديوان اشار اليه الغبرينى فى عنوانه (46) ·

وتشهد للمترجم المقطوعات التى رواها من ترجموا لــه أو التى ادرجها فى كتابه « كتاب العاقبة » بالفحولة الشعرية ، وبالطبع الموهوب ، ونجد فى قصائده الزهدية قبسا من روح المعرى فى لزومياته ، ومن اسلوب ابى العتاهية فى زهدياته ، ومن ذلك قوله من قصيدة فى الزهد :

واهــا لدنيــا ولغــرورها	كم شـابت الصفـو بتكديرها
اى امــرىء آمـن فى ســربه	ولم ينلـــه ســـوء مقدورها
وكان فى عافيـة من جســـمه	من مـــس بلواها وتغييرها
وعنده بلغــــة يــوم فقــد	حيـزت اليه بحذافيرها (47)

وروى له الضبى فى بغية الملتمس قصيدة دعا فيها الى القناعـــة والزهد فى طيبات الحياة والاحتراس من مفاجأة الموت قبل التوبة واعداد الزاد ليوم الرحيل :

واكـــلا كـل الذى يشــتهى	كانــه فى اكلـــه ثـــور
وناهضا ان يدع داعى الهـوى	كانـــه من خفـــة طيـــر
ان كؤوس الموت بين الـــورى	دائـــرة قد حثهـا الســـير
وقــد تيقــنت وان ابطـــات	ان ســـوف ياتيك بها الـدور
ومن يك فى ســـيره جائـــرا	يالله ما فى سيرها جـور (48)

45) صلة الصلة ص 7 ·

46) عنوان الدراسة ص 21 ـ وتوجد منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين بفاس ·

47) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج 6 ص 1351 ·

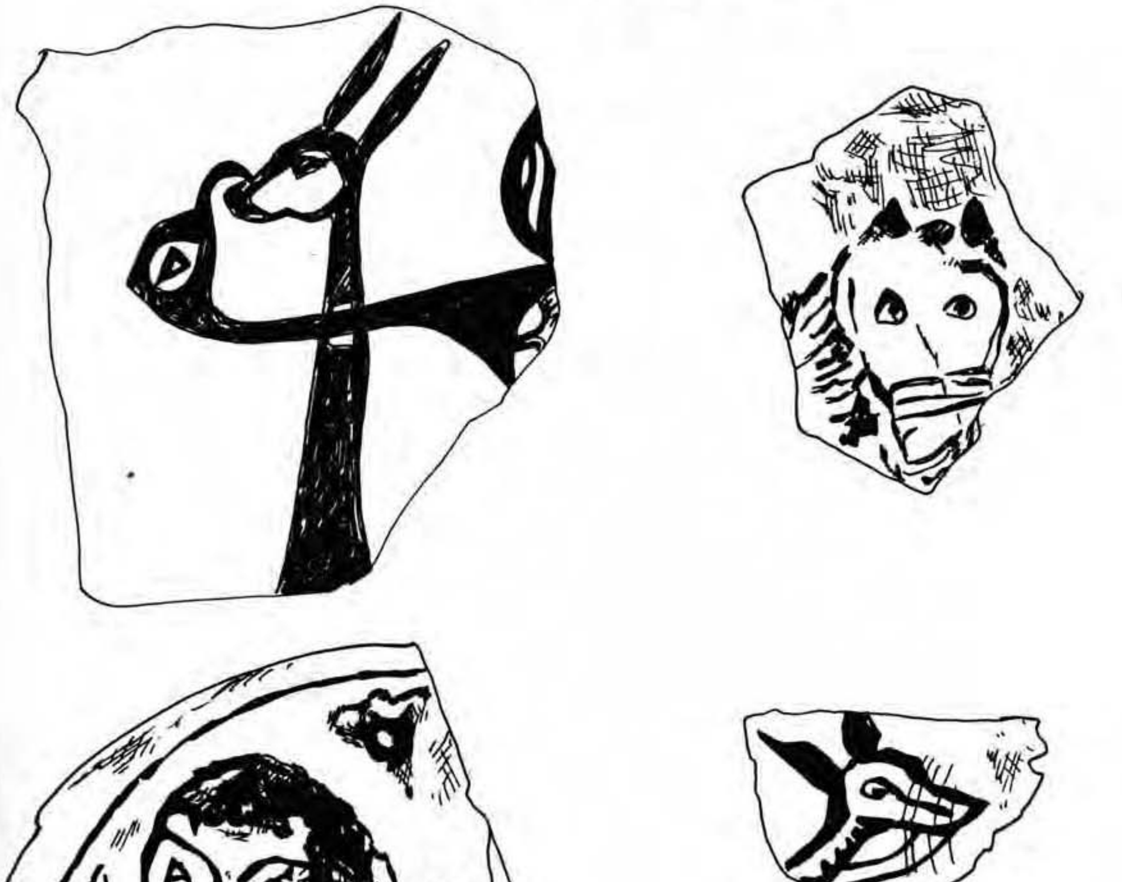
48) بغية الملتمس ص 378 ·

وروى له ابن الزبير قصيدة حلل فيها الشاعر فلسفته فى الحياة والموت والمصير ، وابان ان الحياة ظل زائل ، وحلم خادع ، ولذلك ينبغى للانسان ان يكون على حذر من الموت الذى يتربص به ، وان يكون متزودا ليوم رحيله ، وفيها يقول :

يا آمن الساحة لا يذعر	بين يديك الفزع الاكبر
والمرء منصوب له حتفه	لو انه من عمه يبصر
وهذه النفس لها حاجة	والعمر عن تحصيلها يقصر
وكلما تزجر عن مطلب	كانت به اهيم اذ تزجر
وربما القت معاذيرها	لو انها ياويحها تعذر
وناظر لها ناظر	لو انها تنظر اذ ينظر
ورائد الموت له طلعة	يبصرها الاكمه والمبصر
وروعة الموت لها سكرة	ومثلها من روعة يسكر
وبين اطباق الثرى منزل	ينزله الاعظم والاحقر
يترك بهذوالفخر فخره	وصاحب الكبر به يصغر
قد ملات ارجاءه روعة	نكيره المعروف والمنكر
وبعد ما بعد ؟ واعظم به	من مشهد ما قدره يقدر

وسار عبد الحق الاشبيلى فى قصائده الاخرى على اسلوبه الزهدى هذا مذكرا واعظا ، وموضوع الزهد وان كان موضوعا جافا بالنسبة لمن لم تكن تجربة شعورية فان عبد الحق قد استطاع ان يسبغ على قصائده الزهدية نفحات ادبية ، ونبضات شعورية قوية جعلت منها قصائد خفيفة الروح ، رفافة التعبير ، وهكذا كان عبد الحق شيخا جليلا فى علوم الفقه والحديث ، وكان اديبا مطبوعا يزاحم الشعراء فى مجال الادب والشعر .

صور حيوانات على قيشاني من عهد الحماديين .



الحركة الأدبية فى بجاية بني حماد

د . رشيد مصطفاى
كلية الآداب
جامعة الجزائر

من يطالع كتاب الغبرينى « عنوان الدراية » يدرك أهمية بجاية فى مجالى العلم والادب .

ان يكن المؤلف خصص كتابه لمن « عرف من العلماء فى المائة السابعة فان مساهمة عاصمة الحماديين فى نشر الثقافة العربية الاسلامية بدات منذ تاسيسها سنة 460 هـ لانها ورثت من القلعة التى كانت حاضرة بنى حماد تقدمها الحضارى اذ كانت محط رحال العلماء وقد التجا اليها كثير من علماء القيروان بعد الحملة الهلالية وقد ذكر الغبرينى عددا من المنتسبين اليها كعبد الله بن محمد بن عمر القلعى وعلى بن شكر بن عمر القلعى ومحمد بن حسن بن ميمون القلعى ومحمد بن عبد الله بن محمد المعافرى القلعى وغيرهم وقد قال عنها صاحب عنوان الدراية فى معرض كلامه على ابى عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى بن ابى بكر الصنهاجى : « وهو من أهل قلعة بنى حماد من كبراء الايمة وفضلائهم قرأ ببلده بالقلعة وكانت حاضرة علم » . (1)

ولذلك ما حدث فى بجاية من ازدهار حضارى انما هو امتداد لما كانت عليه القلعة يقول ابن خلدون عن المنصور بن الناصر بن علناس : « فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دارا لملكه وجدد قصورها وشيد جامعها وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالبناء وهو الذى حضر ملك بنى حماد وتانق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه فى الرياض والبساتين

1) عنوان الدراية ص 128 ط الجزائر سنة 1328 / 1910 .

فبنى فى القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفى بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون » (2) ·

اما الادريسى الذى زار بجاية فهو يصفها وصفا دقيقا يلخص عظمتها فى العهد الحمادى اذ يقول : « ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة الغرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها ومنها ما يكفى لكثير من البلاد وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء فى كل موضع منه ·

« ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد »

هذا الازدهار الشامل لميادين الحياة كلها يجعل الحماديين وشعبهم يشعرون بفخر واعتزاز صيراهم ينافسون اهل الاندلس واهل المشرق فى ميدان الحضارة المادية والمعنوية حتى تبدو بجاية احسن حاضرة عرفها الناس لقد زارها ابن حمديس الصقلى الشاعر الكبير فمدح فيها المنصور الحمادى ووصف قصرا من قصوره البديعة وأبدى اعجابا كبيرا بها قال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى	اضحى بجدك بيته معمورا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنا	غرفا رفعت بناءها وقصورا

اما ابن لفكون الشاعر القسنطينى المشهور الذى حل بها بعد ابن حمديس فلم يتمالك ان عبر عن اعجابه الكبير بقوله :

دع العراق وبغدادا وشامهما	فالناصرية ما ان مثلها احد

2) كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 358 ط دار الكتاب اللبنانى سنة 1968 ·

وختم قصيدتـــه قائـــلا :

يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف   قل جنة الخلد فيها الاهـل والولد

ومن يمعن النظر فى قصيدتى ابن لفكون وابن حمديس يلمس هذه النزعة الى التنافس حيث فضلا بجاية وقصورها على سائر ما بنى الفرس والروم والعـــرب ٠

وكذلك يبدو هذا التنافس جليا فى مجال الادب اذ كان الناس يباهون بادبائهم ادباء المشرق ويفضلونهم عليهم وقد روى لنا الغبرينى شيئا عن هذا الاعجاب عندما ذكر عمارة الشريف قائلا : « كان متقدما فى علم العربية والادب وله تاليف فى علم الفرايض منظـــوم وتواشيحه فى نهاية الحسن وبه يضرب المثل وكثيرا ما يقول الناس عندما يشطط الانسان على الانسان فى الطلـــب فيجاوبه واغنى لك موشحا لعماره » ٠

وهذا الاعجاب يشمل مجال العلم كذلك اذ يقول الغبرينى متحدثا عن الامام ابن علي المسيلى الذى كان يسمى ابا حامد : « وله كتاب التفكير فيما يشتمل عليه الســـور والآيات من المبادىء والغايات وهو كتاب جليل سلك فيه مسلك ابى حامد فى كتاب الاحياء وبه سمى ابا حامد الصغير وكلامه فيه أحسن من كلام ابى حامد وأسلم ودل كلامه فيه على احاطته بعلم المعقول والمنقول وعلم الظاهر والباطن ومن تامل كلامه ادرك ذلك بالعلم اليقين ولم يفتقر فيه الى تبيين وهو كثـــير الوجود بين أيدى الناس وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وايثارهم له » ٠

ان هذين المثلين يدلان على اهتمام الناس بانتاج ادبائهم وعلمائهم وقول الغبرينى : « ومـــن تامل كلامه ادرك ذلك بالعلم اليقين » يرشد الى ان هذا الاعجاب عند أهل بجاية لم يكن مبنيا على الغلو والافراط فى تقدير مؤلفيهم ٠

ولاعجب اذ كانت بجاية من العواصم الثقافية فى العالم العربى والاسلامى وكان يقصـــدها الاجانب من غير المسلمين للتعلم بها وقد تخرج من معاهدها ليونار دو فيبوناتشى العالم الايطالى الرياضى الشهير ٠

بجايـــة والثقـــافة الادبيـــة :

ونحن فى هذه العجالة نقصر القول على الادب فى بجاية اذ كان مزدهرا بها منذ تاسيسها ، ومن مظاهر هذا الازدهار تهنئة الشعراء الناصر الحمادى بعاصمته الجديدة وزيارة ابن حمديس الصقلى الشاعر الكبير لها ومدحه المنصور الحمادى ووصف قصره وصفا بديعا ٠

ثم نجد فى خريدة القصر للعماد الاصفهانى ما نقله عن ابن بشرون من آثار أدبية لجماعة من الشعراء الذين عاشوا فى بجاية فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى فمنهم الفقيه ابو حفص عمر بن فلفول الذى كان « كاتب السلطان بتلك البلاد يحيى بن العزيز الحمادى وخالصته وصاحب سره » ومن شعره قوله :

وقالوا نأى عنك الحبيب فما الذى ... تراه اذا بان الحبيب المواصل
فان انت احببت التصبر بعده ... ولم تستطع صبرا فما انت فاعل
فان الهوى مهما تمكن فى الحشى ... وحل شغاف القلب ليس يزايل
فكم رام أهل الحب قبلك سلوة ... وزادهم عنها هوى متواصل
فقلت الا للصبر مفزع عاشق ... وللصبر أحرى بى وان غال غائل
ساصبر حتى يفتح الله فى الهوى ... بوصل حبيب طال فيه الطوائل

ومنهم على بن الزيتونى الذى يعد « شاعر المغرب الاوسط وأديبه والمعيه وأريبه وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتطليع وقد ساد شعره غناء »

ومن نظمه قوله من قصيدة فى مدح بعض القضاة :

نهاه عن محارمه نهاه ... وقربه لخالقه تقاه
وقال الله ليس سواي رب ... ولا لشريعتى أحد سواه
هو البر العطوف على البرايا ... وبالايتام يرحم من آتاه
وشد به عرى الاسلام حتى ... راينا النجح وانعقدت عراه
امين عدله غمر البرايا ... فما يخشى على احد قضاه

ومنهم يوسف بن المبارك أحد « موالى بنى حماد وله من مدائحهم من الشعر ما انسحب عليه ذيل حماد ومن قريضه قوله :

هنا كم النصر ونيل النجاح ... فى يومكم هذا بسمر الرماح
فانتم الصيد الكرام الاولى ... شادوا العلى بالنائل المستماح
ما منكم الاهمام حوى ... مناقبا جلى ومجدا صراح
لا ترهبون الدهر اعداءكم ... وتمنعون العرض من ان يباح
وتبذلون الرفد يوم الندى ... وتسعرون الحرب يوم الكفاح

ومنهم ابن ابى المليح الطبيب الماهر والكاتب الشاعر وقد اشتهر بالطب « وله مقطعات جالبة للحب سالبة للب وله من قصيدة عيدية فى الامير عبد الله بن العزيز الحمادى يصف جنائبه وقضاءه حق العيد وواجبه » :

وجالت به جرد المذاكى كانها … عذارى ولكن نطقهن تحمحم
بصفراء كالتبر العتيق صقيلة … ودهماء يتلوها كميت وادهم
واشقر لو يجرى وللبرق جهده … لكان له يوم الرهان التقدم
وقام لواء النصر يتبع راية … بها العز معقود عليها متمم
فلما قضى حق الصلاة معظما … ثنى والهدى فى وجهه يتوسم
فلا زال يقضى نفله وفروضه … ويبرد علاه بالمدائح معلم (3)

هؤلاء الشعراء عاشوا فى الدولة الحمادية قبيل سقوطها على يد الموحدين ان تقديم العماد الاصفهانى لهم يدل — على قصره — على براعتهم فى الشعر التى لا تقل عن براعة غيرهم من شعراء الاقطار الاسلامية الاخرى فى عصرهم ·

واما فى النثر الفنى فقد برع فيه زيادة على الشعر ابو حفص عمر بن فلفل الذى « له اليد الطولى فى الانشاء الدال اعجازه فيه على البلاغة الودية بسحره فى نثره » ·

ونذكر كذلك ابا عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دقرير الذى يعد « احد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية » واورد له ابن بشرون رسالة كتبها عن سلطانها يحيى ابن العزيز الحمادى وقد فر من مدينة بجاية امام عسكر عبد المؤمن يستنجد بعض امراء العرب بتلك الولاية :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما ساء وسر رضى بالقسم وتسليما للقدر وتعويلا على جزائه الذى يجزى به من شكر ونصلى على النبى محمد خير البشر وعلى آله وصحبه مالاح نجم بسحر وبعد : فانه لما اراد الله أن يقع ما وقع بقبح آثار من خان فى دولتنا وضيع استفز أهل موالاتنا الشيطان وأغرى من اصطفيناه وأنعمنا عليه الكفران فأتوا من حيث لا يحذرون ورموا من حيث لا ينصرون فكنا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ويفر من صل خبيث الى حية صماء حتى بغت مكرهم وأعجل عن التلاقى امرهم ورد وبال أمرهم اليهم فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة وملنا الى مظنة الامنة وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ونستفز من كنا نراه للمهم عدة وانتم فى هذا الامر أول من يليهم الخاطر ويثنى عليه الناصر (4) »

3) الخريدة ص 217 ·
4) الخريدة ص 211 ·

هذه الرسالة تذكرنا برسالة كتبها عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة 132 هـ الى اهله وهـــو منهزم مع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ومن الطريف أن يقابل بينهما القارىء الكريم ·

ومن كتاب الدولة الحمادية البارعين ابو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن العالى له من رسالـــة :

« ولما كنت فى مضمار سلفك جاريا ولنا مواليا وفى قضاء طاعتنا متباهيا رأينا أن نثبت مبانيك ونؤكد أواخيك ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك تمييزا لهم عن الاكفاء ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فانت به جدير ومـن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكـــور » (5) ·

انه من العسير اصدار حكم فى هذا الادب لقلة النماذج التى بين أيدينا غير أنها تـــدل ـ على رغم قلتها ـ على ثقافة ادبية متينة عند أصحابها وأن مستواهم الادبى لا يقل عن مستـــوى غيرهم من ادباء الاقطار الاسلامية المعاصرين لهـــم ·

واما الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية » فقد ذكر جملة من العلماء والادباء عاشوا ببجاية فى القرن السابع الهجرى وفى العهد الموحدى فكانت عاصمة الحماديين تزدهر بهم سواء نشـأوا بها او أتوها من الخارج واستوطنوها او زاروها لمدة ثم ارتحلوا عنها كل ذلك يدل على شهرتها وقيمتها فى مجالى العلم والادب ·

أما النماذج الشعرية التى اوردها الغبرينى فهى تشمل كل اتجاهات الشعراء فى عصـره فمنها الشعر العادى والشعر الصوفى والمدائح النبـــوية ·

الشعـــر العادى :

نذكر من هذا النوع ابا الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشـــريف الحسنى الذى « كان متقدما فى علم العربية والادب وله تاليف فى علم الفرائض منظوم وتواشيحه فى نهاية الحسن » ·
من شعره قوله من قصيدة كتبها للوالى الموحـــدى :

سلام كعرف المندل الرطب في الجمر ... والا كماهب النسيم على الزهـــر
فللـــه در مقلتـــين بعبـــــرة ... تعبر فوق الخد عن كامن الســــر
وقد راعنى ايماض برق بذى الغضا ... كما ابتسم الزنجى عن بهج الثغـر
بدالى ان اللـــيل أورى زنـــاده ... ولا نار الا نور بـرق له يســـرى

5) الخريدة ص 212 ·

ونـــار باكبادى أكــابد حـــرها — وقلـب سليم قلـــب فى لظى جمر
وما طائر فوق الغصون مســـرح — كمن بات مقصوص الجناحين فى وكر
فلم انس توديــــع البنين مصفدا — واصغرهم يجرى وادمعه تجـــرى
ايازيـــد انى بالحسين وسيلتـــى — وجدى شفيع الناس فى موقف الحشر

« وكانت له رحمه الله ابنة تسمى عائشة كانت اديبة » (6) وكانت معاصرة للشاعر القسنطينى ابن لفكون الذى تقدم ذكره والذى زار بجاية ووصفها وصفا شيقا فكانت ابنة عمارة تعـرض عليه شعره وتسأله معارضته (7) وقد عرفه الغبرينى بقوله : « وهو من الفضلاء النبهاء وكان مرفـــع المقدار ومن له الحظوة والاعتبار وكان الادب له من باب الزينة والكمال ولم يكن يحترف به لاقامة اود أو اصلاح حال واصله من قسنطينة من ذوى بيوتاتها ومن كـــــريم ارومتها وتواشيـــــحه مستحسنة (8) » ·

ومن شعره قوله يصف قصر الربيع لبعض سادات بنى عبد المـــؤمن :

ولما نزلنا ساحة القصـــــر راعنا — بكل جمال مبهج الطـــرف مرتق
فما شئت من ظـــل وريف وجدول — وروض متى تلمـم به الريح يعبق
وشادى مغانى الحسـن فى نغماته — يطارحه هـــدر الحمام المطـــوق
فيا حسن ذاك القصر لا زال آهـلا — ويا طيـــب ريا نشـــره المتنشق
رتعنا به فى روضة الانـــس برهة — هصرنا به غصن المسرة مورق (9)

ونذكر كذلك ابا عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن احمد الاريسى المعروف بالجزائرى يقول فيه الغبرينى : « كان من ادباء الكتاب وهو من نظراء شيخنا ابى عبد الله التميمى فى علـــم النظم والقريض ومن اصحابه كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة وكان سهل الشعر وكان كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلـــف ولاجل ذلك حسن نظمه وكان مليـــح التواشيح ان طال فى شعره أعرب وان اقتصر واقتصد أعجب وكان شيخ كتبة الديوان ببجاية وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » (10) ·

6) عنوان الدراية ص 25 ط الجزائر ·
7) عنوان الدراية ص 26 ط الجزائر ·
8) عنوان الدراية ص 202 ط الجزائر ·
9) عنوان الدراية ص 203 ط الجزائر ·
10) عنوان الدراية ص 205 ط الجزائر

ومن نظمــــه قولــــه :

ادرها فقد هبـــت نسيمـــة داريـــــن ونـم بسـر الروض نشـر الرياحين
وقـام خطيب الــــورق يدعــو هديله وغنى فاغـــنى عن ضـروب التلاحين
وذكـر أيـام الصبـــابة والصبــا ولذة عيـــش كان لي غـير ممنـــون
فثـار كمـين الـــوجد من مستقـره وبحت بســر بين جنبى مخـــزون
فيا سـاكنى نجـدأاطـــرق حيكـم وارجـع مغلـويا بصفقـة مغبـون
ويا ساكنى الجـرعاء ان كان عندكـم نصيب من الصـبر الجميل فواسونى

وقــــوله :

ولا انــس يـوما للســرور وبيننا عتـاب كبـرد الماء لكنـه الجمـر
ولا كــاس الا ما سقـانى بـه اللمى ولا نقــل الا ما حبـانى به الصدر
تقـول وقـد مالـت بمعطفها الطـلا وخفت لان تخطو فاثقلها السـكر (II)

وقــــوله :

تقـــول والحســن يطغيهــا فتظلمنى ولا مـــوازر الا صــارم ذكــــر
دع الحسام وضـــع حمل السلاح فما فى كل وقـــت يفيد الحـزم والحـذر
مـــا للمهـــند حكــــم فى محلتنــا بـــل للمنهد فيهـــا الحكـم والنظـر
وللظبـــا فتكـــات بـــين أرحلتنـــا تـرنو وتعنو الظبى المضروبة البتـر
فـــان طمعـــت بلين فى لواحظنـــا فنحن أهـــل قلـــوب مثلها الحجـر
وان حلـــت لـــك الفـــاظ نـرددهـــا ما بيننـــا فهنـاك الصـاب والصبر
انا لنجـــرح مـــن الحـــاظ مبصـــرنا لكنـــا من ســـواد القلب ننتصـــر
فارحـــم شبابـــك وارحل دون مغلبـــة واقبل من الحسن ما اعطاكه النظر (II)

ونختم هذا الباب بابى عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام « اصله من تدلس وسكن بجاية ولقى مشايخ وبرع فى الادب وله علم بالتاريخ وله حظ من الفقه ولي القضـــاء ببعض اكـــوار بجاية » يجب ان ينسب الى « الفقهاء ولكن الغالب عليه انما هو الادب » (I2) ٠

II) عنوان الدراية ص 207 ط الجزائر ٠
I2) عنوان الدراية ص 208 ط الجزائر ٠

ومن شعـــــــره :

شمس السعـــادة لاسنى النبراس — حلـــت بافق على بن سيد الناس
وبطائـــر اليمـــن ارتقت لسمائه — تختال بين كواكـــب اخـــراس
من معشر بذل النـــوال شعارهم — وهم الاسود لدى احتـــدام الناس
يذكـــون نيران الوغى باســـنة — ولدى القـرى يذكون بالاقباس (13)

الشعـــر الصـــوفى :

ومن اصحاب الشعر الصوفى ابو زكرياء بن محجوبة القرشى السطيفى الذى توفى ببجاية عام سبعة وسبعين وستمائة • ومن شعره قوله :

جلت لـــك ليلى مـن مثنى نقابها — طريقـا وابدت لمعـــة من جمالها
فطبت بها عيشـــا وتهـــت لذاذة — وفياك الالمـــاع بـــرد ظـــلالها
فكيف ترى ليلى اذا هى اسفـــرت — ضحاء وابـــدت وارقامن دلالهـــا
وكيف بها ان لم يغب عنك شخصها — ولم تخل وقتا من منال وصـــالها
وكيـــف يكون الامر ان انت كنتها — وكانت كتحقيقـا فحلـــت لحالها

وقـــــوله :

انت واللـــيل ممـدود الجنـــاح — تعـــود مسهدا رطـب الجـــراح
فقالت كيـــف انـــت ولاجنـــاح — فقلت العـــود يذهـــب بالجنـــاح
فوا لهفى على الشكـوى لســـار — وواجـــز على لاعجال الصبـــاح

ومنهم ابو الحسن على بن احمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالي التجيبى الذى نزل ببجاية واستوطنها مدة ثم توفى بحماه من بلاد الشام سنة سبـــع وثلاثين وستمائة يقـــول الغبرينى فى معرض كلامه عليه : « له التآليف الحسنة وله الشعر الفائق الرائق غزلا وتصوفا وله فى علـــم الفرائض ما لم يسبق اليه واما علم التصوف فهو فيه الامام » (14) « وكان ابن محجوبة القرشى السطيفى باطنة شيخ شيوخنا الشيخ ابى الحســن الحرالى (ض) واستفاد منه عـــلم الظاهـــر والباطن » •

---

13) عنوان الدراية ص 211 •
14) عنوان الدراية ص 62 ط الجزائر •

ومن شعره رحمه الله فى التحقيق قوله :

ومـــد عنك غبنـــا ذلك العـــام اننـــا — نزلنا على بحـــر وساحلـــه معنـــى
وشمس على المعنى تطالـــع افقنا — فمغربها فينـــا ومشـــرقها منـــا
ومست يدانا جوهرا منـــه ركبت — نفـــوس لنا لمـــا صفـت فتجوهرنا
فما السر والمعنى وما الشمس قل لنا — وما غايـــة البحر الذى عنه عبرنا
حللنا وجودا اسمه عندنا الفضـــا — يضيق بنا وسعا ولحن فمـــا ضقنا
تركنا البحار الزاخـــرات وراءنا — فمن اين يدرى الناس اين توجهنا

وقـــوله :

ما لنا منا ســـوى الحال العدم — ولبارينـــا وجـــــود وقـــــدم
نحـــن بنيـــان بنتـــه حكمـــة — وخليـــق بالبنـــا ان ينهـــــدم
نحـــن كتـــب اللـــه ما يقـــراها — غير من يعرف ما معنى القـــلم
احـــرف الكتـــب الذى ابدعـــه — كلما لاحـــت معانيـــه انعجـــم
اشـــرقت انفسنـــا من نـــوره — فوجـــود الكل عـــن فيض الكـرم
فتـــرقى النفـــس عـــن عالمهـــا — باختباء ليـــس تدنيـــه الهمـــم
ليس يـــدرى من انـــا الا انـــا — ها هنا الفهـــم عن العـــقل انبهم
عجبـــا للكـــل فيمـــا يدعـــى — وتـــاتى الكـــل الا ما حكـــم
كلمـــا رمـــت بذاتى وصـــلة — صار لى العقـــل مع العلم جلـــم
يقطعـــانى بخيـــالات الفنـــا — عن وجـــود لم يقـــيد بعـــدم (16)

المدائـــح النبـــوية :

اما المدائح النبوية فقد نظم فيها ابو عبد الله محمد بن الحسن بن على بن ميمون التميمى القلعى « من قلعة بنى حماد ـ كان جده ميمون قاضيا بها ـ نشـــا بالجزائر وقرا بها وانتقل الى بجاية مستوطنا وبها قرا وبرع » (17) « وكان يسلك فى شعره على طريق حبيب بن أوس وكان صاحبه

15) عنوان الدراية ص 96 ط الجزائر .
16) عنوان الدراية ص 97 ط الجزائر .
17) عنوان الدراية ص 39 ط الجزائر .

ابو عبد الله الجزائرى يسلك فى شعره سلوك المتنبى وكانا يتراسلان الاشعار يجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته » (18) .

« وهو اكثر الناس شعراً وقد شرع فى تدوين شعره فى عام ثلاثين وستمائة وهو فى كل عام يقول منه ما يكتب فى ديوان وعاش بعد شروعه فى تدوين شعره ثلاثا واربعين سنة ولو تم لـه تدوينه لكان فى مجلدات كثيرة ولكن بايدى الناس منه كثير وتواشيحه حسنة جدا وتوفى رحمه الله ببجاية عام ثلاثة وسبعين وستمائة (ض) » .

ومن شعره قوله فى مدح النبى (صعلم) :

وانى لادعو اللـه دعـوة مذنب — عسى انظر البيت العتـيق والثم
فياطول شـوقى للنبى وصحبه — وياشـد ما يلقى الفـؤاد ويكتم
توهمت من طول الحساب وهو له — وكثـرة ذنبى كيـف لا اتوهـم
وقد قلت حقا فاستمـع لمقالتى — فهل تائب مثلى يصيـح ويفهـم
وذلك فى القـرآن اوضـح حجة — وما ثـم الا جنـة او جهنـم
اليك رسـول الله ارفـع حاجتى — فانـت شفيـع الخلق والخلق هيم

وقوله من قصيدة اخرى فى الزهد :

الخبر اصدق فى المـراى من الخبر — فمهد العذر ليس العين كالاثـر
واعمل لاخرى ولا تبخـل بمكرمة — فكل شىء على حـد الى قـدر
وخل عن زمـن تخشى عواقبه — ان الزمـان اذا فكـرت ذو غـير
انظر لمن باد تنظر آيـة عجبـا — وعبرة لاولى الالبـاب والعبـر
اين الالى جنبوا خيـلا مسومـة — وشيدوا ارمـا خـوفا من القدر
لم تغنهم خيلهم يوما وان كثـرت — ولم تفـد ارم للحادث النكـر
بادوا فعادوا حديثا ان ذا عـجب — ما اوضح الرشد لولا سيء النظـر
تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا — ان المقام بها كاللمـح بالبصـر
اودى بدارا واودى بابن ذى يزن — وفل غـرب هرقل انه لحر (19)

---

18) عنوان الدراية ص 43 ط الجزائر .
19) عنوان الدراية ص 42 ط الجزائر .

قيمـــة هذا الادب :

من يمعن النظر فى هذه النماذج التى عرضناها يجد ان اصحابها ذوو ثقافة ادبية متينـــة وكانوا فى تناول امثلتهم يولون وجوههم شطر الاندلس وشطر المشرق ·

اخذوا عن الاندلس موشحات اهلها فنظموا على منوالها موشحـــات كان معاصـــروهم يستحسنونها ولكن تأسف من خلو عنوان الدرايـــة من نماذج منها تمكننا من تقويمها والمقارنة بينها وبين ما نظم الاندلسيون من الموشح ·

اما الموشح فترجع نشاته الى اوائل القـرن الرابع ولكن ما أخذ ينتشر ويزدهر الا فى القرن الخامس بفضل عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة 422 هـ فراح أهل المغرب والمشرق ينسجون على منواله وبذلك كان شعراء الجزائر أبناء عصرهم ·

وكان شعراؤنا كذلك يتاثرون بفحول الشعراء فى المشـــرق ولا سيما ابى تمام والبحترى والمتنبى والمعرى اما الثلاثة الاولون فقد أصبحت لهم شهرة لاتدانى اذ صاروا المثل الا على فى نظم الشعر. نجد صدى هذه الشهرة عند شعرائنا اذ يرى الغبرينى متحدثا عن ابن ميمون القلعى انه كان يسلك فى شعره طريق ابى تمام وكان صاحبه ابو عبد الله الجزائرى يذهب مذهب المتنبى وانهما يتراسلان الاشعار ويجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته وقد قرأ الغبرينى على ابن ميمون قصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبى·

يقول ابن الاثير الذى كان معاصرا لشعرائنا متحدثا عن شهرة أبى تمام والبحترى والمتنبى : « ان من الشعراء المتأخرين من فاق الاولين والذى أدانى اليه نظر الاجتهاد دون التقليد ان جريرا والفرزدق والاخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم وبين اولئك فرق بعيد واذا استفتيت قلت ان ابا تمام والبحترى والمتنبى أشعر من الثلاثة المذكورين وليس عندى اشعر منهم فى جاهلية ولا اســـلام (20) » ·

ويقول صاحب الصبح المنبى عن حيثية المتنبى : « قد أجمع اعلام العلم وفرسان النثر والنظم على أن هؤلاء الثلاثة (يعنى ابا تمام والبحترى والمتنبى) ذللوا جموح الاداب وشموسها واطلعوا أقمارها وشموسها وهم أصول الادب وفروعه ومعدنه وينبوعه والى كلامهم تميل الطباع وعـلى ابياتهم تقـف الخواطر والاسماع وثمرات الادب منهم تجنى وذخائـــر البراعـــة من غرائبهم تقتنـــى » (21) ·

20) الصبح المنبى ص 410 ط دار المعارف بمصر سنة 1963 ·
21) الصبح المنبى ص 177 ·

واذا علمنا ان الشيخ يوسف البديعى صاحب الصبح المنبى توفى فى القرن الحادى عشر الهجرى ادركنا ان شهرة هؤلاء الفحول قد تخطت الازمنة والامكنة اذ نجد أهل الاندلس لا يقلون اعجابا بهم من أهل المشرق يروى لنا فى ذلك لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة قصة شاعر اندلسى كان ناقما على أهل عصره اعجابهم الشديد بهم فقال يوما لجماعة منهم : « تقيمون القيامة بحبيب والبحترى والمتنبى وفى عصركم من يهتدى الى ما لم يهتد اليه المتقدمون ولا المتأخرون فانبرى له شخص له همة واقدام فقال يا أبا جعفر : أين برهان ذلك فما أظنك تعنى الا نفسك فقال ما أعنى الا نفسى ولم لا وانا الذى اقول » ثم يسرد ابياتا لم تعجب الحاضرين فسخروا منه وقال ابن الخطيب : « فلم ينصفوه فى الاستحسان وردوه فى الغيظ كما كان » ·

وهذه القصة يرويها ابن سعيد فى القدح المعلى فأخذها عنه ابن الخطيب والشاعر المعنى هو احمد بن محمد بن طلحة من أهل جزيرة شقر المتوفى فى سنة احدى وثلاثين وستمائة فكان معاصرا لشعراء بجاية فى القرن السابع ورواية ابن الخطيب لهذه القصة تدل ان هذا الاعجاب ممتد الى القرن الثامن ·

غير انه يبدو لنا من مطالعة عنوان الدراية ان شعراءنا يؤثرون ابا تمام على صاحبيه اذ نجد الدارسين للادب فى عصر الغبرينى يعطونه أكبر اهتمامهم وفى قصيدة ابن ميمون التى مطلعها :

الخبر أصدق فى المرأى من الخبر　　　فمهد العذر ليس العين كالاثر

وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة مشهورة لابى تمام مطلعها :

السيف أصدق ابناء من الكتب　　　فى حده الحد بين الجد واللعب

وكان ابن ميمون معاصرا لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى فى سنة 596 والمشهور ببردته وهمزيته فى مدح النبى (صعلم) وهذا يدل ان المدائح النبوية كانت شائعة فى هذا العصر شرقا وغربا وهى من ميزاته ·

وكذلك الشعر الصوفى فقد انتشر فى كل الاقطار الاسلامية والجزائر قد ساهمت فيه مساهمة ذات بال ·

وهذا الشعر على نوعين : احدهما زهدى كالذى ورد فى قصيدة ابن ميمون الرائية والثانى صوفى حقا لانه يحتوى على معان فلسفية كالتى اشتهر بها ابن الفارض (576 – 632) وهو معاصر لشعرائنا ولابن ربيع الانصارى الذى « ولد ببجاية وقرأ بها ولقى مشايخ والمتوفى سنة خمس وسبعين وستمائة قصيدة فيها نفحة من نفحات شعر ابن الفارض يقول فيها :

سفرت على وجه الجميل فاسفرا	وبدا هلال الحسن منها مقمرا
ودنت فكاشفت القلوب بسرها	وسقت شراب الانس منها كوثرا
ورايتها فى كل شىء أبصرت	عيناي حتى عدت كلى مبصرا
وسمعت نطق الناطقين فكلهم	بالحمد والتسبيح عنها اخبرا
وبها ركبت زواخرا من حبها	ولبست سر السر ثوبا احمرا
وبها فنيت عن الفناء وغصت فى	ماء الحياة مسرمدا ومدهرا (22)

وكان شعراؤنا الصوفيون معاصرين كذلك لابن سبعين الاندلسى (613 ـ 669) وتلميذه ابى الحسن الششترى المتوفى سنة 669 ومحي الدين بن عربى (560 ـ 638) وهؤلاء كلهم زاروا بجاية واستوطنوها مدة ٠

فى الختام كان شعراؤنا يسايرون ادباء عصرهم فى اذواقهم واتجاهاتهم ومذاهبهم واذا تصفحنا المجموعات التى نقلت الينا شعر معاصريهم فى الشرق والاندلس لا نجد فرقا فى المستوى بل نجد عند كثير من شعرائنا ـ رغم قلة نماذج شعرهم ـ اصالة وبراعة تجعلانهم فى مستوى شعراء عصرهم فى كل الاقطار الاسلامية ٠

ولا عجب فى ذلك اذا علمنا ان بجاية كانت تحتضن الفقهاء والادباء والمتصوفة والفلاسفة وهؤلاء كلهم فى وسعهم ان يمكنوا المتثقف بها من ثقافة واسعة عميقة تؤهلهم ان يساهموا مساهمة فى بناء صرح الثقافة العربية الاسلامية التى كان اهل الجزائر عامة يعتزون بها ايما اعتزاز ٠

---

22) عنوان الدراية ص 34 ط الجزائر ٠

جهود الجزائر الفكرية

في موكب الحضارة العربية

يحيى بوعزيز
كلية الآداب
جامعة وهران

عندما طلب مني ان اشارك بمقال عن بجاية انصرف ذهني الى موضوع عام اعتبره شخصيا هاما وجديرا بالعناية هو : (دور الجزائر الفكري في موكب الحضارة العربية) · ذلك ان جهود الجزائر في هذا الميدان رغم كونها ضخمة الا انها مجهولة ولا يعرف العالم الخارجي عنها ، بل ولا نعرف نحن عنها ايضا ، الا الشيء القليل والنزر اليسير حتى اصبح يكاد يكون من الشائع ان الجزائر لا تراث لها فكري وحضاري · ويعود ذلك في نظري الى أن الجزائر بليت منذ فجر تاريخها بمحن الغزو الاجنبي والاستعمار الدخيل فانصرف شعبها بكل طاقاته الى مقاومة هذا الغزو الاجنبي المادي والمعنوي ، وغطت بطولاته المجيدة في هذا الميدان عما شارك به من جهد في الميدان الفكري زيادة على ان فرنسا في الفترة المعاصرة بذلت المستحيل لتفصل الجزائر عن ماضيها وامجادها التاريخية والفكرية والحضارية ·

وفي اعتقادي انه اصبح من اوكد واجباتنا اليوم بعد تحقيق التحرر السياسي أن نزيل هذا الحيف على بلادنا وننكب على احياء وبعث امجادنا الفكرية والحضارية وابرازها لتكون قاعدة متينة للانطلاقة الفكرية الخلاقة التي ننشد تحقيقها ، وهي صميم الثورة الثقافية التي نطمع ونسعى لتحقيقها · وعملية احياء التراث من أجل التطور تجربة حية قامت بها وطبقتها شعوب أخرى ونجحت في مسعاها · فشعوب أوروبا التي كانت تعيش في العصور الوسطى حياة الظلم والاستبداد السياسي ، والجهل والجمود الفكري ، والتخلف الاخلاقي ، والفقر والمرض الاجتماعي ، بسبب استبداد الملوك وتجبر الاباطرة ، وتحكم الكنيسة ومنع الذهن الاوروبي من

الانعتاق ، وسيطرة الاقطاع على الارض وكل مصادر الثـــروة الاخرى · هذه الشعـــوب عندما استيقظت أوائل العصر الحديث وأخذت طريق النهضة أولت اهتمامها ببعث وإحياء الفكر والتراث الاغريقى الرومانى فيما دعي « بالحركة الانسانية » واستعانت حتى بجهـود المسلمين فى ذلك ، ومنها انطلقت فى نهضتها الكبرى التى تعتبر مفخرة العصر الحديث وانتهت الى تفجير « الثـــورة التجارية » فى القرنين 16 و 17 و « الثورة الصناعية » فى القرنين 18 و 19 و «الثورة التيكنولوجية» فى القرن العشرين التى ما تزال تزحف وتتطور بشكل يثير الاعجاب بالنسبة اليها والخوف والرعب بالنسبة الينا لانها تهددنا بالدمار والخراب بما توصلت اليه من وسائـــــل واختراعات فتاكة · والشعوب العربية عندما استيقظت فى القرن الماضى أولت اهتمامها بحركة الاحياء والبعث للتراث الفكرى والحضارى العربى خاصة فى منطقة بلاد الشام ومصر ، ومنها اخذت تنطلق الى الامـام وتنتشر وتتسع الى جهات أخرى ·

وهكذا رأيت من المناسب ان يكون مقالى فى هذا الموضوع بالذات لاثير الاهتمام على الاقل وأسلط بعض الاضواء بقدر الامكان وحسبما يسمح به الوقت على دور الجزائر وابراز جهـــود شعبها فى العمل الخلاق فى اطار الحضارة العربية التى يمتد تاثيرها من الاندلس غربا الى مشارف الصين شرقا ·

اهمية موقــع الجــزائر عبر التاريخ :

وساخذ القارىء معى فى رحلة طويلة عبر التاريخ لنستعرض معا ونقف على بعض الامثلـــة الحية التى تحدد دور اجدادنا فى هذا الميدان · وسيكون تحديد أهمية موقع بلادنا هو المفتـــاح الذى يساعدنا على اقتحام هذا الطريق الطويل دون خوف ، والوصـــــول عبره الى مناطق تلك الامجاد الفكرية والحضارية وتقويمها ووضعها فى اطارها الصحيح ·

ان الجزائر تحتل موقعا هاما فى شمال قارة افريقيا بصورة عامة وبين أقاليم المغرب العربى بصورة خاصة وهذا الموقع الهام هو الذى أهلها لتلعب تلك الادوار الموجهة على امتداد تاريخها الطويل وتشارك فى بناء صرح الحضارة العربية خاصة والانسانية عامة بجهد هائل وخـــلاق · وقد كانت الجزائر وما تزال صلة الوصل بين أقاليم المشرق العربى وبلدان المغرب الاخرى المطلة على شواطىء الاطلس التى امتد تاثيرها بعد ذلك الى الاندلس او « فردوس المسلمين المغتصب » لمدة تزيد على ثمانية قرون · وهى صلة الوصـل كذلك بين بلدان البحر المتوسط واوروبا شمـالا وبلدان ما وراء الصحراء الكبرى جنوبا الى أعماق القارة السوداء التى تعتبر البوابة الحقيقية لها الى عالم البحر المتوسط وأوروبا ·

فهى بهذا عقدة مواصلات هامة · وما تزال طرق القوافل القديمة عبرها حتى اليوم ، تؤكد هذه الاهمية بمراكزها واسواقها التجارية المزدهرة امثال : تيندوف ، وتوات ، وعين صالح ، وتقرت ، وورقلة ، التى تـربط سجلماسة وشنقيط غـربا بقفصة وغدامس والقيروان وطرابلس شرقا الى القاهرة والشام · وهى الاهمية التى استلزمت اليوم تشييد طريـــق الوحدة الافريقية « أو عابر الصحراء » بسواعد شباب الخدمة الوطنية · على أن هذه الاهمية من جهة أخرى هى التى جلبت على الجزائر الاخطار الخارجية وأطمـــاع دول أوروبا التى تكالبت على احتلالها واستعمارها عبر التاريخ كما فعل الرومان والوندال والبيزنطيون قديما ، والاسبان والفرنسيون حديثا ، وذلك لغناها زراعيا حتى اعتبرها الرومان مطمور روما للحبوب والغلال ، ولاهمية موانيها البحرية كقواعد عسكرية للاعتداء والتوسع الاستعمارى ·

فالرومان تكالبوا على احتلال هذه البلاد وسخروا كل امكانياتهم المادية والبشرية واستعملوا حتى وسائل المكر والخداع لتحقيق اطماعهم والتغلب على كفاح ومقاومة يوغورطه ، وماسينيسه ، ويوبا الثانى ، والقضاء على مملكة سرته ، ويول (شرشال) ·

والاسبان والفرنسيون فى العصر الحديث والمعاصر فعلوا مثلهم ولنفس الغاية والاهداف · ولكن ابطال الجزائر تصدوا بشجاعة لمقاومة اطماع الرومان قديما بزعامة بيداس وتاكفاريناس وغيرهما واطماع الاسبان والفرنسيين حديثا بزعامة ابطال آخرين ادبوهم جميعا واعطوهم دروسا فى الهزائم لا تنسى نذكر منها على سبيل المثال فقط : هزيمة القرصان أندرى دوريا امام شرشال عام 1531 والامبرطور الاسبانى شارلكان امام الجزائر العاصمة عام 1541 ، ولويس الرابع عشـــر امام جيجل 1664 ـ 1665 ، والجزائر العاصمة 1682 ـ 1683 ، وهزيمـــة الاستعمار الفرنسى فى معركة 1954 ـ 1962 · وقد فرضت الجزائر على اوروبا وضعا لا تحسد عليه وارغمتها على شراء السلام بالاموال لاساطيلها البحرية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما اضطرها الى عقـــد مؤتمرات دولية فى فينا عام 1815 وايكس لا شابيل عام 1818 لبحث ما اسمته أخطـــار البحرية الجزائرية التى حاولت أن تلصق بها ما دعته « القر صنة البحرية » زورا وبهتانا لان البحـــرية الجزائرية لم تقم باعمال القرصنة وانما كانت ترد العدوان وتدافع عن البلاد ضـــد « القرصنة الاوروبية » التى كانت حكومات أوروبا « تباركها » خاصة انجلترا ·

المراكز الحضارية بالجزائر العربية المسلمة :

وعندما ظهر الاسلام بشبه الجزيرة العربية ووصل الى بلاد المغرب آمن به شعب الجزائـر بيسر وسهولة واستقبل مبادئه السمحة بصدر رحب وبفرحة ، ولم تكن معارضة الكاهنة دهيا بالاوراس ، وكسيلة بجبال تيارت والونشريس · تعبر عن رأى الاغلبية التى آمنت بالدين الجديد

لانها كانت لاغراض شخصية اكثر منها معارضة للاسلام الوافد ثم ان مبادىء هذا الدين الجديد كانت ثورة حقيقية فى ميدان العقيدة الروحية والتعامل الاجتماعى حيث خلصت الناس من عبادة الاشخاص والظواهر الطبيعية وسوت بينهم فى الحقوق والواجبات وأكثر من هذا اعادت للعقل مكانته وسمح ذلك لعامة الناس ان يميزوا بين الضلالة الوثنية والرشد الالهى المستمد من شريعة الاسلام السماوية السمحة ·

ومن الاشياء التى استفاد منها الجزائريون فى ظل الاسلام الجديد هو حصول ذلك التفاعل الكبير بين مختلف طوائف السكان وادى الى بروز شعب متكامل الصفات موحد الاهداف اندفع على التو بكل طاقاته لعمل الخلق والابداع فى اطار الحضارة العربية وعلى طريق التطور الطويل الذى بداه الاجداد من غابر العصور ، ونتج عن ذلك قيام مراكز حضارية هائلة لا تقل ضخامة واهمية عن مثيلاتها فى المشرق العربى مثل : تاهرت الرستمية «تيارت» وصدراته الميزابية ، والقلعة وبجاية الحماديتين ، وتلمسان الزيانية ، وطبنة وأشير ·

القلعة وبجاية الحماديتان :

بعد ان انشق الحماديون عن الدولة الصنهاجية التى خلفت الفاطميين فى حكم المغرب العربى من مدينة المهدية بتونس ، قام حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى بتاسيس مدينة القلعة فى جبال عياض بالحضنة عام 1007 م (398 هـ) واتخذها عاصمة لدولته الجديدة فتحولت بسرعة الى مركز هائل للعلم والثقافة والعمران ، وبرز بها عدد من فطاحل الفكر والادب امثال الطبيب والفيلسوف بن عبد الله محمد بن علي بن الرمامة ، ومحمد بن حماد الصنهاجى · ولم تفقد اهميتها الا بعد ان قام الناصر الحمادى بتاسيس مدينة الناصرية عام 1067 م (460 هـ) قرب ميناء صلداى الفنيقى على ضيعة تدعى « بجاية » وهو الاسم الذى اشتهرت به بجاية بعد ذلك حتى اليوم ·

وقد شهدت بجاية قفزة هائلة فى ميدان العمران والثقافة واصبحت ماوى وملتقى لرجال العلم والادب على غرار عواصم العلم الاخرى بالمشرق الاسلامى والاندلس امثال قرطبة ، واشبيلية والقيروان ، والقاهرة ، وبغداد ، ويكفى العودة الى كتاب : « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » للعلامة الغبرينى للتاكد مما وصلت اليه هذه المدينة من رقى ومكانة فى الثقافة والعمران ، ويكفيها فخرا انها احتضنت مفكر العصر ومفخرته العلامة ابن خلدون الذى ولي بها خطة الكتابة والحجابة للامير ابى عبد الله الحفصى ·

ومن أشعار ابن حمديس الصقلى فى وصف قصر المنصور قولـــه :

قصـــر لو انك قد كحلت بنـــوره　　اعمى لعـاد الى المقـام بصيـــرا
واشتق من معنى الحياة نسميـــه　　فيكاد يحـدث للعظام نشـــورا
نسى الصبيح مع المليـــح بذكره　　وسما ففـــاق خورنقا وسديـــرا
اعيت مصانعه على الفرس الاولى　　رفعـــوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنو　　لملوكهـــم شبهـــا له ونظيـــرا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنـــا　　غرفا رفعـــت بناءها وقصـــورا

اما ابو على الحسن بن الفكون القسنـــطينى فقد قال فى وصفها :

دع العـــراق وبغـــداد وشاماها　　فالناصرية ما ان مثلهـــا بلـــد
بر وبحر ومـــرج للعيـون لـــه　　مسارح بان عنها الهـــم والنكـد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع　　حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
ان تنظـــر البـــر فالازهار يانعة　　أو تنظر البحر فالامـــواج تطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصـف　　قل جنـة الخلد فيها الاهل والولد

تلمســـان الزيانية :

وفى الوقت الذى تالق فيه نجم بجاية بـرز نجم تلمسان كمركز حضارى آخر هام وهائل ۰ فلقد كانت نواة هذه المدينة قرية (أقادير) التى اسسها بنو يفرن الزناتيون فى عصور قديمة عـــن ظهور الاسلام بكثير ونسج السكان حولها اساطير كثيرة يحكونها عبر العصور من ضمنها انهـا ازلية الوجود وان الجدار الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قصة الخضر مع موســـى عليهما السلام يوجد بالقرب منها ۰ وقد اورد ابن خلدون هذه الاسطورة واستبعدها باستهجان مـؤكدا ان موسى لم يغادر المشرق الى المغرب وان بنى اسرائيل لم يصل نفوذهم الى افريقيا وانما ذلك من قبيل التشيع الذى جبل عليه الناس فى تقديس أوطانهم وبلدانهم وكما تعتبر هذه القصة خيالية فكذالك لا يصدق القول بأن مؤسس اقاديرهم الرومان لانها اقدم منهم بكثير ، وكذلك الامر بالنسبة لمدن وقرى الجزائر الاخرى ، ذلك ان الشائع فى الكتب الاجنبية والفرنسية على الخصوص بـان كل مدن الجزائر من تأسيس الرومان فهل كانت الجزائر قبل قدوم الرومان خالية من السكان حتى لا توجد بها مدن قبلهم ؟ وهل الرومان تواجدوا على هذه البلاد باعداد كبيرة حتى يقوموا بتاسيس مراكز العمران التى تأويهم على هذا الشكل ؟ ان أبسط تفسير لهذا الادعاء هو ان هذه الكتـب

الاجنبية تحاول ان تخدم الفكرة الاستعمارية ، واستهدف الفرنسيون من وراء ذلك تبرير عودتهم الى هذه البلاد واستعمارها ومن المؤسف حقا ان نجد مثل هذه الافكار ما تزال تدرس لاجيالنـا فى مدارسنا فقد وقع بيدى كراس لجغرافية الجزائر الاقلمية لطالب فى السنة قبل الاخيرة للباكالوريا من املاء استاذ فرنسى نسب فيه كل قرى ومدن الجزائر الى الرومان القدماء ·

ولقد نما عمران اقادير الزناتية بمرور الزمن وتوسع · وعندما سيطرت الدولـة المرابطية على البلاد أسس محمد بن تينعمر المسوفى محلة (تاكرارت) الى جانبها مع فصلها بصور ، ثـم بعد مدة من الزمن ازيل هذا الصور وادمجت أقادير وتاكرارت مع بعضهما وتألفت منهما « مدينة تلمسان » الحالية التى اهتم عبد المؤمن الموحدى بأمرها بعد ان تعرضت للتخريب من طرف جيوشه الغازية ، فاستجلب اليها الناس من كل الجهات لترميم ما تصدع منها وتخرب ، وصـــرف ولاة الموحدين بعده نظرهم واهتماماتهم بشانها الى تحصينها وتشييد أسوارها وحشد الناس الى تعميرها حتى اصبحت كما قال ابن خلدون « من اعز معاقل المغرب واحصن امصاره خاصة خلال عهـــد بن زيان الذين اختطوا بها القصور المونقة والمنازل الجميلة واغترسوا الرياض والبساتين ووصل اليَها الناس من القاصية ونفقت بها اسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر الاعـــلام وضاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » وتبارى كبار الكتاب والمؤرخين فى وصفها وذكر مفاخرها امثال البكرى ، والعبدرى ، وابن خلدون ، واخيـــه يحيى ، ولسان الدين بـــن الخطيب ، مما يدل على الشأو الكبير الذى وصلت اليه · ومن مدح شاعرها الفحل محمد ابـــن خميس فيها قوله :

تلمسان لو ان الزمــان بها يسخو   منى النفس لا دار سلام ولا الكرخ

ويكفى تصفح كتاب البستان لابن مريم للتعرف على ما وصلت اليه من تطـور فى ميدان الفكر والثقافة وما انجبته من رجال العلم الافذاذ وما احتضنته من قادة الفكر الكبار ·

ما شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر العربى :

ان هذه المراكز الحضارية التى اشرنا الى البعض منها ، توضح الدور الهام والبارز الذى لعبته الجزائر فى بناء وتشييد صرح الحضارة العـــربية والذى لا يقل أهمية عن دور المراكـــز الحضارية الاخرى فى بلدان المشرق العربى ، والسؤال المطروح الذى يفرض نفسه هنا هو : ما هى جهود الجزائر فى اخصاب الفكر العربى الثقـــافى والسياسى والاجتماعى وما هو مقدار رصيدها فى هذا الميدان ؟ والجواب على هذا السؤال يتطلب العودة الى الماضى للوقوف على الامثلة المحددة والمقنعة فى نفس الوقت فلقد انجبت الجـــزائر مفكرين كبارا امتد تاثيرهـم الى اصقاع كثيرة من بلدان المشرق والمغرب الاسلاميين ، وانطلقت منها حركات فكرية ودينية وسياسية

لها دور موجه فى هذه الاصقاع وكانت احدى مصادر الالهام للفكـــر والحضارة العربية قديما وحديثـــا ·

ففى ميدان الشعر والادب : يعتبر الحسن بن رشيق المسيلى مفخرة ادباء المغرب والمشرق فى القرن الحادى عشر الميلادى · وقد ولد فى مدينة « المسيلة » التى كانت تدعى « المحمدية » بجبال الحضنة عام 995 م (385 هـ) وانتقل منذ صدر شبابه الى عاصمة الاغالبة مدينة القيروان على عهد الفاطميين وعاش هناك حتى لقب بالقيروانى وتصدى للتدريس والتاليف حتى صار من أعلام الادباء ومن اشهر مؤلفاته التى تجاوز تاثيرها حدود المغـــرب الى كافة بلدان المشرق والاندلس كتاب : « العمدة » فى صناعة الشعر ونقده وتبيان عيوبه وفنونه الذى قال عنه ابن خلدون انه أول مـــن اهتم بمثل هذه الصناعة الادبية ولشهرة ابن رشيق فى العلم اصطفاه المعز بن باديس ليكون ضمن خاصته وحاشيته من العلماء والادباء فى قصره وكذلك فعل ابنه من بعده وقد بقي ابن رشيق يتصدر مجمع الادباء والشعراء بالقيروان والمغرب حتى حصل زحف عرب بنى هلال على المغرب فانتقل الى صقلية الاسلامية واستوطن مدينة « مازره » حتى توفى بها وخلف لنا من ورائه تراثـــا فكريـــا وتاريخيا هائلا يمثل رصيدا هائلا فى الحضارة العربية ضمنه عددا من الكتب فالى جانب العمـــدة خلف لنا أيضـــا :

- **نمـــوذج الزمان فى شعـــراء القيروان**
- **قراضـــة الذهـــب فى نقـــد اشعـــار العـــرب**
- **الروضـــة الموشية فى شعـــراء المهديـــة**
- **تاريـــخ القـــيروان**
- **شـــرح على موطأ مـــالك**
- **ديـــوان شعـــر**

وفى ميدان النحو وقواعد اللغة : برز يحيى ابن عبد المعطى النحوى وهو من قـــرى جبال جرجرة ، وقد رحل الى المشرق وولاه الملك المعظم شؤون جامع دمشق ثم طلب منه الملـــك الكامل بمصر ليقوم بالتدريس هناك فالتحق بها واعتكف على القاء الدروس وتخرج على يديه عدد من رجال الثقافة ويشتهر بمؤلفاته الكثيرة اشهرهـــا «الفيته فى النحو» وقواعد اللغـــة التى شرحها عدد من العلماء · وله الى جانبها عدد من الكتب والشروح مثل : الفصول والعقود والقوانين فى النحو ، وحواشى على اصول ابن السراج فى النحو ، وشرح على كتاب الجمل للزجاجى فى النحو ، ومنظومات اخرى فى اللغة والعروض والحديث ، كلها تعتبر ذخرا ورصيدا فى التـــراث ·

الفكرى العربى وقد توفى ابن معطى عام 1231 م (628 هـ) ، وعلى غراره فعل ابن مالك النحوى الاندلسى تقليدا له فوضع الفية فى النحو · نالت شهرة كبيرة فى هذا الميدان شرقا وغربا واصبح لاغنى لدارسى اللغة من حفظها ودراستها ولا تكفى مبادىء الاجرومية وقطر الندى لمن يريد التطلع فى قواعد اللغة وما تزال حتى اليوم مصدرا هاما للدراسة فى المعاهد والجامعات العربية ذات الثقافة التقليدية كالازهر ، والزيتونة ، والقرويين ·

وفى ميدان الفقه والحديث : يعتبر ابن مرزوق الخطيب الجد الرئيس ، وابن مرزوق الحفيد على راس قائمة فقهاء اقليم المغرب الذين طبقت شهرتهما الافاق ورأيهما فى الفقه على مذهب مالك يرجح الكثير من الآراء ، مثل سحنون وابن عرفة فى تونس ، والقاضى عياض بالمغرب ، وقد ولد ابن مرزوق بتلمسان عام 1310 وتجول فى عواصم المشرق والمغرب ودرس فى بجاية ، وفاس ، وتونس ، وقام بسفرات عديدة ديبلومسية بين السلطان المرينى ابى عنان بفاس وملك قشتالة البرتغالى باشبيلية كللت بالنجاح وادت الى عقد الصلح بينهما عام 1347 وتولى الخطبة والامامة فى جامع قرطبة عام 1351 ورحل الى تونس فى مهمة ديبلوماسية قبل ان يرحل الى القاهرة ليتوفى بها عام 1379 ·

اما ابن مرزوق الحفيد فيشتهر كذلك بجولاته الدراسية فى عواصم المشرق والمغرب وتدريسه بتلمسان ومن شيوخه الاجلاء عبد الرحمن ابن خلدون بمصر ومن تلاميذه بتونس الشيخ عبد الرحمن الثعالبى الذى يشتهر بتآلفه العديدة وهو الذى تشتهر به مدينة الجزائر حاليا ومنذ عدة قرون مثلما تعتز وهران بالشيخ سيدى الهوارى ، وقد ولد الثعالبى عام 1385 م (787 هـ) فى احدى قرى منطقة يسر قرب تيزى وزو ومدرس ببجاية وتونس ومصر وتوفى عام 1470 م (885 هـ) · وتاتى اهمية ابنى مرزوى الخطيب والحفيد فى كونهما زودا مادة الفقه الاسلامى بافكار ونظريات جديدة اخصبت الفكر الفقهى بصورة عامة وامدته بطاقة جديدة ذات اهمية فى حركة التنوير التى بداها قبلهما الفقيه السوسى محمد ابن تومرت ، وحطم بها ذلك الجمود الذى طغى على فكر الفقهاء خلال عهد المرابطين الذين نعتهم بالمجسمين ، والمبطلين والملثمين ·

وفى ميدان علم المنطق : انجبت الجزائر عبد الرحمن الاخضرى 1546 م (953 هـ) صاحب التآليف العديدة فى المنطق والبلاغة والحساب والفرائض والتى تعتبر مراجع اساسية للدراسة فى المعاهد الاسلامية شرقا وغربا ومنها : السلم المرونق فى المنطق ، والجوهر المكنون فى البلاغة والدرة البيضاء فى علم الحساب والفرائض ، وشرح السراج فى علم الفلك وهى كلها ذخر ورصيد فى الفكر والحضارة العربية ·

ولا يمكن ان نغفل فى هذا الميدان ذكر ابى عمران المازونى « 1478 م ــ 883 هـ » صاحب كتاب : « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » والشريف التلمسانى الاديب اللامع لما لهما من دور فى اثراء الثقافة العربية بنشاطاتهما المختلفة وافكارهما وارائهما الفكرية ·

اما المقرى التلمسانى « 1632 م ــ 1041 هـ » فهو أشهر من ان يعرف اذا استطاع ان يحكـــى للمشارقة قصة تاريخ امجاد المغرب والاندلس بطريقة حية فبعد ان تنقل بين تلمسان وفاس ومراكش وتولى خطة الامامة والخطابة بجامع القرويين من طرف احمد المنصور رحل الى المشرق وتولى التدريس بالازهر فى مصر ، وبالمسجد الاقصى فى القدس مدة من الزمن واقترح عليه علماء الشام ان يؤلف لهم كتابا عن الاندلس فلبى رغبتهم ووضع كتاب : « نفـح الطيب بغصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » · الذى يعتبر من المؤلفات المشهورة فى التاريخ والادب معا عن هذه المنطقة الغربية من العالم الاسلامى التى كانت عربية اكثر من ثمانية قرون وجاء ذخرا حيا ورصيدا فاخرا فى صرح الحضارة العربية ، وقد بقى المقرى بمصر حتى توفى عـــام 1662 م وله اكثر من عشرين كتاب فى مختلف العلوم ومن أشعاره فى الشرق والحنين الى بلده الجـــزائر قولـــــه :

بـــلد الجـــزائر ما أمر نواها　　كلـف الفـــؤاد بحبها وهــواها
يا عــاذلى فى حبهـا عن عــاذرى　　يكفيـك منها ماؤهـــا وهـــواها

ولا ننسى فى هذا الميدان أبا العباس احمد حسين بن علي بن الخطيب ابن القنفد القسنطينى (1339 ــ 1407) الذى عاصر ابن خلدون وشب فى مدينة قسنطينة ودرس العلم على اجلة علمائها امثال حسن بن خلف بن باديس ، وابن عبد الرزاق الجزولى ، والشريف التلمسانى ، وابن مرزوق والغبرينى ، ورحل الى تلمسان وفاس لطلب العلم وخلف لنا وراءه مكتبة هائلة من مؤلفاته القيمة فى مختلف فـروع الثقافة بعضها مطبوع وبعضها ما يزال مخطوطا وتزيد مؤلفاته على عشـــرين كتابا ومن اشهرها :

ــ الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، وارجوزة فى الطب ، وطبقات علماء قسنطينة ، وانس الحبيب عند عجز الطبيب ، وبغية الفارض فى الحساب والفرائض ، والقنفذية فى ابطـــال الدلالة الفلكية ، وخط التقارب على وجوه أعمال الحساب ، وتسهيل المطالب فى تعديل الكواكب ·

وكذلك الحال بالنسبة لابن ابى مريم المليتى صاحب كتاب «البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان» والورتلانى صاحب كتاب « الرحلة الورتلانية » والغبرينى صاحب «عنوان الدراية» الذين خلفوا لنا آثارا فكرية جليلة تمثل رصيدا فى الفكر العربى ·

ابن خلدون : وفي قمة هؤلاء جميعا مفخرة العصر ورائد الفكر في العصرين الوسيط والحديث عبد الرحمن ابن خلدون الذي هو غني عن التعريف ان ابن خلدون لم يكن جزائري الاصل ولكن خلاصة افكاره وعبقريته التي احدثت ثورة في الفكر البشري كانت انتاجا جزائريا محضا وقصة حياته هو في هذه البلاد تعتبر من القصص الشيقة والمثيرة حيث تقلب في احضان الملك وتقلد مناصب رفيعة في تونس وبجاية وتلمسان وفاس ومصر .

فلقد هاجر اجداده الاولون من عرب وائل بن حجر بلاد حضرموت باليمن الى بلاد الاندلس في صدر الفتح الاسلامي واستقروا بعض الوقت في قرمونة ثم استقروا باشبيلية وشاركوا في احداث تلك البلاد طوال العهد الاسلامي بالاندلس وفي القرن 12 الميلادي (منتصف السابع الهجري) انتقل فرع منهم الى سبته ثم الى تونس حيث ولد هناك مؤرخنا عبد الرحمن ابن خلدون عام 1332 (غرة رمضان 732) وشب على التعلم واعتكف على التحصيل بجد على اجلة الشيوخ والعلماء ابرزهم الشيخ ابو عبد الله الآبلي التلمساني الذي حكي عنه بانه كان يلقب انذاك بعالم الدنيا في زمانه .

وقد امتاز ابن خلدون منذ صغره بذكاء العقل وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة ، وسمت به همته حتى وصل الى المراتب العليا فعينه ابن تافراكين الوصي على عرش تونس والامير ابو اسحاق ابراهيم في منصب الكتابة العامة الذي هو بمثابة الامين العام للحكومة وبعد مدة انتقل الى تلمسان عبر قفصة وبسكرة ثم الى فاس حيث عينه السلطان المريني ابو عنان في منصب الكتابة والحجابة عام 756 هـ وهو منصب رفيع شرحه هو بقوله : « ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه في ذلك احد » مما يدل على رفعة مكانته وبسبب وشاية حساده ادخله السلطان السجن وبقي به حتى توفي ابو عنان فاطلق سراحه السلطان ابو سالم واعاده الى منصبه ككاتب للسر والانشاء وخطة المظالم ثم طلب الاذن وانتقل الى الاندلس أرض أجداده واستقبله سلطان غرناطة ابو عبد الله ابن الاحمر بحفاوة بالغة وتوطدت صلاته بوزيره لسان الدين ابن الخطيب حتى اصبحا مثل الاخوين . واوفده سلطان غرناطة الى ملك قشتاله باشبيلية ليفاوضه في عقد الصلح وحكى ابن خلدون بحسرة والم كيف شاهد عاصمة اجداه اشبيلية تتحول الى مدينة نصرانية كما ذكر بان ملك قشتالة عرض عليه ان يبقى عنده بصورة دائمة فرفض .

ومن غرناطة انتقل ابن خلدون الى بجاية عبر سبته ليتولى هناك منصب الحجابة وكتابة السر للامير الحفصي ابي عبد الله بعد ان اظلم الجو بينه وبين صديقه ابي الخطيب الذي على ما يظهر كان يغار منه كثيرا : وشايع السلطان ابا احمد الزياني بتلمسان بعض الوقت ثم تحول عنه

الى السلطان المرينى عبد العزيز الذى غزا تلمسان وسيطر عليها فانتقل الى فاس وتمركز بها بعض الوقت وعندما كثر الوشاة ضده طلب الاذن بمغادرتها الى الاندلس مرة ثانية ولمدة قصيرة ثم عـاد الى تلمسان وعوامل الاسى تحزفى نفسه من جراء الصعاب والعقبات والمحن التى تنكبها واعترضت طموحه فعزم على الانزواء والاعتكاف للدراسة والتـــاليف ·

واغتنم فرصة قيام السلطان ابى احمد الزيانى بتكليفه بالخروج لاستمالة الزواودة اليــه وادخالهم تحت طاعته فتظاهروا بالقبول وغادر تلمسان غير انه عندما وصل الى البطحاء عدل ذات اليمين الى منداس والتحق باحياء اولاد عريف قبيلة جبل كزول واستقبله السكان بحفاوة وتكلفوا باستقدام اهله من تلمسان وبالاعتذار لسلطانها عن عجزه عن اداء ما كلفه به وانزلوه بقلعة سلامة فى قصر منيف من بلاد بنى توجين وانقطع هناك اربع سنوات كاملة متخليا عن الشواغل متفرغـــا للتاليف وقال هو نفسه « وشرعت فى تاليف هذا الكتاب وانا مقيم بها واكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة فسالــت شابيب المعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها » وكان من بعد ذلك الاوبة الى تونس لرغبة المزيد من الاطلاع وهو ما عناه بقوله وعندما فرغت من مقدمته الى اخبار العرب والبربر وزناته وتشوقت الى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد الا فى الامصار بعد ان امليت الكثير من حفظى واردت التنقيح فحدث عندى ميل الى مراجعة السلطان ابى العباس والرحلة الى تونس حيث قرار آبائى ومساكنهم واثارهم وقبورهم فبادرت الى خطاب السلطان بالفئة الى طاعته · وهناك انكب حتى اكمل كتابــه : « العبـــــر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبـر » واهدى نسخة منه الى مكتبة السلطـــان ·

ومثلما تعرض ابن خلدون لحسد وغيرة كبار شخصيات العلماء الكبار فى تلمسان وفاس وغرناطة امثال لسان الدين ابن الخطيب تعرض كذلك بتونس لحسد وغيرة الفقيه ابن عرفة الذى اكثر من السعاية والوشاية ضده لدى السلطان ولذلك طلب مغادرة تونس الى الشرق لاداء فريضة الحج عام 784 هـ فاتجه الى مصر وعينه السلطان الظاهر برقوق المملوكى فى منصب قضاء المالكية بالمدرسة الصالحية وثارت ضده الاحقاد كذلك غيرة وحسدا فطلب من السلطان اعفاءه من ذلــك فاعفاه وحج عام 789 هـ ثم تفرغ للتدريس وقام بسفرة الى بلاد الشام كرسول لمفاوضة تيمورلنك المغولى وبقى يتولى منصب القضاء حوالى سبــع مرات الى أن توفى عام 1406 م (808 هـ) ·

ان كتاب العبر لابن خلدون يمثل ثروة هائلة فى الفكر العربى يتالف من ثلاثة كتب فى سبــع مجلدات وتعتبر المقدمة اعظمها شرح فيها قضية العمران البشرى وضمنها فلسفة التاريخ والاجتماع وتوصل الى حقائق هامة فى هذا الميدان ما تزال حتى اليوم تحتل الصدارة وتعتبر مرجعا لكل المهتمين

والمتخصصين بهذا الميدان شرقا وغربا فقد نقد الذين سبقوه فى تدوين التاريخ وتفسير حقائقه وبين عيوبهم ثم وصف تطور الامم من البداوة الى الحضارة وترقى الشعـــوب فى الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون وتكون الدول ونموها وانهيارها وطبائع اهل البدو والحضر٠ وقد تتلمذ عنه المفكرون المحدثون امثال هربرت سبنسر وكانت ٠ والجزائر تفتخر بانها كانت مصدر هذه الفلسفة الجديدة وهذا الفكر المبدع الخلاق الذى اتى به ابن خلدون فى قلعة سلامة بعد ان شحذ فكره وصقل كل تجاربه ومعارفه فجاء كدا قال هو نفسه « على ذلك النحو الغريب بعد ان سالت شآبيب الكلام والمعانى على الفكر وامتخضت زبدتها وتالقت نتائجها » ٠ ولا غرابة ان تكون منطقة قلعة سلامة بفرندة قرب تيارت منبع بهذا الفكر الخلاق لان التحضر لم يكن عنها غريبا فقد كانت مركزا لحضارة عريقة فكرية وعمرانية على عهد الامارة الرستمية فى القرنين 2 و 3 الهجريين ٠

ما شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر السياسى والاجتماعى :

ذلك هو الجزء البسيط من العمل الكبير الذى شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر العربى بمختلف فروعه وهو جهد هام وبارز فى بناء تلك الحضارة العربية الشامخة عبر التاريخ ٠ على ان الجزائر لم يقف دورها عند هذا الحد فقد شاركت ايضا فى اخصاب الفكر السياسى والعسكرى لهذه الحضارة بفضل تلكم البطولات التى حققها اجدادنا ، واولئكم الابطال الذين تقترن اسماؤهم بعظماء الرجال فى كل العصور والاجيال والذين امتد تاثيرهم الى اصقاع اخـــرى من الوطن العربى بالمغرب والمشرق والاندلس ٠

وللحقيقة والتاريخ فان البطولة العظيمة التى اظهرها شعب الجـزائر فى حـــرب التحرير الاخيرة (1954 ـ 1962) لم تكن بالشىء الجديد والغريب عليه لانه اعتاد تحقيق مثلها عـــبر تاريخه الطويل وقد اشرنا الى الاعمال البطولية التى حققها بيداس وتاكفار يناس ضد الغـــزاة الرومان فى رقعة المغرب ونذكر هنا بان ابطال الجزائر كانوا يكونون نخبـــة الضباط فى جيش اسدروبال وحنبعل اللذين سيطرا على بلاد اسبانيـــة وعبرا جبال الالب فى العصور القديمة ودقا ابواب روما وهدداها بالفناء لولا حدوث تطورات سريعة فى الموقف ٠ وتزخر كتب الرومان فى الحديث عنهم وعن بطولتهم ٠ وفى العصور الوسطى برز جعفر ابن فلاح الكتامى ليلعب دوره الكبير الى جانب جوهر الصقلى فى فتح بلاد مصر وضمها الى الدولة الفاطمية وليقوم وحده بعد ذلك بانتزاع فلسطين والشام من الاخشديين وضمها الى الحكم الفاطمى عـــام 969 م ولو انه قتل على ايدى القرامطة غدرا عام 971 ٠ ومن الصدف ان جعفر وجوهر هما الذان اسسا مدينة القاهرة والازهر الشريف الذين قدر لهما ان يتحولا الى قلعة للحضارة العربية : ومن اقوال الشاعـر الاندلسى ابن هانى فى مدح جعفر ابن فلاح قوله :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر ابن فلاح اطيب الاثر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني باحسن مما قد راى بصر

ان اعمال هذا الرجل وامثاله تمثل جزءا من تراث البطولات والمفاخر العربية التى تعتبر احدى لبناة صرح الفكر العربى السياسى ٠

واذا كان جعفر بن فلاح ومن قبله مغمورين بعض الشىء فان عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى الكومى الزناتى الموحدى اشهر من ان يعرف وهو من ابرز قادة العصور الوسطى فى الحروب والادارة والسياسة ومن مواليد قرية تاجرة قرب مرسى رشكول بمنطقة جبال ندرومة شمال تلمسان عام 1095 م (487 هـ) وتاتى اهميته فى كونه استطاع ان ينجز اعمالا جليلة تمثل ذخرا هائلا فى البطولات العسكرية العربية لا تقل اهمية عن منجزات صلاح الدين الايوبى ، ونور الدين محمود بن زنكى ، بالشرق ٠ فقد قضى على الامارات الاقطاعية التى كانت تمزق وحدة الاقاليم المغربية العربية كالمرابطين بمراكش والحماديين ببجاية وقضى على حكم النورمان بالمهدية فى تونس وقضى على طموح عرب بن هلال الذين زحفوا على المنطقة وافقدوها امنها وهدؤوها وسببوا لها كثيرا من الاضطرابات والفتن واعاد لهذا الاقليم وحدته من طرابلس الى المحيط الاطلسى التى كانت له فى صدر الفتح الاسلامى وافتقدها بعد ذلك ثم تفرغ عبد المؤمن للتصدى لاطماع النصارى الاسبان بالاندلس الذين استاسدوا ضد الامارات العربية الاسلامية التى تشتتت وحدتها وانهكتها الخلافات العصبية فادبهم واوقفهم عند حدهم مثلما قضى صلاح الدين بالشرق على الصليبيين وطهره منهم ٠

ولم تتوقف جهود عبد المؤمن وتقتصر على البطولات العسكرية فقط بل انه اضاف الى الفكر العربى خطة المربع الموحدى فى ميدان الخطط العسكرية ، والمسح الجغرافى للمغرب فى ميدان الجغرافيا الاقتصادية والتشريعات العسكرية والمدنية فى ميدان الادارة وهو الذى نقل الينا كتاب « اعز ما يطلب » لشيخه وامامه محمد ابن تومرت الذى احدث ثورة فى ميدان الفكر الفقهى وكان اهم سلاح له فى تحطيم دولة المرابطين الملثمين والمجسمين والمبطلين ٠ وهكذا زود عبد المؤمن التاجرى الندرومى الجزائرى الفكر والحضارة العربية بزاد وذخر هائل يمثل احدى مفاخر الجزائر وامجادها ٠ والى جانب هذين البطلين : جعفر بن فلاح وعبد المؤمن هناك امثلة اخرى لا بد من ذكرها والاشارة اليها لتكتمل الصورة على جهد اجدادنا فى اثراء الحضارة العربية ٠

فابو محمد عبد الله الاشيرى : من مدينة أشير الحمادية جنوب جبال التيطرى ـ 1165 م ـ كان فقيها محدثا واديبا كبيرا انتقل الى المشرق وسكن حلب فى عهد نور الدين محمود بن زنكى وكسب شهرة واسعة بسعة علمه وثقافته وتسابق الكتاب والوزراء والاعيان لمجالسه العلمية وهو

الامر الذى دعا الوزير العباسى ابا المظفر عون الدين يحيى ان يستدعيه الى بغداد ليدرس بهـــا الحديث ويدفع بالحركة الفكرية الى الامام هناك ٠

ـ وابو عبد الله محمد بن علي : المشهور بابن الرمامة من مواليد قلعة بنى حماد عام 1085 م ٠ تطلع فى دراسة الطب والفلسفة بهذه المدينة ثم رحـــل الى الاندلس ليتتلمذ على الفيلسوف أبى الوليد بن رشد بقرطبة وتولى خطة قاضى الجماعة بفاس عام 1142 م وكان احد الاعلام البارزين وخلف وراءه ثروة هائلة من المؤلفات العلمية منهـــا :

ـ تسهيل المطلب فى تحصيل المذهب ، والتبين فى شـــرح التلقين ، والتقصى فى فـــوائد التقصـــى ٠

ـ ومحمد بن حماد الصنهاجي : من مواليد برج حمزة قرب البويرة ودرس بمدينة قلعة بنى حماد وبجاية وتولى خطة القضاء فى الجزيرة الخضراء عام 1216 م وفى المغرب بعد ذلك حتى توفى عام 1230 م وخلف لنا من وراثه ثروة هائلة من المؤلفات منها : أخبار ملـــوك بنى عبيد ، والديباجة فى اخبار صنهاجة ، وهو الكتاب الذى اعتمده ابن خلدون كثيرا فى كتابه العبر ، واهتم المستشرق ليفى بروفانصال به ٠ ومن شعره فى رثاء قلعة بنى حماد قوله :

ان العروسين لاســـم ولا طلـــل	**فانظر ترى ليس الا السهل والجبل**
وقصر بلارة اودى الزمـــان بـــه	**فأين ما شـــاد منها السادة الاول**
قصر الخلافة اين القصر من خرب	**غير اللجين وفى ارحابها زحـــل**
وقد عفى قصر حماد فليس لـــه	**رســـم ولا اثر باق ولا طلـــل**

وهكذا انجبت الجزائر أبطالا شاركوا ببطولاتهم العسكرية وجهودهم الفكرية فى اثـــراء الحضارة العربية ، ولم يقتصر الامر على العصر الوسيط فقط بل ان العصر الحديث شهد بروز ابطال لعبوا نفس الدور وسجلوا صفحات مشرقةفى تاريخ العسكرية الجزائرية وبالتالى العربية ٠ ويكفى العودة الى كتاب هايدو « ملوك الجزائر » وكتاب دوقرامون « الجزائر تحت حكم الاتراك » للاطلاع على مقدار الذخر العسكرى الذى وفرته الجزائر للامجاد العسكرية العربية لا فى امصار المغرب فقط وانما فى كل حوض البحر المتوسط الغربى والشرقى ٠

ولا تكتمل الصورة الا اذا اشرنا الى الحركة السنوسية الدينية والقومية التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام وحضارته الى شعوب السودان وافريقيا الســـوداء وتصـــدت للاطمـــاع الاستعمارية الايطالية والانجليزية فى ليبيا وصحراء مصر الغربية فى الوقت الذى اشتد فيه تكالب اوربا على الاستعمار والتهام بلدان المغرب والمشرق الاسلاميين ٠

فزعيم ومؤسس الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسى من بلـــدة بوقيراط بمستغانم ودرس بالشرق واسس زوايا دينية فى الطائف واحواز المدينة المنورة بالحجاز للاصــلاح الدينى على غرار الحركة الوهابية ثم انتقل الى المغرب واستقر بليبيا بعد ان منع من الدخول الى الجزائر ، والذى يهمنا هو ان هذه الحركة السنوسية الاصلاحية قدمتها الجزائر كهدية للبلاد الليبية لتدافع عن كيانها وتكافح عن مستقبلها وهو الدور الذى ادته بامان وحالت دون مسح القومية الليبية التى حاول الايطاليون جهدهم لمحوها ، وتعتبر من الروافد الفكرية التى اثرت فى الفكر العربى المعاصر ويكفى تصفح كتاب : السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكرى ، وكتاب : حاضر العالم الاسلامى للسيد ستودار لوثروب وتعليق شكيب ارسلان للتعرف على فضل هذه الحركة فى اثراء الفكر والحضارة العربية بطاقة المقاومة • وقد خلف محمد بن علي السنوسى ما يقرب من عشرين كتابا فى مختلف الفنون ، وحتى البلاد التونسية قدمت لها الجـــزائر المجاهد عبد العزيز الثعالبى ليتزعم حركتها الوطنية كرائد لطليعة التحرير ويثرى الفكر السياسى هناك •

اما دور ثورة نوفمبر 1954 الكبرى ، فى اثراء الفكر الثورى العربى فامر لا يحتاج الى تاكيد او تعريف وهى التى اعادت للعرب الثقة بانفسهم وكانت مصدر الهام للاقلام والافكار وما تـــزال كذلك • وتاثيرها الفكرى اجتاز حدود المنطقة العربية الى افريقيا وآسيـــا وبعض بلدان أوروبا وأمريكا وهو مصدر عظمتها •

هذه لمحة وعجالة بسيطة حسبما سمح به الوقت عن امجاد الجزائر الفكرية وهى تحتل مركزا هائلا فى عالم الفكر والثقافة وفى اثراء واخصاب الحضارة العربية ولكنها تحتاج الى بعث واحياء من جديد بعد ان كاد الغبار يطمسها والنسيان يطويها وهذا البعث والاحياء لتراثنا جــهد حتمى اذا ما اردنا لانطلاقتنا الحاضرة ان تنجح وترسخ ، وهو صميم الثورة الثقافية التىاصبحت شعار البلاد كلها • اننا نتمتع اليوم بسمعة هائلة من رصيد ثورة نوفمبر الكبـــرى ولكن عندما يتباعد الزمن وتقدم الثورة يتلاشى كل شىء اذا لم نبعث ماضينا ولم ننظفه مما علق به من تحريف ومسخ وتشويه وفى شعبنا طاقة هائلة لتحقيق الامجاد فى ميدان البنـــاء الحضارى كما بينته تجاريب التاريخ •

وقد أعطى الدليل القاطع فى الثورة الصناعية والزراعية اللتين تتقدمان بخطوات عملاقة اثارت اعجاب الاعداء فضلا عن الاصدقاء لما حققتـــاه من تغيير جذرى فى بنية الاقتصاد الوطنى ووجه الريف القديم • اما الثورة الثقافية فما تزال شعائر نتغنى به وسيظل زحفنا يتعثر مالم نهتم باحياء تراث الأجداد وتطهيره من المسخ والتشويه •

عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية

على عهدها الإسلامي الزاهر

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لقد حظيت بجاية بازدهار علمي ملحوظ فى القرن السادس الهجرى ، ولمع فى هذا القرن من اعلام الفكر والادب والعلوم الشرعية والعقلية جماعة كبيرة من اشهرهم عبد الحق الاشبيلى ، وابو على المسيلى ، والقرشى ، وابو مدين الصوفى وعمارة الشريف ، وابنته عائشة وغيرهم ونشطت دراسات علوم الحديث والفقه والكلام والتصوف والادب على يد هؤلاء الاعلام ·

اما فى القرن السابع الهجرى فان هذه الدراسات المتنوعة ، قد اتسعت آفاقها ، وتعددت فروعها ، وكثر النبغاء فيها ، ولكن الظاهرة التى كانت تلاحظ فى اساليب التعليم ومناهجه حينئذ ببجاية وقسنطينة وتلمسان والجزائر هي عقم الطرق التدريسية التى كان ينتهجها الاشياخ فى محاضراتهم ودروسهم على الرغم من ان هذه الفترة كانت تتسم بالحيوية والاقبال على الدراسة ، والرغبة فى استيعاب العلوم الشرعية والادبية والعقلية ·

ولذلك فقد كانت هذه الاساليب التعليمية فى حاجة اكيدة الى ثورة منهجية تعيد للتفكير الشخصى اعتباره ، وللروح المنطقية فى تناول المباحث اثرها الايجابى الفعال · وهذا ما قامت به الاسرة المشذالية فى اواخر القرن السابع الهجرى وما بعده وهو ما تجلت فيه عبقريتهم العلمية رائعة خلاقة ·

وقد حاولنا فى هذه الدراسة ان نعرف بمشاهير هذه الاسرة ، وبالعبقرية العلمية التى امتاز بها كل واحد منهم ·

وهؤلاء المشذاليون ينتسبون الى قبيلة مشذالة وهى كما يذكر السخاوى قبيلة من زواوة وقد ضبطها بفتح الميم وتشديد الذال (1) وهى عند التنبكتى بفتح الميم وتشديد الدال المهملة (2) ·

والواقع ان هذين الوجهين فى كلمة مشذالة مستعملان معا ، وهذا هو ما نص عليه ابن قنفذ فى الوفيات (3) ومشذالة الآن تندرج فى منطقـة ما بين البويرة وبنى منصور ، وهى تقـع فى سفح جبل جرجرة من جهته الشرقية الجنوبية ، وتغمرها غابات الزياتين الجميلة التى تسبغ عليها روعة خلابة ، وفى زمن الشتاء تغمر سفوحها الجبلية ، الثلوج البيضاء ·

ومن اشهر القرى التى يشملها اسم مشذالة : قرية الشرفاء ، وقرية اولاد ابراهيم ، وقرية بنى ولبان ، وقرية بوحرب ، وغيرها من القرى وقد سألت بعض اصدقائى من مشذالة عن قريـــة ملالة التى ينسب اليها الشيخ الجليل ناصر الدين منصـــور المشذالى ، والتى زارة فيها الرحالة العبدرى (4) فقال لي ان هذا الاســم غير معروف الآن ، وقرية ملالة تدل على اسم مشتق يطلق على ما فيه بياض · ولعل هذا الاطلاق تنوسى وحل محله اطلاق آخر ، وهل يمكن ان تكون قرية ملالة هي بعض القرى التى ذكرناها من قبل ام هي قرية أخرى عفـت ؟ وكلا الاحتمالين لا يمكن الجزم بهما أو باحدهما ، والذى يهمنا هنا هو ان نذكر ان طائفة من العلماء المشاهير فى العصر الاسلامى ببجاية نبغوا فى هذه القبيلة ، واشهر من نبغ منهم فى القرن السابع الهجرى وما بعده :

1 ـ منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ) ·

2 ـ وعمران بن موسى المشذالى نزيل تلمسان وصهر ناصر الدين (توفى سنة 745 هـ) ·

3 ـ ومنصور بن علي بن عبد الله المشذالى نزيل تلمسان (توفى بعد سنة 770 هـ) ·

4 ـ ومحمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى (866 هـ)

5 ـ وولده ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (865 هـ) ·

6 ـ واخوه محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) ·

وهؤلاء الاعلام المشذاليون قد ساهموا فى الحركة العلمية ، وتطوير اساليب التعليم مساهمة فعالة على اختلاف بينهم فى مدى تاثير كل واحد منهم فى الوسط العلمى الذى عاش فيه ولذلك نرى

1) السخاوى محمد : الضوء اللامع (بيروت) منشورات مكتبة (الحياة ج 9 ص 180 ·
2) احمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345·
3) ابن قنفذ القسنطينى : الوفيات تصحيح بريس ص 54 ·
4) العبدرى محمد : رحلته تحقيق محمد الفاسى (الرباط 1968 م) 277 ·

من الضرورى ان نخص كل واحد منهم بترجمة تكشف عن عبقريته فيما برع فيه من علوم ، وتمكن من التعرف على آثاره وقيمته العلمية وبذلك نستطيع ان نلم بمدى المساهمة التى قدمتها هذه الاسرة المشذالية ٠

1) منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ)

وهو يعد قطب هذه الاسرة المشذالية ، وأول نابغة فيها ، وقد كان نبوغه فيها منطلق حركة علمية مباركة انتشرت بين ابناء هذه القبيلة ٠ والامام منصـــور المشذالى ترجم له الغبرينى فى عنوانـــه (5) ٠

وابن قنفذ القسنطينى فى وفياته (6) والتنبكتى فى نيل ابتهاجه (7) ٠

وابن خلدون فى مقدمته (8) والعبدرى فى رحلته (9) ٠

والسيوطى فى بغية الوعاة (10) ٠

وقد ولد المترجم فى مشذالة سنة 631 هـ او سنة 632 هـ واخذ عن شيوخ بلده ببجاية وغيرها ثم ارتحل الى المشرق واستكمل تحصيله هناك ثم عاد الى بجاية عالما جليلا كما ذكر التجيبى فى رحلته ونقله التنبكتى عنه (11) ويذكر الغبرينى : ان ناصر الدين المشذالى اخذ بالمشرق عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصدر الدين سليمان الحنفى ، وشـــرف الدين السبكى وشمس الديـــن الاصفهانى وغيرهم ٠

وحصل الفقه واصول الدين ، واصول الفقه والمنطق والعربية والتفسير والحديث ، وامتاز بطريقته الجيدة فى التدريس والبحث وبفصاحة اللسان فى الالقاء ، وشغل منصب الشورى والافتاء ببجاية (12) ٠

اما العبدرى فانه يقول فى ترجمته له وقد مر عليه بقريته مـــلالة فى آخر القرن السابـــع الهجرى انه درس الاصول والفروع دراسة تفقه وله منهما حظ وافر ، ولكنـــه لا يعتنى بالرواية وليس له حظ فيها (13) ٠

5) الغبرينى : عنوان الدراية ص 134 6) ابن قنفذ : الوفيات ص 54 7) التنبكتى : نـــيل الابتهاج ص 345 8) ابن خلدون : المقدمة (مصر : المطبعة البهية) ص 302 9) العبدرى محمد : رحلته ص 277 10) السيوطى ، عبد الرحمن : بغية الوعاة (مصر : مطبعة السعادة (1326 هـ) ص 398 11) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠

12) عنوان الدراية 134 ـ 135 ٠

13) العبدرى : رحلته ص 277 ٠

اما الرحالة التجيبى الذى مر ببجاية فى هذه الفترة فانه يذكر عن المترجم معلومات قيمة فيقول انه رحل مع ابيه صغيرا الى المشرق ، وسمع بالشام ومصر على شيوخهما ، ولازم استاذه العز بن عبد السلام كثيرا ، وانتفع به ، واهتدى بهديه ، واخذ عن الشرف المرسى ، والرضى الواسطى المجتهد وغيرهم ، ودامت رحلته العلمية نيفا وعشرين سنة ، ثم عاد الى بلده عالما جليلا واستحق لدى الفقهاء بان يعد آخر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الاقصى ممن جمع بين معرفة الفقه واصوله ، واحكم حظا وافرا من العربية ، وحصل المنطق والجدل وغيرها ، وتفوق فى علوم كثيرة (استبحر فيها وتكلم فى انواعها ، وناظر فى جميعها ، وتفنن فى المعارف) (I4) .

ولا حظ التجيبى دون غيره ممن ترجم له ان الشيخ ناصر الدين المشذالى لم يقتصر فى دراسته للفقه على مذهب الامام مالك ، بل درس مذاهب الائمة الآخرين ، واختصر بمذهب مالك وتبسيطه وايضاحه ، والدفاع عنه ، مع ما كان يمتاز به من جودة الذهن ، وصحة الاستنباط والفهم (I5) .

واما ابن مرزوق الخطيب فانه نقل عن شيوخه من تلامذة المترجم كالمسفر وعمران المشذالى ان المترجم وصل الى درجة الاجتهاد فى الفقه (I6) ويذكر الشيخ منصور الزواوى المشاذلى مواطنه أن المترجم كان اماما مجتهدا ، وكان قدوة النظار ، وامام الامصار ، ملا اقطار بجاية بالعلوم النظرية ، والفهوم النقلية والعقلية (I7) ويشهد لما ذكره منصور الزواوى كثرة الشيوخ الذين اخذوا عنه ، وتخرجوا على يده ، ومنهم الشيخ احمد بن عمران البجائى شارح ابن الحاجب فى ثلاثة اسفار (I8) وابو موسى عمران المشذالى صهره وكان فقيها علامة (I9) والامام منصور بن على الزواوى المشذالى (20) وابن المسفر محمد بن يحيى الباهلى البجائى العلامة (2I) وغيرهم .

والواقع ان شيوخ بجاية الذين ادركوا القرن الثامن كانوا من تلامذته او تلامذة تلامذته وكانوا يتباهون بالدراسة عليه ، والاستفادة منه ، وقد اعجبوا باسلوبه فى التدريس ، وتناول الابحاث الفقهية والاصولية والنحوية والمنطقية وكانوا – بتاثيره – يميلون الى الاجتهاد فى الفروع مثله .

I4) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 344 – 345 .
I5) المرجع السابق ص 345 .
I6) المرجع السابق ص 343 – 346 .
I7) المرجع السابق ص 346 .
I8) المرجع السابق ص 69 .
I9) المقرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص I48 .
20) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 .
2I) المرجع السابق ص 240 .

واذا كان الغبرينى قد أشار الى ما امتاز به ناصـــر الدين المشذالى من طريقة علمية ذات فعالية فى التدريس والبحث باقتضاب فان ابن خلدون رفع من قيمة المترجم من ذلك واعتبره قائدا لثورة فكرية فى أساليب التعليم وطرق التدريس ، وفى ذلك يقول فى الفصـل الذى عقده للحديث عن التعليم وصناعته : ثم ارتحل من زواوه فى آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشذالى ، وادرك تلاميذ ابى عمر وابن الحاجب ، واخذ عنهم ، ولقن تعليمهم ، وقرأ مع شهاب الدين القرافى فى مجالس واحدة ، وحذق فى العقليات والنقليات ، ورجع الى المغرب بعلم كثير ، وتعليم مفيد ، ونزل بجاية ، واتصل سند تعليمه فى طلبتها ، وربما انتقل الى تلمسان مـــع عمران المشذالى من تلاميذه ، واوطنها ، وبث طريقته فيها (22) ٠

والواقع ان ما لاحظه ابن خلدون كان حقا وقد ترك ذلك آثارا فعالة فى دراســـة العلوم الشرعية ، والعقلية فى بجاية ، واحدث ثورة فى فن التدريس ٠

وتمتاز هذه الطريقة التدريسية باعتمادها على الحـــوار والمناقشة ، والتعمـــق فى البحث والتعليل فى اصول الفقه واصول الدين واستغلال الجدل فى البحث والمناظرات ٠

وقد انتشرت هذه الطريقة التى تنسب الـــى الفخـــر الرازى فى بجاية ، مزاحمة للطريقة التقليدية التى كانت تنسب لابى المعالى وتزور عن ذلك ، ولكن هذه الطريقة كانت لا تهتـــم كثيرا بالرواية والنقل ، وانما كانت تولى اهتمامها الكبير لجانب الدراية والبحث ومحاولة الاستنباط ٠ وقد انتشرت هذه الطريقة فى تونس على يد ابى عبد الله بن شعيب الدكالى ، وبتلمسان على يدى ابنى الامام ، وتلاميذ ناصر الدين المشذالى ٠

ونتج عن انتشارها فى اواخر القرن السابـــع والقرنين الثامن والتاسع (هـ) ان نشطت الابحاث الفقهية النظرية ، والدراسات العقلية المنطقية ، واخذ الفقهاء تحت تاثير هذا الاتجاه يميلون الى الاجتهاد فى الفروع وتخريج المسائل ٠

ولعل الفضل الاكبر فى هذه اليقظة الفكريـــــة انما احدثها المترجـــم بعبقريتـــه التدريسية ومناظراته الرائعة ، وبتلاميذه الكثيرين الذين سلكوا نهجه فى الدراسة والتحليل ٠ ومن المناظرات التى اثرت عن ناصر الدين المشذالى ، مناظرته لا بي موسى ابن الامام التلمسانى حول البيـــــع وشرعية دفع الثمن فيه وقد حاول ابو موسى ابن الامام ان يجيب عن الاشكالات التى وجهها اليه ناصـــر الدين (23) ٠

22) ابن خلدون : المقدمة : (المطبعة البهية) ص 456 ٠
23) المغيلى ، ابو زكرياء يحيى : الدرر المكنونة ، مخطوط المكتبة الوطنية ج 1 الورقة 471 ٠
ـ الونشرسى احمد : المعيار المعرب ط فاس ج 5 ص 290 ٠

وهناك فتاوى ومناظرات اخرى تبدو فيهــا عبقرية ناصر الدين المشذالى واهم ما يؤخذ عليه انه كان يتعصب لمختصر ابن الحاجب الفرعى والاصلى ، وقد نقلها الى بجاية واختص بتدريسهما وكان يعجب كثيرا بشرح التوضيح لخليل بن اسحاق على المختصر الفرعى لابن الحاجب ، وكان يقول عند التعارض بين خليل وغيره ، « نحن خليليون ان ضل ضللنا مبالغة منه فى اتباعه » (24) ·

واما مختصر خليل نفسه فلم تنتشر دراسته فى افريقية والمغرب الاوسط الا فى اواخر القرن الثامن الهجرى بعد وفاة خليل بن اسحاق سنة 776 هـ ·

مؤلفاتـــه :

ولم يكن ناصر الدين المشذالى يعنى كثيرا بالتاليف بل كان يفرغ جهوده للتدريس والتعليم ·

ولذلك لم يترك من المؤلفات الا شرحا غير تام على رسالة ابن ابى زيد القيروانى (25) ·

واذا كان المترجم قد قصر فى ميدان التاليف فانه لم يقصـــــر فى ميدان التدريس وتخريج الفقهاء والباحثين الذين نشروا علمه بعد وفاته ·

وفاتـــــه :

وقد توفى ناصر الدين ــ باجماع أصحــاب التراجم ــ سنة 731 هـ بعد ان عمــر نحو مائة سنة ، وبعد أن ملأ اقطار بجاية علما ونشاطا فكـــريا (26) ·

(2) عمران المشذالى (745 هـ) ·

وهو كما يقول اصحاب التراجم : عمران بن موسى المشذالى البجائى نزيل تلمسان ، وقد ولد المترجم سنة 670 هـ ودرس على ناصر الديــن المشذالى ، وصاهره فى ابنته واخذ عن غيره من علماء بجاية ، ونبغ فى الحديث والفقه والاصلين ، والنحو والمنطق ، والجدل والفرائض « وكان كثير الاتساع فى الفقه والجدل ، مديد الباع فيما ســـواهما » ، (27) كما يقول المقرى الجد ، ويقول التنبكتى فى ترجمته انه كان حافظا علامــة محققا كبيرا (28) وارتحل الى تلمســـــان بعد حصار بجاية حوالى سنة 727 هـ ، واستقبله ابــو تاشفين الزيانى احسن استقبال ، واسند اليه التدريس بمدرسته التاشفينية التى اسسها فى هذه الفترة لينافس بها مدرسة ابن الامام « ودرس

24) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 114 ·
25) المرجع السابق ص 344 ·
26) المرجع السابق ص 345 ــ الغبرينى : عنوان الدراية ص 135 ــ ا بن قنفذ : الوفيات ص 39 ·
27) المقرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص 148 ·
28) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ·

بها عمران المشذالى الحديث والفقه والاصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض » (29) وقد اخذ عنه بتلمسان كثير من شيوخها منهم العلامة المقرى الجد وغيره ·

وروى المقرى الجد انه شهد مجلس ابى تاشفين سلطان بنى زيـــان (718 – 737 هـ) الذى عقده لعلماء حضرته ، وكان فيمن حضره ابنا الامام ، وعمران المشذالى ، وابو عبد الله بن عمر والمقرى الجد ، وكان لا يزال فى عهد الطلب ، وذكر ابو زيد ابن الامام ان ابى القاسم مقلد لمـالك ، ولم يصـــل الى درجة الاجتهاد ، وخالفه عمـــران المشذالى فى ذلك ، وادعى انه مطلق الاجتهاد واستدل على ذلك بمخالفته لمالك فى كثير من المسائل (30) واخذ ابو زيد يحاجه فى الموضـــوع ويتلمس الحجج لدعم رأيه ، ووجهة نظره وتـدخل المقـــرى على صغر سنه عن سن شيخيــه المتناظرين ، وأيد وجهة نظر عمران المشذالى ·

ويلاحظ التنبكتى ان الاجتهاد المذهبى مرتبة واسعة تتفاوت بقوة التمكين وضعفه ، ولذلك يمكن اعتبار ابن القاسم مجتهدا بهذا المعنى وكان ابن عبد السلام التونسى يذهب الى ما ذهب اليه عمران المشذالى من اعتبار ابن القاسم مجتهدا مذهبيا ·

مؤلفاتـــه :

ولم يكن عمران معتنيا بالتاليف مثل شيخه ناصر الدين المشذالى وانما كان متفرغا للتدريس والتعليم والفتوى ، ورويت عنه فتاوى ومناظرات تدل على منزلته العلمية السامية ·

ومن ذلك فتياه التى افتى بها السلطان ابا الحسن المرينى حينما وجه سـؤالا الى علماء فاس وتلمسان عن حكم اتخاذ الركاب من الفضة او الذهب ، وأجاب عمران عن المسألة وكان جوابه هو الفيصل فى الموضوع (31) ·

ودام عمران فى نشاطه التدريسى بتلمسان حتى توفى بها سنة (745 هـ) (32) ·

3) منصور بن على المشذالى ابو على نزيل تلمسان بعد سنة (770)هـ

وقد ولد بمشذالة حوالى سنة 710 هـ كمـــا يقول السراج فى فهرسته (33) وابن مخلـــوف فى شجرة النور الزكية (34) ودرس على والده ، وعلى ابن على ناصر الدين المشذالى ، وعلى ابى

29) المقرى احمد نفح الطيب ج 7 ص 198 ·
30) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ·
31) المغيلى يحيى : الدرر المكنونة مخطوط المكتبة الوطنية ، 12 الورقة 144 ·
32) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ·
33) المرجع السابق ص 345 ·
34) ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج 2 ص 234 ·

عبد الله الزواوى وعبد المهمين الحضرمى ، وأبى عبد الله المسـفر ، وابن النجار ، ولازم هذا الاخير واجازه ، واخذ عن الشريف السبتى ايضا ، وغيره ، ويقول ابن الخطيب فى الاحاطة : انه درس على منصور المشذالى اوائل ابن الحاجب ، واخذ عن أبى حسين البجائى جملة من كتـاب الحاصل ، وكتابى المعالم الدينية ، والايات البينات ، والجمل فى المنطق للخونجي واخذ عن قاضى بجاية أبى عبد الله بن يوسف الزواوى ، وأبـى العباس بن عمران ، وانتقل الى تلمسان والمغرب واخذ بهما عن عبد المهيمن الحضرمى ، وأبى العباس بن يربوع والقاضى ابن اسحاق بن يحى والشريف السبتى وغيرهم (35) ·

اما السراج تلميذ المترجم فانه يقول فيه :

الفقيه المدرس الاصولى النحوى ابو على منصور ، كانشيخا فاضلا نظارا مشاركا فى العلوم العقلية والنقلية ، وكان حريصا على الافادة والاستفادة ، وقد وصفه ابن الخطيب باستقامة الخلق وحسن العهد ، والطهارة والعفة والاقتصاد والصراحـة والانقباض عن النـاس والانصاف فى المذاكرة ، والمثابرة على الافادة والتواضع ·

وقال فى تحصيله العلمى : انه صدر من الصدور له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العقلية والنقلية واطلاع وتقييد ، ونظر فى الاصول والمنطق والكلام ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات·

وكان اديبا يجيد الكتابة ويقرض الشعر (36)

وقد ذكر ابن الخطيب ان المترجم قدم الاندلس عام 753 هـ ، واستقبل فيها استقبالا حسنا ، واستقر بغرناطة مدرسا بمدرستها تحت جراية نبيهة والقى فيها دروسـا فى الفقه والتفسـير وغيرهما ، وباشر الافتاء ، ونالته محنة حين توقف فى الحكم على عقيدة رجل نال من جانب الله ورسوله ، وكفره الفقهاء وتوقف المترجم عن تكفيره فاتهمه الجماعة ، واضطر الى مغادرة الاندلس سنة 765 هـ ولعله عاد الى المغرب الاسوط ، وتنقل فى حواضره حتى توفاه الله بعد سنة 770 هـ ·

ومن تلاميذه الذين اخذوا عنه ، واستفادوا من علمه الامام ابراهيم الشاطبى المتوفى سنة 790 هـ ويحى السراج وغيرهما (37) ·

ومن آرائه الطريفة قولـه ان العالم لا يسمى عالما حتى تتوفر فيه اربعة شروط وهى :

35) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ·
36) المرجع السابق ص 345 ·
37) ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ، ع الفرديل ج 1 ص 74 ·
– نيل الابتهاج ص 343 ·

1) ان يكون عالما بمعرفة اصول ذلك العلم على الكمال ·

2) وان يكون قادرا على التعبير عن ذلك العلم ·

3) وان يكون عارفا بما يلزم عنه ·

4) وان يكون قادرا على رفع الاشكالات الواردة عليه (38) ·

ولا يبعد ان يكون المترجم قد حقق هذه الشـــروط فى كل علم كان ينتلحه ويتعدى للتدريس فيـــه ·

4) العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بـن محمد بن عبد الصمد المشذالى البجائى المتوفى سنـــة 866 هـ ·

وقد درس المترجم ببجاية على ابيه ابى القاسم ، وشاركه فى بعض شيوخه ، الى ان بلـــغ درجة كبيرة فى تحصيله للعلوم الشرعية ، وكان كما يقول التنبكتى فيه : فقيـــه بجاية وخطيبها ومفتيها وصالحها ، ومحققها ، وكان علامة محققا نظارا مقدما على اهل عصـــره فى الفقـــه وغيـــره (39) ·

وكان المترجم مقيما ببجاية ، وكثير التـردد على تونس ، وقد نال وجاهـــة عند السلطان الحفصى بتونس ، وتولى الخطابة بالجامع الاعظم ببجاية ، ودرس فيه ، وفى غيره من المساجـد ، وتولى الافتاء ببجاية ، واشتهر بين الناس بالتحصيل الواسع حتى كان يضرب به المثل فيقال :

اتريد ان تكون مثل ابى عبد الله المشذالى (40) ·

وقد اشتهر المترجم بالتاليف والاجادة فى التصنيف والتحقيق وترك من المؤلفات التى تشهد له بالتحصيل والتحقيق ما يلي :

1) تكملة حاشية أبى مهدى عيسى الوانوغى على المدونة فى مجلد واحد ، وهى كما يقـول التنبكتى = فى غاية الحسن والتحقيق تدل عـلى امامته فى العلوم وقد فرغ من تاليفها سنـــة 836

2 ـ ومختصر البيان لابن رشد ، وقد رتبـه على مسائل ابن الحاجب الفرعى (مختصره) وجعله شرحا له ، بعد ان اسقط منه التكرار ورد كل مسالة الى موضعها من الاحالات فى الكتاب ،

38) نيل الابتهاج ص 345 ـ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 570 ·

39) راجع فى ترجمته : السخاوى : الضوء اللامع ج 1 ص 290 التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ـ الزركلى : الاعلام ج 7 ص 222 ـ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 105 ·

40) السخاوى : الضوء اللامع ج 8 ص 290 ·

فجاء مختصره فى غاية الاتقان والتيسير ، وتـرك من مسائله مالا تعلق له اصلا بكلام ابن الحاجب وهو فى اربعـة اسفار ، وفى نحو 90 كراسا ويقول التنبكتى : اننى وقفت على هذه الكراريس ما عدا الثانى منها ·

3 ـ واختصار ابحاث ابن عرفة من مختصره المتعلقة بكـــلام ابن شاس ، وابن الحاجب وشرحه مع زيادة شىء يسير فى بعض المواضـع لما لم يطلع عليه ابن عرفة ، وهو يقع فى مجلد ·

4 ـ وفتاوى نقلها صاحب الدرر وصاحب المعيـــار ·

تلاميذه : اخذ عن المترجم تلاميذ كثيرون منهم والده ابو الفضل واخوه ابو الربيع المسناوى ، وابو مهدى عيسى بن الشاط ، وابن مرزوق الكفيف وغيرهم ·

وفاته : وتوفى المترجم كما يقول التنبكتى نقلا عن الونشريس فى وفياته سنة (866 هـ) (41) ·

اما السخاوى فانه لم يحدد تاريخ وفاته بسنـــة معينة بل ذكر انه توفى فى بضع وســـتين وثمانمائة هـ ·

5 ـ محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) ·

وقد ذكر التنبكتى انه درس على ابيه واشتهر بالفقه وتوفى سنة 859 هـ (42) ·

6 ـ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى العلامة الشهير (865 هـ) ·

كان المترجم أحد ولدى العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى صاحب تكملة حاشية الوانوغى وغيرها من مؤلفاته وقـد سبقت ترجمته ·

وقد نبغ ابو الفضل ، واكتسب شهرة واسعة فى المشرق والمغرب (43) ·

والمترجم كما يقول السيوطى : هو احد اذكياء العالم ، وقد درس بالمغرب على والده وغيره ثم ارتحل الى مصر ، وأبان عن تفنن فى العلوم فقها واصولا وكلاما ونحوا وغير ذلك واخذ عنـه طلبة العصر (44) ·

---

41) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ·
42) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ·
43) ترجم له السخاوى محمد : الضوء اللامـع ج 9 ص 180 ـ 187 السيوطى ، نظم العقيان ص 160 ـ السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ـ التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ·
44) السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ·

وترجم له التنبكتي ترجمة متوسطة ذكر فيها خلاصة ما ذكره السيوطي والسخاوي (45) ٠

واهم ترجمة له هي ترجمة الضوء اللامـع للسخاوي وهي التي نعتمد عليها للتوسـع في تفصيل اخبار ابي الفضل ، وتحليل عبقريته العلمية وقد جاء فيها ان المترجم يعرف في المشرق بابي الفضل ، وفي المغرب بابي القاسم (46) ٠

وذكر السخاوي انه ولد ليلة النصف من رجب سنة 821 هـ او 822 هـ ببجاية وجـزم ابن ابي عذيبة بانه ولد سنة 820 هـ ونقل السخاوي عن البقاعي ان المترجم بدأ قراءته بقراءة القرآن وعمره خمس سنوات ، وحفظه في سنتين ونصف وقرأه بالسبع على ابيه ، وعلى ابي عبد الله محمد بـن رفاع ، وحفظ الشاطبيتين ، ورجز الخراز في الرسم ، والكافية الشافية ، ولامية الافعال لابن مالك ، والتسهيل والالفية في النحو لابن مالك وابي الحاجب الفرعي ، والرسالة لابن ابي زيد القيرواني وارجوزة التلمساني في الفرائض ، ونحو الربـع من مدونة سحنون ، وطوابع الانوار في اصول الدين للبيضاوي ، ومختصر ابن الحاجب الاصلي ، وجمل الخونجي في المنطق والخزرجية في العروض ، وتلخيص ابن البناء في الحساب ، وتلخيص المفتاح في البلاغة ودواوين الجاهليين واقبل على الدرس والتحقيق ، ثم ارتحل الى تلمسان اول سنة 840 هـ وعمره لا يتجاوز العشرين ، ودرس بها على الحفيد ابن مرزوق الشهير التفسير والحديث والفقه والاصلين والادب والمنطـق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة ٠

واخذ عن ابي القاسم محمد بن سعيد العقباني الفقه واصول الدين ، واخذ عن ابي الفضـل ابن الامام التفسير والحديث والطب والهندسة والعلوم القديمة والتصوف ، واخذ عن ابي العباس احمد بن زاغو اصول الفقه والمعاني والبيان ، ودرس عليه مختصر ابن الحاجب الاصلي الذي كان مرجع الناس في دراسة الاصول بتلمسان واخذ عن ابي عبد الله محمد النجار المعروف لشدة معرفته بالقياس بساطور القياس ، واخذ عن ابي يعقوب يوسف بن اسماعيل الحساب والفرائض ٠

واخذ عن ابي الحسن علي بن قاسم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وجر الاثقال واخـذ عن ابي عبد الله محمد البوري التقاويم والميقات بانواعـه من فنـون الاسطرلاب والصفائح والجيوب والهيئة والارتماطيقي والموسيقي والطلسمات وما شاكلها ، وعـلم المـرايا والمناظرة والاوفاق واخذ عن الطبيب العلامة ابي افشوش الطـب ٠

45) التنبكتي : نيل الابتهاج ص 315 ٠
46) الضوء اللامع ج 9 ص 180 ٠

وانتهى ابو الفضل من دراسته بتلمسان فى أربــع سنوات · وعاد الى بجاية سنة 844 هـ وقد برع فى العلوم التى درسها ببجاية سابقا ، وبتلمسان ، وبرز على اقرانه وسامى بعض شيوخه فيهـــا ·

والواقع ان ابا الفضل قد درس دراسة معلمية مما كان يقــرأ بتلمسان وبجاية من الدراسات العالية ، وقائمة الكتب التى ذكرناها فى ترجمته تدل على ازدهار دراسات جميع فروع المعرفة من نقلية وعقلية ولذلك لا غرابة ان يصل ابو الفضل الى درجة علمية تثير الاعجاب فى المشرق والمغرب وقد ذكر السخاوى نقلا عن البقاعى الذى حكى عن بعض المغاربة ان الامام العلامة ابى مـــرزوق الحفيد كان يقول : ما عرفت العلم حتى قدم على هذا الشاب « يعنى ابا الفضل » فقيل له كيف ذلك ، قال لانى كنت اقول فيسلم كلامى ، فلما جاء هذا الشاب شـــرع ينازعنى فاخذت أتحـــرز « وانفتحت لي ابواب من المعارف » (47) ·

ونقل القلصادى البسطى ــ وكان زميلا لابى الفضل فى الدراسة بتلمسان ــ عن أبى مرزوق انه قال فى المترجم «ان عاش ليكونن عالم المسلمين»

وقد اشتهر ابو الفضل بالمناظرة والجدل مع زملائه من طلبة العلامة ابن مرزوق فى مجلسه وغيره ، وكان ينافسه فى ذلك الشريف احمد بن ابى يحيى ·

وبعد عودته الى بجاية انتصب للتدريس بها مدة ثم رحل عنها مغاضبا لابيه ، وبغير رضاه الى تونس التى اقام بها مدة ثم واصل سيره الــى المشرق وسار فى سفينة جنوية ارســـت به فى قبرص فنزل اليها وناظر اساقفتها وافحمهم ثم انتقل منها الى بيروت ، وطوف فى بلاد الشام وشاع ذكـــره هناك ·

وحج عام 849 هـ وقصد بعد الحج الى مصر حيث اقام بها ، ونال حظوة عند رجال الدولــة فيها ، ودرس فيها عدة فنون فبهر العقول ، وادهش الالباب ·

وكانت طريقة تدريسه كما يصورها السخاوى هي : ان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تتضمنه من المسائل باسلوب فصيح وتحقيق تام ، وكان الطلبة يعجزون عن متابعته فى ابحاثه فطلبوا منه ان يتنازل لهم فى بحثه واسلوبه ، فقال لهم لا تنزلوني اليكم ، ودعونى ارقيكم الى·

وبعد مدة (حددها لهم) تصيرون الى فهم كلامي ، وكان الامر كما قال لهم · على ما يذكر السخاوى ، ويذكر البقاعى انه حضر احد دروسه بجامع الازهر فى ذى القعدة من عــام 852 هـ

47) المرجع السابق ج 9 ص 182 ·

فاعجب به كثيرا ، وقال فى درسه رغم ما فيه من مبالغة : « ان من لم يحضر درسه لم يحضـر العلم ولا سمع كلام العرب ، ولا رأى الناس ولا خرج الى الوجود ، قال ومن سمع كلامه فى العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ، وأن غيره يخبر عـن غيبة ، وليس المخبر عن مشاهدة كالمخبر عـن معاينة » ثم يقول : « انني لم ار أعظم تحريكا للهمم من حاله، ولا أشد فعلا للقلوب من مقاله» (45) ·

سلوكه : ورغم ما كان عليه ابو الفضل المشدالى من عبقرية علمية ، وتحصـيل فائق فان اخلاقه لم تكن مرضية ولا مناسبة لجلاله العلمى ، فكان كما يذكر بعض مرتجميه : كثير الترفع على أصحابه ، ولا سيما فى الملأ عظيم التهاون بهم ، عديم النفع لهم مداهنا لخصومه واعدائه ·

وكانت بينه وبين ابن حجر المحدث الكبير نفرة ، ومرض ابن حجر فعالجه المشدالى وشكره على ذلك ·

وقال ابن الهمام فيه : « هذا الرجل لا ينتفع بكلامه وينبغى ان لا يحضر دروسه الا حذاق العلماء ، وسئل عن النسبة بينه وبين ابى القاسم النويرى ، فقال جهد ابى القاسم ان يفهم عنه » (46)

ويذكر ابن الهمام انه سأله مرة عن مسألة فى اواخر الاصول فاجابه عنها باجوبة لا يجيب عنها غيره ولو اقام فى تحرير جوابها ثلاثة اشهر ·

اما السخاوى فانه رغم عدم تقديره كثيرا لابى الفضل المشدالى نظرا لما كان بينه وبين شيخه ابى حجر من نفرة فانه قال فيه : « كان ابو الفضل غاية فى جودة الذهن وسرعة الادراك ، وقـوة الحافظة ، الا انه كان سريع النسيان ، قليل الاستحضار ، ولهذا لم يكن يتكلم فى المجالس الا نادرا خوفا من الاستظهار عليه بالنقول ، واذا طالع محلا اتى فيه بما يبهر السامع » (47) ·

ومعنى ما ذكره السخاوى ان المترجم كان من علماء الدراية ولم يهتم كثيرا بالرواية وحفظ النصوص ، وهذا الاتجاه الذى سار عليه ابو الفضل هو الذى كان يسير عليه ابو على ناصر الدين المشدالى شيخ المشداليين فى القرن السابع واول الثـامن ·

منهج تدريسه : وهو كما يصفه البقاعى يعتمد على اعمال العقل فى فهم النصوص ولم يكـن يطالع من الشروح عند اعداد موضوع الدرس شيئا وانما كان يعتمد على قراءة المتن وحده ، ثـم يستلقى على قفاه ويستغرق فى تأمل عميق فياتى (بصواعق لا ينهض بها غيره وانه كان يفعل ذلك فى كل علم يقرأه او يقرئه ، لا يزيد على نظـر المتن) (48) ·

48) المرجع السابق ج 9 ص 184 ·

وهذا يدل على عبقرية فذة كان يمتاز بها ابو الفضل ، وعلى ذكاء خارق كان يساعده على التحليل العميق ، والاستنباط البديع ، حتى كان معاصروه يصفونه معجبين بانه « نادرة العصر واعجوبة الزمان » .

تلامذته : وقد اخذ عن المترجم طائفة من العلماء منهج احمد بن زكرى بتلمسان وقد كان يأخذ عنه وهو لا يزال طالبا يحضر حلقات العلامة ابن مرزوق الحفيد وغيره .

واخذ عنه بمكة البرهان بن ظهيرة ، وبالشام ابن قاضى عجلون ، وبالقدس الكامل بن ابى شريف وبالقاهرة الشهاب البيجورى والديسطى وابن الغرز وغيرهم .

وفاته : اختلف اصحاب التراجم حول تاريخ وفاة ابى الفضل ، فالسيوطى يقول فى نظم العقيان انه توفى سنة 865 (49) .

ويقول فى بغية الوعاة انه توفى بحلب حوالى سنة 863 هـ (50) .

والسخاوى يذكر ان وفاته كانت فى عينتاب اواخر سنة 864 هـ (51) .

ونقل التنبكتى عن السخاوى انه ولد فى 15 رجب سنة 821 هـ وانه توفى سنة 865 هـ ولعل هذه الرواية نقلها من بعض نسخ الضوء اللامع .

ولا يبعد ان تكون سنة وفاة ابى الفضل المشذالى هى سنة 865 هـ .

مؤلفاته : لم يترك ابو الفضل من المؤلفات الا كتابا واحدا هو شرح جمل الخونجى فى المنطق ، وهذا غريب بالنسبة الى رجل عبقرى مثله ، ولكن ابا الفضل على ما يبدو كان مثل شيخ مشذالة ابى على ناصر الدين لا يميل الى التاليف ، وانما كان يميل الى التدريس ونشر العلم بواسطة التحاضر والالقاء ولهذا لم ينشط للتاليف والتصنيف .

وكان ابو الفضل رغم تفرغه للعلوم الشرعية ، والدراسات العقلية يميل الى الادب ، ويتذوق الشعر وقد رويت له مقطوعة شعرية شكا فيها من الم الفراق ، ووحشة الاهل والاقارب لما كان بتلمسان ، وقد ذكر السخاوى منها بيتين هما :

1) برق الفراق بدا بافق بعادنا — فتضعضعت اركاننا لرعوده
2) كيف الفراق وقد تبدد شملنا — والبين شق قلوبنا بعموده

49) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
50) المرجع السابق ج 9 ص 188 .
51) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
52) نظم العقيان ص 160 .
53) بغية الوعاة ص 373 .
54) الضوء اللامع ج 9 ص 188 .

عبدالجبار بن حمديس الصقلي

شاعر بني حماد

اسماعيل العربي
كاتب جزائري

ولد ابن حمديس فى سرقوسه التى تقع على الشاطىء الشرقى فى جزيرة صقلية فى سنة 447 هـ (1055 م) من أب عربى ازدى ، وهو أبو بكر بن محمد • وقد مات كل من أبيه وجده فى سرقوسة •

ومنذ المراحـــل الاولى من حياتـــه ، رأى ابـن حمديس ، بعض اقاربه ، وفى مقدمتهم عمته وابناؤها ، يهاجرون الى الشاطىء الافريقى ـ سفاقس ـ حيث ستنضم اليهم اخته فيما بعد وتتزوج باحد ابناء عمته • واما هو ، فعلى الرغم من الحاح اقاربه المستمر عليه بالالتحاق بهم ، فانه لن يستقر به المقام فى هذه الديار الا فى منتصف حياته •

ففى سرقوسة ، اذا ، تربى الشاعر وانعم بصره بجمال هذه المدينة الخلاب وتغذى بلبان الثقافات السائدة فيها كما اغتـرف من مختلف ينابيع المعرفة التى تزخر بها جزيرة صقلية فى عهودها العربية الاخيرة •

وفى هذه المدينة التى لا تخرج عن النموذج التقليدى الذى نعرفه للمدن الاسلامية المهمـة والتى تتعايش فيها جنبا الى جنب الفضيلة فى أسمى معانيها والرذيلة فى اقبح صورها ، وتقف الى جانب المساجد ومعاهد العلم ، الاديره والخمارات ومنازل اللهو ، اغترف ابن حمديس من فطاحل العلماء ، ولكنهلم يبخل على نفسه باللهو واخذ حظ الشباب من اللذات ، فكان يتردد على الاديره التى تاوى عابر السبيل وتقدم للرواد الخمور المفضلة ، وتتيح فرصا ، قلما توجد فى اماكن اخرى لالوان من التسلية البريئة وغير البريئة •

وفى هذا الجو اختمرت شاعرية ابن حمديس وتفتحت عبقريته ونمـــت مواهبـــه ، وفى سرقوسة قال قصائده الاولى ·

ولكن ماذا يصنع شاب بموهبة الشعر فى مدينة كانت مدينة صقلية الاولى ولكنها طغت عليها بلرم واصبحت مدينة صغيرة ، بل ماذا يصنع فى هذه الجزيرة التى تحيط بها من كل جانب اســاطيل الروم ، التى فرضت سيادتها على البحر الابيض ، لم المقام فى صقلية التى اصبح مصير العرب فيها مرهونا بتطور المعارك ، فى الوقت الذى كانت فيه سوق الادب رائجة فى عدد من المـــدن الاسلامية فى المغرب والمشرق ، وفى مقدمتها اشبيلية والقلعة والمهدية والقاهرة ؟ ·

تلك ، بدون شك ، اسئلة كانت تتردد فى ذهن ابن حمديس ، كما كانت تتردد فى ذهن زميله أبى العرب الذى سبقه فى شد الرحال الى الاندلس ·

ومهما يكن من امر ، فان الشاعر قرر مغادرة مسقط رأســه وسـافر فى سنـــة 471 هـ ، الى اشبيلية ، قاصدا بلاط المعتمد بن عباد ، ذلـك الشاعر الملك الذى طبق صيته الافاق واصبحت قصوره منتديات للادباء والفنانين ·

ولكن احلام الشاعر سرعان ما تصطدم بالحقيقة العنيدة فى اشبيلية حيـث كان التنافس على مركز الشاعر المقرب من الملك على اشد ما يكون بين حاملى بضاعة الشعر والمتظرفين · ومما يزيد الامر تعقيدا أن ابن عباد نفسه شاعر حساس وانه يقول شعرا «لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة» على حد تعبير ابن بسام « لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا » ·

واذا ، فقد استقبل شاعرنا فى الاوساط الادبية فى اشبيلية ببرود يقرب من الاهمال ، ولم ينجح حتى فى الدخول فى الامتحان العسير الذى سيقرر مصيره : مقابلة المعتمد بن عباد · ولما أوشك شعور الخيبة ان يتحول الى قنوط ، اراد الخروج من الاندلس · ولكنه رأى أن من الملائم ، قبل ان يقدم على هذه الخطوة ، ان يعبر عن شعور الجريح فى قصيدة لابد وأن تصـل الى الملك بطريقة أو اخرى · وفى هذه القصيدة يقول :

الفـــرد بالحرمـــان من كـــل عاطل تطـــــوق من نعمـــاك ثـــم توشحـــا

ويختم القصيدة بقوله : « فوقع ممسكا او مسرحا » ولكن المعتمد اتيح له قبل ذلك ان يدرك منزلة الرجل بين شعرائه ويقيم قريضه ، ولذلك ، فهو لم يتاخر فى اجابته بالامساك ، ثم وصلـــه بمائة دينار ، لا بدوان الشاعر كان فى اشد الحاجة اليها ليصلح اموره ·

والمهم ان هذه كانت نقطة انطلاق فى حياة الشاعر لتتفتح عبقريته وتكتمل موهبته الفنية كما كان قرار الملك قاعدة لفتح ابواب المجتمع ، والمجتمع الادبى بصفة خاصة لقبوله · فمنذ الآن

وبعدما وطد قواعد وجوده المادى ، سيغزر انتاجه ويرتفع ابداعه ، وستستغرقه الاندلس بمباهجها وقصورها وادبائها وخماراتها ومراقصها ، وسيستغرق هو فى هذه الحياة الزاخرة بالمتناقضات والتى سيكون شعره مرءاة صادقة تعكس كل جوانبها ·

ان المعتمد بن عباد ، لم يحقق حلم ابن حمديس فى ذيوع الصيت ويفرضه على بلاطه فحسب بل وفر له أيضا اساسا من المال والثروة ومكانة مرموقة فى الاوساط الاريستوقراطية ·

وفى هذه الاثناء ، أخذت الوشائج التى تربطه بصقلية وبمسقط راسه ، سرقوسة التى لم يفارقه الحنين اليها طيلة المدة التى اقامها بالاندلس ، تنقطع الواحدة تلو الاخرى :

على الصعيد الوطنى ، سقطت سرقوسة نهائيا ، بعد بلرم فى يد النورمان (478 هـ ــ 1085 م) · وهذا معناه الغربة الدائمة للشاعر · وعلى الصعيد العائلى ، فجع بموت والده الذى سيبكيه بدموع غزيرة فى شعر مؤثر ، كما اختفى اقاربه واصدقاؤه فى هذه الحرب الضروس ، واحدا بعد واحـــد ·

وكـــم حمـــى التـــرب دونى من ذوى رحمـــى
وما مقلـــت لبعـــدى منهـــم احـــدا

ولـــم يســـرنى مـــن مثـــواك مـــوت ابـــى
وقـــد يقلـــق مـــوت الـــوالد الـــولدا

(من قصيده فى مـدح المعتمد)

وازاء هذا الوضع الذى يشعر فيه بالحرمان من كل أمل فى الرجوع الى وطنه ولقاء أهله واصدقائه ، روض الشاعر نفسه لحملها على قبول اشبيلية مقرا وموطنا ثانيا ، فى ظل هذا الملك العظيم الذى جمع الى احساس الشاعر ابهة الملك وسخاء اليـــد ·

لانـــاى لي بتنـــائى الســـير عن بلـــدى فقـــد رضيـــت بحمـص (1) بعـــده بـــلدا

ولكن هل يكفى قرار شاعر وتصميمه لوقـف عجلة التاريخ التى تدور وتدوس بغير رحمة كل ما تلقاه فى طريقها · ان الرجل يقرر ، والاقدار تدبر !

فبعد سرقوسة ، جاء دور أشبيلية · وبعد ما فقد الشاعر وطنه وأهله ، سيرى حاميه وولـي نعمته يفقد بدوره ملكه وحريته ·

1) حمص = اشبيلية · وكانت من المدن التى اطلق عليها بنوامية اسماء مدن الشام (ياقوت ، معجم البلدان 2 / 304) ·

وهنا لا بد من فتح قوس لنعرض بايجاز مصير المعتمد بن عباد ونحن نعتمد فى ذلك على رواية بن خلكان (2) ·

فان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى عبر المضيق لنجدة المسلمين ، وعلى راسهم المعتمد بن عباد ، ضد المسيحيين ، والذى كان العامل الاول فى النصر التاريخى الذى حققته الجيوش العربية والبربرية فى موقعة الزلاقة المشهورة (479 هـ ــ 1086 م) ، سيشعر باغراء خاص ، بعد عودته الى المغرب الاقصى ، نحو ما شاهده من حسن بلاد الاندلس وبهجتها ··· وكنوزها ، ويقرر فى السنة التالية العودة اليها ، لمحاصرة حليفه السابق المعتمد بن عباد فى اشبيلية · وبعد ما استولى على مملكته ، أرسل هذا الملك العاثر الحظ مقيدا بالاغلال الى المغرب الاقصى حيث اودع السجون فى اغمات حتى مات فيها ، فى سنة 488 هـ (1095 م) · وبذلك فقد ابن حمديس موطنه الجديد كما فقد الملك الذى كان يحظى برعايته ويباد له صداقة ومحبة ·

ولكن المصائب متى حلت لاتاتى فرادى · فان الشاعر عند مغادرته الاندلس ، سافر على متن سفينة فى البحر متجها (على الارجح) الى افريقية · وفى الطريق ، غرقت السفينة التى تقله ، وغرقت معها جاريته (جوهرة) التى سيرثيها بدموع ساخنة ، وأوشك هو على الغرق ، ولم ينقذ الا فى اللحظة الاخيرة بعد الاستغاثة برفع يده ·

ما هى الشواطىء الافريقية التى نزل فيها ؟ لا نعرف شيئا عن ذلك · وكل ما نعرفه ، هو انه كان ينتقل بين عدد من مدن الشمال الافريقى ، بين سلا وسبتة والمهدية وبجاية (وربما القلعة ايضا) وبونة وسفاقس ، بل وبين هذه الشواطىء وجزيرة ميورقة أيضا · وكذلك نعرف انه أقام فى اغمات وقتا من الزمن بجانب المعتمد بن عباد الذى سيبادله القريض ويرثيه عند وفاته ·

وفى المغرب ، اتصل ابن حمديس بامراء وملوك هذه البلاد ، ولكنه لم يتصل بالمرابطين (3) الذين كانوا السبب الاول فيما لحق بحياته من الاضطراب ·

متى بدأت علاقات ابن حمديس ببنى حماد ؟ وكيف دخل الى بلاط بجاية ؟ ذلك موضوع لا تسعفنا المصادر التى بين أيدينا لاستجلائه ، ولو أننا نعرف أن صلة ابن حمديس بالمنصور (481 هـ ــ 1098 م) بن الناصر بن علناس (4) الذى خلف والده على عرش بجاية ، كانت علاقات وثيقة ، كما تشهد بذلك قصائد الشاعر التى تفيض بالحب والاعجاب بهذا الملك الذى سار على

2) وفيات الاعيان ، (5 / 28 ــ 29) ·
3) مقدمة الديوان ، ص 13 ·
4) راجع مقالنا فى مكان آخر من هذا العدد عن الناصر بن علناس ·

نهج والده ، ولا سيما فيما يتعلق بتخطيط المرافـق وتشييد المبانى العظيمة والقصور الشامخـة وانشاء الرياض والبساتين (5) ، التى يشيد بها ابن حمديس فى ابيات نادرة المثال فى الشعـر العربى فى بلاغتها ورقتها ودقة وصفها • وقد كان من ضمن المنجزات المعمارية التى انشاها او تممها المنصور والتى استرعت انتباه المؤرخين ، قصر الملك (6) وقصر المنار ، وقصـر الكوكب ، وقصر السلام (7) فى القلعة ، كما بني فى بجاية قصر اميمون ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر النجم •

اين تقع قصور بجاية الحمادية ؟ لا نستطيع ان نجزم بشىء فى ذلك ايضا • ولكنه يبـدو أن قصر النجم ، كان يقوم على الربوة التى يتوجها حصـن برال الحالى والذى كان يدعـى حصن موسى • ونحن نعرف ان بيدرو نافارو ، الغازى الاسبانى الذى تخلى عن سـور المدينة الحمادى وضيق رقعتها حتى يتمكن من الدفـاع عنها بقواته الصغيرة نسبيا ، هو الذى اقـام هذا الحصن ، وبالتالى ، فان المرجح ان يكون هو الذى هدم القصر (8) •

وهذا القصر ، على كل حال ، هو الذى يصفه ابـن حمديس الصقلى حين يقـول ، موجها الخطاب للمنصور بن الناصر بن علناس (9) :

اعلـيت بين النجـم والدبران   قصـرا بنـاه من السعادة بان
فضـح الخورنق والسدير بحسنه   وسمـا بقمتـه على الايـوان
فاذا نظـرت الى مـراتب ملكه   وبدت اليك شـواهد البـرهان
أو جبت للمنصـور سابقة العلى   وعدلت عن كسـرى انو شروان
قصـر يقصر ، وهو غير مقصر   عن وصفه فى الحسـن والاحسان
وكانـه مـن درة شفـافـة   تعشـى العيون بشـدة اللمعان
لا يرتقى الـراقى الى شـرفاته   الا بمعـراج مـن اللحظـان
عـرج بارض الناصرية كي ترى   شـرف المكان وقـدرة الامكـان
فى جنـه غنـاء فردوسـية   محفوفـة بالـروح والريحـان
وتوقـدت بالخمـر من نارنجها   فكانمـا خلقـت مـن النيـران

5) العبـر ، 6 / 175 •
6) ليس من شك فى أن هذا القصر هو الذى يسميه بعض المؤرخين ، قصر الخليفة •
7) ورد فى العبر محرفا باسم قصر الشام •
8) راجع مجلة الثقافة ـ « بجاية عاصمة بنى حماد الثانية » ، العدد 18 سنة 1973 ، ص 31 •
9) الديوان ، القصيدة 314 •

وكانهن كـــرات تبــر أحـــمر   جعلـت صـــوالجها من القضبان
ان فاخــر الاترج قال لــه : ازدجر   حتى تحــوز طبائـــع الايمـان
لى نفحـة المحبـــوب حين يشمنى   طيبا ، ولـــون الصب حين يرانى
منى !لمصبـــغ حين يبســط كفه   فبنـــان كـــل خـــريدة كبنـانى
والمـــاء منـــه سبائـك فضـــية   ذابـت على درجـــات شاذوران
وكانما ســـيف هناك مشطـــب   القته يوم الحــرب كـــف جبان
كـــم شاخص فيه يطيل تعجبـــا   مـن دوحـــة نبتت من العقيـــان
عجبـــا لها تسقى الرياض ينابعا   نبعت من الثمـــرات والاغصـــان
خصـــــت بطائـرة على فنن لها   حسنت فافـــرد حسنها من ثان
قس الطيـور الخاشعات بلاغـــة   وفصاحة من منطـــــق وبيـــان
فاذا اتيـــح لها الكـــلام تكلمت   بخرير مـــــاء دائـــم الهمـــلان
وكان صـــانعها استبد بصنعـــة   فخــر الجمـاد بها على الحيــوان
اوفـت على حوض لها فكانهـــا   منها الى العجـــب العجاب روانى
فكانها ظنـــت حـــلاوة مائها   شـــهدا فذاقتـــه بكل لســـان
وزرافـة فى الجـــوف من انبوبها   مـــاء يريـــك الجرى فى الطيران
مركوزة كالرمح حيث تـــرى لـــه   من طعنة الحلق انعطاف سنـــان
وكانها ترمى السمـــاء ببنـــدق   مستنبـط من لـــؤلـــؤ وجمان
لو عاد ذاك المـاء نفطـا اخرقـت   فى الجومنـــة قميص كل عنـــان
فى بركـــة قامـــت على حافاتها   اســـــد تـــذل لعـــزه السلطان
نـــزعت الى ظلم النفوس نفوسها   فلذلك انتـزعـت من الابـــدان
وكان بـــرد المـــاء منها مطفئى   نارا مضـــرمة من العـــــدوان
وكانما الحيات مـــن افـــواهها   يطرحن انفســـهن فى العـــدران
وكانمـــا الحيتان اذ لـــم تخشها   اخـــذت من المنصـــور عقد امان
كم مجلس يجرى السرور مسابقا   منـــه خيـــول اللهـــو فى ميدان
يجلو دماه على الخـــدود مـــلاحه   فكانـــه المحـــراب من غمـــدان
فسمـــــاؤه فى سمكها علويـــــة   وقبابـــــه فلكيـــــة البنيـــان

ويقول ابن حمديس فى وصف قصر آخر ، وهو قصر الملك (15) ما يلـــي :

---

(15) الديوان : القصيدة رقـــم 349 .

واعمر بقصر الملك ناديك الذى   أضحى بمجدك بيتة معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره   أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه   فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي الصبيح مع المليح بذكره   وسما ففاق خورنقا وسديرا
ولو أن بالالوان قوبل حسنه   ما كان شيء عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى   رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا   لملوكهم له شبيها ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا   غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم   ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت   حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا أنه   حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرايت ابدع منظر   ثم انثنيت بناظرى محسورا
وظننت أنى حالم فى جنة   لما رايت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقا تهن ضراغم   فغرت بها أفواهها تكشيرا
فكانها لبدت لتصهر عندها   من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة   فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه   فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه   مسكا تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى   صبحا على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة   تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها   واذاب فى أفواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك   فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما   أقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها   نأرا والسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول   ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكانما نسج النسيم لمائه   درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها   عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى   سحر يؤثر فى النهى تاثيرا

قد صـــولجت اغصانها فكانمـــا   قنصت لهن من الفضـــاء طيورا
وكانما تابـــى لواقـــع طيرهـــا   ان تستقـــل بنهضها وتطيـــرا
من كل واقعـــة تـــرى منقارها   مـــاء كسلســـال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شـدت   جعلـــت تغـــرد بالمياه صفـــيرا
وكانما فى كل غصـــن فضـــة   لانت فارســـل خيطها مجـــرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها   فوق الزبرجد لـــؤلـــؤا منثـورا
ضحكـــت محاسنه اليك كانمـــا   جعلت لها زهر النجوم ثغـــورا
ومصفح الابـــواب تبرا نظـــروا   بالنقش بين شكـوله تنظـــيرا
تبدو مسامير النضار كما عـــلت   فلك النهـــود من الحسان صدورا
خلعـــت عليـــه غـــلائلا ورسية   شمس ترد الطرف عنه حســـيرا
واذا نظرت الى غـــرائب سقفه   ابصـــرت روضا فى السماء نضيرا
وعببت من خطـاف عسجده التى   حامـــت لتبنى فى ذراه وكـــورا
وضعت به صناعـــة اقـــلامها   فارتـك كل طـريدة تصـــويرا
وكانما للشمـــس فيه لقيـــة   مشقوا بها التزويـــق والتشجيرا
وكانمـــا للازورد مخـــرم   بالخـط فى ورق السمـــاء سطور
وكانما وشـــوا عليه مـــلاءة   تـــركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الارض الذى اضحـــى   له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصـــور للملـوك تقدمت   واستوجبت لقصـــورك التأخيرا
فعمرتها وملكـــت كل رياســـة   منها ودمـــرت العـدا تدميـــرا

ومن أجمل قصائد ابن حمديس ، قصيدة مدح بها المنصور ويذكر فيها خصوصا حلمه وكرمه ويشيد بعظمته وقوته (11) القصيدة طويلة ونكتفى باقتباس الابيات التالية منها :

امـــدام عن حبـــاب تبتســـم   أم عقيق فـــوقه در نظـــم
اعـلى الهـــم بعثنا كاسنـــا   أم بنجـــم الافـــق شيطـان رجم
اظـــلام لضيـــاء طبـــق   أم عـلى الكافـــور بالمسك ختم
انـدى فى الزهـر ام مـاء الهوى   حـار فى اعـــين حـــور لم تنم
اعمـــود الصبح فى الغيهب أم   غـره الاشقـر فى الغيم الاحـــم

11) الديوان : القصيدة 284 .

وكأن الشمس في ناجودها … من سواد القار في قمص ظلم
فادر للروح اختا والمزرا … جين (12) بنتا وسرورا النفس أم
فهي مفتاح اللذات لنا … ويد المنصور مفتاح الكرم
حل قصر المجد منه ملك … بدىء المجد به ثم ختم
يحتبي في الدست منه أسد … وهلال وسحاب وعلم
يترك النقمة في جانبه … واذا عاقب في الله انتقم
واذا قال : نعم ، وهي له … عادة ، أسبغ بالبذل النعم
واذا ما بخل الغيم سخا … واذا ما عبس الدهر بسم
تنتخي السادات عزا فاذا … قربت من عنده صارت خدم
يذعر الجبار منه فعلي … شفة يمشي اليه لا قدم
فالق الهام اذا كرسطا … مسعر الحرب اذا هم اعتزم
كلما اوطا حربا سنبكا … حمي الروح وشب المقتحم
واذا حاول في طعن الكلى … صرف اللهذم تصريف القلم
يطا الهام التي فلقها … بلهام للأعادي ملتهم
يرجع الليل نهار بالظبا … ويعيد الظهر بالنقع عتم
وعروس لك أهديتها … تكلم الحساد منها بالكلم
في تقاصير من الدر اذا … حاولوا تحصيلها فهي حكم
يضرب الامثال فيها بكم … أمم في المدح من بعد أمم
أسكنت ذكرك حكما خالدا … أبدا بنيانه لا ينهدم

وكذلك مدح ابن حمديس عددا من بني حمدون الذين توارثوا الوزارة وقيادة الجيش في دولة بني حماد ، وفي مقدمتهم ميمون بن حمدون ومطرف وعلي . والجدير بالذكر أن آخر قصيدة قالها الشاعر كانت في رثاء علي . وهذا قد يتخذ دليلا لترجيح رواية وفاته في بجاية (13) . وفي هذه القصيدة (14) يقول :

رمى الموت في عين التصبر بالدم … وقال لحسن الصبر : بين الحشادم
على القائد الاعلى الذي فل عزمه … كما فل عن ضرب الطلى حد مخذم
أرى زمن الدنيا ينقل اهلها … الى دار اخرى من غني ومعدم

(12) الزراجين : جمع زرجون وهو قضيب العنب .
(13) هذا احد القولين ، وهو الارجح ، والقول الاخر ، انه مات ودفن في جزيرة ما يورقة .
(14) الديوان : القصيدة 301 .

وخان امين الملـــك فيما انطوى له ... على حفظ أسرار الجـلال المكتـم
فما دفعـــت عنه جنـــود جنوده ... على انها فى القـرب كاليد للفـــم
ولم يغن عنها الضرب من كل مرهف ... ولا نافذات الطعـــن من كل لهذم
بايدى كمـــاة منهـــم كل مقـــدم ... باقدام يحمـــى حمـــاه ويحتمى
ويقبـل فى فضفاضة فارسيـــة ... تحـدث عن ابطـــال عاد وجرهم
علي بن حمدون الذى كان حمـده ... تـــرفع منه همـــة المتكـــلم
حلت منه يـوم الروع كل كتيبـــة ... وكم عمرت من بأســـه بالتقـــدم
متى تعبـس الهيجا له فى لقائـــه ... رأت منه فى الاقحام ســـن تبسم
تنقل من ســـــرج الكمى يحتفه ... الى حفـرة فى جوف لحد مسنـم
فظللت منـــه فى توحـــش غربة ... بظل جنـــاح بين غبراء مظلـــم
وأر ضعنى تـــدى المنـــى فكاننى ... وليد اتى عمران شـــــيخ التقدم
ومما ابت عن جدواه الا مشيعـــا ... بافضال ذى فضـــل وانعام منعم
فيا سيدا زرناه حيـــا وميتـــا ... فما زال فى هذا الجناب المعظـــم
نـــردد تسليما عليـــك محبـــة ... وان كنت لم تردد ســـلام المسـلم
ومدرســـة ابناؤهـــا فقهاؤهـــا ... فمن عـــالم منهم ومن متعـــلم
ضراغم فى الجيش اللهـــام وانما ... فوارسهم فى الحرب من كل ضيغم
وان كان فى نصر الشريعة مشرعا ... عن الحق ما يشفى به كل مســـلم
ارى قائد القـــواد اعطى مقاده ... لحكم قضـــاء فى البرايا محكـــم
واسلـــم للحتف المقدر نفســـه ... وقد كان لا يـــرقى اليه بســـلم
وانتم سيـــوف للسيوف مواضيا ... وايمانكم فيهـــا ذوات تخـــتم
عزّاء جمـــيل فى (المصاب) فانكم ... جبال حلوم بل طوالـــع انجـــم
فـــدام لكم فى العـزّ شمل منظم ... وشمـــــل الاعادى منه غير منظم

تلك لمحة قصيرة من حياة ابن حمديس الصقلى ونبذة من شعره والتفاتة الى صلته ببنى حماد الذّين عاش فى قصورهم وخالط ملوكهم وصادق وزراءهم وقوادهم · والحديث عن بجاية لاحياء ذكراها وذكرى مؤسسيها ، لا يمكن ان يتم اذا اهملنا الاشارة الى شاعرها الاول · فان شعر ابن حمديس الذى كان ينزل على مسامع الملوك والامراء فى قصورهم ، لا بد وأن تكون جبال الناصرية وهضابها قد رددته اجيالا طويلة بعدهم ·

من الأرشيف

"بجاية"

شعر المرحوم
عبد الكريم العقون

أ ـ حياة الشاعر :

ولد الشاعر عبد الكريم فى 18 مارس عام 1918 ببلدة برج الغدير ، دائرة برج بوعريريج ولاية سطيف وتوفى فى 13 ماى 1959 بمدينة دويرة .

بدا دراسته الابتدائية فى مسقط راسه حيث تعلم القرآن عن ابيه الحاج المسعود كما اخذ بعض الدروس عن الشيخ موسى الاحمدى ثم انتقل الى قسنطينة وبقى فيها حوالى ثلاث سنوات (1933 ـ 1936) تتلمذ خلالها عن الشيخ عبد الحميد بن باديس وبعدها قصد تونس حيث تعلم فى جامع الزيتونة ، واثر حصوله عل شهادة التحصيل عاد الى الجزائر (العاصمة) واشتغل معلما مدة 15 سنة ونتيجة لجراته فى الدروس التى كان يلقيها عل المواطنين فى جامع لاردوت (المرادية حاليا) اراد المستعمرون التخلص منه . فكان ان اخذوه من بيته وساقوه الى السجن ثم قتلوه .

للشاعر المرحوم قصائد عديدة نشر منها عددا لا باس به فى جريدة البصائر الاسبوعية .

ملاحظة :

هذه المعلومات استقيناها من أهله ومن بعض الاساتذة الذين عاصروه .

ب ـ قصيدة بجاية :

نظم هذه القصيدة بمناسبة زيارته لها مع بعض رفاقه واهداها الى الاستاذ الاديب حمزة بوكوشة الذى افتتح فصوله الادبية بما قيل فى وصف بجاية . ونشرها فى العدد 295 السنة السابعة من السلسلة الثانية من جريدة البصائر وصدر هذا العدد بتاريخ يوم الجمعة 7 ربيع الثانى 1374 هـ الموافق لـ 3 ديسمبر 1954 م والقصيدة مقسمة الى ثلاث مقاطع المقطعان الاولان كل منهما يشتمل عل 11 بيتا والاخير عل 14 بيتا وبذلك يكون المجموع 36 بيتا .

بجــــايـــــة ٠٠ !

« بجاية » نبـع العـلا والعظم !   ومشـوى جـدودى هـداة الأمم
أتيتـك تحـدو بى الذكـريـات   لماض مجيـد تحـدى العـدم
أغـر جميـل الـرؤى خـالـدا   يلـوح لنـا كالسنا فى الظلـم
مآثـر شـاخصـة للعيـان   مـدى الدهـر تبقى ولا تنعـدم
تبـدت لعيـنى عـل افقهـا   مـلامـح مـن عزهـا المنصرم
يعانقها مـن رقيـق الغمـام   وشـاح موشى بـه تلتثـم
ويحرسهـا مـن رواسى الجبـال كـل رفيـع الـذرى والقمـم
توسـدت السفـح فى عـزة   يطوقهـا كـل طـود اشـم
ومـن بينهـا قـد بـدا ساخرا   « قـراية » مـن كـل خطب الـم
« وملالـة » ملتقى الأسـد مـن   رجـال العروبـة اهـل الهمـم
بها دفـن الثلـج جيش العـدا   وذاق صنـوف الـردى والألـم

« بجاية » كـم شاعـر مبـدع   تغنى بحسنـك عـذب الكلـم
وهام « بواديـك » مستلهمـا   خريرا كترتيـل شعـر نظـم
بـدا هائمـا بـين تلك الربـا   يدغـدغ احـراجها مـن امـم
تدفـق لهفـان فى نشـوة   طـوى السهـل فى سـيرة المزدحم
عـلى شفتيـه غصـون الكـروم   تداعبـه فى حفيـف النسـم
غـدا يتـدافـع فى سـيره   حـدتـه الطيـور باحـلى النغم
وقـد انصت الغـاب فى لهفـة   يهـدهـده نغـم منسجـم
واسـرع للبحـر فى ركضـه   يصافـح منـه العبـاب الخضـم
دنـا نحـوه خاشعـا مطرقـا   ليطفىء شـوقا بـه يضطـرم

وعانقه البحر جم الحنان | عناق أخ لأخ قد قدم
فاحبب به منظرا رائعا | يداوي الكلوم ويشفي السقم

هنا قد ذكرت العهود التي | بها كان « حماد » ليث الاجم
هنا كان « حماد » ذا صولة | بني مجده بالقنا والقلم
هنا كان « حماد » في عزة | يدافع عن غيله من ظلم
هنا كان « حماد » يهوى العلا | ويبني المعاهد مثل العلم
قد اكترع النشء من نبعها | علوما تسح كمزن الديم
« أحماد » عمرت دهرا مضى | وضيئا به كل بدر أتم
فكم من « اساتذة » قد هلوا | قوافل في غهيب مد لهم
وكانوا مصابيح وهاجة | بهم يهتدى في ليالي الظلم
وكم من « فتاة » كبدر الدجى | تبث العلوم بها والحكم
بدت آية العصر في عصرها | تعد « شباب » العلا والشيم
وتمحو الجهالة عن أمة | فكانت لأبنائها خير أم
وقفت بارجائها ساهما | اراجع عهدا مضى كالحلم
فقلت ـ وفي كبدي لوعة | لأدفع هما بصدري جثم ـ :
فهذي مآثرهم شاهدات | بآي الخلود ومعنى العظم

الجزائر

عبد الكريم العقون

العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد

اسماعيل العربي
كاتب جزائري

ما هو الاساس المادى لحضارة بنى حماد ؟ ومن اين جاءت المملكة تلك الموارد التى اتاحت لقصور القلعة التى خلفت القيروان ، ولقصور بجاية التى حلت محل القلعة والمهدية ، ذلك البذخ والترف الذى لم تعرف له مثيلا سوى قصور بغداد وغرناطة ؟ القاعدة المادية لحضارة بنى حماد هى وفرة الانتاج الزراعى وازدهار الصناعة والتجارة ، ولا سيما تجارة القوافل التى تحمل العبيد والذهب ، عبر الصحراء ، من بلاد السودان .

1 ـ الزراعة :

تدل المعلومات القليلة المتوفرة لدينا (وهى مستقاة كلها تقريبا من الجغرافيين العرب) على أن اقتصاد مملكة بنى حماد كان يقوم أساسيا على الزراعة . وأما الصناعة والملاحة وصيد السمك فقد كانت قطاعات ثانوية . والانتاج الزراعى الرئسى فى المغرب الاوسط فى عهد بنى حماد ، هو الحبوب وخصوصا القمح والشعير (1) الذى كان يشكل الانتاج الاهم فى المناطق الريفية المختلفة ، حيث يمثل الغذاء الشعبى الاساسى .

وقد كانت نجود قسنطينة وسهول المسيلة وسطيف وطبنة ، كما هى الحال الآن ، تمد البلد بكميات كبيرة من انتاج القمح . ولكن زراعة الذرة والحمص والفول والقطن كانت منتشرة ايضا فى ذلك العهد فى هذه المناطق وفى مناطق أخرى .

1) راجع (1) G. Marcais. la Berberie Musulmane. P. 177-178

ومنذ أقدم العصور ، كانت غابات النخيل تغطى المناطـــق التى تمتد جنوب قسنطينة حتى بسكرة وطولجة · وكان تمر هذه المنطقة يتمتع بشهرة خاصة ولا سيما النوع الذى كان يعـــرف بالكسبا ، او الصيحانى ، والنوع الذى يسمى بالليارى ، (ابيض المس) · وقد كان عبيد اللـــه الشيعى يامر عماله بمنع بيعه وبارسال ما تنتجـه المنطقة منه الى قصوره (2) ·

وعلى الرغم من ان منطقة بسكرة قد عرفت ايضا بما فيها من غابات الزيتون ، فان منطقة بلاد القبائل هى التى يصلح فيها الزيتون اكثر من غيرها · وكان لكل قـرية فيها معاصرها التى تعصر الزيتون وتحوله الى زيت بالطريقة التى ورثتها افريقية عن الرومان ولا تزال متبعة الى الآن·

وقد اشتهرت منطقة بجاية خصوصا بانتاج التين الذى يجفف ويصدر الى الخارج (3) ·

والتين هو الانتاج الذى اشتهرت به ايضا منطقة تنس ومرسى الدجاج (4) ·

وفى مجال انتاج الفواكه ، حضيت تنس وشرشال والمسيلة بمكانة خاصة ، ولا سيما فيما يتعلق بانتاج السفرجل ، كما اشتهرت نقاوس وتبسة بوفرة ما تنتجه من الجـــوز الطيب الذى يصدر منها الى الخارج ·

وكذلك اشتهرت كل من جيجل والمسيلة ومرسى الخرز فى عهد بنى حماد بكثرة ما يتوفر فيهما من السمك وبجودة انواعه · والشريف الادريسى يقدم الينا معلومات قيمـــة عن السمك الذى يصطاد فى نهر المسيلة (سهر) والذى تباع كميات كبيرة منه فى القلعة (4) ·

وكذلك يتحدث ابن حوقل الذى زار مرســى الخرز عن انتاج هذه المدينة من السمك قائــلا انه رأى فيها ما لم ير « أسمن منه ولا امنع جانبا فى أى بلد آخر من بلدان العالم (5) ·

ولكن الطريقة المثلى فيما يبدو للتعرف عــلى انتاج مختلف مناطق المملكة هى ان نستعرض مراكز العمران الكبرى المشهورة (فيما عدا العواصم) ونقدم المعلومات التى نقلها الينا الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين عاشوا فى عصر بنى حماد ، أوبعده أو قبله بقليل ·

ولهذه الغاية نقدم فيما يلى قائمة تشتمل على اثنتى عشـــرة مدينة (ما عدا المراسى التى وضعنا لها قائمة خاصة) كانت أهم مدن بنى حماد الداخلية مــن الناحية العمرانية ، والاقتصادية ·

2) البكرى ، ص 52 ·
3) الادريسى ، ص 90 ·
4) نفس المصدر ، ص 73 · وابن حوقل ص 51 – 52 ·
4) نفس المصدر ، ص 98 ·
5) ابن حوقل ، ص 50 ·

وسنبدأ هذا العرض من سجلماسة التي كانت تابعة لبني حماد في العهد الاول من الناحية الشكلية ولو انها كانت تتمتع باستقلال اداري واسع ، متجهين الى الشرق حتى تبسة التي تقع غير بعيد من حدود المملكة الحقيقية في الشـــرق ٠

سجلماســـة :

كانت مدينة سجلماسة (تافيلالت حاليا) التي بناها بنو مدرار (104 هـ) مركزا عظيما للتجارة عبر الصحراء ، وتقطن في المناطق المجاورة لها قبائل مسوفة الرحل ـ من صنهاجة ٠ ولكن هذه المدينة التي كان لها اثنا عشر بابا ، كانت ايضا محاطة بارض زراعية نادرة المثال في الصحراء اشتهرت بكثرة النخيل والاعناب ومختلف انواع الفواكـــه ٠

وتقع سجلماسة على نهر عظيم وهو نهر زيز الذي ينحدر من موضع يسمى اكلف ، وقد بنيت عليه خزانات وتتفرع عنه قنوات ، مما سمح بتوفير الري لمنطقة واسعة ٠ ويقول ابن حوقل ان هذا النهر يفيض في الصيف ، كما يفيض نهر النيل فيزرع بمائه حسبما يزرع فلاحو مصر ٠

وقد اشتهرت منطقة سجلماسة خصوصا بنظام غريب لزراعة الحنطة لا نعرف له مثيلا ٠ فان الادريسي يروي أن السكان يزرعون الحنطة سنة ويحصدون تلك البذرة سبع سنوات متوالية ٠ ولكن الحنطة التي تنبت من غير بذر تتغير تدريجيا حتى تتخذ شكلا بين الحنطة والشعير ٠ وهذا الانتاج هو الذي يسمونه بالبربرية « يردن تيزواو» ٠ وحب هذه الحنطة صعب المكسر لذيذ الطعم ٠

وهذه الظاهرة تعرض لذكرها كل من ابن حوقل والادريسي دون ان يقـــدم أي منهما تعليلا لها ٠ ولكن البكري الذي يقول ان البذرة الواحدة يحصد منها ثلاثة اعوام (فقط) ، يفســـر ذلك بقوله ان البلد مفرط الحر شديد القيظ ٠ فاذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وسقط في شـــقوق الارض ٠ فاذا كان العام الثاني حرث بلا بذر ٠ وكذلك في العام الثالث ٠

وكانت تمتد في اراضي سجلماسة غابات كثيفة من النخيل الذي ينتج انواعا مختلفة من التمر وكذلك تنتج ارض المدينة غلات من القطن والكمون والكرويا والحنا التي تصدر من سجلماسة الى مختلف بلاد المغرب وغيرها (6) ٠

---

6) قارن الاستبصار ، ص 202 ـ 204 والبكري ص 151 ٠ والادريسي ، ص 60 ـ 61 ، ومعجم البلدان 3 / 45 ، ومراصد الاطلاع 2 / 14 ، وابن حوقل ص 65 ، والمقدسي 231 ، وابن سعـــيد المغربي (كتاب الجغرافيا) 124 واليعقوبي (وصف افريقية) ، ص 17 ـ 18 ٠

تلمســـــان :

تلمسان مدينة قديمة وفيها آثار تدل على انها كانت مدينة مهمة فى العصور الغابرة · وتقع المدينة سفح جبل يذكر الكتاب أن اكثر شجره الجوز · وقد وصفها اليعقوبى بـ « المدينة العظيمة » وقال ان عليها سورا من حجارة وخلفه ســور آخر من حجارة ، وفيها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة : وحول هذه المدينة قوم من البربر يقال لهم مكناسة ·

والمدينة فيما يقول صاحب مراصد الاطلاع ، مدينتان احدهما قديمة والاخرى حديثة اختطها الملثمون (المرابطون) ·

وفى جنوب المدينة ، يمر نهر سطفسيف الذى ينصب فى بركة كبيرة من الصخر ثم يخــرج من تلك الصخور فيسقى سهولا ومزارع واسعـــة وينصب فى نهر تافنا ، الذى ينصب بدوره فى البحر الابيض ، عند أرشغول ·

ويقول ابن حوقل فى وصفها « انها مدينة لطيفة قديمة ولها انهار جارية وعليها أرحيه وفواكه كثيرة ، وزرعها سقى وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ·

وقد كانت تلمسان فى عهد بنى حماد واحدة من قواعد المغرب الاوسط الرئسية كما كانت فى معظم الاوقات تمثل اقصى ثغور المملكة فى الغــرب · ولم تـــزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب ملك بن انس رضى الله عنـــه ·

وعلى عكس بجاية والقلعة ، احتفظت تلمسان بمكانتها فى القرن السابع الهجرى ، بـــل وعززتها حينما أصبحت قاعدة بنى عبد الواد من زناتة · وقد تعرض ابن سعيد المغربى لوصف بعض جوانب اقتصاد تلمسان فى هذه الفترة من حياتها ، فقال : « ومنها تحمل ثياب الصــوف المفضلة على جنسها المصنوع فى سائر بلاد المغرب · وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك · والاندلسيون يقولون كأنها من مدن الاندلس ، لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها ، وعــلى الرغم من أن الكتاب لا يتعرضون لذكر صناعة الجلد فى تلمسان فى عهد بنى حماد ، فان من الممكن الاعتقاد بان هذه الصناعة كانت معروفة فى ذلك الوقـــت (7) ·

7) قازن الاستبصار ، ص 176 ، والبكرى ، ص 76 ــ 77 ، والادريسى ص 8 ، ومعجم البلدان 1 / 87 ، ومراصد الاطلاع ، 1 / 19 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 140 ، واعمال الاعلام ، ص 61 ــ 62 ·

تيهـــرت (تاهـرت) :

كانت تيهرت عاصمة الدولة الرستمية وقد بناها مؤسس هذه الدولة الذى كان على رأس الاباضية فى منتصف القرن الثانى الهجرى ـ وكانت تعرف بتثيهرت الجديدة ، أو السفلى ، تمييزا لها عن تيهرت القديمة ، أو العليا ، *التى* تبعد عنها بنحو خمسة اميال ، وقد ازدهرت حضـــارة تيهرت فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وكانت لها شهرة علمية واسعة فى مختلف اطـــراف العالم الاسلامى حتى سميت بعراق المغرب ٠

وحول هذه المدينة تقع مدينة تيارت الحالية على مسافة نحو 5 كيلو مترات منها ٠

وقد لعبت تيهرت (كما تسمى ايضا) دورا كبيرا فى عهد بنى حماد حين كانت لها قيمـــة استراتيجية خاصة ، باعتبارها من الثغور التى تفصل صنهاجة وزناتة ٠ وكذلك كانت هدفا لحملات عسكرية قام بهازيرى بن عطية الذى هزم جيوش القيروان عندها ٠

والمدينة القديمة تقع على سفح جبل يسمى جزول ، وعلى نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة ونهر آخر يأتى من عيون يسمى تاتش ٠ ومن هذا النهر تروى اراضى تيهرت وبساتينها الكثيـرة التى وصفها البكرى بان فيها جميع الثمار ، وسفرجلها يفوق سفرجل الافاق حسنا وطعما وشمـا وسفرجلها يسمى بالفارس ٠

ويقول الادريسى ان فى اراضى تيهرت مزارع وضياع جمة اشتهرت بتربية البقر والغنـم وخصوصا بانتاج البراذين والخيل ، ويضيف ان المدينة ومنطقتها وفيرة العسل والسمن (8) ٠

مليانــــة :

مدينة قديمة تشرف من الشرق والجنوب على وادى شلف بناها الروم وجددها زيرى بـن منـــاد ٠

وتقع مليانة فى سفح جبل زكار الغربى على ارتفاع 720 مترا فوق سطح البحر ٠ والجبـل تغطيه غابة كثيفة وتنزل منه مياه غزيرة ٠ وقد وصف صاحب الاستبصار منطقة مليانة قائلا انها من أخصب بلاد افريقية وارخصها اسعارا ٠ وهى ذات بساتين تنتج جميع أنـــواع الفواكه ٠ والمدينة تشرف على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة ٠ ويشق تلك الفحوص نهر شلف ، وهو نهر كبير مشهور ٠

8) قارن ، مراصد الاطلاع 1 / 960 ، ومعجم البلدان، 813 91 والاستبصار، ص 178 ، والادريسى 87 ، والمقدسى ، ص 238 ، والبكرى ، ص 66 ـ 67 ٠

وقال البكرى انها مدينة « ذات اشجار وانهار تطحن عليها الارحاء وهى عامرة ٠

ولما تحدث الشريف الادريسى عن مليانة ، قال انها حسنة البقعة كريمة المزارع وتقع على نهر يسقى اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرجاء على نهرها ٠

ومليانة تقع غير بعيدة من أشير ، وبين المدينتين تقع قرية كزناية ذات المزارع الواسعة ، وقرية ريغة ذات العيون الفياضة والاراضى الزراعية الواسعة والبساتين التى تنتج كثيرا من الفواكه ٠ وهى أيضا سوق كان سكان المنطقة يقصدونها يوم الجمعـــة (9) ٠

المسيلـــة :

تقع المسيلة التىأسست فى عهد أبى القاسم عبيد الله سنة 313 على نهر سهر ٠ وقد تولى بناءها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور المعروف بابن الاندلسى ٠ والمدينة فى بساط من الارض كان عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة ٠ وكان للمدينة اســـواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة وكانت سهـــول المسيلة مشهورة خصوصا بانتاج القطن والقمح والشعير والفواكه وتربية الحيوانات ، ولا سيما البقر والغنم والخيل ومن هنا كثرة اللحوم فيها ورخص اسعارها فى عهد بنى حماد ٠ ولكن المحمديـــة ، كما تسمى ايضا ، كانت تثير باعجاب زوارها وتفخر خصوصا بنوع من السمك الصغير المزين بخطوط حمراء والذى يقول الادريسى انه لم ير فى بلاد الارض المعمورة سمك على صفته ٠ وهذا السمك الذى لا يتجاوز طوله الشبر ، كان يصطاد بكثرة وينقل الى قلعة بنى حماد حيث كان يزين موائد الملوك والامراء ، والمسيلـــة لا تبعد على القلعة الا بميل واحد (10) ٠

طبنـــة :

عاصمة كسيلة التى افتتحها موسى بن نصير ومدينة الزاب العظمى (11) كما يسميها اليعقوبى وكانت طبنة فى عهد هذا المؤرخ مأهولة باخلاط من العرب والعجم والروم والبربر ٠ وقد وصفها

---

9) قارن البكرى ، ص 61 ، والادريسى ، ص 85 ، والاستبصار ص 170 ، وابن حوقل ، ص 64 ، ومراصد الاطلاع ، ص 3 / 147 ٠

10) قارن البكرى ، ص 59 ــ 61 وابن حوقل ، ص 60 ، والادريسى ، ص 86 ، وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 126 ٠

11) الزاب اسم لانهار بالعراق ، منها الزاب الاعلى (بين الموصل واربل) والزاب الاصغـــر ، وكذلك يطلق اسم الزاب على المنطقة التى تقع فيها بسكرة وطولقة وتوزر وقفصة وغيرها كما يطلق اسم الزاب على نهر كان يجرى بين سجلماسة وتلمسان (راجع مراصد الاطلاع ، 2 / 653) ٠

البكرى بانها مدينة عظيمة كثيرة المياه والبساتين والزرع والقطن والحنطة والكتان وغير ذلك من الحبوب · وكذلك كانت بادية طبنة تملك ثروة عظيمة من البقر والغــنم ·

على ان المدينة عرفت عهدا من الانحطاط والضيق فى عهد ابن حوقل فتحولت « عــزتها الى مذلة » وأصبح أهلها « مشردين مطرحين بكل واد » وكان ذلك بسبب الفتن والتطاحن بين مختلف سكانهـــا ·

ولكن مدينة طبنة استعادت مكانتها السابقة فى عهد بنى حماد وكان بها قصـــر وارباض وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها ومنه تسقى بساتينها ، حسبما يقول البكري ·

وكان بالمدينة اسواق كثيرة ، وليس من القيروان الى سجلماسة مدينة أكبر منها ·

وينتسب الى طبنة من العلماء علي بن منصور الطبنى ، الذى روى عن محمد بن مخارق وابو محمد القاسم بن علي بن معاوية بن الوليد الطبنى الشاعر وابو مروان عبد الملك بن زيادة الطبنى الشاعر اللغوى الذى عاش بالاندلس ·

والمدينة تقع على نهر اسمه بيطام ، تسقى به جميع بساتينها وفحوصها · وكان يحلو لاهل المدينة أن يرددوا قولهم « بيطام بيت الطعام » لخصب أرضها وجودة زرعها ·

وقد استمرت المدينة تقوم بدور عاصمة الزاب وتتمتع برخائها فى عهد الشريف الادريسى الذى يصفها بانها « مدينة عظيمة من جميع النواحــى » ·

وكانت طبنة تتسم بجميــع الخصائص التى تميز المدن الاسلامية الثانوية ، مركزا تجاريا مهما وتأوى كثيرا من الصناعات المعروفة فى العصور الوسطى ·

وفى مجال الزراعة ، اشتهرت طبنة بقسـط واسع من المنتجات ، فى مقدمتها القطن والحنة والشعير والكتان ومختلف انواع الفواكه (I2) ·

<u>ســطيف :</u>

كانت سطيف مدينة كبيرة حصينة وعامرة متصــــلة محاطة بكثير من قرى كتامــة ، ويصفها البكرى بانها مدينة كبيرة جليلة عامرة جامعة كثيرة الاسواق رخيصة الاسعار وهذا الوصـــف

I2) قارن البكرى ، ص 50 ، ومعجم البلدان 3 / 5I5 · والادريسى ، ص 93 ، والاستبصار ، ص I72 وابن حوقل ، ص 59 ، واليعقوبى ، ص II ·

يشبه ما ذكره صاحب الاستبصار الذى ينوه بغزارة مياهها وسعة بساتينها ووفرة الفــواكه والثمار فيها (13) ·

بسكـــرة (او بسكره) :

مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون ومختلف الثمار ، وكانت فى عهد بنى حماد مســـورة عليها خندق وبها مساجد كثيرة وحمامات وحولها بساتين كثيرة ، وهى فى غابة من النخيل تمتد على ستة اميال وكانت حول بسكرة ارباض تقع خارج الخندق المذكور ، وكانت تقيم حولها قبائــل من البربر من اهلها سدراته وبنو مغراوة الذيــن كان على راسهم بيت بنى خزرون وبنو يزمتى ، ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل اوراس ، يسقى بساتينها ونخيلها ·

وكذلك يشيد البكرى خصوصا بآبار بسكرة الكثيرة والعذبة المياه (14) ·

نقـــاوس Nicivibus **القديمة :**

مدينة جميلة كثيرة الانهار والثمار · وقــد اشتهرت ارضها- خصوصا بوفرة ما تنتجه من الجوز واللوز والعنب والقطن والحبوب · وكان جوز نقاوس فى عهد بنى حماد ، يحمل الى القلعة وبجاية حيث يشتد الاقبال عليه فى قصــور الملوك والامـــراء (15) ·

قسنطينـــة :

تقع قسنطينة الهواء ، كما يسميها القدماء ، على قمة كتلة صخرية هائلة العلو تشرف من ثــلاث جهات على هاوية وعلى وادى الرمال الذى تبدو مياهه من المدينة وكانها ثعبان يســـير ملتويا ، بينما تتصل جهتها الرابعة بالارض ·

وقسنطينة مدينة قديمة اسسها الفينيقيون، وكانت تحمل فى البداية اسم سرته (اى المدينة او القـــرية) ·

وفى عهد الرومان ، تحصن فيها الزعيم الوطنى ماسيناس الذى حــاول الاستقلال بالمغــرب الاوسط ولكنه فشل · وبعد ما خربها البربر فى ثورات دامية ، قام الامبرطور قسطنطين البيزنطى باعادة بنائها اثر احتلال البيزنطيين لها ومنذ ذلك التاريخ والمدينة تحمل اسمه ·

13) قارن الاستبصار ، ص 1066 والبكرى 76 ، والادريسى ، ص 98 ، وابن حوقـــل ، ص 68 ، البلدان 3 / 90 ·

14) قارن الاستبصار ، ص 173 ، البكرى ص 53 ، معجم البلدان 1 / 625 وابن حوقل ص 68 ، والمقدسى ، ص 230 والادريسى ، ص 94 ·

15) قارن الادريسى ، ص 93 والبكرى ، ص 50 والاستبصار ص 72 وابن حوقـــــل ، ص 66 والمقدسى ، ص 230 ·

وفى العصر الحمادى ، كانت قسنطينة تقوم بدور ، عسكرى ولكنها لم تكن لها قيمة سياسية تذكر • وقد وصفها البكرى بانها « ليس يعرف احصن منها » (والمدينة التى تسكنها قبائل متفرعة عن كتامه ، تقع « على ثلاثة انهار عظام تجرى فيها السفـــــن •

وكانت فى قسنطينة اسواق عامرة وتجارة رابحة ، وقد وصـــف الادريسى سكانها بانهم « مياسير ذوى مال واحوال » •

وقد اشتهرت قسنطينة منذ القدم بمطامرها التى كانت تستعمل لادخار الحنطة ، وبعضها منقور فى الصخر وكانت الحنطة تقيم فى هذه المطامر ، حسب ما يذكر الادريسى ، مائة عام ولا تفسد لبرودتها واعتدال هوائها •

وفيما يتعلق بالانتاج الزراعى ، اشتهرت قسنطينة خصوصا بوفرة العسل والسمن الذى كان يصدر منها الى مختلف الاقطار (16) •

بـاغـايـا :

كانت باغايا فى عهد بنى حماد ، وقبلهم ، مدينة مهمـــة من الناحية العسكرية والسياسية والاقتصادية معا • وهى مدينة قديمة وحصن مبنى بالصخر وربض يحيط به ســـور تعقد فيه الاسواق • وفى ربضها فنادق المدينة وحماماتها والمدينة تقـع على نهر ياتيها من القبلة يزودها بمياه الشرب ويسقى بساتينها وارضها الزراعية الواسعة التى اشتهرت خصوصا بانتاج الحنطة والشعيـــر •

واما القبائل التى تسكن فحص باغايا ، فاهمها مزاته وضريسة ، وكلتاهما اباظية • وكذلك كان سكان المدينة كلهم فى عهد بنى حماد على مذهب الاباضية •

وقد تعرضت باغايا لاهوال الحروب عدة مرات ولكنها كانت دائما تنهض من كبوتها ، حتى وصل اليها بنو هلال الذين قضوا على عمارة بواديها بحيث تضاءلت خيراتها فى عصر الادريسى الذى يقـــول عنها : « ان كل ما فيها الآن قليل » (17) •

16) قارن البكرى ، ص 63 والاستبصار ، ص 165 والادريسى ، ص 64 ومعجم البلدان 4 / 98 ومراصد الاطلاع 2 / 413 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 143 •

17) قارن الادريسى ص 103 ، والبكرى ص 144 ـ 145 ومعجم البلدان 1 / 473 مراصد الاطلاع 1 / 154 والمقدسى ص 227 وابن حوقل ص 59 •

تبســـه « أو تبســا » :

مدينة قديمة كبيرة مبنية بالصخر وفيها آثار قديمة يقول صاحب الاستبصار انه لا يوجـد فى افريقية أعظم من آثارها باستثناء قرطجنة · ويصف هذا المؤرخ بنيان ملعب فيها بقوله « انـك لو غرست الابرة بين حجرين من احجار البناء ما وجدت لها منفذا » · والجدير بالذكر أن صاحب الاستبصار قد زار تبسة واخذ منها تذكارا (طلســم)ويعتبر وصفه لاثار تبسة أدق وصف لهذه الاثار التى اندثرت وعفت خلال القرون التالية ·

وفيما يتعلق بالانتاج الزراعى فقد اشتهرت تبســـة ، خصوصا ، بكثرة الفواكه ولا سيما الجوز الذى يضرب المثل بجلالته وكبره وطيبه حسب تعبير البكرى (18) ·

2 ــ الصناعـــة والمعـــادن :

كانت صناعة الغزل والنسيج صناعة قومية متكاملة فى مملكة بنى حماد · وكانت أهـــم المواد المستعملة فى هذه الصناعة التى تمارسها النساء عادة هى الصوف والقطن الذى تنتجه حقول المسيلة ونقاوس وطبنة بكثرة ، والكتان الذى كانت زراعته منتشرة فى منطقة بونه · وكان انتاج صناعة القطن رائجا بحيث اشتق من هذه المادة اسم للتجار الذين يتعاملون فيها (القطان) ·

واما صناعة نسيج الحرير فيبدو انها كانت تمارس فى نطاق محدود فى المغرب الاوســـط ، حيث أن هذه الصناعة قد تركزت خصوصا فى القيروان وفاس ·

وكانت منسوجات القلعة تتمتع بشهرة خاصة فى المغرب والمشرق ، اشاد بها ياقوت الحموى فى معجم البلدان حين يقول : « وبها الاكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسنة المطرزه بالذهب · ولصوفها من النعومة والبصيص ، بحيث ينزل بمنزله الابـرسيم » ·

وقد تعرض صاحب الاستبصار لصناعة العمائم التى اشتهر بها ملوك صنهاجة ، فقال انهـم يطرزونها بالذهب ويغالون فى اثمانها بحيث تساوى العمامة 500 و 600 دينار ، وازيد · وكانوا يعممونها باتقان وكانها تيجان (19) · بل ان تعميم العمامة انما يقوم به صناع متخصصون فى ذلك ، ويتقاضون على عمامة واحدة دينارين وازيد · وكانت لهم قوالب من عـــود فى حوانيتهم

18 قارن الاستبصار ، ص 162 ، والبكرى ص 145 والادريسى ص 119 ، وابن حوقل ، ص 58 ومعجم البلدان ، 4 / 502 ، ومراصد الاطلاع 3 / 83 ·

19) معجم البلدان ، 4 / 163 ــ 164 ·
الاستبصار ، ص 127 ·

يسمونها « الرؤس » ويعممون عليها تلك العمائم. والى جانب الصناعات الغذائية التقليدية ، مثل عصر الزيتون وطحن الدقيق ، عرفت مملكة بنى حماد صناعة السفن فى بونه وبجاية ، حيث يتوفر الخشب والصمغ الذى يستعمل للحم الخشب ، وصناعـــة الجلد والدباغة التى يبدو انها كانت مزدهرة فى القلعـــة .

كانوا يستعملون الجلد المنمق بالذهب ، خصوصا فى صناعة الســـروج وتجليد الكتب وصناعة التجليد التى كانت معروفة فى افريقية منذ عهد الاغالبة ، بلغت شأوا بعيدا فى أواخر عهد بنى زيرى فى افريقية والمغرب الاوســط .

ونحن نعرف أن صناعة الورق (الكاغد) الذى كان يصنع من الكتان ، قد انتشرت فى عهــد الاغالبة خصوصا فى القيروان وتونس وان هذه الصناعة قد نمـــت وترعرعت فى عهد الزيريين وانتشرت من افريقية الى صقيلية وايطاليا الجنوبية (20) ويبدو أن من البديهى ان نفترض أنها كانت منتشرة فى ولايات بنى حماد ، ولا سيما فى عهد بجايـــة .

وقد عرفت صناعة الفخار والخزف تقدما كبيرا خصوصا فى مدينة القلعة وبجاية ، كما تشهد بذلك القطع التى اكتشفت فى آثار المدينتين والتـــى يحتفظ بها متحف الجزائر . واللون المتغلب فى زخارف هذه البقايا هو اللون البنى والاخضر . وأما اللون الاصفر فقليل الظهور ، بينما لا يظهر الازرق الا فى القطع التى يعود تاريخها الى فترات متأخرة نسبيا (21) .

واما المناجم ، فان الجغرافيين العرب يذكرون منها عددا ، وكانت تستخرج منها مختلـف المعادن . فقد كانت مجانة تسمى ايضا مجانة المعادن ، حيث كانت أهم مركز لاستخراج الحديد .

والى جانب معدن الحديد ، يذكر البلاذرى وابن حوقل ، وجود معدن للفضه غير بعيد مـــن مجانة (22) التى تجلب من جهتها ايضا ، احجار المطاحـــن .

20) ارجع روجى ادريس الذى ينقل عن المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب
La Berberie Orientale sous les Zirides, II/637

21) ارجع تفاصيل فى
G. Marçais et L. Poissot, Objets Kairouanais, Notes et Documents, XI, Fasc. 1, Tunis, 1948.

22) تجدر الاشارة الى أن الادريسى وصاحب الاستبصار ، وكلاهما كان يكتب بعد الغزو الهلالى لا يذكر شيئا عن معادن مجانة ، وانما يقتصر على ذكر احجار المطاحن . وهنا يمكن أن نتسائل عما اذا كانت قبائل بنى هلال قد وضعت حدا لنشاط هذه المناجم ، كما وضعت حدا لمختلف الوان النشاط الاقتصادى فى البلد .

وبعد هذين الكاتبين ، بقرن من الزمن ، يشير البكرى هو الآخر الى وجود عدد من المعـادن فى منطقة مجانة اذ يقول : « وبها معادن كثيرة ، منها معدن فضه للواته يسمى الوريطسى ، وتعرف بمجانة المعادن » (23) ٠

وكذلك يذكر الادريسى معادن الحديد الموجودة فى عهده فى الاربس ، وبونه ، وبجاية ، والتى كانت بدون شك تستغل فى عهد بنى حماد ، بينما يتعرض البكرى لذكر منجم للحديد والزئبق فى الجبل الذى يقع غير بعيد من أرزاو (ارزيو) ٠ وفيما يتعلق بالذهب ، فقد ذكر كل من اليعقوبى (24) والاصطخرى (25) والمقدسى (26) وجود منجم له قريبا من سجلماسة ٠ ويقول الاصطخرى انـه « لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا منه ولا أصفى منه » ٠ بل ان المقدسى واليعقوبى ، يتحدثان عن معادن الفضه والذهب ٠

على أن البكرى الذى سجل ملاحظات مستفيضة عن سجلماسة لم يذكر وجود أثر لمناجـم الذهب والفضة فى منطقتها ٠

ولكن هذا الجغرافى الكبير يستغرب من جهة اخرى لكثرة وجود الذهب فى سجلماسة « بحيث يتبايعونه وزنا لاعددا (27) وربما رأى البعض فى هذه الاشـــارة ذاتها تأكيدا للروايات التى أوردها اسلافه والتى تقول بوجود مناجم الذهـب والفضة فى سجلماسة ٠

ولكن الشريف الادريسى الذى جاء بعد البكرى ، والذى خصص فقرة مهمة فى كتابه لوصف سجلماسة (28) لا يذكر هو الآخر وجود منجم للفضة او الذهب قرب سجلماسة ٠ وكذلك نجد ان ابن سعيد المغربى الذى كان يكتب بعد الادريسى بحوالى قرن ، لا يشير الى وجود اي معـدن فى سجلماســة (29) ٠

والفرض الذى يتبادر الى الذهن ، هو أن تكون مناجم المعادن الثمينة فى سجلماسة قــد نفدت فى عهد بنى حماد ٠ ولكنه نظرا لانقطاع الطرق الشرقية التى كانت تسلكها القوافل الى المغرب الاوسط ، تحول طريق الذهب الذى يستخرج فى بلاد السودان ، وأصبح يمر بسجلماسة ٠

---

23) البكرى ، ص 145 ٠
24) كتاب البلدان ، ص 17 ـ 18 ٠
25) الاصطخرى ، ص 39 ٠
26) المقدسى ، ص 231 ٠
27) البكرى ، ص 151 ٠
28) الادريسى ، ص 60 ٠
29) ابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 124 ٠

ومن هناك ينقل الى المغرب الاوسط فى ظروف صعبة ، نتيجة لاضطراب الامن ومن هنا وجود الذهب بكثرة فى عهد البكرى · ولكن انفتاح طرق القوافل الشرقية من جديد ، وعودة الاحوال الى مجراها العادى باستقرار البدو الهلاليين فى عهد الادريسى جعل سجلماسة مدينة كغيرها من المدن حيث لم تعد تنتج الذهب ، ولا تقوم بدور الوسيط (الترانزيت) فى مروره ·

وعلى كل حال ، فان اهمية مناجم سجلماسة نظرية ، حيث أن هذه المدينة انسلخت عن ملك بنى حماد فى وقت مبكر نسبيا ، بعد ما استولى عليها المرابطون فى عهد بولكين بن محمد بن حماد فى سنة 453 ، واصبحت العلاقات التى تربطها بالمغرب الاقصى والاندلس ، اقوى من علاقاتها مع ولايات بنى حماد فى الشرق ·

التجارة الخارجية :

كانت فى مملكة بنى حماد (أو على الاقل فى الامتداد الذى حددناه لهذه المملكة على الشواطىء) نيف وستة وعشرون مرسى · ومعظم هذه المراسى تقابلها مراسى على ساحل الاندلس ، أو فى جزر البليار ، مما يجعل الملاحة بين الشاطئين تسير فى خط مستقيم · وكثرة المراسى وتقارب المسافات بينهما فى المملكة يدل دلاة واضحة على قوة تيار التبادل التجارى بين المملكة وبر الاندلس · ولكن المملكة كانت تتاجر أيضا مع شواطىء ايطاليا ·

فعلى الرغم من الغارات التى كانت تقوم بها السفن الحربية من بون والمهدية وبجاية ، على المدن الايطالية وشواطىء بيزنطة فى شرق البحر الابيض المتوسط ، وعلى الرغم من ان كثيرا من المدن الايطالية البحرية مثل البندقية ، وبارى ، وسلرن ، ومالفى ، ونابلى ، كانت تابعة اسميا لسلطان بيزنطة ، فان شيئا من ذلك لم يحل دون قيام علاقات تجارية وثيقة مع هذه المدن والموانى الاسلامية فى المغرب فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ·

والى جانب هذين التيارين التجاريين ، كانت مملكة بنى حماد ترتبط بالشرق عن طريق طرابلس ، وبالسودان ، وما نسميه الآن بافريقية الغربية ، عن طريق سجلماسة ، بعدد من طرق القوافل التى تنقل الى المغرب الاوسط منتجات تلك البلدان وتعود محملة بالبضائع التى تنتجها وتصدرها مختلف مدن المملكة · وقد كانت القلعة حتى عهد المنصور بن الناصر بن علناس ، قبل أن يقطع العرب طرق المواصلات اليها ، المركز التجارى الرئيسى الذى تشد اليه الرحال وتقصده القوافل من مختلف انحاء العالم الاسلامى · ولكنه لما تحول بنو حماد عنها واتخذوا بجاية عاصمة لهم ، ركزوا على تنمية التجارة البحرية ، مما سمح للبلد بتجنب الاختناق الاقتصادى ، بعد ما اصبحت طرق القوافل مهجورة ·

ونحن نجد ملاحظات هنا وهناك ، فيما كتبـــه الشريف الادريسى ، والبكرى ، عن تيارات التبادل التجارى فى هذا العصر ، بين تونس وبجاية ومليلة وسبتة وطنجـــة ومـــدن الشواطىء الاروبية ، كما تظهر آثار هذا التبادل فى بعض الوثائق الغربية التى وصلت الينا (30) · وكلها تشير الى انه ، على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية التى كانت المملكـــة تخوضها بين الحين والحين ، فان التبادل التجارى مع الخارج ، ولا سيما مع الاندلس كان قويا · ومرجع ذلك ، ان المملكة قد جمعت كثيرا مما نسميه اليوم بالاحتياطى ، ولا سيما من الذهب · وقد كان ذلك نتيجة لما عرفته خلال فترات طويلة من الاستقرار ، وخصوصا لهجرة رؤوس الاموال الى القلعة ، عقب تخريب القيروان وخنق العرب الهلاليين لشرايين الحياة الاقتصادية فى افريقية ·

وهذه الظاهرة هى التى اتاحت للملكة فترة جديدة امتازت بحياة البذخ التى عرفتها بجاية وبعض المدن الشاطئية فى وقت يعانى فيه الانتاج الزراعى وطرق المواصلات الداخلية كثيرا من الاضطراب والتخريب ·

كانت حاجات المغرب الاوسط بصفة عامة الى مختلف انـــواع الخشب الذى يستعمل لادوات الطبخ والنسيج والبنايات وتاثيث المنازل ولصنــاعة الســـفن حاجات كبيرة · وأما غابات البلد (ونحن لا نعرف منها سوى تلك التى تمتد فى جنوب وهران وغابة الزان التى تقع قريبا من بونة ، وغابة جبال القبائل الصغرى) ، فهى اقل من أن تفى بمختلف الاغراض ، ولا سيما اذا اغتبرنا المسافات البعيدة التى تفصل بينها وبين مراكز العمران · وفى نفس الوقت ، كانت أرض البندقية تغطيها مساحات شاسعة من الغابات · ولذلك كانت البندقية تمد المغرب بالخشب الخام والالواح والخشب المصنـــوع ·

---

30) اعتمدنا فى تحرير هذه الفقرة على الملاحظات التى أوردهاها كل من البكرى ، والادريسى ، والمقدسى ، وصاحب معجم البلدان ، وعلى الوثائق والمعلومات التى وصلت الينا عن طريق بعض الكتاب الاروبيين ، وفى مقدمتهم : De Mas Latrie

ولنفس المؤلف Aperçus des relations commerciales de l'Italie Septentrionale avec l'Algérie au Moyen-Age

وعلى بعض الملاحظات التى وردت فى كتاب استاذنا العلامة · Traité de paix et de commerce

Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe T. I

والعالم والباحث Maurice Lombard, l'Islam dans sa première grandeur

وكذلك R. H. Idris, la Berberie Orientale sous les Zirides, T. II

L. Golvin et A. Louis, Etude technique et sociale, sur l'artisanat tunisien, Bulletin de l'Institu tdes Belles Lettres Arabes, Tunis, 1946.

وكذلك كانت صناعة الدروع والخوذات والحراب مزدهرة فى اللومبارديا ، وفى المانيا وكان الامراء يعتمدون فى تسليح جيوشهم بهذه الاسلحة ، بل وبالسيوف أيضا ، الى حد كبير ، على هذين البلدين وقد كانت تجارة الاسلحة فى العصور الوسطى بين الغرب والشرق ، كما هى الحال الآن مجالا واسعا للمضاربات • لان ما كان يصل منها الى البلاد الاسلامية كان يصل عن طريق التهريب والتحدى لقرار اباطرة بيزنطة والكنيسة الذى يحرم تصدير المواد الستراتيجية الى هذه البلاد ، التى من بينها المغرب •

واذا استثنينا منجما للذهب وردت الاشارة اليه فى بعض كتب الجغرافيين العرب فى منطقة سجلماسة ، كما اسلفنا ، فنحن لا نعرف منجما للمعادن الثمينـــة فى أراضى مملكة بنى حماد • ولتموين المشتغلين بصناعة الحلى وبيوت ضــرب سكة الدولة فى بجاية وتونس ، كان لا بد من الاعتماد على ما يرد اليها من اوروبا • وكان ملوك افريقية قد جروا على منــح تخفيض كبير فى التعرفة الجمركية على المعادن الثمينة تشجيعا لاستيرادها • وكان ما يرد منها الى قصور الامراء لاستهلاكهم الخصوصى ، أو لبيوت ضرب السكة ، يعفى كلية من الضرائب الجمركية •

والى جانب المعادن الخام ، كانت تستجلــب من ايطاليا اسلاك الحديد والابواق النحاسيــة والاوانى المصنوعة من مختلف المعادن • وكذلك كانت قصور الملـــوك والطبقة الثرية تستورد من اوروبا الاحجار الكريمة ، والعقيق ، والياقوت ، والمرجان المصنوع ، ومختلف انواع المجوهرات •

واما عقاقير الهند ، مثل جوز الطيب والقرنفل والراوند والزنجبيل والقرفة وغيرها ، فقــد كانت تصل الى المغرب عن ثلاث طرق مختلفة • أولا ، من الموانىء الاوروبية حيث كانت تـــوجد مستودعات للعقاقير الهندية وتحملها السفن الاوروبية الى موانى المغرب • وثانيا عن طريق الإسكندرية وغيرها من الموانى الشرقية • ومن هناك تحملها الســـــفن العــــربية والاوروبية • وثالثا عن طريق الصحراء التى تحملها عبرها القوافل من مصر ، مارة بطرابلس والقيروان ، الى القلعة وتلمسان وغيرهما من المدن الداخلية • وهذه أيضا هى الحالة فيما يتعلــق بالروائح العطرية والبخور ، مثل اللبان والعود الجاوى والمسك والعنبر وغيرها •

وقد كان المغرب الاوسط أجيالا مركزا لتجارة مرور (الترانزيت) العبيد • فمن جهة ، كانت أوروبا الوسطى والشرقية وأرض الصقالبة تدفع بالغلمان والجوارى الذين يسوقهم النخاسون مــن اسبانيا الى المغرب ، حيث يوزعون بضاعتهم البشرية ويحملون قسما منها الى مصر وغيرها من بلاد الشرق ، بينما يبيعون الباقى محليا •

ومن جهة اخرى ، كانت الاراضى التى يطلق عليها بلاد السودان (اى جنوب المغرب) تمد قصور المغرب ومصر بالعبيد السود والخصيان وهذا عدا من يقع فى الاسر فى الحرب وما تسبيه السفن المغيرة على الشواطىء الاروبية ·

واما الاتفاقيات التى عقدت بين المغاربة والمسيحيين والتى تنص على منع بيع الاسرى وتوجب اعادتهم الى بلادهم بمجرد ما تعرف جنسياتهم فهى انما عقدت فى القرن الثانى عشـــر الميلادى (السادس الهجرى) ولم يكن مضمونها معروفا فى عهد بنى حماد ·

وفى مقابل المنتجات التى يتلقاها المغرب ، كانت هذه البلاد تصدر كثيرا من الخيول العـربية والبربرية والسمك المقدد والجلود المدبوغة والمصبوغة والمواد التى تستعمل للدباغة ، مثل القشور المعروفة بالقشور البجائية · ونحن نعرف الشهرة الواسعة التى كان يتمتـــع بها الجلد المغربى المصبوغ فى اروبا فى العصور الوسطى ، وان اروبا لم تعرف صناعة انواع من الجلد الا فى القرن الرابع عشر الميلادى ·

وقد كانت صناعة الجلود فى فاس وتلمسان وبجاية وتونس وطرابلس تشمل جلود عدد من الحيوانات ، مثل البقر والغنم والمعز والخيل والجمال وهذا يدل ايضا على وفرة هذه الحيوانات فى المغـــرب ·

ووفرة مادة الشمع فى افريقية الشمالية عموما ، والمغرب الاوسط خصوصا شىء معـروف منذ العصور القديمة · وقد كانت بلاد المغرب الاقصى والمغرب الاوسط وافريقية ، ولا سيما مدينة بونة ومدينة بجاية ، هى التى تمد اروبا فى العصور الوسطى بكثير من هذه المادة لسد حاجاتها · ويكفى ان نذكر ان بجاية هى التى منحت اسمها الفرنسى لشمعة الاستضاء Bougie لكي ندرك الى اية درجة كانت اروبا تعتمد على هذا البلد للحصول على الشمـــع للاستضاءة ولغــير ذلك من الاغـــراض ·

واما زيت الزيتون الذى لا يزال الى اليوم من اهم عناصر الثروة المغربية فقد كان كذلك منذ عهد الرومان · وكان زيت مراكش وبلاد القبائـل الصغرى (منطقة بجاية) وتونس وقابـــس وصفاقس وجزيرة جربة وطرابلس ، يتمتع بشهرة واسعة فى العصـــور الوسطى كما هى الحال اليـــوم ·

وكذلك كانت افريقية الشمالية ، والمغرب الاوسط بصفة خاصة تحتفظ فى العصور الوسطى بالمكانة التى كانت لها فى عهد الرومان حينما كانت تسمى « هرى روما » فيما يتعلـق بانتـــاج القمح والشعير وغيرهما من الحبوب · والوثائـق التى بين ايدينا لا تسمح لنا بمعرفة ما كانـت

تصدره مملكة بنى حماد الى اروبا وشواطىء الاندلس من زيت الزيتون والحبوب • ولكن الاتفاقيات التجارية التى عقدت بين حكام المغرب والبندقيين والجنوبيين فى أوائل القرن الثالث عشر ، لا تدع مجالا للشك فى أهمية التجارة فى هذه المواد بين هذه البلاد وشواطىء اروبا •

وكان التمر والفستق واللوز والتين المجفف من أجود ما تنتجه افريقية الشمالية ويحمل الى اروبا • والزبيب الجيد الذى كان يحمل من بجاية وبونة لا يزال يحتفظ باسمه العربى فى اللغة الايطالية الى اليوم •

وقد كانت زراعة القطن كثيرة الانتشار فى افريقية الشمالية منذ القرن العاشر الميلادى • وكانت مناطق المسيلة وبسكرة ومستغانم مشهورة بجودة انواع القطن التى تنتجها • وكذلك كان القطن يزرع فى طبنة وارض الزاب •

وقد ظل القطن يعتبر من المحصولات الرئسية فى المغرب حتى القرن السادس عشر حينما كان البندقيون يستوردون من بلاد البربر ، ولا سيما من وهران ، كميات كبيرة ، وكذلك كانت بجاية وجزيرة جربة تصدر كل منهما كميات كبيرة من الصوف الى فرنسا وايطاليا مما يدل على أهمية تربية المواشى فى المنطقتين •

ويذكر ابن حوقل ان الرصاص والحديد كانا يصدران فى القرن العاشر باستمرار الى الشرق العربى من المغرب •

وكان ريش النعام والمرجان الذى يستخرج من تنس وخصوصا من مرسى الخزر ، مما يحمل الى اروبا والى شواطىء البحر الاحمر والمحيط الهندى بكميات وافرة •

3 ـ النشاط البحرى والمراسى :

كانت الشواطىء المغربية مهملة نسبيا ولا ستخدم الا بصورة عرضية حتى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى • فان البربر ، علي عكس سكان بقية شواطىء البحر الابيض المتوسط كانوا متمسكين باليابسة ولا يتحولوا عنها الا عند الضرورة القصوى •

وهذه الظاهرة تبدو غريبة ، خصوصا اذا تذكرنا أن معظم الغزاة والفاتحين لبلاد البربر انما جاءوا اليها عن طريق البحر • وقد كان المتوقع أن يتخذ هذا الشعب عدته بتحصين الشواطىء وبناء السفن واكتساب المهارة فى فن الملاحة البحرية التى تمكنه من حماية هذه الشواطىء ومن الدفاع عن بلده بكفاءة •

ولكنه بدلا من ذلك ، فقد اختار البربر أسهل الامور ، وفضلوا الابتعاد عن الشواطىء وتركها للغزاة ليعتصموا بالجبال حيث يبنون قرى على قممها لا سبيل للغزاة اليها ولا فائدة من اخضاعها .

ولما وصل العرب الى المغرب لم يبدوا ميلا اكبر من ميل البربر الى استغلال الامكانيات التى تنطوى عليها شواطىء هذه البلاد .

وكذلك نجد أن عقبة بن نافع لما فتح افريقية جعل مقر الولاية فى القيروان وليس فى تونس التى كانت مع ذلك مركزا بحريا فى عهد الفنيقيين . وكذلك ساروا على اهمال الشواطىء لما امتد سلطانهم الى المغرب الاوسط .

وفى المغرب الاقصى ، فضل الادارسة اقامة عاصمتهم ، فاس فى داخل البلد ، بعيدا عن المحيط الاطلسى ، ولم تحتل سبتة ومليلة وطنجة مكانة فى البلاد ، الا لانّها كانت تستقبل السفن الآتية من الاندلس وتقلع منها السفن الموجهة الى تلك البلاد ، عن طريق مضيق جبل طارق .

وكذلك نرى أن جميع المدن التى ازدهرت وكانت مراكز للعمران والحضارة فى العصور الوسطى (قبل بجاية) ، مثل تيهرت ، وسجلماسة ، واشير ، والقلعة ، وتلمسان ، وطبنة ، كانت كلها مدنا داخلية بعيدة عن البحر ، على أن افريقية شهدت اهتماما بالنشاط البحرى منذ عهد الاغالبة . فان معظم الجزر المقابلة لشواطىء افريقية ، مثل صقلية ، انما فتحت بقوات بحرية قامت من هذه الشواطىء .

ولما استقر الامر للعبيدين فى افريقية ، كان من جملة الاعمال الاساسية التى قاموا بها بناء المهدية التى تقع بعيدا عن القيروان والتى ستصبح من أهم موانىء البحر الابيض المتوسط تحت خلفاء المهدى وفى عهد بنى زيرى .

ولكن المعز لدين الله العبيدى ، اصطحب معه ، حينما غادر افريقية الى مصر ، معظم قطع الاسطول الفاطمى . وهذا الاسطول كان مهما ، حيث قيل أنه يتكون مما يناهز 600 قطعة (31) وقد زادت اهمية الاسطول الزيرى حينما تركز موقع المهدية البحرى واصبحت عاصمة افريقية . وكان الاسطول وسيلة لتنمية التجارة ولحماية شواطىء المملكة من القرصنة المسيحية ، وخصوصا لواجهة اسطول النورماندين الذى كانت خطورته تزداد مع مرور الزمن .

ويخبرنا ابن الاثير أن النورمانديين خرجوا فى سنة 416 (1025) فى جمع كبير وملكوا قورية Calabre المجاورة لصقلية وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون مراكبهم وجموعهم . ولما بلغ ذلك المعز بن باديس ، جهز اسطولا كبيرا يتكون من اربعمائة قطعة حشد فيها خلقا كثيرا من

31) راجع روجى ادريس وراجعة فى المصدر المذكور La Berberie Orientale sous les Zirides, II/536-38.

المتطوعين للجهاد ومن الجنود المرتزقة · فسار الاسطول (فى كانون الثانى) فى اتجاههم ولما اقترب من جزيرة قوصره ، غير بعيد من الشواطىء الافريقية ، هبت على الاسطول الزيرى ريح عاصفة ، فهاج البحر وغرقت اكثر قطع الاسطول ولم ينج الا اليسير منها (32) ·

ونحن نعرف أن المسيحيين كانوا يعملون على قدم وساق منذ أواخر القرن التاسع الميلادى لبناء قوات بحرية لتقف فى طريق القوات البحرية الاسلامية التى كانت تقوم بشن غارات جريئة على المدن الواقعة على ساحل البحر الابيض · وكانت لايطاليا فى هذا المجال قصبة السبق حيث كان لها بحارون مدربون على مسالك البحار وكانت صناعة السفن ذات اهمية كبرى فى النشاط الاقتصادى القومى ·

ولكن خطر الاساطيل المسيحية استفحل فى القرن الحادى عشر · وبينما كانت دول المغرب منهمكة فى الحروب فيما بينها أو فى قمع الثورات الداخلية أزدادت ثقة الاروبيين بانفسهم ولم تعد احلامهم تقتصر على اقامة الحصون وبناء الاساطيل لحماية أراضيهم ولمتابعة السفن الاسلامية · لان هدفهم أصبح الآن هو القضاء على سيطرة المسلمين فى المناطق الغربية من البحر الابيض والتهجم على أراضى ومدن افريقية الشمالية ·

ومع ذلك ، فان سيطرة الاسطول العربى كانت اكثر من أسمية فى الربع الاول من القرن الحادى عشر · ونحن نجد دليلا على ذلك فيما تذكره الوثائق الغربية من أن أسطول المهدية خرج فى سنة 1020 / 411ه وشن هجوما على ايطاليا الوسطى ونشر فى أصقاعها الخراب والدمار ·

وفى سنة 34 ه (436 م) شن أسطول بيزنطا بتاييد من أسطول جنوه هجوما على مدينة بونة الحمادية التى كانت قاعدة بحرية مهمة فخربها واحتلها مدة قصيرة (34) وكذلك وقعت فى نفس السنة محاولة لنهب سفينة تابعة لاسطول المهدية كانت فى طريقها من الاسكدرية الى افريقية · ولكن سفن صقلية سارعت لنجدتها وخلصتها ·

32) الكامل 9 / 245 — 246 · وفى سنة 427 (1035 م) ، وجه المعز بن باديس حملة تتكون من ستة آلاف مقاتل من العرب والبربر لحماية ثغور جزيرة صقلية ، ولكن هذه الاجراء أثار سخط الامراء العرب فى الجزيرة حيث رأوا فيه محاولة لضم الجزيرة التى ملك صنهاجة · ولتجنب الوقوع تحت حكم المهدية ، استنجدوا بالنورمانديين الذين استغلوا الفرصة لاحتلال مراكز الجزيرة قبل ان يستولوا على بلرم فى سنة 465 (1072 م) ·

33) راجع : De Mas Latrie, Relations commerciales de l'Italie Septentrionale المصدر المذكور

34) نفس المصدر ·

ولكن هذه العمليات البحرية لا يبدو انها اثـرت على العلاقات الديبلوماسية بين دول هذه المنطقة ، وبصفة خاصة بين المعز بن باديس والامبراطورية البيزنطية ٠ فان ابن عذارى يخبرنا ان المعز تلقى فى هذه السنة نفسها (426) هدية من ملك الروم ولم ير مثلها فى كثرة ما اشتملت عليه من امتعة الديباج الفاخرة وغير ذلك (35) ٠

وفى سنة 428 هـ (1036 م) تسجل وثائق من جنوه غزوا لمدينة بجاية دون أن تتعرض لسبب هذا العدوان ولا لظروفه ٠ وتقول الرواية ان قوة تتكون من اثنتى عشرة سفينة ، قامت فى هذه السنة من جنوة ، فغزت بجاية وغنمت سفينة كبيرة وأسرت عددا كبيرا من العرب ٠ وقد نالت كـل سفينة من السفن المشتركة فى الحملة أرباحا طائلة من حصيلة بيع السفينة العربية (36) ٠

وفى سنة 436 هـ (1049 م) بعث المعز اسطولا الى جزر القسطيطينة للغزو فعادت سفنه مثقلة بالاسلاب وفى نفس السنة جدد خليفة القاهرة وامبراطور بيزنطة الهدنة التى كانت قائمة بينهما وتبادلا هدايا فاخـــرة ٠

ونحن نذكر أن هذه السنة شهدت حدة التوتر فى العلاقات بين القاهرة والمهدية نتيجة لقطـع الزيريين الخطبة على المنابر للعبيديين ٠ ولذلك يمكننا ان نتساءل عما اذا كان التطور فى العلاقات بين البيزنطيين والعبيديين حدثا مستقلا ، أم هو يرتبط بالحدثين المشار اليهما ٠

ويروى ابن الخطيب أن اهل جنوة وبيشة (بيزا ـ Pisa) نازلوا تميم ابن المعز فى ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين الف مقاتل فحاصروا المهدية فى سنة 480 ودخلوا زويلة فاحرقوا الديار وعملوا فى القتل والاسر ٠ وأما تميم ، فقد لجأ الى قصره واعتصم به حتى وقع الصلح بينه وبين الروم على أن يدفع لهم مائة الف (دينار) من الذهب ٠

ولما دفع ذلك المبلغ ، وبعضه باوانى الذهب والفضة ، اقلعوا به وباموال الناس وبنسائهم التى نهبـــت (37) ٠

وذكر ابن الاثير ضمن حوادث سنة 481 ان الـــروم فتحوا مدينة زويلة بافريقية فى هذه السنة ٠ وبسبب ذلك ، فيما يروى المؤلف ، أن تميما ، اكثر فى غزو بلادهم من البحر فخربها وشتت أهلها ، فاجتمعوا من كل جهة ، واتفقوا على انشاء الموانىء ٠ لغـــــزو المهدية ، ودخـــل معهم الجنويون والبشانيون (البيزنطيون) ، فاقاموا أربع سنوات فى جزيرة قوصرة يجهزون اسطولا

(35) البيان 1 / 396 ٠
(36) راجع المصدر المذكور ، De Mas Laterie, Traités de paix et de commerce, P. 35
(37) اعمال الاعلام ص 87 ٠

يتكون من 400 قطعة ، فكتب اهل قوصرة على جناح طائر كتابا يذكرون فيه عددهم ووقت وصولهم وحكمهم على الجزيرة • فاراد تميم أن يسير اليهم عثمان بن سعيد المعروف بالمهـــر مقدم (قائد) اسطوله ليمنعهم من النزول ، فمنعه من ذلك أحـد قواده ، واسمه عبد اللـه بن مكنون ، لعداوة بينه وبين المهر ، فجاءت الروم وأرسوا وطلعوا الى البر ونهبوا واحرقوا ودخلوا زويلة ونهبوها ، وكانت عساكر تميم غائبة فى قتال الخارجين عن طاعته ، ثم صالح تميم الروم على ثلاثين الـف دينار ورد جميع ما أخذوه من السبى (38) وكذلك نـــرى أن التوازن قد اختل بصفة حاسمة فى اواخر عهد تميم بن المعز فى البحر الابيض بين اسطول الزيريين الذى كان يمثل القوة العـــربية الوحيدة فى هذه المنطقة وأساطيل بيزا وجنوه التى كانت تجد تاييدا من أسطول القسنطنيطية •

وهذه الحالة ستستمر فى التدهور فى عهد أبناء تميم حتى تنتهى بماساة سقوط المهدية فى يد النورمانديين فى سنة 547 (39) •

واما اسباب ضعف قوة الزيريين البحرية فهى متعددة • وربما كان أهمها تضاءل مـــوارد الدولة نتيجة للفوضى والخراب الذى نشره الهلاليون فى المملكة • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان خشب بلاد القبائل فى المغرب الاوسط لم يعد يصل الى المهدية بسبب انقطاع طرق المواصلات واضطراب العلاقات التجارية ، الامر الذى أصبح معه من الصعب بناء قطع جديدة لتحل محل قطع الاسطول المستهلكة (40) •

واما استيراد الخشب من البلدان المسيحية الواقعة على الحوض الشـــرقى للبحر الابيض المتوسط ، فقد كان غير متيسر بسبب الخطر الذى فرضته البندقية فى سنة 971 كمـــا اشرنا الى ذلك ، بناء على طلب بيزنطة على تصدير البضائع ذات القيمة الستراتيجية ، مـــثل الاسلحـــة والخشب الذى يستعمل لبناء السفـن الى البلدان الاســـلامية (41) •

ويضاف الى هذه الاعتبارات كلها ان الدولة كانت تخصص كثيرا من السفن لاستيراد القمح بعد تخريب ثروة البلد الزراعية ، ولا سيما فى سنوات القحط • وهذا معناه تحويل نسبة مهمـــة من السفن الحربية واستخدامها لاغراض مدنيـــة ولكنه فى هذه الفترة ، أخذت بجاية ، بـــدار صناعتها وبما يتوفر لديها من الخشب والحديد والزفت ، وبموقعها ايضا ، تحل محـــــل المهدية

---

38) الكامل 10 / 109 — 110 •

39) ارجع تفاصيل غزو النورمانديين للمهدية وحتلالهم لها •

40) راجع فى الكامل 1 / 82 83 •
Maurice Lombard, la Carte de Bois dans la Méditerranée Orientale, Annales, Avril 1959, P. 234-254.

41) راجـــع ، R. H. Idris, la Berberie Orientale sous les Zirides, I/124

تدريجيا وتشغل الفراغ الذى تركته عاصمة بنى زيرى على الشواطىء الجنوبية الغربية للبحر الابيض المتوسط · والدلائل القليلة التى بين ايدينا تشير الى ان نشاط اسطول بنى حماد كان سلميا ، اى تجاريا ، الى حد بعيد ·

ونحن فيما يلي نورد قائمة باسماء المراسى التى كانت موجودة ، الى جانب بجاية فى عصر بنى حماد ، من الغرب الى الشرق ، ابتداء من مرسى ارشغول وذلك طبقا للترتيب الذى أوردها به ابو عبيد الله البكرى الذى كان يكتب فى ذلك العصــــر ·

وسنعزز ما ذكره البكرى (42) بملاحظات الشريف الادريسى الذى جاء بعده ، وبملاحظات ابن حوقل الذى كان يكتب قبله (367 هـ) مع ذكر المرسى المقابل على شواطىء الاندلس لمرســـى بنى حماد ·

ارشغـــــول :

(ارشغول عند ابن حوقل ، ارشغول عند ابن سعيد المغربى) مدينة قديمة فيها آثار للرومان ومرسى : يقع عند مصب نهر تافنا وهو نهر تدخل السفن فيه ·

وارشغول هى مرسى تلمسان وتقابلها مــن البحر جزيرة ارشغول وهى مستطيلة عالية ، ومن بر الاندلس مدينة المرية (43) ·

مــرسى أسلن : (أسلى عند صاحب الاستبصار)

مدينة حصينة لها سور عظيم وفيها مياه وبساتين كثيرة ولها مرسى مامون · وأهم مورد فيها هى الماشية (44) ·

مرسى المـاء المدفون :

يقع مرسى الماء المدفون على مسافة 13 ميلا من أسلــن · وحول هذا المرسى منازل وفيــه عيون ثره · ويقابله من بر الاندلس مرسى الراهب (45) وبينهما مجريان وثلث (46) ·

42) راجع البكرى ، ص 81 ـ 83 ·

43) المريه Almeria بالاسبانية · قارن البكرى ، ص 77 ـ 78 والاستبصار ، ص 34 و Fagnan, Extraits inédits, P. 456 وابن حوقل ، ص 53 والانسكلوبيديا الاسلامية ، الطبعة الثانية (الانجليزية) 1 / 661 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ص 140 ·

44) قارن البكرى ص 81 ، وابن حوقل ، ص 52 ، و Fagnan, Extraits inédits, P. 45

45) بالاسبانية : Puerto de Los Frayles

مرســى وهــران :

مرسى كبير ومشتى مصون من الرياح . يقول ابن حوقل « ما اظن له مثيلا في جميع نواحي البربر » . ويحيط بالمدينة سور مبني بالطوب المكــوى .

ويقول الادريسي عنه « وبه ترسو المراكب الكبار والسفن السفرية . وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثيل في مراسي بلاد البربر . وعلى مقربة من المدينة نهر عليه بساتين وجنات وبها فواكه ، واهلها في خصب . والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة . والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير . ومراكب الاندلس اليها مختلفــة (46) .

ويقابل وهران من بر الاندلس ، مرسى اشكوبرش (47) .

مرســى عين فــروج :

وهو مرسى شتوي مامون فيه آبار حوله مساكن ، وبينه وبين وهران في البر اربعون ميلا . ويقابله من بر الاندلس مرسى اقلة (48) .

مرســى قصــر الفلوس :

وهي مدينة على البحر ومرساها غير مامون. ويقابلها من بر الاندلس ، مرسى قرطجنة (49)

مرســى مغيلة :

ومرسى مغيلة بني هاشم . مرسى صيفي معرض للرياح ، وهو يقع على مسافة 35 ميلا من قصــر الفلوس (50) .

46) ارجع ابن حوقل ص 53 ، والادريسي ص 73 وتقويم البلدان ص 124 ومراصد الاطــلاع 3 / 299 ، والاستبصار ص 133 .

47) كذا عند البكري . ومقابلها عند الادريسي ، مدينة المريه . وفيما يتعلــق بالتعرف على اشكوبرش راجع الهامش الذي وضعه دوسلان للترجمة الفرنسية لكتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 163 . هامش رقم 1 ، ص 133 .

48) البكري ص 81 . وهذا المرسى يقع على منتصف الطريق بين ارزيو ومستغانم التي ذكرها البكري ووصفها ضمن المدن الواقعة على الشاطيء ولكنه لم يدرجها ضمن قائمــة المراسي التي اوردها ، مما يمكن تفسيره بانها لم تكن تستخدم للحط والاقلاع . على أن ابن سعيد يقــول ان مستغانم هي فرصة مغراوة التي تقابلها على ساحــل الاندلس دانية (كتاب الجغرافيا ص 142) ومرسى عين فروج غير مرسى الدجاج كما سماه غلطا موسلان ، مترجم البكري . واما مرســى اقلة فهو Acla las Agustas بالاسبانية .

49) البكري ص 81 قرطجنة . Carthagène

50) البكري ، ص 81 .

مرســى مدينة تنـــس :

وهو مرسى صيفى وبين المدينة والبحر ميلان • وكانت المدينة فى عهد بنى حماد مســـــورة محصنة داخلّها قلعة صغيرة ينزل بها الولاة • ويقول ابن حوقل انها من أكبر المدن التى يقصدها الاندلسيون بمراكبهم وهى كثيرة التجارة وينهض منها الى ما ســـواها من المـــدن والموانىء • ويضيف الشريف الادريسى ان بها فواكه وخصب واقلاع وحط وبها الحنطة وسائر الحبـــوب موجودة وتخرج (تصدر) منها الى كل الافاق فى المراكب • وبها من الفواكه كل طريفة ومـــن السفرجل الطيب المنعنق ما يفوق الوصف فى صفته وكبـــره وحسنه •

ويذكر البكرى ان تنس الحديثة بناها البحريون من اهل الاندلس سنة 262 هـ •

ولكنه على الرغم من كل ما اشتهر به تنس من الثراء والفواكه والخيرات ، فقد وجد شاعـــر ، وهو سعيد بن واشكل التيهرتى ، تضايق منها وخصص لذمها قصيدة ، بعض أبياتها من أقذع ما قيل فى ذم المدن • وفيها يقـــول :

ناى النوم عنى واضمحلت عـــرى الصبر　　واصبحت عن دار الاحبـــة فى أســـر
واصبحت عن تيهرت فى دار معـــــزل　　واسلمنى مـــــر القضـــاء الى القـــدر
الى تنـــــس دار النحـــــوس فانهـــا　　يســـــاق اليها كل منتقض العمـــــر
بـــلاد بها البرغوث يحمـــــل راجـــلا　　ويأوى اليها الذئـــب فى زمن الحشـــر
تـــرى اهلها صـــرعى دوى أم ملـــدم　　يروحون فى ســـكر ويغدون فى ســـكر

ويقابل مرسى تنس من بر الاندلس شنت بول (51) •

مرســى جزيرة وقـــور (52) :

يقع مرسى جزيرة وقور الذى يذكر البكرى على مسافة عشرين ميلا فى شرق تنس والجزيرة قريبة من البر • ويقابلها من بر الاندلس مرســى لقنـــت (53) •

51) راجع الادريسى ص 83 • وابن حوقـــل ص 52 والبكرى ص 61 ـ 62 و 81 والاستبصار ص 132 • مراصد الاطلاع 1 / 277 ، و Fagnan, Extraits inédits, P. 45 وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ص 142شنت بول Chent Pol بالاسبانية •

52) لم اتمكن من التعرف على موقع هذا الميناء • ولكن المرجح انه يقـــع غير بعيد من مدينة الاصنـــام •

53) لقنت Alicante

مرســى شرشــــال :

مرسى ومدينة قديمة Cesarée رومانية كانت فى عهد بنى حمـــــاد غير ماهوله · ويقول البكرى انه كان لشرشال فى الماضى ميناء ارتدم · ولكن الادريسى يقول انها كانت فى عهـــده « مدينة صغيرة القدر لكنها متحضرة · وبها مياه جارية وابار معينة عذبة وفواكه حسنة كثيــرة وسفرجل كبير الجرم ذو اعناق كاعناق القرع الصغار · وبها كروم وبعض اشجار التين » ويقابل شرشال على ساحل الاندلس مرسى مديره (54) ·

مرســـى البطال :

لم يكن هذا المرسى الذى كان فى غرب جبل شنوة ماهولا فى عهد بنى حماد · ويقابله على ساحل الاندلس، جبل قرون (55) ·

مرســـى هـشور :

وهذا المرسى يقع فى المكان المعروف حاليا باسم سيدى فروج غير بعيد من مدينة الجزائر (56)

مرســـى الذبـــان (57) :

وهذا المرسى يقع فى المكان الذى كان يحمل فى عهد الاحتلال الفرنسى اسم La Pointe Pescade

مرســـى جنابية :

وهذا المرسى يقع عند جزيرة فيها آثار قديمة ويقابل هذا المرسى على ساحـــل الاندلس ، مرســـى دانية (58) ·

مرســـى جزائر بنى مزغنـة :

مدينة قديمة كانت تسمى فى عهد الرومان ايقوسيوم Icosium ومرسى مأمون · وقد بنيت الجزائر الحديثة فى عهد زيرى بن حماد (بعد سنة 349 هـ) ويذكر البكرى أن مرســـى الجزائر

54) راجع البكرى ص 81 والادريسى ص 98 ، والاستبصار ص 132 وابـــن حوقـــل ص 52 و Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes, I/51.
ومديرة هو الاسم الذى أورده البكرى ، واقترح دوسلان مترجمه قراءته مرير · Morira

55) البكرى ، ص 72 جبل قرون Cap St. Martin

56) البكرى ، ص 72 ·

57) البكرى ، ص 72 ·

58) البكرى ص 82 · وللتعرف على موقع هذا المرسى الذى اختفت معالمه الان راجع ترجمـــة دوسلان للبكرى ص 166 الهامش 1 ·

مرسى الدجاج تنتج من القمح والشعير والالبان والفواكه ما يزيد عن حاجتها · ومن ثم رخص الاسعار فيها · ولكن انتاجها الرئيسى هو التين الذى يصدر منها الى البلاد النائية · ويقابل مرسى الدجاج فى البحر جزيرة ميورقة (61) ·

مرســـى تدلس (دلس) :

يبدو أن تدلس التى أهمل البكرى ذكرها ، لم تكن مرسى عاملا فى عهد بنى حماد · ولمــا ذكرها الادريسى قال انها بلدة حصينة ومنتزهات اشتهرت برخص الفـــواكه وبجودة الطعام والشراب مما لا يوجد بغيرها مثله ، وبكثرة ما فيها من الغنــم والبقر ، ولكنه لم يشر الى أنها مرسى · واما ابن سعيد المغربى فيقول ان تدلس فرضة مشهورة (62) ·

مرســـى مدينة بجاية :

لم يخصص البكرى الذى كان يكتب قبل بناء الناصر بجاية لهذه المدينة سوى سطرين · وقد ذكر انها مدينة آهلة عامرة بأهل الاندلس وبشرقيها نهر تدخله السفن محملة· وهو مرسى مأمون مشتـــى قد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس · ولكن مرسى بجاية سيتطور بعد ذلك بفضـــل موقع المدينة ودار صناعتها وما يتوفر لديها من المواد الاولية ، بحيث يصبح أهم مرسى على هذه الشواطىء ·

مرســـى جيجـــل Iglis القديمة :

مدينة رومانية قامت على انقاض مدينة فنيقية · وهو مرسيان مرسى فى جهة الجنوب ، وهو مرسى وعر ويصعب الدخول اليه ما لم تستعين بدليل حاذق · واما مرسى الشمال ، فهو ساكـــن الحركة كالحوض ، حسن الارساء فيه ولكنه صغيـــر ·

وقد كانت المدينة التى على ضفة البحر المدينة الوحيدة · ولكن غارات النورمانديين عليها من ساحل صقلية فى اواخر عهد بنى حماد اضطر السكان الى بناء مدينة حصينة فى الجبل على مسافة ميل من الساحل·واذا كان الفصل شتاء سنكنوا مدينة المرسى المامون من غائلة اسطول روجـــر

61) راجع البكرى ، ص 82 والادريسى ، 89 وابن حوقل ، ص 51 ــ 52 وتقـــويم البلدان ص 126 ، والاستبصار ، ص 126 ·

62) قارن الادريسى ، ص 90 وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 142 ·

63) قارن الادريسى ، ص 98 ، وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 142 والاستبصار ص 128 · والبكرى ص 64 ·

الصقلى · ولكنه متى حل فصل الصيف نقلوا أمتعتهم وبضائعهم الى المدينة الحصينة ولا يبقى منهم على الساحل الا عدد صغير من البحارة · وجيجل مدينة قديمة يرجـع تاريخها الى عهـــد الفنيقييــــن ·

مرســــى القـــــل :

مدينة قديمة ومرسى يبعد عن جيجل بحوالى 70 ميلا · وقد كانت القل مدينة صغيرة فى عهد بنى حمــــاد (64) ·

مرســــى استورة :

وهو مرسى مدينة تاسقدة القديمة مسكده عند ياقوت ـ سكيكدة) (65) ·

مرســــى الــــروم :

وهو مشتى مامون يقع على مسافة صغيرة من رأس الحديد Cap de Fer (66)

مرســــى تكـــوش :

وهو مرسى مامون يتصل بقرى كثيرة ويحبل كثيرا الفاكهة (67) ·

مرســـى ابن الالبيرى (68) :

وهو مرسى يؤتى اليه عن طريق رأس الحمراء · ويأتى بعد هذا المرسى الى الشرق مرســـى الخروبـــة ·

مرســــى بونـــه :

مرسى مدينة تقع فى نشر من الارض منيع · ويقول ابن حوقل انها (فى عهده) ليســت بالكبيرة ولا بالصغيرة وتمتد على رقعة قريبة من رقعة الاريس · وهى مدينتان أحداهما قديمة ، وهى موطن الفيلسوف المسيحى سانت اجستان ، والاخرى حديثة ، ويقول البكرى ان مدينة بونه كانت فى زمنه كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل · ويذكر ابن حوقل ان المدينة ذات اســـواق حسنة وتجارة مقصودة ، ولكنها لا تحقق الا ارباحا متوسطة · ويمضى فيقول ان البوادى التى

64) راجع الادريسى ، ص 98 ، وابن سعيد (كتـــــاب الجغرافيا) ص 142 ، والبكرى ص 83 والاستبصار ص 128 ·

65) البكرى ، ص 83 وفى مراصد الاطلاع سكدة بالفتح ثم السكون (2 / 722) ·

66) نفس المصدر ، ومعجم البلدان 3 / 106 ·

67) نفس المصــدر ·

68) نفس المصدر ورأس الحمراء هو الذى يمتد فى شمال بونه ·

تحيط ببونه ذات تربة خصبة تنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة . وهذه الوفرة كانت سببا فى رخص اسعار تلك المنتجات . وقد ذكر هذا الكاتب ايضا ان فى ضواحى بونه معادن كثيرة للحديد وقد كان مرسى بونه القاعدة التى تنطلق منها القرصنة البحرية فى عهد بنى حماد لشن الغزوات على سواحل البحر الابيض الشرقية والجزر التابعة للنصارى ، مثل سردانية وكرسيكا (69) .

مرسى الخرز :

مدينة ومرسى يحيط بها البحر فيما عدا مسلك واحد ربما قطعه البحر فى الشتاء . ويقول البكرى انه تبنى فيها السفن والمراكب الحربية التى تغزى بها بلاد الروم . ويمضى فيقول : « والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية وبينهما مجراوين » .

فمرسى الخزر كانت اذا ، فى عهد بنى حماد ، دارا مهمة لصناعة السفن والمراكب الحربية ، كما كانت قاعدة للقرصنة والغزو . ولكنها كانت مهمة ، خصوصا بسبب ما كان يستخرج منها من المرجان « وهو شجرة فى البحر متحجر يخرج ابيض اللون لينا ، فاذا ضربه الهواء احمر وصلب » . ويقول المقدسى فى وصف طريقة استخراج المرجان من مرسى الخرز ان العمال يخرجون الى جمعة فى قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول ، وربطوا فى كل صليب حبلين يأخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويدير النواتى القارب ، فيتعلق بالقرن ، ثم يجذبونه ، فمنهم من يخرج عشرة الاف (درهم) الى عشرة دراهم ثم يجلى فى اسواق لهم ويباع جزافا رخيصا ولا اشراق له قبل جليه ولا لون .

ويقول ابن حوقل الذى زار مرسى الخزر ، ان تجارة المرجان فى مرسى الخزر تجارة واسعة يمارسها سماسرة وتستثمر فيها أموال طائلة . وقال انه يعمل فى استخراج هذا المعدن فى أكثر الاوقات خمسون قاربا أو اكثر ، يعمل فى كل منها ما يقارب العشرين رجلا .

ومرسى الخرز مدينة عربية لانه على الرغم من أن الفنيقيين والرومان عرفوا هذه الشواطىء جيدا فهم لم يتركوا اثرا للعمران فى هذا الموقع (70) .

69) قارن ابن حوقل ص 51 والبكرى ، ص 54 – 55 و 83 ، وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ص 142 ومراصد الاطلاع I / 231 والاستبصار ، ص 127 ومعجم البلدان I / 764 والمقدسى ص 226 .

ويجب عدم الخلط بين بونه وبون ، وهى مدينة باليمن قيل انها هى ذات البئر المطلعة والقصر المشيد .

70) راجع ابن حوقل ، ص 50 ، وابن سعيد (كتاب الجغرافيا ، ص 143 ، والمقدسى ، ص 239 .

المـــراجع العـــربية

البكرى (ابو عبيد) ، كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دوسلان ـ الطبعـــة الثانية ـ باريس 1965 .

ابن الاثير الكامل فى التاريخ ، نشر وتحقيق طورنبرج ، ليود ، 1876 ـ 1891 .

ابن حوقل كتاب المسالك والممالك ، طبع دوخوية ، ليـــدن ، 1872 .

ابن الخطيب (لسان الدين) تاريخ المغرب فى العصر الوسط ، وهو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق العبادى وابراهيم الكتانى ، طبع دار الكتب ، الدار البيضاء 1963 .

الادريسى (الشريف) صفة المغرب وارض السودان ومصـــر والاندلس ، نشر دوزى ودوخوية ، ليـــدن ، 1872 .

كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، لمؤلف مجهول من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشـــر زغلول عبد الحميد 1958 .

ابن سعيد المغربى (على بن موسى) كتاب الجغرافيا ، نشر وتحقيق اسماعيل العربى ، بيروت 1970

الاصطخارى كتاب المسالك والممالك ، نشر دوخوية ، ليـــدن 1871 .

صفى الدين (بن عبد المؤمن) مراصد الاطلاع ، تحقيق محمد ابو النجار ، القاهرة 1954 .

ابن عذارى البيان المغرب فى اخبار المغرب ـ نشر بيـــروت ، 1950 .

المقدسى (محمد بن احمد)احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، نشر دوخوية 1872 .

المؤيد (الملك) تقويم البلدان ، تحقيق دوسلان ، باريس ، 1840 .

المراجـــع الاجنبية

E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghreb Alger, 1924.

H. Fournel, Les Berbères, études sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, en 2 vol. Paris, 1857.

L. Golvin et A Louis, Etude technique sur l'artisanat tunisien, bulletin de l'Institut des Belles Lettres Arabes, Tunis, 1946

R. H. Idris, La Berberie Orientale sous les Zirides en 2 vol. Paris, 1959.

De Mas Laterie, Traités de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique du Nord, Paris, 1866.

De Mas Laterie, Aperçus des relations commerciales de l'Italie Septentrionale avec l'Algérie au Moyen-Age Paris, 1845

G. Marçais, La Berberie Musulmane au Moyen Age, Alger, 1946

G. Marçais et Poissot, Objets Kairouanais, notes et documents, XI, Fasc. 1, Tunis, 1948

Maurice Lombard, L'Islam dans sa Première Grandeur, (VII - XI[e] siècle), Paris, 1971

Maurice Lombard, Une carte de bois dans la Méditerranée Orientale, annales, économie, société, civilisation Avril, 1946

The Ency. of Islam, New Edition.



صندوق قديم في المنطقة